دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

أصداء

ECHOES





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الأكثر مبيعاً 1 في أمريكا

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

أصداء

ECHOES



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أصداء

ECHOES

دانيال ستيل
DANIELLE STEEL

ترجمة

حنان كسروان

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ECHOES

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلفة

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينها وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-9953-87-466-1

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الفصل الأول

كانت بيتا وبتغينشتاين تتمشّى عصر أحد أيام الصيف الحارة على شاطئ بحيرة جنيف برفقة عائلتها. كانت الشمس حارقة والهواء ساكناً. وبينما كانت بيتا تسير وراء والديها، كانت الطيور والحشرات ترفرف في الأجواء. لقد أتت بيتا وشقيقتها الصغرى بريجيت إلى جنيف برفقة والدتها لتمضية فصل الصيف. لقد بلغت بيتا العشرين من عمرها منذ فترة قريبة، أما شقيقتها فتصغرها بثلاث سنوات. في ذلك الوقت كان قد مضى سنة وشهر على اندلاع الحرب العالمية الأولى في الصيف الماضي، أراد والدها هذا العام أن تمضي العائلة العطلة الصيفية خارج ألمانيا. في أواخر شهر آب من العام 1915 كان قد مضى شهر على وجوده مع زوجته وابنتيه في جنيف. لقد كان ولداه في الجيش، وقد أفلحا في الحصول على تسريح لزيارة أهلهما لمدة أسبوع. يبلغ هورست من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، وهو برتبة ملازم، ويخدم في مقرات الفرق العسكرية في ميونيخ. أما آلم فهو كابتن في فوج المشاة المئة وخمسة، وهو جزء من الفرقة الثلاثين الملحقة بالجيش الرابع. وقد بلغ السابعة والعشرين لتوه خلال الأسبوع الذي أمضاه معهم في جنيف. يُعتبر لمّ شمل العائلة أمراً أشبه بالمعجزة تماماً. وذلك لأن الحرب تبدو وكأنها تبتلع كل الشبان في ألمانيا، مما بعث القلق الدائم في قلب بيتا على شقيقيها كحال والدتها تماماً. وما فتئ والدها يقول لها إن الحرب ستضع أوزارها عما قريب، ولكنها كانت تسمع أمراً مغايراً جداً من خلال حديثه مع شقيقيها. فقد كان الرجال يدركون أكثر من النساء الأيام المظلمة والصعبة التي تنتظرهم.

لم تكن والدتها تحدثها أبداً عن الحرب، أما بريجيت فجل انزعاجها كان منحصراً بعدم توافر الكثير من الشبان الوسيمين من أجل مغازلتهم. فلطالما كان موضوع الزواج محور حديث بريجيت منذ طفولتها. كانت قد وقعت حديثاً في حب أحد أصدقاء هورست في الجامعة، وتوقعت بيتا أن تتم خطوبة شقيقتها الصغرى الجميلة في الشتاء القادم.

لم يكن لدى بيتا مثل هذه الاهتمامات أو النوايا، إذ لطالما كانت الابنة العاقلة، والرزينة، والأكثر جدية، وقد كانت مهتمة بالدراسة أكثر مما هي مهتمة بالسعي وراء الأحلام. لطالما قال عنها والدها إنها الابنة المثالية. أما اللحظة العصيبة الوحيدة التي واجهتها مع والدها فكانت عندما أعلنت عن رغبتها بارتياد الجامعة مثل شقيقيها، فعلّق والدها على هذا الأمر قائلاً إنه ضرب من الجنون. بالرغم من أنه هو نفسه كان من النوع الجاد والمحب للعلم، ولكنه اعتقد أن نيل الفتاة لدرجة جامعية أمر غير ضروري البتة. قال لها إنه واثق من أنها ستتزوج بعد وقت قصير، وعندها ستتولى مسؤولية العناية بزوجها وأولادها. وبالتالي ليس هناك من داعٍ لارتيادها الجامعة كما أنه لن يسمح لها بذلك.

كان كلٌ من شقيقي بيتا وأصدقائهما يتمتعون بالنشاط والحيوية، أما شقيقتها فكانت جميلة ومدللة. لطالما شعرت بيتا أنها مختلفة وبعيدة عنهم، نظراً لشغفها بالدراسة وطبيعتها التي تميل إلى الهدوء. في الأحوال الطبيعية، كانت تود لو تصبح معلمة، ولكن عندما كانت تفصح عن هذا كان أشقاؤها يسخرون منها. وقد علّقت بريجيت قائلة إن الفتيات الفقيرات وحدهن اللواتي يصبحن معلمات مدارس أو ناظرات، وأضاف شقيقاها إن الفتيات البشعات وحدهن اللواتي يفكرن في امتهان التعليم. كانوا يحبون إزعاجها بالرغم من أن بيتا لم تكن بشعة أو فقيرة. كان والدها يمتلك ويدير أحد أهم مصارف كولونيا حيث يعيشون. كانوا يسكنون في منزل جميل وكبير جداً في مقاطعة فيتزنغرابين، وكانت والدتها مونيكا ذائعة الصيت في كولونيا ليس فقط لجمالها بل لأناقة ملابسها وروعة مجوهراتها. وعلى

غرار بيتا اتسمت بطبع هادئ. تزوجت مونيكا من جاكوب ويتغينشتاين عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، ولطالما غمرتهما السعادة منذ ذلك الحين، أي منذ ثمانٍ وعشرين سنة.

كان أمر زواجهما مدبراً من قبل عائلتيهما وكُتب لهذا الزواج النجاح. في ذاك الوقت كان زواجهما عبارة عن دمج لثروتين كبيرتين، ومنذ ذلك الحين ضاعف جاكوب ثروتيهما بشكل كبير. كان يدير المصرف بيد من حديد، ويُعتبر محنكاً في مجال عمله المصرفي. حيث إنه لم يؤمّن مستقبل أفراد عائلته فحسب، بل ومستقبل ورثتهم من بعدهم أيضاً. كانت جميع الأمور المتعلقة بعائلة ويتغينشتاين على أحسن حال. أما الشيء الوحيد الذي يعكر صفو حياتهم اليوم فهو الأمر نفسه الذي يثير قلق الجميع هذه الأيام. فقد كانت الحرب تشغل بالهم، وخصوصاً مونيكا بوجود ولديها في الجيش. وقد اعتُبر الوقت الذي أمضوه سوياً في سويسرا فترة راحة للأهل وكذلك للأولاد.

في الأحوال العادية، اعتادوا على تمضية الصيف في ألمانيا على شاطئ البحر، ولكن هذه السنة أراد جاكوب أن يغادروا جميعاً ألمانيا في شهري تموز وآب. حتى إنه تكلم مع أحد الجنرالات، وقد كان يعرفه جيداً، وطلب منه بلطف أن يسدي له خدمة كبيرة ويسمح لولديه بالمغادرة والانضمام إليهم. فرتّب الجنرال لهذا الأمر بكل هدوء. كانت عائلة ويتغينشتاين حالة نادرة، إذ إنهم عائلة لا تتمتع بثروة طائلة فحسب بل وبسلطة هائلة أيضاً. كانت بيتا تعي هذا الأمر ولكن لم تلقِ أهمية كبيرة لعلو شأن عائلتها، بل كانت أكثر اهتماماً بدراستها. بالرغم من أن بريجيت كانت تتململ أحياناً من شدة القيود التي يفرضها عليها تديّن عائلتها، إلا أن بيتا كانت متدينة جداً بطريقتها الهادئة، مما أدخل السرور إلى قلب والدها. إذ في مرحلة شبابه وجّه صدمة إلى والديه بقوله لهما إنه يود أن يصبح رجل دين. فعمد والده إلى إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة، وفي الوقت المناسب انضم إلى مصرف العائلة إلى جانب والده وإخوته وأعمامه. كانت

عائلتهم عائلة ملتزمة جداً بتقاليدها، وبالرغم من أن والد جاكوب كان يكنّ احتراماً كبيراً لحياة رجال الدين، إلا أنه لم يشأ أبداً التضحية بابنه ليتفرغ لمثل هذه الحياة. وكان جاكوب ولداً مطيعاً، فتوجه للعمل في المصرف، ثم تزوج بعد انضمامه إلى المصرف بوقت قصير. إنه يبلغ الخمسين من عمره وهو أكبر من زوجته بخمس سنوات.

أجمعت العائلة كلها على أن فكرة تمضية الصيف في سويسرا فكرة سديدة. إذ تمتلك عائلة ويتغينشتاين الكثير من الأصدقاء هناك، وقد حضر جاكوب ومونيكا عدداً من الحفلات، وكذلك فعل أولادهما. يعرف جاكوب كل العاملين في المجال المصرفي السويسري تقريباً، وقد توجه أيضاً إلى لوزان وزيوريخ لمقابلة أصدقاء له هناك. وكان يصطحب زوجته والفتاتين كلما سنحت الفرصة. ولكن بوجود هورست وألم هناك حاول جاكوب وزوجته تمضية أكبر قدر ممكن من الوقت معهما. إذ سيتوجه ألم إلى الجبهة الأمامية لدى مغادرته، أما هورست فسيخدم في مقر الفرق العسكرية في ميونيخ، وقد بدا وكأنه يجد هذا الأمر مسلياً جداً. بالرغم من التربية الجدية التي تلقاها هورست إلا أنه يبدو محباً للمرح. كانت قواسم مشتركة عديدة تجمع بينه وبين بريجيت، أكثر مما تجمع بينه وبين بيتا.

في الوقت الذي كانت فيه بيتا تسير ببطء خلف الآخرين على شاطئ البحيرة تراجع شقيقها الأكبر ألم إلى الوراء ومشى إلى جانبها. كان دوماً يُعنى بحمايتها، ربما لأنه أكبر منها بسبع سنوات. وقد أدركت بيتا أنه يحترم طبيعتها الهادئة والمحبة.

"بماذا تفكرين يا بي؟ تبدين حزينة جداً وأنت تتمشين وحدك. لماذا لا تنضمين إلينا؟"

كانت أمها وشقيقتها اللتان ابتعدتا عن الباقين عندئذ، تتبادلان الحديث حول الموضة والرجال الذين استلطفتهم بريجيت في الحفلات التي حضرتها الأسبوع الماضي. في حين كان رجال العائلة يتناقشون في المواضيع التي تهمهم والتي كانت تتمحور تلك الأيام حول الحرب والقطاع

المصرفي. إذ بعد أن تحط الحرب أوزارها، ينوي ألم أن يعود إلى العمل مجدداً في المصرف كما كان يفعل منذ أربع سنوات. في الآونة الأخيرة كرر والدهم مرات عدة أنه يجب على هورست الكف عن حياة اللهو، وأخذ الأمور بجدية أكبر لينضم إلى المصرف. لقد وعد هورست بذلك بمجرد انتهاء الحرب. في العام الماضي وعند إعلان الحرب، كان يبلغ الثانية والعشرين من عمره فحسب، وأكّد لوالده أنه بمجرد انتهاء الحرب سيكون جاهزاً للانضمام إلى المصرف. كما وكرر جاكوب في الآونة الأخيرة مرات عدة أنه آن الأوان لألم كي يتزوج. كان جاكوب يتوقع الطاعة من أولاده وأي إنسان ضمن دائرته المباشرة. كما توقع الشيء عينه من زوجته التي بدورها لم تخيّب ظنه قط. ولم يشذّ أولاده عن هذه القاعدة، باستثناء هورست الذي بدا متردداً جداً بشأن العمل بعد انضمامه إلى الجيش. وآخر ما قد يخطر في بال هورست في هذه اللحظة هو موضوع الزواج. في الواقع، كانت بريجيت الوحيدة المهتمة بأمر الزواج. إذ إن بيتا لم تلتقِ بعد بالرجل الذي سيزلزل كيانها. بالرغم من أنها كانت تجد العديد من أبناء أصدقاء والدها وسيمين. لقد كانت تجد العديد من الشبان اليافعين سخيفين، أما من هم أكبر سناً فيثيرون خوفها بعض الشيء وغالباً ما يدفعونها إلى الشعور بالضجر. لم تكن في عجلة من أمرها للزواج. غالباً ما كانت بيتا تردد أنها في حال تزوجت يوماً ما، تأمل أن يكون الرجل الذي ستتزوج به مدرّساً، إذ ليس بالضرورة أن يكون مصرفياً. لم يكن ثمة مجال لتقول هذا الكلام أمام والدها، بالرغم من أنها اعترفت بذلك أمام والدتها وشقيقتها مرات عدة. فعلّقت بريجيت قائلة إن هذا العمل يبدو لها مضجراً. والشاب الوسيم صديق هورست الذي لفت نظرها تعوزه الجدية بقدرها، وينتمي إلى عائلة تماثل عائلتها أهمية في مجال العمل المصرفي. كان جاكوب ينوي اللقاء بوالد الشاب في أيلول لمناقشة الأمر، بالرغم من أن بريجيت كانت تجهل ذلك. لكن حتى الآن لم يطلب أي شاب يد بيتا للزواج، كما أنها لم تعبر عن رغبتها بأن يقدم شخص ما على ذلك. إذ نادراً ما كانت تتحدث

إلى أي كان في الحفلات. كانت ترافق والديها مجبرة، وترتدي الفساتين التي تختارها والدتها. وكانت تعامل الضيوف باحترام على الدوام، وتتنفس الصعداء فور علمها أنه آن أوان العودة إلى المنزل. على عكس بريجيت التي كانت تغادر مكرهةً بعد إلحاح ذويها، وتتذمر قائلة إن الوقت لا يزال مبكراً جداً لمغادرة الحفل، وتشكو من أن تصرفات عائلتها مملة ومضجرة. لطالما وافق هورست على ما تقوله بريجيت. أما بيتا وألم فكانا يمتازان بالجدية.

سأل ألم بيتا بهدوء: "هل استمتعت بالمكوث في جنيف؟" كان ألم الشخص الوحيد الذي يبذل جهداً جدياً للتواصل معها واكتشاف ما يدور في ذهنها. أما هورست وبريجيت فكانا أكثر انشغالاً بتبادل المزاح واللعب من أن يمضيا الوقت مع شقيقتهما ويتحدثان معها في مواضيع جدية.

ابتسمت بيتا له وقالت بخجل: "نعم". إذ بالرغم من كونه شقيقها، لطالما شعرت بيتا بالإرباك لمدى وسامته ولطفه. فقد كان شخصاً ودوداً ويشبه والدهم جداً. كان ألم طويلاً، وأشقر ورياضياً تماماً كما كان جاكوب في شبابه. كما ويمتاز ألم بعينين زرقاوين وملامح جذابة، غالباً ما كانت تثير إرباك الناس من حولِه. كانت العائلة تتمتع باحترام شديد في مجتمع كولونيا وحتى وسط الدوائر الأكثر أرستقراطية. لقد كان عدة أفراد من عائلتي هوهينلوز وثورن أند تاكسيز أصدقاء الطفولة لوالدهم. كانت عائلة ويتغينشتاين مرموقة جداً ومحترمة للغاية بحيث تُفتح جميع الأبواب في وجه أفرادها. لكن جاكوب أوضح لكل أولاده أنه عندما يحين وقت زواجهم يجدر بمن يختارونهم من زوجات أو أزواج أن يكونوا من ملِتهم. لم يكن هذا الأمر موضعاً للنقاش ومن الأفضل للجميع عدم التشكيك في جدية هذا. كانوا مقبولين في أوساطهم بهويتهم وما هم عليه، ويوجد في أوساط أولاد عائلة ويتغينشتاين الكثير من الشابات والشبان المحترمين ليختاروا منهم. وعندما يحين موعد زواج أي منهم، سيتزوج أو ستتزوج من داخل هذه الدائرة العائلية.

عندما كان ألم وبيتا يتمشيان على شاطئ البحيرة لم يبدُ بينهما أي شبه. فقد كان شقيقاها وشقيقتها يشبهون والدهم تماماً، إذ كانوا جميعاً ذوي قامة ممشوقة، وشعر أشقر، ويمتازون بعيون زرقاء وملامح مميزة. أما بيتا فكانت تشبه والدتها، على عكسهم تماماً. إذ كانت تتمتع بجسد منمنم، ناعمة جداً، وشعرها بني غامق، وبشرتها بيضاء مرمرية اللون. أما السمة الوحيدة التي تقاسمتها مع الآخرين فكانت زرقة العينين واتساعهما، بالرغم من أن لون عينيها كان أعمق من لون عيون شقيقتها وشقيقيها. أما لون عيني أمها فكان بنيًا غامقاً، ولكن عدا عن هذا الفارق البسيط كانت بيتا نسخة عن والدتها، مما أدخل البهجة إلى قلب والدها في سرِّه. إذ كان لا يزال مغرماً بزوجته بعد حوالى تسع وعشرين سنة من الزواج، لذا كان وبمجرد أن يرى بيتا تبتسم في وجهه يتذكر والدتها عندما كانت في السن نفسه في أولى سنوات زواجهما، ولطالما أقرّ به هذا التشابه بين الأم وابنتها. وكنتيجة لذلك غالباً ما كان يفضل بيتا على الجميع، مما يدفع بريجيت في كثير من الأحيان إلى التذمر بشأن تفضيله لبيتا عليهم. كان يسمح لها بفعل كل ما تشاء. ولكن لم يكن أي شيء تريده بيتا فيه أذى على الإطلاق. إذ كانت مشاريع بريجيت أكثر خطورة من مشاريع شقيقتها الكبرى، التي لطالما آثرت البقاء في المنزل للقراءة أو الدراسة. في الواقع كانت بيتا تقرأ كل ما يصل إلى متناول يديها بما في ذلك كتب أرسطو وأفلاطون. كانت قارئة نهمة وتحب الفلاسفة الإغريق. حتى إنّ والدها اضطر إلى الاعتراف بأنها لو كانت ذكراً لحققت إنجازات متميزة في مجال العلم. ولكن ما أراده لها الآن يماثل ما أراده لألم وربما لهورست وبريجيت في وقت قريب وهو الزواج. كان قد بدأ يخشى أنه في حال عكفت عن الزواج أكثر ستصبح عانساً وأكثر جدية بكثير. كان لديه بضع أفكار بهذا الخصوص أراد أن يدخلها حيز التنفيذ في الشتاء القادم، ولكن الحرب تحول دون تنفيذها. حيث يخدم في الجيش أعداداً كبيرة من الرجال، فقد قُتل في العام الماضي العديد من الشبان الذين كانوا يعرفونهم. لذا فالمستقبل غير المضمون يحمل على القلق الشديد.

اعتقد والد بيتا أنها ستبلي حسناً مع رجل أكبر منها سناً. فقد أراد لبيتا رجلاً ناضجاً يقدّر ذكاءها ويتقاسم معها اهتماماتها. ولم يعارض هذه الفكرة بالنسبة لبريجيت أيضاً، إذ سيكون مثل هذا الرجل بمثابة يد قوية تلجمها. بالرغم من أنه يحب أولاده جميعاً، إلا أنه كان فخوراً جداً بابنته الكبرى. كان يعتبر نفسه رجلاً حكيماً ومتعاطفاً. كان من النوع الذي لا يتردد الآخرون في اللجوء إليه. كانت بيتا تكنّ الكثير من الاحترام والتقدير له ولوالدتها أيضاً، بالرغم من أنها اعترفت سراً للآخرين أن التحدث إلى والدتها أكثر يسراً وأقل إرباكاً من التحدث إلى والدها، الذي كان جدّياً بالنسبة لها، وغالباً ما كان يعارض تفاهة ابنته الصغرى.

قالت بيتا بحزن وهي تتمشى مع ألم: "أتمنى لو أنك لم تكن مضطراً للعودة إلى جبهة القتال". كان الجميع قد استدار عائداً فباتت هي وألم متقدمَين جداً عليهم بعد أن كانا متأخرَين جداً عنهم.

"أنا أكره العودة ولكنني أظن أن الحرب ستنتهي قريباً". ثم ابتسم في وجهها ليؤكد لها كلامه. لم يكن مصدقاً لهذا الأمر، ولكن كانت هذه الكلمات التي يتوجه الجميع بها إلى النساء، أو على الأقل ما توجه هو به إليها. "سآخذ تسريحاً آخر لزيارتكم من جديد في فترة الميلاد". فهزت رأسها بعد أن شعرت أن دهراً يفصلهم عن هذا الموعد، ولم تحتمل فكرة المرارة التي ستشعر بها في حال أصابه أي مكروه. إذ تكنّ له حباً كبيراً يفوق الحب الذي كانت تعبّر له عنه. كما وأنها تحب هورست أيضاً ولكنه بدا لها أقل جدية من شقيقها الكبير. فقد كان يحب ممازحتها ولطالما دفعها إلى الضحك. ولكن ما كانت تتقاسمه مع ألم كان أمراً مختلفاً. واصلا التحدث باستمتاع طيلة طريق عودتهما إلى الفندق، وفي تلك الليلة تناول أفراد العائلة العشاء الأخير سوياً قبل مغادرة الشابين في اليوم التالي. وكحاله دائماً أضفى هورست جواً من المرح الغامر بعد أن قلّد جميع من يعرفونهم، وسرد عليهم قصصه الممتعة حول أصدقائهم.

في اليوم التالي، غادر الرجال الثلاثة، وبقيت النساء الثلاث لتمضية الأسابيع الثلاثة الأخيرة من العطلة في جنيف. أراد جاكوب منهن البقاء في سويسرا أطول مدة ممكنة بالرغم من أن بريجيت بدأت تسأم البقاء. أما بيتا ووالدتها فكانتا سعيدتين جداً بالبقاء. ذات يوم خرجت بريجيت ووالدتها عصراً للقيام بالتسوق، وقالت بيتا إنها تفضّل البقاء في الفندق لأنها مصابة بصداع. في الحقيقة لم تكن مصابة بصداع ولكنها وجدت أن التسوق برفقتهما أمر متعب. إذ كانت بريجيت دوماً ترتدي جميع الملابس في المحال التجارية لتجربتها، وتطلب الفساتين والقبعات والأحذية. ولطالما دللتها والدتها بعد أن تأثرت بذوقها الرفيع وعشقها للموضة. وبعد أن ترهقا الخياطين، وصانعي الأحذية والقبعات، والمحال التي تصنع كفوفاً مميزة، تتوجها للقيام بجولة على محال المجوهرات. أدركت بيتا أنهما لن تعودا قبل موعد العشاء، كانت تستمتع بالجلوس تحت أشعة الشمس والقراءة. بعد الغداء نزلت بيتا متوجهة إلى البحيرة، ومشت على المسار نفسه الذي كانوا يسيرون عليه طيلة فترة مكوثهم في هذا المكان. كان الجو ذاك اليوم أكثر برودة بعض الشيء من اليوم الذي سبقه، وكانت ترتدي فستاناً حريرياً أبيض، وتعتمر قبعة تقيها من حرارة الشمس، وتضع وشاحاً أزرق بلون عينيها قامت بلفه على كتفيها. كانت تتمتم بينها وبين نفسها وهي تتمشى. في ذاك الوقت كان معظم نزلاء الفندق منشغلين بتناول الغداء أو متواجدين في الوسط التجاري، فظل المكان خالياً لها، فمشت مطرقة برأسها تفكر بشقيقيها. فجأة سمعت صوتاً خلفها، فرفعت وجهها، وفوجئت عندما رأت شاباً طويلاً يمر بمحاذاتها، ويبتسم في وجهها. كان يسير في نفس اتجاهها ففوجئت جداً عندما ظهر إلى جانبها، تنحت جانباً بخطوة سريعة فتعثرت ولوت كاحلها. شعرت بألم طفيف، ولكن لم تصب بأذى كبير، مدّ الشاب يده بسرعة، وأمسك بها قبل أن تسقط أرضاً. "أنا آسف لم أقصد إخافتك وبالتأكيد لم أقصد إيقاعك أرضاً". بدا لها على الفور مهتماً ومعتذراً، ولاحظت بيتا شدة وسامته. إذ إنه يتمتع بالطول، وببشرة بيضاء، وبعينين

يماثل لونهما لون عينيها، ويمتاز بيدين قويتين وطويلتين، وكتفين عريضتين رياضيتين. ظل ممسكاً بيدها بإحكام وهو يخاطبها. لاحظت أن قبعتها التوَت قليلاً جراء تصادمهما، فعدّلتها وهي تسترق النظر إليه. لقد بدا أكبر سناً بقليل من شقيقها الأكبر. كان يرتدي بنطالاً أبيض، وقميصاً أزرق داكناً، وربطة عنق عسكرية، ويعتمر قبعة قش جميلة جداً أضفت عليه نفحة أناقة. "شكراً لك أنا بخير. كان سخفاً مني، إذ لم أسمعك في الوقت المناسب حتى أبتعد عن طريقك".

"لو لم تريني حتى أوشكت على إيقاعك أرضاً. أخشى أنني السبب في ذلك. هل أنتِ بخير؟ كيف حال كاحلك؟" بدا في كلامه متعاطفاً ولطيفاً.

"إنه بخير. لقد أمسكت بي قبل أن يلحق به ضرر حقيقي". كان يتكلم معها بالفرنسية وهي ترد عليه بالفرنسية أيضاً. كانت قد تعلمت الفرنسية في المدرسة وأتقنتها بشكل كبير. وقد أصر والدها أيضاً أن يتعلموا الإنكليزية، واعتقد أن عليهم أن يتكلموا الإيطالية والإسبانية أيضاً.

كانت بيتا قد درست اللغتين، ولكنها لم تتقن أيًا منهما بشكل جيد. كانت لغتها الإنكليزية مقبولة، ولكنها أكثر طلاقة في الفرنسية.

"هل تودين الجلوس لبرهة؟" وأشار إلى مقعد بالقرب منهما له إطلالة جميلة على البحيرة، وبدا متردداً في ترك ذراعها. كان يتصرف وكأنه يخشى أن تقع أرضاً في حال أفلت يده عنها، فابتسمت في وجهه.

"أنا حقاً بخير". لكن أغرتها فكرة الجلوس لوهلة بالقرب منه. وهذا لم يكن من عادتها أبداً، في الواقع، لم يسْبق لها أن أقدمت على أي عمل من هذا القبيل، ولكن الشاب كان مهذباً ولطيفاً جداً وبدا نادماً جداً على شبه الحادث هذا، فشعرت بالأسف حياله. ولم يبدُ أن هناك أي ضير من الجلوس معه ومحادثته لدقيقة من الوقت قبل أن تواصل نزهتها. كما ولم تكن مضطرة للإسراع في العودة إلى الفندق، إذ أدركت أن والدتها وشقيقتها ستتأخران في العودة. فسمحت له باصطحابها إلى المقعد، وجلس بقربها وإنما على مسافة تشير إلى مدى احترامه لها.

نظر إلى كاحلها الذي يقع مباشرة تحت طرف الفستان وقال: "هل حقاً أنتِ بخير؟" وارتاح عندما وجد أن كاحلها لم يُصب بأي ورم. ابتسمت في وجهه وقالت: "صدقني أنا بخير".

"كنتُ أقصد أن أمرّ بمحاذاتك دون إزعاجك. كان يجب عليّ أن أتكلم إليك أو أحذرك بقدومي. لقد كنتُ غارقاً في التفكير بشأن هذه الحرب اللعينة، يا لفظاعتها! بدا منزعجاً وهو يتلفظ بهذا الكلام، وأرجع بظهره إلى المقعد وهي تصب نظرها عليه. فهي لم تلتقِ في حياتها بشخص يشبهه. بدا ودوداً جداً، ويشبه أميراً وسيماً في قصة خيالية. لقد خلت تصرفاته من أي ادعاء أو زيف. وقد شعرت وكأنه واحد من أصدقاء أم، بالرغم من أنه يبدو أكثر وسامة منه بكثير.

سألته باهتمام: "أنت لستَ سويسرياً إذاً؟"

قال ببساطة: "أنا فرنسي". وعندما قال ذلك عبست ولم تعلّق بأي كلمة. "هل هذا الأمر فظيع؟ في الواقع جدي لأمي سويسري ولهذ السبب أنا هنا. لقد توفي منذ أسبوعين واضطررتُ للمجيء إلى هنا لتسوية أمور التركة مع شقيقي ووالديّ. لقد أعطوني تسريحاً بالمغادرة من أجل القيام بذلك". لاحظت فيه سلاسته، وبساطته، وخلوه من التكلف وسوء التصرف. بدا أنه كريم الأصل، وأرستقراطي، ومهذب جداً.

أجابت بصدق وهي تنظر في عينيه مباشرة: "ليس في الأمر أي فظاعة على الإطلاق. أنا ألمانية". توقعت منه أن ينتفض عن المقعد ويعبر لها عن مدى كرهه للألمان. ففي النهاية كانوا أعداءهم في الحرب، ولم تمتلك أدنى فكرة كيف يمكن أن يكون ردّ فعله على ما قالته.

سألها بلطف وهو يبتسم: "هل تتوقعين مني أن ألقي باللوم عليك جراء هذه الحرب؟" كانت بيتا في ريعان الصبا وتتمتع بجمال باهر. وجدها جميلة جداً، وخلال كلامه معها تأثر جداً بتعابير وجهها الاعتذارية. لقد بدت شابة مميزة جداً، فشعر فجأة بسرور بالغ لتسببه بإيقاعها أرضاً. مازحها قائلاً: "هل أنتِ من فعل ذلك؟ هل هذه الحرب المقيتة هي صنيعة

يديكِ يا سيدتي؟ هل يجدر بي أن أغضب منك؟" فضحكت معه خلال تلفظه بهذا الكلام.

قالــت وهــي تبتسم: "آمل ألا أكون قد فعلت". سألته: "هل أنتَ في الجيش؟" إذ ذكر قبل قليل إنه أخذ تسريحاً للمغادرة.

"أنــا في فرقة الخيالة، وقد ارتدتُ أكاديمية فروسية تدعى سومور".

كانــت بيــتا تدرك أن جميع الأرستقراطيين يدخلون في فرقة الخيالة، فقد كانت وحدة مرموقة جداً.

"لا بد وأنه أمر مثير للاهتمام". كانت تحب الخيل وقد امتطت الكثير منها فــي صغرها. وأحبت ركوب الخيل مع شقيقيها وخصوصاً آلم. إذ لطالمــا كــان يتسم هورست بالجموح ويدفع بالحصان إلى الخروج عن السيطرة مما يثير الرعب فيها. "شقيقاي في الجيش أيضاً".

نظر إليها مطولاً غارقاً في التفكير وفي بحر عينيها الزرقاوين اللتين كانــتا أعمــق مــن لون عينيه. لم يرَ في حياته مثل هذا التناقض في لون الــشعر والبــشرة، إذ لــون شــعرها بني غامق، على عكس لون بشرتها البيضاء الناصعة. بدت أشبه بلوحة موضوعة على المقعد ذاك. "لن يكون لطــيفاً لو أن جميع الأمم تحلّ مشاكلها ببساطة مثل شخصين جالسين على مقعــد عــصر يــوم صيفي يلقيان بنظرهما على البحيرة أمامهما. بوسعنا التــباحث فــي الأمور بشكل سلمي والاتفاق عليها بدل ما يحصل الآن من ســفك لــدماء الشبان في أرض المعارك". لقد دفعها بكلامه هذا إلى عقد حاجبيها من جديد، إذ ذكرها كلامه بمدى الخطر الذي يحيط بشقيقيها.

"ســيكون ذلــك لطــيفاً جداً. يرى شقيقي الأكبر أن الحرب ستنتهي قريباً".

قــال بــأدب: "ليتني أستطيع مشاطرته رأيه. أخشى أنه ما إن تصبح الأسلحة بأيدي الرجال فإن نزعها منهم يصبح غاية في الصعوبة أعتقد أن الحرب ستتواصل لسنوات".

قالت بهدوء: "آمل أن تكون مخطئاً".

"وأنــا كــذلك". ثم بدا محرجاً من جديد. "لقد كنتُ فظاً للغاية. اسمي أنطوان فاليراند". ثم وقف وانحنى أمامها وعاود الجلوس من جديد. فردت عليه بابتسامة عندما ابتسم لها.

"أنا أدعى بيتا ويتغينشتاين". ولفظت كنيتها بطريقة ألمانية.

فــسألها: "أنّــى لكِ تكلم اللغة الفرنسية بهذه الطلاقة؟ لغتك الفرنسية سلسلة تقريباً وخالية من أي لكنة غريبة. في الواقع تبدين وكأنك فرنسية". لقــد ســحرته وما كان ليحزر أبداً أنها ألمانية. فهو على عكس الكثير من الأشخاص الموجودين في وسطه ومجتمعه لا يعني له هذا الأمر شيئاً. ولم يعطِ له بالاً قط. جل ما رآه فيها شابة ذكية وجميلة.

ابتسمت في وجهه وقالت: "لقد تعلمت الفرنسية في المدرسة".

"لا، لا أصــدق، إن كنتِ فعلاً قد تعلمت اللغة الفرنسية في المدرسة فهذا يعنــي أنك أشطر مني بكثير. أنا تعلمتُ الإنكليزية في المدرسة، أو هكذا يُقال، ولكــن لا يسعني النطق بكلمة واحدة. ولغتي الألمانية فظيعة جداً. إنني لا أملك موهبتك. معظم الفرنسيين لا يملكونها. إننا نتكلم الفرنسية لا غير. إننا نفترض أن العالم أجمع سيتعلم اللغة الفرنسية حتى يتمكن من مخاطبتنا. كم أنا محظوظ نظراً لكونك تتكلمين اللغة الفرنسية. هل تتكلمين اللغة الإنكليزية أيضاً؟"

إذ توقــع نــوعاً ما أنها تمتلك هذه اللغة أيضاً. بالرغم من أنهما لا يعــرفان بعضهما البعض استطاع أن يلاحظ أنها خجولة، وقد بدت لامعة جــداً وسلسة للغاية على نحو مفاجئ. لقد ذُهلت هي نفسها بمدى ارتياحها معه. وبالرغم من كونه رجلاً غريباً إلا أنها شعرت بالأمان معه.

اعتــرفت قائلة: "أنا أتكلم الإنكليزية، وإنما ليس بالطلاقة نفسها التي أتكلم فيها الفرنسية".

"هل ترتادين المدرسة؟" فقد بدت له صغيرة في السن. إنه يبلغ الثانية والثلاثين من عمره أي أكبر منها باثنتي عشرة سنة.

أجابت بخجل: "لا، لقد أنهيتُ دراستي. ولكنني أقرأ كثيراً. كنتُ أود لو أرتاد الجامعة ولكن والدي لا يسمح لي".

سألها: "لمَ لا؟" ثم ابتسم. "إنه يظن أنه يجدر بك الزواج وإنجاب الأطفال. لستِ بحاجة إلى ارتياد الجامعة. هل أنا محق؟"

ابتسمت في وجهه وقالت: "نعم تماماً". كان يذكرها أكثر فأكثر بألم. شعرت وكأنها هي وأنطوان صديقان قديمان، وقد بدأ هو الآخر يبادلها هذا الشعور بالارتياح. شعرت أنها قادرة على أن تكون صادقة تماماً معه، الأمر الذي كان يندر حدوثه. ففي العادة تشعر بخجل كبير عندما تكون برفقة الرجال.

قالت ببساطة متناهية: "لا أود الزواج إلى أن أقع بحب الإنسان الذي سأتزوج به". فهز رأسه.

"يبدو هذا معقولاً. هل يوافقك الوالدان الرأي".

"لستُ واثقة. لقد تم تدبير زواجهما من قبل الآخرين ويريانها فكرة جيدة. إنهما يريدان من شقيقاي أن يتزوجا أيضاً".

"كم يبلغان من العمر؟"

"اثنان وعشرون وسبعة وعشرون. أحدهما يتسم بالجدية والآخر يحب المرح وهو جامح بعض الشيء". ثم ابتسمت في وجهه بحذر.

"هذه المواصفات تشبهني وشقيقي".

"كم يبلغ شقيقك من العمر؟"

"إنه أصغر مني بخمس سنوات. إنه في السابعة والعشرين من عمره مثل شقيقك الكبير، أما أنا فرجل مسن جداً إذ أبلغ الثانية والثلاثين من عمري. لقد يئسوا من أمري". وحتى هذه اللحظة كان هو الآخر قد يئس من أمر نفسه.

"وأي واحد منهما أنت؟"

"أي واحد؟" بدا ضائعاً لوهلة ثم فهم قصدها. "آه نعم، شقيقي هو الجامح وأنا الممل". ثم تدارك نفسه. "آسف، أنا لم أقصد أن شقيقك الأكبر ممل. إنما جاد فحسب حسبما أتصور. لطالما كنتُ الإنسان الذي يتحمل المسؤولية أما أخي فلا. إنه مشغول جداً بتسلية نفسه مما يمنعه عن التفكير حتى في تحمل المسؤولية. لعله كان محقاً. أنا أكثر هدوءاً منه بكثير".

سألته باهتمام: "ألستَ متزوجاً؟" لقد كان لقاؤهما من أغرب محاسن الصدف. كانا يطرحان على بعضهما أسئلة ما كانا ليجرؤا على طرحها لو كانا موجودين في حفلة راقصة، أو في معرض للرسم، أو في حفلة عشاء.

لكن بجلوسهما هنا سوياً على المقعد حيث يلقيان بنظرهما على البحيرة أمامهما، بدا لبيتا أنه من المناسب جداً أن تطرح عليه أي سؤال يخطر في بالها. إذ دفعها الفضول لمعرفة كل شيء عنه. وقد كان يعطي انطباعاً يشير إلى كونه محترماً ولطيفاً بالرغم من مدى وسامته. وجل ما كانت تعرفه عنه أنه أنيق، ومن المحتمل أنه يقدم على الكذب عليها، ولكن لم يبدُ لها أن الأمر يسير على هذا المنوال.

لقد صدقت كل كلمة تلفظ بها، وانتابها شعور بأنه بادلها هذا الشعور.

قال لها بنظرة فرح: "لا لستُ متزوجاً! لقد فكّرت في الزواج مرة أو مرتين ولكنني لم أظن أبداً أنها خطوة سديدة، بالرغم من الضغط الشديد الذي أتعرض له من قبل عائلتي كوني الابن البكر وما إلى ذلك. لا أود أن أقترف خطأ وأتزوج من المرأة غير المناسبة. أفضل أن أبقى عازباً على أن أفعل ذلك، كحالي الآن".

هزت رأسها وهي تبدي تصميماً على نحو مفاجئ: "أوافقك الرأي".

في بعض الأحيان تبدو له أشبه بطفلة، وفي أحيان أخرى تبدو له عندما تتكلم أنها تمتلك آراء قاطعة مثل ما يتعلق بأمور الزواج وارتياد الجامعة.

سألها باهتمام: "ماذا كنتِ لتدرسي لو سُمح لك بارتياد الجامعة؟" فبدت حالمة وهي تفكّر في هذا الأمر.

"الفلسفة. التاريخ الإغريقي القديم على ما أعتقد. ربما الديانات أو فلسفتها". فتأثر جداً بكلامها. بدا له جلياً أنها فتاة ذكية إضافة إلى كونها جميلة، والحديث معها سلس جداً.

"وما كان رأيك؟ لا يسعني القول إنني قرأت مثلك. يبدو أنني أمضيت معظم حياتي على ظهر الخيل إضافة إلى قيامي بمساعدة أبي في إدارة ممتلكاتنا. لدي علاقة وطيدة بالأرض وأكنّ حباً شديداً لها". وجد صعوبة

في التعبير لها كم تعني له أرضه وحلبة سباق الخيل الخاصة به. فلقد كان متعلقاً جداً بهما.

قالت بيتا بكل هدوء: "أعتقد أن هذا حال معظم الرجال. أين تقع ممتلكات عائلتك؟" كانت تستمتع بالحديث معه ولم تشأ الكف عن التحدث إليه.

"إنها تقع في دوردوني، بلد الخيل، قرب بيريغورد التي تقع قرب بوردو، إن كان هذا يعني لك شيئاً". وبمجرد ذكره لهذا الأمر لاحظت بيتا لمعة في عينيه، فاستطاعت بذلك تلمّس مدى أهمية هذا الأمر له.

"أنا لم أزر ذاك المكان قط، ولكن لا بد وأنه جميل جداً إن كنت تحبه إلى هذا الحد".

أكد لها قائلاً: "إنه فعلاً جميل. وأين تسكنين في ألمانيا؟"

"في كولونيا".

قال وهو يبدو مسروراً: "لقد سبق لي أن زرتُ هذا المكان من قبل. أنا أحب بافاريا جداً أيضاً. وقد أمضيت بعض الوقت الممتع في برلين".

"أخي هورست يود العيش هناك في برلين. ولكنه لا يستطيع بالطبع. عليه أن يتوجه للعمل مع أبي بعد انتهاء الحرب، إنه يمقت ذلك، ولكنه لا يملك أي خيار. إن جدي، وأبي، وأعمامي، وشقيقي ألم جميعهم يعملون هناك. إنه مصرف. أعتقد أنه ليس بالعمل الممتع ولكن يبدو أنهم جميعاً يحبونه. أعتقد أنه عمل مثير للأهمية". فابتسم في وجهها. كانت مفعمة بالأفكار الذكية اللامعة وتملك اهتمامات بشؤون العالم. كان أنطوان واثقاً من خلال النظر إليها والاستماع إلى ما تقوله أنه في حال تسنى لها ارتياد الجامعة أو العمل في المصرف لكانت أبلت حسناً.

سألها باهتمام: "ما هي هواياتك؟" قالت ببساطة: "أحب القراءة وتعلم كل جديد. أتمنى لو أصبح كاتبة في يوم من الأيام، ولكن بالطبع لا يسعني فعل ذلك أيضاً". إذ لن يقبل أي رجل يود الزواج بها أن تمارس هذه المهنة، فسيتوجب عليها العناية به وبأطفالهما.

"ربما تحققين ذلك في أحد الأيام. أعتقد أن الأمر برمته يعتمد على الشخص الذي ستتزوجين به إذا ما تزوجت. هل لديك شقيقات أيضاً أم مجرد أشقاء؟"

"لدي شقيقة أصغر مني تدعى بريجيت تبلغ السابعة عشرة من عمرها. إنها تهوى حضور الحفلات، والرقص، والتأنق، وتتوق إلى الزواج. وغالباً ما تكرر لي كم أنني مضجرة". قالت بيتا هذا الكلام بابتسامة عريضة مما دفعه إلى الرغبة بالتقرب منها واحتضانها، بالرغم من كونهما لم يتعارفا بشكل جيد. وشعر فجأة بسرور بالغ لكونه أوشك على إيقاعها أرضاً. بدأ الأمر يبدو وكأن لقاءه بها ضربة حظ، وخالجه شعور أن هذا هو رأي بيتا أيضاً.

"يعتقد شقيقي أنني مضجر جداً، ولكن يجدر بي إخبارك أنني لا أجدك مضجرة على الإطلاق يا بيتا. لقد استمتعت جداً بالحديث معك".

فردت عليه بخجل وهي تتساءل إذا ما وجب عليها العودة إلى الفندق: "أنا أيضاً استمتعت بالحديث معك". كان قد مضى حينئذ وقت طويل على جلوسهما على المقعد. ربما أطول مما يفترض بهما. التزما الصمت لبعض الوقت وهما يستمتعان بمنظر البحيرة، ثم التفت إليها من جديد.

"هل تودين مني أن أرافقك في العودة إلى الفندق؟ لعل عائلتك قد بدأت تقلق عليك".

"لقد اصطحبت أمي شقيقتي وذهبتا للتسوق. لا أحسبهما ستعودان قبل موعد العشاء". ثم قالت بكل مسؤولية: "ولكن ربما يفترض بي العودة". بالرغم من أنها لم تشأ أبداً المغادرة.

وقف كل منهما بتردد وسألها عن كاحلها. وشعر بالسرور لكونه لا يؤلمها البتة، ومدّ لها ذراعه، وتوجها إلى الفندق. دست يدها في ذراعه، وتبادلا الحديث خلال سيرهما وخاضا في حديثهما الكثير من المواضيع. أجمع الاثنان على كرههما للحفلات عموماً، ولكنهما أحبا الرقص. وشعر بالسرور عندما علم أنها تحب الخيل وقد امتطت العديد منها. كانا يحبان

القوارب ويعشقان البحر. قالت بيتا إنها لم تصب أبداً بدوار البحر، فوجد صعوبة في تصديق هذا الأمر. ولكنها اعترفت أنها تخشى الكلاب منذ صغرها بعد أن تعرضت لعضة كلب. وأجمع الاثنان أيضاً على حب إيطاليا بالرغم من قوله إنه يعشق ألمانيا بشدة أيضاً وهو أمر لا يستطيع الاعتراف به علناً في الوقت الحاضر. لقد بدت الحرب الدائرة وواقع أن بلديهما في حالة عداوة غير ذات أهمية بالنسبة لهما بعد أن تعرفا إلى بعضهما البعض. بدا أنطوان خائب الأمل عندما عادا إلى الفندق. إذ لم يشأ أن يفارقها بالرغم من أنه كان يخطط للقاء عائلته على العشاء. أراد لو يمضي عدة ساعات إضافية معها، وبدا واضحاً أنه كان يضيع الوقت عندما كانا واقفين أمام الفندق ينظران إلى بعضهما البعض.

اقترح عليها قائلاً: "هلا تودين احتساء الشاي؟" فازدادت عيناها لمعاناً عند سماعها هذه الفكرة.

"سيكون ذلك لطيفاً جداً، شكراً لك". مشى معها إلى الشرفة حيث يقدمون الشاي وحيث تجلس بعض النساء الأنيقات وتتبادلن الحديث، إضافة إلى الأزواج الذين تبدو عليهم السعادة وهم يتناولون سندويشات صغيرة ويتكلمون بأصوات خافتة باللغة الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والفرنسية.

شربا فنجانين من الشاي اللذيذ سوياً، أخيرا بعدما لم يعد بوسعهما سرقة مزيد من الوقت، مشى معها إلى الردهة ووقف ينظر إليها. بدت له صغيرة وهشة، ولكن في الواقع وبعد ساعات من التحدث إليها أدرك أنها تتمتع بالحيوية وقادرة جداً على الدفاع عن أفكارها. إنها تمتلك أفكاراً قوية حول عدة أمور، وحتى الآن وافق على أغلبها. والأفكار التي لم يوافق عليها أفرحته. لم يكن أي شيء يتعلق بها يبعث على الملل. وجدها مميزة جداً وتتمتع بجمال يخطف الأنفاس. جل ما عرفه أن عليه أن يقابلها من جديد.

"هل تعتقدين أن والدتك قد تسمح لك بتناول الغداء معي في الغد؟" بدا شديد الأمل، وقد تمنى جداً لو يسعه لمس يدها ولكنه لم يجرؤ على ذلك. وأكثر من ذلك كان يود لو يلمس وجهها، إذ تتمتع ببشرة مميزة.

قالت بيتا بصدق: "لستُ واثقة من هذا الأمر". إذ سيصعب عليها تفسير كيفية لقائهما وتبرير واقع أنهما أمضيا الكثير من الوقت سوياً يتبادلان الحديث دون مرافق لها. لكن لم يحدث أي سوء، وكان تصرفه معها يتسم باحترام شديد مما يدل على حُسن نشأته. لم يكن هناك من شيء يدعو إلى الاعتراض عليه، ما عدا واقع كونه فرنسياً، الأمر الذي بدا غير مناسب في ظل الظروف التي يمرون بها. ولكنهم موجودون في سويسرا في النهاية. والأمر ليس أشبه بلقائه على أرض وطنها. ومجرد كون بلديهما في حالة عداوة لا يعني أنه رجل سيء. ولكنها لم تكن واثقة أن والدتها ستنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، في الواقع كانت شبه واثقة أنها لن تفعل، نظراً إلى أن شقيقيها يشاركان في حرب ضد الفرنسيين، وقد يقدمون على قتلهما في أي لحظة. كان والداها من نوع الوطنيين المخلصين ولا يتمتعان بعقل منفتح، وقد كانت تدرك هذا الأمر جيداً وهو بالضبط ما خشيه أنطوان. كما وأدركت بيتا أيضاً أنه في حال تقدم لطلب يدها للزواج، لن يوافق والداها لأنهما سيعتبرانه يفتقر إلى الأهلية للزواج منها. ولكن بدا لها ما يزال من المبكر القلق بهذا الشأن.

سألها والأمل في عينيه: "لعل والدتك وشقيقتك ترافقانا لتناول الغداء أيضاً؟" لم يكن ينوي الاستسلام أبداً. بدت الحرب وكأنها عقبة صغيرة بالنسبة إليه في هذه اللحظة. كانت بيتا رائعة وساحرة جداً بحيث يصعب عليه خسارتها بسبب أمر كهذا.

قالت بيتا بهدوء: "سأسألهما". كانت ستفعل أكثر من مجرد السؤال، إذ عقدت العزم على استعدادها للمحاربة بشراسة كي تراه من جديد، وخشيت أنها ستضطر إلى فعل ذلك. إذ أدركت أنه في نظر أمها، يوجد نقطة ليست في صالحه: جنسيته.

بدا معنياً جداً وقال: "هل يتوجب عليّ أن أتصل بوالدتك وأسألها بنفسي؟"

هزّت رأسها نافية وأجابته: "لا سأفعل ذلك بنفسي". فجأة باتا حليفين في مؤامرة سرية، "لا وهي مواصلة علاقة الصداقة بينهما، أو مهما كان

نوع علاقتهما. لم ترَ بيتا أنه يقوم بمغازلتها، وأملت فحسب أن يتسنى لهما أن يكونا صديقين. إذ لم تجرؤ أبداً على تخيل المزيد.

فسأل والتوتر بادٍ عليه: "هل لي بالاتصال بكِ الليلة؟" فأعطته رقم غرفتها. كانت تتشاطر الغرفة مع شقيقتها بريجيت.

سنتناول العشاء في الفندق الليلة. فقال وهو متفاجئ: "ونحن كذلك. ربما نرى بعضنا وعندها ربما يتسنى لي تقديم نفسي لوالدتك وشقيقتك". ثم بدا عليه القلق. "كيف عساي أقول إننا التقينا؟" إذ إن لقاءهما الذي حصل عن طريق الصدفة كان من حسن حظهما، ولكنه لم يكن باللقاء اللائق. كما وكان حديثهما المطول غير طبيعي على أقل تقدير. ضحكت بيتا للسؤال الذي طرحه. "سأكتفي بالقول إنك أوقعتني أرضاً ثم ساعدتني على الوقوف".

"أنا واثق أن ذلك سيثير انطباعها! هل ستقولين إنني دفعت بك إلى السقوط في الوحل أو إنني رميت بك في البحيرة لتنظيفك بعدما سقطت أرضاً؟" ضحكت بيتا كالطفلة على اقتراحاته، وبدا على أنطوان سعادة لم يعرف مثيلاً لها منذ سنوات. "أنت حقاً سخيفة جداً. بوسعك على الأقل إخبارها أنني أمسكت بذراعك ومنعتك من الوقوع بعد أن كنتُ أوقعتك أرضاً وأنا أمر بمحاذاتك". ولكنه لم يعد نادماً على هذه الحادثة. فقد استفاد جداً من هذه الحادثة البسيطة. "وبوسعك أن تخبري والدتك أنني قدّمت نفسي بشكل مناسب".

"ربما أفعل". لوهلة بدت بيتا قلقة جداً بعد أن رفعت عينيها نحوه وبدت محرَجة نوعاً ما من الكلام الذي كانت على وشك النطق به. "هل تجد أي حرج في القول لها إنك سويسري؟" تردد بداية، ثم هز رأسه موافقاً. فقد لاحظ أن جنسيته تمثل مشكلة بالنسبة إليها أو أنها تخشى أن تمثل مشكلة بالنسبة لأمها. كانت تتمنى ألا تمانع أمها كثيراً بما أنهما مجرد صديقين. وقد نوت على استخدام هذا المبرر في حال أبدت والدتها معارضة على تناولها الغداء برفقته.

"أنا ربع سويسري في النهاية. ولكن يتوجب عليّ ألا أقوم بالعد أمام والدتك بالطريقة الفرنسية. وإلا فسأفضح نفسي. ولكن لا مانع لدي من القول إنني سويسري إن كان ذلك يسهل الأمر عليك. يا للعار أن يصبح مثل هذا الأمر مشكلة بالنسبة إلينا هذه الأيام". في الحقيقة سترتعب عائلته هو الآخر عندما تدرك أنه يصادق فتاة ألمانية، والأسوأ من ذلك أنه مأخوذ جداً بها. إذ لا يوجد أبداً قصص غرام بين الألمان والفرنسيين هذه الأيام. ولكنه لم يرَ سبباً يدعوه وبيتا إلى دفع ثمن ما يجري. قال لها بلطف وهي رافعة رأسها نحوه وتنظر إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين: "لا تقلقي سنجد حلاً للأمر. لا بأس يا بيتا، أعدك أنه بطريقة أو بأخرى سنلتقي في الغد". ما كان ليسمح أن يقف أي عائق بينهما، وشعرت بيتا بالأمان المطلق وهي واقفة شاخصة ببصرها إلى الأعلى نحو أنطوان. كانا تقريباً غريبين عن بعضهما البعض، ولكن مع ذلك أدركت أن بوسعها الوثوق به. ما حصل بينهما عصر ذلك اليوم أمر جميل ورائع. قال لها بكل لطف وهي تدخل إلى المصعد: "سأتصل بك الليلة". فاستدارت وابتسمت في وجهه وعامل المصعد يقفل الباب. كان لا يزال واقفاً ينظر إليها عند إقفال الباب، أما هي فقد أدركت خلال توجهها إلى الأعلى أن عصر يوم واحد قد غيّر مجرى حياتها. ارتسمت على وجه أنطوان ابتسامة بينه وبين نفسه لدى مغادرته الفندق.

الفصل الثاني

تكدر صفو مزاج بيتا جراء رد الفعل الذي لقيته من والدتها إثر اقتراحها عليها تناول الغداء مع أنطوان. أخبرتها بيتا أنهما التقيا في الفندق وقت احتساء الشاي، وتبادلا الحديث لوقت قصيرة، ثم اقترح أنطوان أن يتناولوا جميعاً الغداء في اليوم التالي. لم تمتلك الشجاعة للطلب من والدتها أن تسمح لها بتناول الغداء مع أنطوان وحدهما. فبدت أمها مذهولة عندما سمعت هذا الكلام منها.

"مع رجل غريب؟ بيتا هل فقدت رشدك؟ أنت لا تعرفين هذا الرجل. ماذا كنتما تفعلان حتى يدعوك إلى الغداء؟" بدت والدتها مرتابة جداً، إذ لم تترك بيتا وحدها سوى بضع ساعات، وليس من عادتها أن تتبادل الحديث مع رجل غريب. خيّل لوالدتها أنه من النوع الاستغلالي الذي يكمن للفتيات الصغيرات، ويحاول التقاط فريسة له في الفندق. لم تكن مونيكا ويتغينشتاين بقدر براءة ابنتها، وغلب عليها الظن أن هذا الرجل حاول التحرش بابنتها، والأسوأ من ذلك أن بيتا تجد في الأمر متعة. لقد أثبتت لوالدتها من خلال ذلك أنها ساذجة جداً وأنها لا تزال طفلة. لم تتخيل مونيكا من أنطوان إلا الأسوأ. قالت بيتا وهي تبدي انزعاجاً: "كنّا نشرب الشاي على الشرفة فحسب". لم تجرِ الأمور مع والدتها على خير ما يرام، لذا لم تعرف ما عساها تقول لأنطوان. "لقد بدأنا بتبادل الحديث، لم نخض في موضوع محدد، وقد كان غاية في الأدب".

"كم يبلغ من العمر؟ وما الذي يفعله هنا بدل المشاركة في الحرب؟"

قالت بيتا بثقة: "إنه سويسري". كانت هذه نقطة في صالحها على الأقل. لم تعتد أبداً الكذب على والدتها، بالرغم من أن بريجيت كانت تقدم على ذلك في كثير من الأحيان، وقد كانت هذه سابقة لبيتا. ولكن بدا لها بطريقة ما أن أنطوان يستحق كل مخاطرة تأخذها من أجله أو أي تخطٍ للحدود. ففي مجرد عصر يوم واحد لم يفز بولائها فحسب بل بقلبها أيضاً.

"لمَ لم يكن في عمله؟ لمَ عساه يتسكع في أرجاء الفندق؟" على حدّ علم مونيكا فالرجال المحترمون يشغلون أعمالاً، وليس لديهم أي وقت للتسكع في أرجاء الفنادق وقت احتساء الشاي، وانتقاء الفتيات الصغيرات للتحدث إليهن. "إنه في زيارة إلى هذا المكان مثلنا تماماً، إنه هنا للقاء عائلته لأن جده توفي منذ أونة قريبة".

قالت مونيكا بانزعاج: "يؤسفني سماع ذلك، قد يكون رجلاً محترماً جداً، ولكنه في النهاية غريب. إننا لم نتعرف إليه بشكل لائق من قبل أحد معارفنا أو معارفه، ولن نتناول الغداء معه". ثم خطر لها بعد دقائق معدودة أن تسأل بيتا عن اسمه: "ما اسمه؟"

"أنطوان دو فاليراند". تقاطعت عيناهما وتبادلتا نظرة دامت طويلاً. إذ تساءلت مونيكا ما إذا كانت بيتا قد التقت به من قبل، ولكن لم يكن ثمة ما يدعو للارتياب من الفتاة. فقد كانت مجرد فتاة صغيرة، وحمقاء، وساذجة.

قالت والدتها بهدوء: "إنه من عداد النبلاء". وفي كلامها الكثير من اللوم. وبالتالي لم يكن خياراً مناسباً لأي من ابنتيها كائناً من يكون. كان يوجد بعض الخطوط الحمراء التي لا ينبغي لأحد تخطيها، وكان هذا أحد هذه الخطوط. كانت بيتا تدرك ما يجول في خاطر والدتها، التي لم تكن مضطرة للإفصاح عما يدور في بالها.

قالت بيتا بقليل من الانزعاج: "هل هذه جريمة أن يكون من النبلاء؟" وحينما كانت تنظر إلى والدتها بدت عيناها مليئتين بالحزن مما أثار قلق أمها أكثر.

"هل سبق لك أن التقيتِ بهذا الرجل؟" نفت بيتا الأمر بهز رأسها، في الوقت الذي دخلت فيه بريجيت إلى الغرفة حاملة بيديها مشترياتها الكثيرة جداً. كانت قد أمضت وقتاً ممتعاً جداً في المحال التجارية بالرغم من أنها رأت أن المحال الموجودة في كولونيا أفضل. ولكن على الأقل هنا في سويسرا ليس لديهم بضائع ناقصة بسبب الحرب. من الجيد أن يحظى المرء باستراحة من هذا الهم كله.

سألتها بريجيت وهي تحمل حقيبة سوداء جديدة، وقفازين جميلين وطويلين لونهما أبيض: "ما هو شكله؟ هل هو وسيم؟"

صرخت بيتا في وجهها: "هذا ليس الموضوع. لقد بدا لي رجلاً لطيفاً جداً وقد دعانا نحن الثلاث إلى الغداء، وهذه بادرة مهذبة ولطيفة جداً من قبله".

سألتها والدتها بنظرة تعبّر فيها عن عدم موافقتها: "ولمَ برأيك فعل ذلك؟ ألأنه يتحرق شوقاً للقائي وبريجيت؟ قطعاً لا. يبدو جلياً أنه يود تمضية الوقت معك. كم يبلغ هذا الرجل من العمر؟" كانت الشكوك تنال منها كل منال على جميع الأصعدة.

"لستُ أدري، ربما في سن ألم". لكن في الواقع كانت تدرك أنه أكبر منه بخمس سنوات. كانت الكذبة الثالثة التي تنطق بها من أجل حمايته وحماية صداقتهما التي لم ترَ النور بعد. بدا لها أن تمضية الوقت مع أنطوان تستحق منها كل ذلك. أرادت أن تراه من جديد حتى لو رافقتها أمها وشقيقتها، إن لم تجد سبيلاً لغير ذلك. أرادت فحسب أن تمضي مزيداً من الوقت معه. من يدري متى عساهما يلتقيان من جديد، أو إن أمكنهما اللقاء حتى. قالت والدتها بشكل عبثي: "إنه أكبر منك بكثير". في حين كانت اعتراضاتها عليه تسير في اتجاه مختلف تماماً. ولكنها لم تصارح بيتا بهذه الاعتراضات.

لم تشأ ان تعطي لدعوة هذا الرجل أهمية كافية لتعلن صراحة عن اعتراضاتها، ولكن كانت بيتا تعرفها على أي حال. عدا عن كونه رجلاً غريباً لم يكن أنطوان من ملتهم. لم تكن مونيكا لتعرض ابنتيها أمام شاب

وسيم من غير ملتهم. ما كان جاكوب ليوافق على ذلك على الإطلاق، وهي كما دوماً توافق زوجها في رأيه دون أي تحفظ. لم يكن هناك أي جدوى من السماح لتوطيد أي نوع من العلاقة مع هذا الشاب الجديد الذي تعرفت إليه بيتا. لم تكن مونيكا لتفعل أي شيء لتشجيع رجل من النبلاء السويسريين للسعي وراء إحدى ابنتيها. حتى مجرد التفكير في ذلك كان أمراً جنونياً. بالتأكيد كان لديهم بعض الأصدقاء من غير ملتهم، ولكن ما كانوا أبداً ليعرّفوا أبناءهم على ابنتيها. ليس هناك جدوى من وضع الفتاتين في طريق محفوف بالخطر، أو إغرائهما بشيء ليس بوسعهما أبداً الحصول عليه. وبالرغم من مدى جمال ابنتيها لم تجرؤ أي من صديقاتها على تعريفهما إلى أبنائهن. في هذه الحالة كما في جميع الأحوال، الكبار أكثر دراية بالأمور. ظلت مونيكا متمسكة برأيها وحاسمة أمرها. إذ كان جاكوب ليقتلها لو لم تتمسك بهذا الرأي.

قالت بيتا بصراحة: "لا أفهم ما الضير في تناول الغداء معه؟ إنه ليس بقاتل في النهاية".

سألتها والدتها بعناد: "أنّى لك أن تعلمي؟" بكل تأكيد لم تكن مونيكا مستمتعة بالحديث، خصوصاً وأن بيتا لم تكن تشبه نفسها على الإطلاق. بالرغم من أنه ليس بالأمر المستغرب عليها أن تدافع عن الشيء الذي تعتقد به وتريده لنفسها بشدة. إلا أن تصرفها كان مجرد عناد من قبلها، ذلك لأنها لم تكن تعرف الرجل حتى. وبحضور والدتها معها، لن تتعرف إليه أبداً. لذا من الأفضل لو يتم إيقاف هذا النوع من العلاقة قبل أن تبدأ حتى. لقد أدركت تماماً ما كان جاكوب يتوقعه منها كأم للفتاتين. ولكن استخلصت من هذا الحديث كله أنه آن الأوان لإيجاد زوج لبيتا. إن حصل فجأة وبات الشبان يتحلقون حولها كالضواري، فهذا يعني أنه آن لها أن تستقر قبل حدوث أي مكروه.

كانت بيتا متحررة جداً بأفكارها، بالرغم من أنها في العادة تعتبر مطيعة لوالديها وحسنة التصرف. أخذت حينها مونيكا قراراً بوجوب التكلم

مع جاكوب في هذا الموضوع عند عودته. فقد أدركت أن في باله العديد من الشبان المحترمين والميسورين، ومن ضمنهم شاب يمتلك مصرفاً منافساً، ويقارب سن والد بيتا. ولكن أجمعت مونيكا على فكرة زوجها، كما كانت تفعل في جميع الأمور، أن الرجل الذي يكبر بيتا في السن، ويتمتع بالذكاء والرخاء المادي يناسبها جداً.

بالرغم من أنها لا تزال صغيرة جداً في السن، إلا أنها فتاة جدية جداً ولن يناسبها الشاب اليافع الذي في مثل سنها. ولكن عدا عن الخصائص الأخرى التي يجب أن يتمتع بها العريس، إلا أن العنصر الأهم الذي يجب أن يتمتع به بنظر والديها أن يكون من ملّتهم. وأي شيء مغاير لهذا الأمر سيكون خارج إطار السؤال. وبدا واضحاً أن الشاب الذي دعاهن إلى تناول الغداء يسعى في هذا الاتجاه. بدا واضحاً أنه من غير ملتهم بالاستناد إلى اسمه أنطوان دي فاليراند. ولكنه على الأقل سويسري وليس فرنسياً. إذ إن مونيكا وعلى مدى السنة الماضية باتت تكنّ كرهاً كبيراً للفرنسيين، وذلك منذ إعلان الحرب. حيث إن الفرنسيين منتشرون على الجبهات ويسعون إلى قتل ولديها.

لم تمض بيتا قدماً في الجدال مع والدتها، في الواقع عكفت عن الكلام في الوقت الذي كانت ترتدي فيه هي وبريجيت ملابسهما من أجل تناول العشاء.

سألتها بريجيت وهي تبدو لعوباً بهذا الثوب الداخلي القرنفلي اللون والمصنوع من قماش الساتان المطرز الذي اشترته لها والدتها ذاك اليوم: "إذاً ما الذي حصل فعلاً مع ذاك الرجل؟" كانت مونيكا قد وجدت أن هذا الثوب تعوزه الحشمة ولكن ليس هناك أي ضير من تدليل بريجيت بشرائه لها. إذ لن يراه أحد ما عدا شقيقتها والدتها على أي حال. "هل قام بتقبيلك؟"

قالت بيتا وهي تبدو غاضبة ومنزعجة: "هل جننتِ؟ من عساك تحسبينني؟ بالإضافة إلى ذلك إنه رجل نبيل. في الواقع، قام بإمساك ذراعي حتى لا أسقط أرضاً حينما أوشك على إيقاعي".

قالت بريجيت وقد سحرتها الفكرة: "هل هكذا التقيتما؟ يا للرومانسية! لِمَ لم تخبري ماما بذلك؟ لكانت شعرت بالامتنان لو عرفت أنه ساعدك حتى لا تقعي وتؤذي نفسك".

قالت بيتا بصوت خافت: "لا أظن ذلك". فقد كانت تعرف والدتها جيداً وتفهمها أكثر من بريجيت التي لا تزال تتصرف كالأطفال في فورات غضبها وردود أفعالها، على عكس بيتا تماماً. "اعتقدتُ أنه سيكون من اللائق أكثر إخبارها أننا التقينا خلال وقت احتساء الشاي".

قالت بريجيت وهي ترتدي فستاناً من قطن اللينين وتسرح شعرها الطويل الأشقر، في الوقت الذي كانت بيتا تتوجه إليها بنظرة امتعاض: "ربما. هل وقعتِ في الوحل؟ لكان ذلك محرجاً جداً". كانت بريجيت جميلة جداً وأشبه بملاك تقريباً. لطالما شعرت بيتا وكأنها نكرة عندما تكون بالقرب منها، كما ولطالما كرهت شعرها البني الداكن. لم تكن تحسد بريجيت على جمالها وإنما تمنت لو تبدو أكثر شبهاً بها. كانت بريجيت تلفت الأنظار بقوامها أكثر من بيتا التي تبدو إلى جانب شقيقتها الصغرى كشقيقة صغرى لها. كما وبدت بريجيت تتمتع بحكمة أكبر في ما يتعلق بأساليب التعامل مع الرجال. كانت تتكلم معهم أكثر مما تفعل بيتا وتحب ممازحتهم ودفعهم إلى الجنون. أما بيتا فتشعر بارتياح أكبر عند التواجد في أوساط النساء. ولكن بريجيت من النوع الذي لا يخشى مغازلة الرجال وتمتلك مهارة في تعذيبهم. شرحت لها بيتا قائلة: "لا، لم أقع في الوحل. قلتُ لك إنه حال دون وقوعي".

"كم هذا لطف منه. ماذا فعل عدا ذلك؟"

قالت بيتا وهي ترتدي فستاناً حريرياً أحمر، أبرز التناقض بين لون شعرها وبشرتها: "لا شيء. اكتفينا بتبادل الحديث". بدت بيتا متجهمة. فقد باتت مضطرة لإخبار أنطوان عندما يتصل بها أنه ليس بوسعها رؤيته. إذ أدركت جيداً أنه ليس أمامها أي مجال لإقناع والدتها بتناول الغداء كمجموعة وبالتأكيد لن تتمكن من إقناعها بالذهاب وحدها.

"عمّ تكلمتما؟"

"عن الفلسفة، وأرضه، وارتياد الجامعة، لم نتكلم في أي شيء مهم. إنه لطيف جداً".

نظرت إليها بريجيت بحماسة فتاة بعمر السابعة عشر وقالت: "آه يا الله بيتا، هل أنت مغرمة؟"

"بالطبع لا فأنا لا أعرفه حتى. ولكنني وجدته لطيفاً فحسب عندما تحدثت إليه".

حذّرت بريجيت شقيقتها الكبيرة بنية حسنة، الأمر الذي زاد من تعاسة بيتا، وقالت: "لا يجدر بك التكلم مع الرجال حول هذه الأمور. إنهم لا يحبونها. سيعتقدونك غريبة".

"أظنني غريبة بالفعل، فأنا لستُ أبدي اهتماماً...". وقد كافحت لإيجاد الكلمات المناسبة حتى لا تهين بريجيت. "أنا لا أبدي اهتماماً بالأمور الأقل أهمية، فأنا أحب المواضيع الجدية مثل موضوع الإغريق القدامى".

"أتمنى لو تتكلمين عن أمور مغايرة مثل الحفلات، والموضة، والمجوهرات. هذا ما يحب الرجال سماعه. وإلا فسيظنون أنك أكثر ذكاء منهم، فتدفعينهم إلى الهرب خوفاً منك". كانت بريجيت تتمتع بالحكمة بالرغم من صغر سنها، وذلك استناداً إلى الفطرة وليس التجربة.

"ربما سأفعل". لم تكن واثقة أنها تأبه لذلك حتى. بدا لها معظم الشبان الذين التقت بهم في الحفلات سخيفين.

كانت بيتا تحب شقيقها هورست حباً جماً، ولكنها تفضل الموت على أن تتزوج برجل يشبهه. بوسعها تقبل فكرة الزواج برجل مثل آلم، ولكن فكرة الزواج برجل من عالمها لم تبدُ لها فكرة محبذة، وربما لم تخطر لها على الإطلاق. إذ بدوا لها جميعاً مضجرين ومملين، وفي أغلب الأحيان حمقى وسطحيين. أما أنطوان فبدا مختلفاً جداً. إذ بدا أصدق وأعمق من جميع الرجال الذين التقت بهم، وأعطى انطباعاً بأنه قادر على حمايتها وصونها. لم يسبق لها أن شعرت تجاه أي إنسان التقت به في غضون

بضع ساعات بمثل ما شعرت تجاهه. لم تضع في رأسها أن هذه العلاقة ستصل إلى أي مكان. كما ولم تمتلك أدنى فكرة حول ماهية شعوره نحوها. إذ لم تكن تمتلك أياً من حواس بريجيت أو أساليبها اللعوبة مع الرجال. لقد أمكن لبريجيت أن تخبرها بعد لحظة واحدة أن أنطوان مولعٌ بها، ولكنها لم ترهما سوياً. رغم أن بريجيت شعرت أن أنطوان معجبٌ ببيتا، وأن الدعوة إلى الغداء إشارة إلى أنه يبدي اهتماماً بها، ولكنها لم تقل شيئاً من هذا القبيل لبيتا. بدا لها جلياً أن شقيقتها الكبرى لم تكن في مزاج يسمح لها بمناقشة الموضوع أكثر.

كانت بيتا لا تزال تلتزم الصمت عند توجههن إلى الأسفل بواسطة المصعد من أجل تناول العشاء. وقد طلبت والدتهما الجلوس في الخارج على الشرفة نظراً إلى أن الليلة كانت دافئة. كانت مونيكا ترتدي ثوباً حريرياً أنيقاً جداً أزرق اللون، ووضعت حول عنقها عقداً مصنوعاً من حجر الياقوت الأزرق، وانتعلت حذاء حريرياً أزرق يليق بثوبها، وحملت بيدها حقيبة زرقاء أيضاً. كما وكانت تضع قرطين مرصعين بالألماس وحجر الياقوت الأزرق يليقان بالعقد. بدت النساء الثلاث جميلات جداً عندما أرشدهن النادل إلى طاولتهن. واصلت بيتا التزام الصمت عندما طلبن وجبتهن، في حين كانت بريجيت ووالدتها تتبادلان الأحاديث حول التسوق الذي قامتا به عصر ذلك اليوم. قالت مونيكا لبيتا إنهما رأتا أثواباً عدة قد تبدو جميلة عليها، ولكن لم تبدِ بيتا أي اهتمام. مازحتها بريجيت قائلة: "من المؤسف أنه لا يسعك ارتداء الكتب. ستحصلين على متعة أكبر بكثير في المحال التجارية". قالت بيتا ببساطة: "أفضل أن أخيط ملابسي بنفسي". فأبدت شقيقتها امتعاضها.

"لمَ عساك تتحملين عناء ذلك في الوقت الذي يسعك شراءها من المحال؟"

"لأنني حينها أحصل على ما أشاء". في الواقع كانت قد خاطت بنفسها الثوب الحريري الأحمر الذي ترتديه، وقد بدا لائقاً جداً عليها وأظهر جمال جسدها النحيف ببساطة.

كانت خياطة موهوبة وقد أحبت الخياطة منذ كانت طفلة. حيث علمتها مربيتها فن الخياطة، بالرغم من أن مونيكا لطالما قالت لها إنها ليست مضطرة للقيام بأعمال الخياطة. ولكنها لطالما أحبت ممارسة فن الخياطة. كانت قد صنعت بنفسها بعضاً من أثواب السهرة خاصتها بعد أن نقلت موديلاتها من المجلات ومن رسومات لمجموعات ملابس فرنسية كانت قد رأتها والتي لم يعد بالإمكان الحصول عليها الآن على أي حال. كانت تهوى إجراء التعديلات على هذه الأثواب وتبسيط موديلاتها لتناسب ذوقها. ذات مرة صنعت ثوب سهرة أخضر من قماش الساتان وقدمته لأمها كهدية، فدُهشت مونيكا بمدى الإتقان في خياطته. كانت لتقوم بالأمر المماثل لبريجيت، ولكنها لطالما قالت إنها تكره الملابس المنزلية الصنع، إذ تجدها بشعة. وبدل ذلك كانت بيتا تصنع لشقيقتها الملابس الداخلية الساتان والمطرزة التي تحبها، وتنفذها بألوان مختلفة. فتنال هذه القطع إعجاب بريجيت.

كن قد أنهين تناول العشاء عندما وجدت بيتا والدتها ترفع عينيها إلى ما وراء كتفي ابنتها الكبرى وعلى وجهها تعابير الذهول. لم تمتلك بيتا أدنى فكرة عن السبب، فالتفتت لتجد أنطوان يقف وراءها وعلى وجهه ابتسامة دافئة سحرت المجموعة برمتها.

سأل بلطف: "سيدة ويتغينشتاين؟" متجاهلاً ابنتيها ومن ضمنهما الابنة التي سحرته عصر ذلك اليوم نفسه. بدا وكأن والدتهما قد لفتت انتباهه على نحو آسر. "عذراً على مقاطعتكن، ولكنني وددتُ أن أقدم لكنّ نفسي، وأعتذر أيضاً على دعوة ابنتك إلى شرب الشاي دونما مرافق. فقد تعثرت قليلاً عندما كانت تسير بالقرب من البحيرة وأعتقد أن كاحلها كان يؤلمها. وحسبتُ أن الشاي قد ينفعها. أرجو منك قبول اعتذاري".

"لا، أنا... على الإطلاق... بالطبع... هذا لطف منك...". توجهت بنظرها إلى بيتا، ثم عادت لتنظر إليه وهو يعرّفها عن نفسه، ثم انحنى بأدب وقبّل يدها. وقد فعل الصواب بعينه عندما لم يقم بأمر مماثل مع بيتا،

حيث إنها ليست متزوجة، ومن الأفضل بمكان تقبيل يد المرأة المتزوجة وليس العزباء كنوع من اللياقات العامة. لم تكسب منه بيتا سوى الانحناءة كما كانت تفرضه اللياقات. في ألمانيا كان الشبان أمثاله وأمثال شقيقها ينحنون مثلما فعل ويطرقون كعبي أحذيتهم ببعضها البعض. ولكن الفرنسيين والسويسريين لا يفعلون ذلك، لذا لم يقم هو بذلك. بدت مونيكا مرتبكة على الفور وقالت: لم ألحظ أنها مصابة بأذى فالتفت أنطوان لينظر إلى بيتا، وبالكاد التقط أنفاسه عندما رآها مرتدية الفستان الأحمر. كانت تشع نوراً كالنجمة عندما وقع نظره عليها من زاوية الغرفة، فعمد إلى الاستئذان من والدته والانسحاب ليتوجه للتعرف إلى والدة بيتا.

لم يحاول أبداً تعريف والدته بوالدتها ذلك لأنه أدرك جيداً أنه سيضع نفسه في مأزق كبير، لأن بيتا أرادت منه الادعاء أنه سويسري. لذا لم يكن بمقدوره تعريف مونيكا إلى والدته، وشعر بالسرور للقائه بها وببريجيت الرائعة الجمال، التي كانت تحدق به غير مصدقة الأمر. بالكاد نظر إليها وعاملها وكأنها طفلة، تماماً كما هي عليه فعلياً، وليس كسيدة كما كانت تتوق، مما نال رضا مونيكا. كان أنطوان يتصرف باحترام، وبدا جلياً أنه كريم الأصل وليس باستغلالي كما كانت تخشى.

سأل بيتا باهتمام: "كيف حال كاحلك يا آنستي؟"

"إنه على ما يرام شكراً جزيلاً لك يا سيدي. لقد كنتَ لطيفاً جداً". ثم احمرّت وجنتا بيتا خجلاً عندما قالت هذا الكلام.

"لا داعٍ للشكر كان هذا أقل ما يمكنني فعله". ثم عاد ليصب اهتمامه على الأم، وعرض عليها من جديد دعوته على الغداء، مما أربك مونيكا. إذ كان مؤدباً جداً، ودقيقاً في تصرفاته، وبارعاً للغاية، ودافئاً، ولطيفاً جداً مما أعجز مونيكا حتى عن صده، فعمدت إلى الموافقة رغماً عنها، واتفقا على الاجتماع في اليوم التالي في الساعة الواحدة ظهراً على الشرفة نفسها لتناول الغداء. بمجرد الاتفاق على الترتيبات قام بالانحناء أمامهن من جديد، وقبّل يد السيدة ويتغينشتاين من جديد وتركهن ليعاود الانضمام إلى

عائلته دون أن يعمد إلى رمق بيتا ولا بنظرة اشتياق واحدة. كان صائباً تماماً في تصرفاته واتسم باللطف. وبمجرد مغادرته نظرت مونيكا إلى ابنتها باندهاش كبير.

"بتّ أرى سبب إعجابك به. إنه شاب لطيف جداً. إنه يذكرني بآلم". كانت مجاملة كبيرة جداً من قبلها.

"لقد ذكرني به أيضاً". إلا أنه أجمل منه بكثير، ولكنها لم تقل ذلك، وواصلت تقطيع اللحم في طبقها، ودعت ألا يسمع أحد دقات قلبها القوية. كان أنطوان قد دفع بقلبها إلى الخفقان بسرعة لا توصف، ولكن ليس لهذا الأمر أهمية. إذ مهما كانا يكنّان من مشاعر لبعضهما البعض، فلن يصلا إلى أي مكان، ولكن على الأقل بات بوسعها رؤيته مرة أخرى على أي حال. ستكون ذكرى سعيدة تحملها معها. ذكرى الشاب الوسيم الذي التقت به في جنيف. كانت واثقة أنها لن تلتقي بأي شاب يضاهيه بأي شكل من الأشكال في السنوات القادمة. كانت قد حسمت هذا الأمر، وتخيلت نفسها وهي تتناول عشاءها عانساً لبقية حياتها. كانت خطيئته التي لا تُغتفر أبداً أنه ليس من ملتهم. ناهيك عن ذكر أنه ليس سويسرياً أيضاً. لم يكن هناك أي أمل على الإطلاق.

سألتها أمها وهي تبدي اهتماماً بعدما غادر: "لمَ لم تخبريني أنك آذيت كاحلك عصر هذا اليوم؟"

"لم يكن بأمر يُذكر، لقد اصطدم بي عندما كنت متوجهة إلى الشرفة وقت احتساء الشاي، بعد أن عدت من نزهتي على ضفاف البحيرة. أعتقد أنه أسف لحالي. لقد لويته قليلاً فحسب".

"في هذه الحالة كان لطفاً منه أن يدعوك لشرب الشاي. وأن يدعونا لتناول الغداء في الغد". استطاعت أن ترى أن والدتها وقعت تحت تأثير سحره هي الأخرى، إذ كان من الصعب ألا تفعل. فقد كان وسيماً جداً ولطيفاً مع الجميع. وقد شعرت بيتا بسرور ضمني لكونه تجاهل بريجيت. إذ إن جميع الرجال الآخرين الذي عرفتهم بيتا قاربوا على الإغماء قرب

رجلي بريجيت. أما هو فبدا وكأنه لم يتأثر بجمالها. فقد أذهلته بيتا بالرغم من أنه لم يُظهر هذا الأمر أيضاً. حيث بدا طبيعياً للغاية وودوداً مثل آلم تماماً، ولهذا السبب قبلت مونيكا دعوته على الغداء. فهو قطعاً ليس باستغلالي كما كانت تخشى، وإنما محترم جداً والحديث إليه محبب. لم تضف بيتا أي كلمة في هذا الموضوع، في الوقت الذي كن يواصلن فيه تناول العشاء. لم تعمد حتى إلى سرقة نظرة باتجاهه لدى مغادرتهن الشرفة، وهو بدوره لم يبذل أي مجهود للتكلم معهن من جديد. لقد تبين لمونيكا أنه ليس فيه ما يدعو للشك أو الريبة إطلاقاً. حتى جاكوب ما كان بمقدوره أن يرفضه. لقد بدا جلياً أن لقاء الصدفة لم يضر الجميع شيئاً.

وحدها بريجيت كانت أكثر حذاقة من بيتا وأنطوان، وعندما وصلت الفتاتان أخيراً إلى غرفتهما بعدما تمنيتا لوالدتهما ليلة هانئة، همست لشقيقتها الكبرى بعينين واسعتين دليلاً على إعجابها به: "يا الله يا بيتا إنه رائع. وهو مجنون بك. لقد أفلحتما أنتما الاثنان بخداع ماما تماماً". اعتقدت بريجيت أنه أمر رائع وباتت تتخيلهما عاشقين يلتقيان في منتصف الليل خلسة.

قالت بيتا: "لا تكوني غبية". وهي تخلع عنها الثوب الأحمر، ثم ألقته على كرسي متمنية لو أنها ارتدت ثوباً أكثر جمالاً، إذ بعد قليل من التفكير بأنطوان بدا لها الثوب عادياً جداً. واعتقدت أن هذ الأمر ينسحب عليها هي الأخرى. "إنه ليس مجنوناً بي فهو لا يعرفني حتى. ونحن لم نخدع ماما. لقد دعانا إلى الغداء وهي وافقت. وهذا كل ما في الأمر بحق السماء. إنه يتصرف بود فحسب".

علّقت بريجيت: "أنت من تبدين غبية الآن. الرجال أمثاله لا يدعونك إلى الغداء ما لم يكونوا يهيمون بك. حتى إنه لم ينظر إليك عندما أتى صوب طاولتنا، أو بالكاد نظر إليك، وهذا يفسر كل شيء".

بدت بيتا فرحة وقالت: "ما معنى هذا؟"

"آه بيتا – ضحكت شقيقتها عليها – أنت لا تعرفين شيئاً على الإطلاق في ما يخص الرجال. عندما يتصرفون وكأنك لا تعنين شيئاً لهم،

فهذا يعني أنهم يهيمون بحبك. وعندما يثيرون جلبة كبيرة حولك ويتصرفون وكأنهم غارقون في حبك، فهم عادة كاذبون". فضحكت بيتا على تحليل شقيقتها الحكيم للوضع. ولكنها كانت أكثر دراية بشؤون العالم والرجال من بيتا. كانت تتمتع بحس قوي، أفضل من شقيقتها الخجولة والجدية.

ضحكت بيتا معها ولكنها كانت سعيدة من الداخل. "هذا سخف. إذاً أنت تقولين لي إن جميع الرجال الذين يتجاهلونني، كحال جميع الرجال الذين كانوا في المطعم اليوم، هم في الواقع يهيمون بحبي. يا للروعة! وسيتوجب عليّ بكل تأكيد أن أحذر من الرجال الذين يبدون حبهم لي في حال كانوا جميعاً كاذبين. يا الله كم هذا مربك".

وافقتها بريجيت القول: "نعم بالفعل، ولكن هذا واقع الحال. فالرجال الذين يثيرون جلبة هم الذين يتسلّون فحسب. ولكن الآخرين أمثاله هم الذين يعنون الأمر".

"يعنون ماذا؟" ونظرت بيتا إلى شقيقتها الصغرى وهي مستلقية في السرير مرتدية ثوب الساتان الداخلي وتبدو كشابة ساحرة.

"الرجال أمثاله يعنون أنهم يحبونك. أنا واثقة أنه وقع في حبك".

قالت بيتا بصراحة وهي تخلع رداءها الداخلي وتلبس رداء النوم فبدت فيه كطفلة مقارنة بشقيقتها: "حسناً لن ينفعه ذلك شيئاً، فسنعود إلى كولونيا في غضون الأسابيع الثلاثة المقبلة". لطالما صنعت لنفسها ملابس ليلية قطنية بيضاء اللون تشبه التي كانت ترتديها عندما كانت طفلة صغيرة. إذ تشعر بالراحة لدى ارتداء هذه الملابس وتحبها جداً.

قالت بريجيت بغموض: "يمكن أن يحصل الكثير من الأمور في غضون الأسابيع الثلاثة". فهزت بيتا رأسها وهي تبدو جدية من جديد. إذ كانت أكثر دراية منها.

"لا لن يحصل شيء فهو ليس من ملتنا. لا يسعنا إلا أن نكون صديقين".

لقد بعث هذا الخبر الحزن في قلب بريجيت أيضاً، في الوقت الذي كانت الاثنتان تفكران بوالدهما. قالت بريجيت بحزن: "هذا مؤسف، ولكن على الأقل بوسعك مغازلته، فأنتِ بحاجة إلى التمرن على ذلك".

قالت بيتا بعد تفكير وهي تدخل الحمام لتغسل وجهها وتنظف أسنانها: "نعم أعتقد أنني بحاجة إلى ذلك. لم تأتِ أي من الفتاتين على ذكر أنطوان من جديد تلك الليلة، استلقت بيتا على السرير وظلت تفكر فيه لساعات، ثم قبل أن تغفو خطر على بالها مدى تعاسة حظها كون الرجل الأول الذي سحرها كلياً ليس من ملتها. ثم زيادة في سوء حظها، هو فرنسي أيضاً. لا يمكن أبداً توقع أي شيء من هذه العلاقة، ولكن على الأقل بوسعها الاستمتاع برفقته خلال الأسابيع الثلاثة المقبلة. وعندما قاربت الساعة الرابعة فجراً غفت أخيراً.

الفصل الثالث

سار الغداء مع أنطوان في اليوم التالي على خير ما يرام، وكما تمنت بيتا تماماً. حيث ساد جو من الأدب، والدفء، والمتعة، والاحترام الشديد. وتصرف أنطوان باحترام شديد مع والدتها، وعامل بريجيت كفتاة صغيرة سخيفة، ودفع الجميع إلى الضحك عند ممازحتها. كان أنطوان ذكياً، وساحراً، ولطيفاً، ومرحاً، ورفقته ممتعة جداً. ناهيك عن ذكر أنه فائق الجمال. أخبرهن قصصاً مضحكة عن عائلته، ووصف لهن طبيعة إدارة أملاك عائلته، واصفاً عملية الحفاظ عليها بالكابوس، بالرغم من أنه بدا واضحاً أنه يحب القيام بذلك. لم يزلّ لسانه أبداً، فلم يأتِ على ذكر واقع أن هذه الأملاك موجودة في فرنسا وليس في سويسرا. مع نهاية الغداء كان قد نال إعجاب مونيكا، فلم ترَ أي سوء في أن يصطحب بيتا بنزهة بعد الغداء. إذ لم يتقدم بأي مفاتحات غرامية خلال الغداء، ولم يبدر منه أي حركة تدل على عدم نزاهته. على حدّ علم والدة بيتا كان مجرد رجل لطيف جداً، يقضي وقتاً ممتعاً برفقة ثلاث صديقات جديدات. لم ينتَبْ والدة بيتا أي شكوك حول تصرفاته. شعر كل من بيتا وأنطوان براحة كبيرة عندما باتا وحدهما أخيراً، فمشيا أميالاً عديدة على ضفاف البحيرة. وعندما توقفا أخيراً ليجلسا ويتحدثا، جلسا هذه المرة على حافة صغيرة على الشاطئ، ووضعا رجليهما في الماء، وخاضا في ألف موضوع. بدا أنهما يتشاطران أذواقاً وآراء متشابهة حول كل شيء تقريباً.

"أشكرك على دعوتنا إلى الغداء، لقد كنت لطيفاً جداً مع والدتي وبريجيت".

"لا تكوني سخيفة هما اللتان كانتا لطيفتين معي. ستغدو شقيقتك امرأة رائعة الجمال وتكسر قلوب الرجال. آمل أن يزوّجوها قريباً".

قالت بيتا بابتسامة رقيقة: "سيفعلون". كانت قد قدّرت الطريقة التي عامل فيها بريجيت. فقد أبقاها في مكانها، ومازحها كطفلة أي تماماً كما هي عليه، ولم يكنّ ناحيتها أي مشاعر رومانسية من أي نوع. شعرت بيتا بقسوة ذلك بعض الشيء ولكنها كانت مسرورة. إذ كانت تواجه صعوبة في التعامل مع بريجيت. "إنها واقعة في حب أحد أصدقاء هورست وسيتكلم والدي مع والده قريباً. أنا واثقة أن خطوبتها ستتم في نهاية السنة".

سألها أنطوان مبدياً اهتمامه بالرغم من أن بيتا لم تلحظ ذلك: "وماذا عنكِ؟ هل سيدبرون لك زوجاً؟"

قالت بهدوء وبدت وكأنها تعني ما تقوله: "آمل ألا يفعلوا فأنا لن أقبل. لا أحسبني سأتزوج في حياتي قط".

"لمَ لا؟"

"لأنني لا أتصور أنني سأرغب بالشخص الذي سيختارونه لي. مجرد التفكير في ذلك يضايقني. أنا لا أود زوجاً لا أحبه، أو أعرفه، أو أريده. أفضل أن أبقى وحدي إلى الأبد". شعر وهو ينظر إليها أن في صوتها صدقاً حقيقياً، وخالجه شعور بالراحة والحزن لأجلها في الوقت نفسه.

"الأبد وقت طويل جداً يا بيتا. سترغبين بإنجاب الأطفال، ويجدر بك ذلك. لعلك تلتقين يوماً ما بشخص تقعين في حبه، أنا واثق من ذلك. أنت لا تزالين في العشرين من عمرك فحسب، ولديك حياة بأكملها أمامك". بدا حزيناً وهو يقول هذا الكلام، وعندما التفتت إليه، تقاطعت عيناهما وصمتا لوقت طويل قبل أن تجيبه.

"وأنت أيضاً".

"أنا لدي حرب أشارك فيها. من يدري من منا سيبقى حياً؟ الرجال يسقطون في المعارك مثل الذباب". ثم بعدما قال هذا الكلام، فكّر في شقيقيها وأسف على ما قاله. "أنا واثق أننا جميعاً سنخرج من هذه المحنة

في النهاية، ولكن هذا الوضع يصعّب علينا التفكير في المستقبل. أنا أيضاً لطالما ظننتُ أنني سأبقى عازباً. لا أحسبني وقعتُ في الحب في حياتي". ثم نظر إليها وقال بصدق: "إلى أن التقيت بك". فذُهلت لكلامه تماماً كما ذُهل هو نفسه: بعد هذا الكلام الذي تفوه به، ساد صمت طويل جداً، ولم تعرف بيتا بما عساها تجيبه، بالرغم من أنها أدركت هي الأخرى أنها وقعت في غرامه، علماً بأنهما التقيا ببعضهما البعض منذ أونة قريبة جداً. كان جنوناً منه قول هذا الكلام، والجنون أيضاً هو إحساسهما بهذه المشاعر، ولكن هذا الذي حصل وليس في وسعهما فعل أي شيء حيال هذا الأمر. كان ذلك مستحيلاً وقد أدرك كلاهما ذلك، ولكنه قال ما قاله على أي حال.

قالت بسرعة: "أنا من غير ملتك". ثم أضافت بعد أن امتلأت عيناها بالدموع: "لا يسعني أبداً الزواج بك". فأخذ يدها ووضعها في يده.

"لقد حدثت في الحياة أمور أغرب يا بيتا. الناس يقدمون على الزواج بمن هم ليسوا من ملتهم". قضى اليوم كله وهو يحوم حول فكرة الزواج بها. كان حلماً مجنوناً بالنسبة إليهما، ولكن لم يسعه إنكار مشاعره. لقد أخذه الأمر اثنين وثلاثين سنة حتى وجدها، ولم يرغب أبداً بخسارتها الآن أو في أي وقت كان، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولكن بكل تأكيد يوجد عقبات في طريقهما. وستكون في أفضل الأحوال عقبات عسيرة جداً. حتى عائلته لن تروقها الفكرة. فهو الكونت دو فاليراند، ولم يخبرها بهذا الأمر بعد. كان واثقاً أن ذلك لن يشكّل أي فارق بالنسبة إليها. ذلك لأن ما جذبهما إلى بعضهما البعض كان أعمق بكثير من هذا المانع، والألقاب، والمراكز، والأسماء. لقد أحب كل ما فيها، كلامها، وشعورها ونظرتها إلى العالم، وهي الأخرى أحبت الأشياء نفسها فيه. كانا منجذبين إلى بعضهما البعض للأسباب الصحيحة ولكن قد تقدم ملة كل واحد منهما، وجنسيته، وولاؤه، وعائلته على التآمر لإبعادهما عن بعضهما البعض. سوف تسعى كل هذه العوامل إلى عدم السماح لهما بالفوز، إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً. سيبقى هذا رهن بالوقت.

قالت رداً على تعليقه حول الزواج بمن هم ليسوا من ملتهم: "لن تسمح عائلتي بذلك أبداً. قد يقتلني والدي. قد يتبرأون مني". لم يكن لمثل هذا الامر سابقة في عائلتها.

"ربما لن يحصل أي مما تقولينه في حال توجهنا إليهم وقمنا بمصارحتهم في أحد الأيام. عائلتي ستغضب أيضاً. سيتطلب الأمر وقتاً حتى يعتادوا على الفكرة. كما ولدينا حرباً نخوضها أولاً. إن قررنا المضي قدماً في هذا الأمر، فهناك مشوار طويل أمامنا. وهذه مجرد بداية، ولكنني أريدك أنت تعلمي أنني أحبك. وأنا لم أتوجه بهذه الكلمة لأي أحد من قبل". كانت الدموع تملأ عينيها عندما التفتت إليه وهزت رأسها. كانا جالسين على الشاطئ بالقرب من بعضهما البعض، يمسكان بيدي بعضهما البعض، عندما تكلمت بيتا بصوت خافت جداً وقالت: "أنا أيضاً أحبك". فالتفت وابتسم لها، ودون أن ينطق بأي كلمة انحنى صوبها، وقبّلها، وضمها إليه لوقت طويل. لم يقدما على فعل أي شيء لا يجدر بهما فعله، فقد كان سعيداً بتواجده معها فحسب.

"أردتك أن تعلمي أنني أحبك، هذا في حال حصل لي أي مكروه قبل عودتي. أريدك أن تعلمي أن هذا الرجل يحبك وسيظل يحبك حتى آخر يوم من عمره". كان اعترافاً كبيراً من قبله، ذلك لأنه تعرّف إليها منذ يومين فحسب. ولكنه كان يعني ما يقوله. وهي الأخرى بادلته هذا الشعور.

قالت بحزن: "آمل ألا يأتي هذا اليوم إلا بعد سنوات بعيدة". وعنت أن يظل يحبها حتى آخر يوم في عمره.

قال: "لن يكون قريباً". جلسا في ذاك المكان لساعة، ثم عاود تقبيلها من جديد قبل رجوعهما. لم يرد أن يفعل أي شيء يعرضها للأذية أو الخطر. جل ما أراد فعله أن يحبها ويحميها، ولكن حقيقة أنهما يكنان شعوراً لبعضهما البعض وضعتهما في موقف صعب. لن يكون طريقهما سهلاً ولكن بدا لهما هذا الطريق وكأنه قدرهما المحتوم. خالج كل منهما هذا الشعور عندما رجعا سيراً على الأقدام إلى الفندق واضعين يداً بيد.

رسما خطة لمقابلة بعضهما البعض في وقت لاحق تلك الليلة. قالت له إن بريجيت تغط عادة في نوم عميق، لذا لن تسمعها عندما تغادر. كانا سيلتقيان في الحديقة في منتصف الليل ليتكلما فحسب. ستكون مخاطرة كبيرة من قبلها في حال اكتشفت أمها الأمر، ولكن قالت بيتا إنه في حال ظلت والدتها أو بريجيت مستيقظتين لن تتوجه لمقابلته. فحثها على التزام الحيطة والحذر، بالرغم من أن ما يفعلانه ليس بالأمر الخطير. أفلحت بيتا في الخروج من الغرفة بمعجزة، كما وآثرت الخروج أيضاً في جميع الليالي التي تلت هذه الليلة. لمدة ثلاثة أسابيع كانا يقومان بالتنزه، ويشربان الشاي سوياً، ويلتقيان في وقت متأخر من الليل. جل ما كانا يفعلانه هو تبادل القبلات والكلام. وعندما حان موعد مغادرته جنيف، وذلك قبل موعد مغادرتها بوقت قصير، كانا قد غرقا في حب بعضهما البعض بطريقة ما، واعتزما مصارحة عائلتيهما وقت انتهاء الحرب، أياً كان هذا الوقت. وحتى ذلك الوقت، اتفقا على أن يقوم بمراسلتها. كان لديه نسيب في جنيف سيعمد إلى إرسال هذه الرسائل إلى بيتا في كولونيا. لقد دبر الأمر بشكل جيد، وإلا فسيستحيل إيصال الرسائل من فرنسا إلى ألمانيا.

كانت ليلتهما الأخيرة سوياً بمثابة عذاب لهما، حيث قام بضمّها بين ذراعيه لساعات. فرجعت إلى غرفتها وقت بزوغ الفجر تقريباً والدموع تنهمر على وجنتيها، ولكنها أدركت أنه في حال وقف القدر إلى جانبهما وساعدهما، فستراه من جديد. كان عازماً على أخذ تسريح بالزيارة وقت الميلاد، ولكن وجب عليه الذهاب إلى دياره في دوردوني. ما من سبيل يمكّنه من الذهاب إلى ألمانيا لرؤيتها طالما أن الحرب ما تزال دائرة. ولم تكن عائلتها تنوي العودة إلى سويسرا من جديد. لذا سيتوجب عليهما الانتظار. ولكن لم يخالج أي منهما شك بأنهما سينتظران. ما وجداه لدى بعضهما البعض لا يحدث سوى مرة واحدة في الحياة ويستحق منهما الانتظار. كان كل منهما واثقاً تماماً من مشاعره تجاه الآخر. همس لها قائلاً عندما تركته في الحديقة: "لا تنسي كم أحبك. سأظل أفكر بك كل دقيقة إلى أن أراك من جديد".

همست له وتنهيدة تسبقها: "أحبك". ثم عادت إلى غرفتها التي تتشاطرها مع بريجيت ونامت على سريرها. لم تقوَ على النوم، وبعد ساعتين رأت رسالة يتم دسها تحت عتبة الباب. فنهضت وأخذتها وعندما فتحت الباب بحذر كان قد رحل. أفادت الرسالة بما كانت على علم به، أي مدى حبه الكبير لها، وأنها ستكون من نصيبه في يوم من الأيام. طوتها بحذر تام ووضعتها في الدرج حيث تضع القفازين. لم تمتلك الجرأة على إتلافها، رغم أنها أدركت أن عليها فعل ذلك توخياً للأمان. ولكن نظراً لأن بريجيت أطول من بيتا، لم تعتد أبداً على ارتداء قفازيها، لذا أدركت أن الرسالة ستكون بأمان. لم تمتلك بيتا أدنى فكرة عما سيحدث الآن. جل ما كانت تعرفه أنها تحبه وليس بيدها شيء سوى الصلاة لأجل بقائه على قيد الحياة. فقد سيطر على قلبها.

أفلحت بيتا بمعجزة في إبقاء كل ما قد حدث بعيداً عن علم بريجيت، وأصرت على القول إنها وأنطوان مجرد صديقين. خاب ظن بريجيت لدى سماعها ذلك، وفي البداية لم تكن تميل إلى تصديقها، ولكنها فعلت في النهاية. إذ لم تمتلك أي خيار آخر. فبيتا لم تظهر أي إشارة من الحب أو الشغف الذي تكنهما لأنطوان، ولم تعترف لها بأي شيء، وذلك لوجود الكثير من العقبات. لم تقوَ على الوثوق بأي أحد بشأن مستقبلها مع أنطوان سوى بأنطوان نفسه، تماماً كما كان يثق بها. اعتبرت والدتها أن قيام بيتا بتأسيس صداقة مع هذا الشخص أمر جيد، وقالت إنها تأمل أن تراه من جديد عند عودتهم في أحد الأيام. ومع استمرار الحرب، أدركت أن جاكوب سيود معاودة المجيء إلى سويسرا توخياً للسلامة.

شعرت النساء الثلاث بضيق كبير إثر عودتهن إلى كولونيا في شهر أيلول. كانت الحرب لا تزال دائرة، وقد ولّد سماع أخبار مقتل أبناء الناس وأزواجهم وإخوانهم الحزن في نفوسهن. إذ مات العديد من الأشخاص حتى الآن، ولم تنفك مونيكا تشعر بالقلق على ولديها، تماماً مثل حال جاكوب الذي كان قلقاً على ابنتيه أيضاً. وها هو ذا قد فعل ما وعد زوجته بفعله.

حيث تكلم في شهر تشرين الأول مع والد صديق هورست في برلين، ذلك الشاب الذي أعجبت به بريجيت، وطارت فرحاً حينما كلمها. وقد وافق الشاب، ورأت عائلته أن حدوث زواج بين فردين من أفراد العائلتين فكرة ممتازة. أعطى جاكوب ابنته الصغرى هدية كبيرة جداً ووعد بشراء منزل جميل لهما في برلين. وتماماً كما توقعت بيتا، تمت خطوبة بريجيت في نهاية السنة عندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها.

لو كانوا يعيشون فترة سلام لكانوا أقاموا لها حفلة ضخمة احتفالاً بخطوبتها، ولكن لم يكن هناك أي مجال لذلك بسبب الحرب الدائرة. تم إعلان خطوبتها، وأقاموا حفلة عشاء ضخمة لأقارب العائلتين وعدد من أصدقائهم. حضر العشاء جنرالات عدة، إضافة إلى بعض الشبان الذين كانوا موجودين خارج الخدمة ببذاتهم الرسمية، وأفلح ألم بالمجيء، ولكن هورست لم يتمكن من الحضور. كانت حفلة رائعة وعلى قدر من الأهمية. حيث إنها عبارة عن دمج لعائلتين مرموقتين وشخصين جميلين. أما بريجيت فأصبح الزفاف وثوب الزفاف شغلها الشاغل. لقد تم تحديد موعد زواجهما في حزيران، فبدا لها أن دهراً يفصلها عن هذا الموعد. وشعرت بيتا بالسعادة لأجل شقيقتها. فهذا جل حلمت به بريجيت مذ كانت طفلة. لطالما أرادت لنفسها زوجاً، وأطفالاً، وأثواباً، ومجوهرات جميلة، وكانت ستحصل على ذلك كله. وبقليل من الحظ الجيد سيتم تثبيت خدمة خطيبها في برلين. لم يكن تحت خطر داهم، وقد أفلح والده في إلحاقه بجنرال كمساعد له. تم التأكيد لوالده أنه لن يتم إرساله إلى جبهة القتال، لذا لم يكن أمام بريجيت ما تخشاه. إذ كان زفافها ومستقبلها بأمان.

أخذت بيتا موضوع خطوبة شقيقتها برحابة صدر تامة، وغمرتها السعادة عندما رأت مدى سعادة شقيقتها. وقد وعدتها بخياطة جميع ملابسها الداخلية من أجل جهازها، فواظبت على الجلوس وخياطة قطع من الساتان وزركشتها بقطع البزيم. لم يبدُ عليها الانزعاج إطلاقاً جراء زواج شقيقتها الصغرى قبلها. بل كانت تبدي اهتماماً أكبر بالحرب الدائرة. واعتادت مرة

كل أسبوع على تلقي رسالة من أنطوان عبر نسيبه السويسري الذي أكد لها أنه ما يزال على قيد الحياة وأنه بأحسن حال. كان موجوداً قرب فردان، ولم يغب عن بالها قط طيلة فترة قيامها بالخياطة، وقد أثرت على إعادة قراءة رسائله ألف مرة. كانت والدتها قد لاحظت رسالة أو اثنتين عند وصولهما بواسطة البريد، ولكن باتت بيتا الآن تستلم البريد بنفسها معظم الأحيان قبل أي أحد آخر، لذا لم يلحظ أحد كمية الرسائل التي وصلتها حتى الآن أو مدى انتظام وصول هذه الرسائل إليها. كانا لا يزالان مغرمين ببعضهما البعض مثل أي وقت مضى. ووعدا نفسيهما بالتحضر لتشاطر الحياة سوياً بعد الحرب. كانت قد أقسمت لنفسها وله أنه في حال حدوث أي مكروه له لن تتزوج أبداً من أي شخص آخر. بدا أمراً منطقياً بالنسبة إليها. إذ لم تتخيل نفسها تحب أي أحد آخر بقدر حبها له.

لاحظ والد بيتا مدى صمتها طيلة الأشهر الماضية، فعزا سبب حزنها إلى السعادة التي باتت ترى شقيقتها عليها. وقد انفطر قلبه لأجلها لاعتقاده بأنها غير سعيدة. مما دفعه إلى التكلم مع رجال عدة يعرفهم جيداً، وفي شهر آذار أدرك أنه وجد الرجل المناسب. لم يكن ليكون خياره الأول ولكن بعد التمحيص فيه عن قرب أكثر، أدرك أن الرجل الذي اختاره هو أفضل رجل لها. كان أرملاً، وليس لديه أولاد، وينتمي إلى عائلة ممتازة، ويمتلك ثروة كبيرة. أراد جاكوب لبيتا رجلاً أكبر سناً منها وأكثر استقراراً من الشاب الوسيم الذي أمنه لبريجيت، والذي يمكن أن يتبين بعد حين أنه طائش، والذي لا يزال لعوباً، وبكل تأكيد مدللاً، ويعوزه النضج، بالرغم من أن جاكوب يجده فتى طيب. وبريجيت مجنونة به. أما الزوج الذي اختاره جاكوب لابنته الكبرى فكان رجلاً مفكراً وذكياً إلى أقصى الدرجات. لم يتسم بالوسامة، ولكنه لا يفتقر إلى الجاذبية بالرغم من أنه يفقد شعر رأسه. كان طويلاً، وممتلئاً نوعاً ما، ويبلغ من العمر اثنين وأربعين سنة، ولكن أدرك جاكوب أنه سيعامل ابنته باحترام. قال الرجل المزعوم إنه من دواعي سروره لو يتم ارتباطه بمثل هذه الفتاة الجميلة.

كان قد خسر زوجته منذ خمس سنوات بعد صراع طويل مع المرض، ولم يكن يفكر أبداً بالزواج من جديد. كان رجلاً هادئاً، يكره الواجبات الاجتماعية بقدرها، وجل ما يريده هو أن يحظى بمنزل تعمه السكينة.

لقد قام جاكوب ومونيكا بدعوته إلى العشاء في منزلهما، وأصرا على حضور بيتا. لم ترغب بيتا بالحضور لأن بريجيت كانت تمكث لدى منزل حماها المستقبلي من أجل حضور حفلات عدة في برلين، لذا لم ترغب بيتا بحضور هذا العشاء من دونها. ولكنها أدركت أنه سيتوجب عليها تعلم حضور الحفلات من دونها بعد أن تنتقل بريجيت للعيش في برلين مع زوجها في حزيران. أصر والداها بشكل حثيث جداً على انضمامها إليهما دون إخبارها عن السبب. دخلت إلى غرفة الضيوف وهي تبدو غاية في الأناقة مرتدية ثوباً مخملياً أزرق، وكانت تضع حول عنقها عقداً جميلاً من اللؤلؤ وقرطين من الألماس في أذنيها. لم تعر أي اهتمام للرجل الذي أمل والداها أن تتزوج به والذي لم تلتقي به من قبل، وبدت غير متنبهة لوجوده البتة. عندما قدماه إليها، صافحت يده بأدب، ثم انسحبت بعد لحظات ظناً منها أنه أحد معارف والدها من المصرف. وعند العشاء، جلست بهدوء بالقرب منه وأجابت على أسئلته بكياسة، ولكن كان عقلها مشغولاً بآخر رسالة بعث بها أنطوان والتي تلقتها عصر ذلك اليوم. لم تقوَ على التفكير بأي شيء آخر، وبالتالي تجاهلت ضيف العشاء معظم السهرة. لم تسمع أي كلمة نطق بها، وقد أوعز سبب ذلك إلى خجلها الشديد، الأمر الذي وجده رائعاً. لقد سحرته كلياً، أما هي فبالكاد لاحظته ولم تخطر لها أدنى فكرة أنه قد تمت دعوته من أجلها. حسبت أنه تم إجلاسها بالقرب منه بشكل عشوائي وليس عن تخطيط مسبق.

كان ينتابها القلق على أنطوان حيث مرت أيام ولم تسمع عنه أي أخبار إلى أن وصلتها هذه الرسالة التي تحدثت عن هجوم القوى الألمانية على الفرنسيين في فردان. لم يسعها التفكير في أي أمر آخر خلال جلوسها على طاولة العشاء، ثم أخيراً ادعت أنها تعاني من الصداع، وانسحبت

مباشرة بعد تناولهم الحلوى دون إلقاء التحية عليهم. ظنت أنه من الأنسب لو تختفي بكل هدوء. وبعد ذلك سأل الخطيب المستقبلي جاكوب متى ينوي إخبارها، فوعده جاكوب بإخبارها في غضون أيام. أراد لها والدها أن تكون بقدر سعادة بريجيت، وقد كان واثقاً من أن هذا الشخص هو الرجل المناسب لها. حتى أن زوجها المستقبلي يشاطرها شغفها بالفلاسفة الإغريق، وقد حاول الدخول في نقاش معها حول هذا الموضوع خلال العشاء، ولكن تفكيرها كان مشتتاً واكتفت بهز رأسها فحسب خلال حديثه معها. لم تستمع إلى أي كلمة قالها منذ بداية العشاء حتى نهايته، أي منذ وقت تقديم الحساء حتى وقت تقديم التحلية. بدت وكأنها معلقة في مكان ما في الفضاء غير قادرة على الرجوع إلى الأرض. وجدها خطيبها المستقبلي فتاة متواضعة ومتحفظة جداً.

وفي اليوم التالي، عندما رآها والدها في البهو كانت معنوياتها أفضل حالاً. لقد وصلتها رسالة أخرى من أنطوان، أكد لها فيها من جديد أنه بخير وما يزال مجنوناً بحبها كما دوماً. كانوا قد مروا بأيام عصيبة بالقرب من فردان ولكنه بقي حياً وعلى ما يرام، بالرغم من كونه منهك القوى وجائعاً. اتسمت الأحوال التي وصفها بالصعوبة الشديدة، ولكن مجرد معرفتها أنه ما يزال على قيد الحياة رفع من معنوياتها بشكل كبير. وقد شعر والدها بسرور بالغ لرؤيتها على هذا القدر من السعادة، فطلب منها التوجه إلى مكتبه لمحادثتها. سألها إذا ما استمتعت بحفلة العشاء البارحة، فأجابت بأدب أنها قضت وقتاً ممتعاً. سألها عن ضيف العشاء فبدا أنها بالكاد تتذكره، ثم قالت إنه رجل لطيف جداً والحديث معه ممتع، ولكن بدا واضحاً أنها لم تمتلك أدنى فكرة عما يبيتون لها.

عندما شرح لها والدها الأمر، ظهر الشحوب على وجهها. قال لها إن الرجل الذي جلست بالقرب منه، وبالكاد لاحظته، وبكل تأكيد لم تشعر بأي انجذاب ناحيته يرغب بالزواج بها. في الواقع لم يرَ جاكوب أي سبب يدعو إلى تأخير هذا الأمر. فالرجل يفضل الزواج منها في أسرع وقت ممكن.

واعتقد أنه من المناسب إقامة حفلة زفاف صغيرة بعد حفلة زفاف بريجيت، ربما في تموز. أو حتى قبل هذا الموعد في حال فضلت ذلك، بما أنها هي الأكبر سناً، ربما في أيار. لم يكن ثمة أي حاجة إلى الانتظار. إذ بسبب استمرار الحرب يقوم الناس بالزواج بشكل سريع هذه الأيام. جلست بيتا وحدقت في والدها بعينين تشيران إلى صدمتها، ولم يفهم جاكوب جيداً سبب رفضها في البداية. قفزت على رجليها، وجالت في أرجاء الغرفة وهي تبدو قلقة ومرعوبة، وتكلمت بغضب واستنكار، مما دفع جاكوب إلى التحديق بها غير مصدق لما تفعله. لم يتوقع منها رد الفعل هذا، ولم يرغب به حتى. فقد أكد لطالب يدها الأرمل أن زواجها أمر مؤكد، كما وأقدم على مناقشة تفاصيل المهر معه. سيشعر بالحرج الشديد في حال رفضت بيتا الزواج منه. لطالما كانت فتاة طيبة ومطيعة له، وكان جاكوب واثقاً أنها ستطيعه في الأمر أيضاً.

قالت والدموع تنهمر من عينيها: "أنا لا أعرفه يا بابا". ثم قالت بنظرة يائسة: "إنه يكاد يكون في سنك، أنا لا أريد الزواج به. لا أود أن أعطى إلى غريب وكأنني عبدة ما. إن كنت تتوقع مني أن أشاركه سريره، فأنا أفضل لو أموت كسيدة عجوز على ذلك". بدا والدها محرجاً لدى قيامها بوصفه بهذه الطريقة، وقرر أن تقوم والدتها بالتكلم معها. ثم أقدم على محاولة أخيرة لتعقيلها. لقد توقع منها أن تفرح لا أن يثور غضبها.

"عليك أن تثقي بحكمي في هذا الموضوع يا بيتا. إنه الرجل المناسب بالنسبة إليك. في سنك هذا تخالجك أوهام رومانسية بشأن الحب، ولكن هذه الأوهام لا وزن لها في الحياة الواقعية. ما تحتاجين إليه هو شريك أبدي يشاطرك اهتماماتك، ويتحمل مسؤولياتك، ويبادلك الاحترام. والباقي سيأتي مع الوقت يا بيتا. أعدك بذلك. أنت أكثر عقلانية بكثير من شقيقتك وأنت تحتاجين إلى رجل يكون بقدر عقلانيتك ورجاحة عقلك. أنت لست بحاجة إلى شاب سخيف يمتلك وجهاً وسيماً. تحتاجين إلى رجل يحميك ويؤمّن حياتك وحياة أولادك، رجل بوسعك الاعتماد عليه والتكلم معه. هذا ما هو

الزواج عليه يا بيتا. الزواج لا يقتصر على الرومانسية والحفلات فحسب. أنت لا تريدين ذلك، ولست بحاجة إلى كل ذلك". قال لها بعناد وهي واقفة في الطرف المقابل من الغرفة تنظر إليه: "أنا أفضل لك مثل هذا الرجل".

"إذاً تزوجه أنت. أنا لن أسمح له بلمسي. أنا لا أحب هذا الرجل ولن أتزوج به لمجرد أنك تريد ذلك. لن أقبل أن أباع كالعبدة إلى رجل غريب مثل قطيع الماشية يا بابا. لا يسعك فعل ذلك بي".

صرخ في وجهها والغضب يتملكه: "لن أسمح لك بمخاطبتي بهذه الطريقة. ماذا تودين مني أن أفعل؟ أن أسمح لك بالعيش هنا كسيدة عجوز بقية عمرك؟ ماذا سيحل بك عندما أموت ووالدتك وتظلين دون أي حماية؟ هذا الرجل سيعتني بك يا بيتا. هذا ما تحتاجين إليه. لا يسعك المكوث هنا وانتظار فارس الأحلام الوسيم أن يأتي إليك ويحملك معه، ويكون بقدر ذكائك وجديتك، ومهووساً بالكتب والدراسة بقدرك. لعلك تفضلين أستاذاً جامعياً، ولكن مثل هذا الشخص لا يسعه تحمل نفقات إعالتك بالطريقة التي اعتدت عليها وتستحقينها. لدى هذا الرجل قدرة على إعالتك بنفس القدر الذي نشأت عليه. أنت مدينة لأولادك أن تتزوجي برجل مثله وليس بأحد الفنانين أو الكتّاب الذين يتضورون جوعاً والذين سيتركونك تموتين من الجوع في مكان منكوب. بيتا المنطق يفرض أن تتزوجي بالرجل الذي اخترته لك. أنا ووالدتك ندرك ما نقوم به، أما أنت فلا تزالين يافعة، وساذجة، ومثالية. الحياة الواقعية ليست كالتي تقرأينها في الكتب. الحياة الواقعية موجودة هنا وستفعلين ما أمليه عليك".

قالت وعيناها لا تفارق عيني والدها، وبدت مصممة جداً على ما تقوله: "أفضل الموت على الزواج به". لم يسبق لوالدها أبداً أن رآها على هذا القدر من التصميم والشراسة، فخطر له أمر لم يخطر على باله قط ولم يتوقعه منها تحديداً. طرح عليها سؤالاً محدداً، وكان صوته يرتجف وهو يطرح هذا السؤال، ولأول مرة في حياته خشي ما قد يسمعه منها.

"هل أنت مغرمة بأحد آخر؟" لم يكن يتصور مثل هذا الأمر أبداً. فهي لم تفارق المنزل في حياتها، ولكن النظرة الموجودة في عينيها أخبرته أن عليه طرح هذا السؤال عليها، فترددت قبل أن تجيبه. أدركت أن عليها إخباره الحقيقة، إذ لم يكن أمامها أي خيار. وقفت أمامه منتصبة وجامدة ونطقت بكلمة واحدة: "نعم".

"لِمَ لم تخبريني؟" بدا مكسور القلب وغاضباً في آن معاً، وأكثر من ذلك، بدا وكأنه شعر بخيانتها له. فمجرد امتناعها عن إخباره بوجود شخص تحبه، سمح له بالمضي قدماً في هذه المهزلة. وهذا الأمر من شأنه أن يعرّض هذا الزواج الذي خطط له والذي ظن أنه الأنسب لها للخطر. "مَن يكون؟ هل أعرفه؟" هزت الرجفة أركانه وهو يسألها، حيث شعر وكأن أحداً ما قد مشى على قبره. هزت رأسها نافية معرفته به وقالت بصوت خافت: "لا، لا تعرفه. لقد التقيتُ به في سويسرا في الصيف الماضي". أصرت على مصارحته بكل شيء، إذ شعرت أنه ليس أمامها أي خيار. لقد أتت هذه اللحظة أبكر مما توقعت أو أرادت لها. وجل ما تستطيع فعله الآن هو الدعاء كي يتصرف معها بعقلانية وإنصاف.

"لماذا لم تخبريني؟ هل تعلم والدتك بهذا الأمر؟"

"لا، لا أحد يعلم. التقتْ ماما وبريجيت به، ولكنه كان حينها مجرد صديق. أريد الزواج به عند انتهاء الحرب يا بابا. وهو يريد المجيء إلى هنا واللقاء بك".

"إذاً دعيه يأتي". كان والدها يتصرف معها بغضب، إلا أنه أراد أن يكون منصفاً في هذه المسألة ويتصرف مع ابنته بحكمة، بالرغم من كونه منزعجاً جداً منها بسبب اعترافها بهذا الحب في هذه اللحظات الحرجة.

"لا يسعه المجيء لمقابلتك يا بابا إنه موجود في جبهة القتال".

"هل يعرفه شقيقاك؟" نفت الأمر بهز رأسها من جديد، ولم تنطق بكلمة. "ما الشيء المتعلق به والذي تمتنعين عن إخباري به يا بيتا؟ أشعر

أن في الموضوع ما هو أكثر مما تقولينه لي؟" كان محقاً كحاله معظم الأحيان. كانت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها خوفاً منه وأجابته:

"إنه ينتمي إلى عائلة مرموقة وتتمتع بالثراء. إنه مثقف وذكي. إنه يحبني يا بابا وأنا أبادله هذا الحب". كانت الدموع تنهمر من عينيها.

"إذاً لِمَ أبقيتِ هذا الأمر سراً؟ ماذا تخبئين عني يا بيتا؟" كان صوته مرتفعاً جداً، فسمعته مونيكا في الطابق العلوي.

همست بيتا قائلة: "إنه ليس من ملتنا". فأطلق والدها صرخة أشبه بزئير الأسد. بدا منظرها فظيعاً عندما تراجعت خطوات عدة إلى الوراء إثر تقدمه منها دونما أي تفكير. توقف عندما وصل إليها وأمسك بجسدها المتململ بيديه. هزها بقسوة بكتفيها، فاصطكت أسنانها وهو يصرخ في وجهها قائلاً: "كيف تجرؤين؟ كيف تجرؤين على فعل هذا بنا؟ أنتِ لن تتزوجي به يا بيتا. أبداً. أفضل موتك على ذلك. إن قمتِ بذلك سنعتبرك ميتة. سأدرج اسمك في سجل وفيات العائلة. لن تري هذا الرجل من جديد. هل تفهمينني؟ ستتزوجين رولف هوفمان في اليوم الذي أحدده لك. سأخبره أن الصفقة قد تمت. وأنت ستقولين للرجل الفرنسي خاصتك أنك لن تريه أو تتكلمي معه من جديد. هل هذا واضح؟"

قالت وهي تبكي وقد خنقتها العبرة: "لا يسعك فعل هذا بي يا بابا". إذ لم يسعها التخلي عن أنطوان ولا الزواج بالرجل الذي اختاره لها والدها مهما فعل والدها بها.

"بل أستطيع وسأفعل. ستتزوجين هوفمان في غضون شهر واحد".

"بابا لا". جثمت على ركبتيها تبكي، وقد خرج والدها من المكتب وصعد إلى الطابق العلوي. وظلت جاثمة في مكانها لوقت طويل تبكي إلى أن أتت والدتها إليها تبكي هي الأخرى. جثمت بجانب ابنتها وقد انكسر قلبها بعد سماعها لحديثهما.

"بيتا كيف عساك تقومين بذلك؟ يجدر بك نسيانه... أعلم أنه رجل طيب ولكن لا يسعك الزواج بفرنسي، ليس بعد هذه الحرب الرهيبة الدائرة

بيننا، كما ولا يسعك الزواج بشخص من غير ملتنا. وإلا فسيُدرج والدك اسمك في سجل وفيات العائلة". حزنت مونيكا كثيراً عندما رأت النظرة على وجه ابنتها.

"سأموت على أي حال يا ماما إن لم أفعل. أنا أحبه. لا أستطيع الزواج من هذا الرجل الفظيع". كانت تدرك أنه لم يكن فظيعاً، ولكنه كان مسناً بنظرها، كما وأنه ليس أنطوان.

"سأطلب من والدك أن يخبره، ولكن لا يسعك أبداً الزواج من أنطوان".

"لقد قطعنا وعداً على نفسينا بالزواج بعد انتهاء الحرب".

"يجدر بك إخباره أنه لا يسعك الزواج به. لا يسعك نكران ما أنت عليه".

"إنه يحبني على ما أنا عليه".

"ولكن كليكما صغيران في السن وتعوزكما الخبرة. ستتبرأ منه عائلته هو الآخر. كيف ستعيشان؟"

"بوسعي امتهان الخياطة... سأصبح خياطة، أو معلمة، مهما يكن. لا يحق لأبي أبداً أن يفعل هذا بي". ولكن أدركت كل منهما جيداً أن له كامل الحق. بوسعه أن يفعل أي شيء يريده، وقد أخبرها أنها في حال تزوجت به ستُعتبر ميتة بنظرهم. فصدقت مونيكا كلامه ولكنها لم تحتمل فكرة عدم رؤيتها لبيتا من جديد. كان الثمن الذي ستدفعه بيتا غالياً جداً مقابل الحصول على الرجل الذي أحبه قلبها. قالت لابنتها: "أتوسل إليك ألا تفعلي ذلك. عليك أن تفعلي ما يمليه عليك بابا".

فقالت وهي تبكي بين ذراعي والدتها: "لن أفعل".

لم يتصرف جاكوب بغباء كامل. إذ قال لرولف هوفمان عصر ذاك اليوم إن بيتا ما تزال يافعة، وغبية، ويبدو أنها تخشى... الواجبات الجسدية... التي يفرضها الزواج، ولم يكن واثقاً من كون ابنته جاهزة للزواج من أي أحد. فهو من ناحية، لم يشأ أن يضلل الرجل، ومن ناحية

أخرى لم يرد إخباره الحقيقة كاملة. أخبره أنه ربما بعد العشرة الطويلة، وفي حال تعرفا إلى بعضهما البعض أكثر، سترتاح أكثر لفكرة الزواج برمتها. فخاب ظن هوفمان ولكنه قال إنه مستعد للانتظار مهما اقتضى الأمر. لم يكن في عجلة من أمره وقد أدرك أنها شابة بريئة. فقد أدرك بعد الليلة التي التقيا فيها مدى خجلها الشديد. وحتى الابنة المطيعة تستحق فرصة أن تتعرف أكثر إلى الرجل الذي سيتزوجها ويشاركها سريرها. في نهاية الحديث كان جاكوب ممتناً له على طول أناته، وأكد له أن بيتا ستتعقل مع الوقت.

لم تنزل بيتا لتناول العشاء تلك الليلة، ومرت أيام عدة لم يرها جاكوب فيها. وفقاً لوالدتها لم تغادر بيتا سريرها. كانت قد كتبت لأنطوان رسالة تخبره فيها بما حدث. قالت إن والدها لن يوافق أبداً على زواجهما، ولكنها بالرغم من ذلك مستعدة للزواج به، إما بعد الحرب أو قبلها حسبما يرى. ولكنها لم تعد تشعر بالراحة في منزلها في كولونيا. فقد أدركت أن والدها سيواصل الضغط عليها كي تتزوج من رولف. كما أنها أدركت أيضاً أنها لن تحصل على جواب من أنطوان إلا بعد مرور أسابيع، ولكنها كانت مستعدة للانتظار.

مضى شهران ولم تسمع منه أي خبر. وعند حلول شهر نيسان وصلتها أخيراً رسالة منه، وقد ظلت طيلة ذلك الوقت مرعوبة من فكرة أن يكون قد تعرض لأذى، أو قُتل، أو أنه قرر الانسحاب وعدم مراسلتها من جديد عندما عرف مدى غضب والدها. كان إحساسها الأول صحيحاً. كان قد تعرض لإصابة قبل شهر وأُدخل إلى المستشفى في إيفتوت على ساحل النورماندي. كاد يفقد إحدى ذراعيه، ولكنه قال إنه قريباً سيصبح على ما يرام. قال إنه في الوقت الذي تستلم فيه رسالته، سيكون حينها في دوردوني، وسيفاتح عائلته في موضوع زواجهما. ولن يعود إلى جبهة القتال أو حتى إلى الحرب. والطريقة التي تكلم فيها دفعتها إلى الشعور بالخشية من كون إصابته أكثر خطورة مما وصفها لها. ولكنه كرر مرات عدة أنه على ما يرام وأنه يحبها جداً جداً.

ردت بيتا على رسالته بسرعة وأرسلتها كالعادة عبر نسيبه الموجود في سويسرا. وجل ما استطاعت فعله بعد ذلك هو الانتظار. وقال لها في رسالته إنه يأمل أن ترحب بها عائلته في وسطها، وعندها يسعهما الزواج والعيش في منزله في دوردوني. بالرغم من أنه ما من شك بأن إحضار امرأة ألمانية إلى فرنسا في هذه المرحلة أو حتى بعد الحرب ليس بالأمر السهل. ناهيك عن ذكر المسائل الدينية بينهما والتي قد تشكل إزعاجاً لعائلته، ولها أيضاً. إن زواج كونت بامرأة من غير ملته في فرنسا يعتبر أمراً مريعاً بالنسبة إليهم، مثلما هي الحال في مجتمع كولونيا. لم يكن هذا الطريق سهلاً على أي منهما. وبعد أن بعثت بيتا الرسالة أمضت أيامها بكل سكون تساعد والدتها في أرجاء المنزل، وبقيت بعيدة عن طريق والدها. كان قد كرر محاولاته في إقناعها بتمضية بعض الوقت مع رولف، ولكنها كانت ترفض ذلك كل مرة. قالت إنها لن تتزوج به أبداً ولن تراه حتى. لقد أضحت شاحبة جداً وبات شكلها كالشبح، فانفطر قلب والدتها لدى رؤيتها بهذه الحالة. وواصلت التوسل إليها أن تفعل ما يمليه عليها والدها، وإلا لن يعرف أحد الراحة إلى أن تفعل. مع وزن الصدمة التي أتت بها إلى المنزل بات منزلهم أشبه بالمشرحة. عندما أتى شقيقاها إلى المنزل في إجازة، تكلما معها ولكن دون جدوى. وشعرت بريجيت بالغضب الشديد منها فعكفت عن مخاطبتها. وقد بدأت حماستها تزداد جراء زواجها المرتقب.

"كيف يعقل أن تكوني بهذا القدر من الغباء يا بيتا حتى تخبري بابا؟"

قالت ببساطة: "لم أشأ الكذب عليه". وكان منذ ذاك الحين يصب جام غضبه على الجميع. فقد وضع اللوم على الجميع جراء غباء بيتا وخيانتها. وشعر أن بيتا خانته هو تحديداً، وكأنها اختارت أن تقع في حب الرجل لمجرد إغاظته. بنظره ليس هناك أسوأ من فعلتها هذه. سيأخذه الأمر سنوات حتى يتخطى فعلتها هذه، حتى لو أنها وافقت على التخلي عن أنطوان التي تبدو فكرة مستبعدة حتى الآن.

قالت بريجيت بثقة فتاة في الثامنة عشرة من عمرها وعلى وشك الزواج بأمير وسيم: "أنتِ لا تحبينه فعلياً". كانت غارقة في شؤونها الخاصة وقد أسفت لحال أختها الغبية. بدا الأمر سخيفاً بالنسبة إليها. إذ ما كان يبدو رومانسياً بالنسبة إليها في الأيام القليلة التي أمضياها في جنيف، لم يعد له أي معنى الآن. برأيها بيتا ليست مضطرة إلى أن تضع حياتها بأكملها على المحك وتخاطر بعائلتها من أجل شخص من عالم مختلف. كانت مسحورة بالكامل بالزوج الذي اختاره لها والدها، وقد ناسبها إلى أبعد الحدود. فوبخت شقيقتها قائلة: "أنت لا تعرفينه حتى".

"لم أكن أعرفه حينها، ولكنني بتُّ أعرفه الآن". كانا قد تعمقا في معرفة بعضهما البعض عبر الرسائل التي تبادلاها في الأشهر الستة، وحتى في جنيف وبعد الأسابيع الثلاثة باتا واثقين جداً من بعضهما البعض. "قد لا يعني لك الأمر شيئاً ولكن بالنسبة لي أنا أدرك أن هذا هو الصواب".

"حتى لو أدرجك بابا في سجل الوفيات، ولم يسمح لك برؤية أي منا من جديد؟" إن مجرد التفكير في هذا الأمر الذي لم يغب عن بالها طوال الشهرين الماضيين دفعها إلى الشعور بالمرارة. قالت بيتا بصوت مختنق: "آمل ألا يفعل هذا بي". إذ لم تكن تقوَ أبداً على احتمال فكرة أنها لن تتمكن من رؤية والدتها، وشقيقاها، ووالدها، وحتى بريجيت من جديد. ولكنها لم تحتمل أيضاً فكرة عدم رؤية الرجل الذي تحب. وحتى لو نفاها والدها في بداية الأمر، كانت تأمل أن يلين في يوم من الأيام. أما في حال خسرت أنطوان فسيرحل إلى الأبد. لم تصدق أن بوسع المرء خسارة عائلته.

ثم أضافت بريجيت مجبرة بيتا بكلامها على مواجهة تبعات المخاطرة التي كانت تأخذها: "ماذا لو فعلها بابا ومنعنا من رؤيتك؟ ماذا عساك تفعلين حينها؟"

قالت بيتا بحزن: "سأنتظر إلى أن يغير رأيه".

"لن يفعل. إن تزوجت بهذا الرجل. سيسامحك في نهاية الأمر على عدم الزواج من رولف. ولكنه لن يسامحك في حال تزوجت برجل فرنسي،

إنه لا يستحق كل هذه المخاطرة يا بيتا. لا أحد يستحق ذلك". كانت بريجيت مسرورة لنيلها موافقة والديها على الرجل الذي ستتزوج به، إذ ما كانت أبداً لتتمتع بالشجاعة أو الجرأة على القيام بمثل ما تقدم عليه بيتا. "ولكن حذار أن تقدمي على أي عمل غبي يزعج الجميع قبل زفافي". هذا كل ما أمكنها التفكير فيه، فهزت بيتا رأسها موافقة على كلامها.

وعدتها قائلة: "لن أفعل".

قبل الزفاف بأسبوع، وصلتها رسالة من أنطوان. بدر من عائلته رد الفعل نفسه الذي بدر من عائلتها. قالوا له إنه في حال تزوج بها ليس أمامه أي خيار سوى المغادرة. وقد نفاه والده وقال له إنه لن يأخذ معه شيئاً. ووفق القانون الفرنسي لم يكن بوسع والده حرمانه من الميراث أو اللقب بعد وفاته، ولكن أكد له والده أنه في حال تزوج ببيتا سيمتنع الجميع عن رؤيته من جديد. غضب أنطوان جداً من رد فعلهم إلى حدّ أنه غادر إلى سويسرا منتظراً بيتا عندما كتب لها هذه الرسالة. جل ما أمكنه اقتراحه عليها أنهما سيمكثان في سويسرا حتى انتهاء الحرب. هذا في حال كانت لا تزال مستعدة للزواج به. علماً بأن عزلهما عن عائلتيهما سيؤثر بهما كثيراً. قال نسيبه إن بوسعهما العيش معه ومع زوجته والعمل في مزرعته. لم يغب عن بال أنطوان حقيقة أن الأمر لن يكون سهلاً، وسيفتقران إلى المال بمجرد أن ينسلخا عن عائلتيهما. لم يكن نسيبه وزوجته غنيين، وسيتوجب عليه هو وبيتا العيش تحت جناحيهما، والعمل مقابل البقاء عندهما. كان أنطوان مستعداً لذلك في حال وافقت، ولكن بات الأمر عائداً لها. قال إنه سيتفهم الأمر ولن يحمله ضدها في حال قررت بأنه يصعب عليها جداً ترك عائلتها. قال إنه سيظل يحبها مهما كان قرارها النهائي. كان يدرك أنها ستضحي بكل شيء أحبته، واكترثت له، وألفته في حال قررت الزواج به. لم يقو حتى على تصور نفسه يطلب منها فعل ذلك لأجله. كان القرار النهائي عائداً لها.

لقد تأثرت بيتا جداً بواقع أنه سبق وقام بالتضحية نفسها من أجلها. كان قد ترك عائلته في دوردوني، وقد طلبوا منه ألا يعود ثانية. كان

مصاباً ووحيداً في مزرعة نسيبيه في سويسرا. وقد فعل كل ذلك من أجلها. كان بلداهما لا يزالان في حالة حرب ضد بعضهما البعض. حتى لو كانت الحرب قد انتهت بالنسبة إليه. أرادت بيتا أن تعود إلى ألمانيا في يوم من الأيام وإلى عائلتها بكل تأكيد إن سمح لها والدها بذلك. ولكن حتى انتهاء الحرب لم يبدُ أن هناك أي خيار آخر أمامها سوى العيش في سويسرا والتحضير لما قد يحصل في وقت لاحق. لعل عائلته تغير من موقفها حتى ذاك الوقت. بالرغم من أن أنطوان قال في رسالته إنه ما من مجال إلى إصلاح الضرر الذي لحق بعلاقته مع عائلته. إذ كان رحيله والمعركة الضارية التي حدثت إثر ذلك حاسمين جداً وغاية في المرارة. حتى شقيقه نيكولاس الذي كان دوماً مقرباً منه لم يتكلم معه لدى مغادرته. كانت الخسارة فادحة بالنسبة إليه.

أمضت بيتا الأسبوع السابق لزفاف شقيقتها في حالة ضياع ولا تنفك تشعر بالعذاب. إذ أدركت أن عليها اتخاذ قرار. حضرت زفاف شقيقتها بريجيت وهي تشعر وكأنها في حلم. ولسخرية القدر ستتوجه بريجيت وزوجها إلى سويسرا لقضاء شهر العسل. كان جاكوب قد نصحهما قائلاً إن هذا هو المكان الوحيد الآمن في أوروبا. كانا سيمضيان ثلاثة أسابيع في جبال الألب فوق جنيف، ليس بعيداً عن المكان الذي كان ينتظرها فيه أنطوان في حال قررت الذهاب. لقد رغبت بذلك بشدة، ولكنها كانت قد وعدت بريجيت بألا تُقدم على أي شيء قبل زفافها. فلم تفعل.

أتى الانفجار الأخير بعد يومين عندما طلب منها والدها التأكيد له أن أنطوان بات خارج حياتها إلى الأبد. كان كل من شقيقيها قد عادا للانضمام إلى الجيش عندئذ. وكانت بريجيت في شهر عسلها. فسعى والد بيتا إلى تصفية الموضوع معها بغضب شديد. كانت المعركة قصيرة وضارية. رفضت أن تعد والدها بعدم رؤية أنطوان من جديد علماً بأنه كان بانتظارها في سويسرا. سعت والدتها بكل ما أوتيت من قوة أن تهدئهما ولكن عبثاً. وفي النهاية قال لها والدها إن لم ترغب بالتخلي عنه، فعليها أن

تذهب إليه وترحل عنهم، ولكن عليها أن تعلم أولاً أنها في حال غادرت هذا المنزل لن تعود إليه من جديد. وأضاف أنه ووالدتها سيعتبرانها ميتة وسيعلنان الحداد عليها. فبنظره وبمجرد مغادرتها للمنزل سيعتبرها في عداد الموتى. طلب منها ألا تعمد إلى الاتصال بأي منهما من جديد بأي وسيلة. كان قاسياً جداً حيال هذا الأمر وغاضباً جداً منها، مما دفع بيبتا إلى حسم قرارها. بعد ساعات من الشجار معه والتوسل إليه أن يكون أكثر عقلانية وأن يقبل على الأقل بمقابلة أنطوان، دخلت أخيراً إلى غرفتها مهزومة. حزمت حقيبتين صغيرتين ووضعت فيهما كل الأشياء التي حسبت أنها ستستخدمها في المزرعة في سويسرا، ووضعت صوراً لجميع أفراد عائلتها. كانت تنتحب لدى إقفالها للحقيبتين، ثم وضعتهما في البهو وقد وقفت والدتها تبكي وهي تنظر إليها.

"بيتا لا تفعلي ذلك... لن يسمح لك أبداً بالعودة إلى المنزل من جديد". لم يسبق لها أبداً أن رأت زوجها على هذا القدر من الغضب. لم ترد أن تخسر ابنتها، وبدا أنه ليس بوسعها فعل أي شيء لدرء هذه المأساة من الوقوع. "لن يفارقك الندم على ما تفعلينه".

قالت بيتا بحزن: "أعلم ذلك، ولكنني لن أحب رجلاً سواه. لا أود خسارته". كما ولم ترد خسارتهم أيضاً. سألت والدتها: "هل ستراسلينني يا ماما؟" وهي تشعر وكأنها طفلة بعد أن قرّبتها أمها منها وامتزجت دموعهما عند ملامسة وجنتيهما لبعضهما البعض. لم تجب والدتها عن سؤالها هذا، فأدركت بيتا معنى صمتها. بعد أن نفاها والدها وقال إنها ستصبح ميتة في نظر الجميع، شعرت أمها أنه ليس أمامها أي خيار سوى إطاعته. ما كانت لتتخطى الحدود التي رسمها لهم جميعاً، ولا حتى كرمى لابنتها بيتا. كان كلامه بمثابة قانون نافذ بالنسبة إليها وإلى الجميع. لقد حسم أمر اعتبارها ميتة في حال غادرت المنزل. قالت بيتا بنعومة: "سأراسلك". وهي متمسكة بوالدتها وكأنها طفلة تماماً كما هي عليه بعدة طرق. كانت قد بلغت الحادية والعشرين من عمرها في ذاك الربيع.

قالت مونيكا وهي تتمسك بيبتا أطول فترة ممكنة: "لن يسمح لي بقراءة رسائلك". كانت مشاهدة والدتها لها وهي تغادر أشبه بالمرور بتجربة الموت. قالت وهي تبكي دون توقف: "آه يا عزيزتي... فلتجدي السعادة مع هذا الرجل... آمل أن يحسن معاملتك... آمل أن يستحق ما تفعلينه لأجله... آه يا ابنتي، لن أراك من جديد". أغمضت بيتا عينيها ممسكة بوالدتها بإحكام، ووالدها واقفاً يراقبهما من أعلى السلالم.

قال بعناد: "إذاً ستذهبين؟" بدا لبيتا وكأنه رجل مسن للمرة الأولى. حتى هذه اللحظة كانت دوماً تراه شاباً، ولكنه لم يعد كذلك. كان على وشك خسارة الابنة التي لطالما فضلها على الآخرين، الابنة التي لطالما افتخر بها، وآخر من تبقى له في المنزل من أبناء.

قالت بيتا بصوت خافت: "نعم سأرحل. أنا أحبك يا بابا". أرادت الاقتراب منه حتى تعانقه، ولكن النظرة المرتسمة على وجهه حذرتها من ألا تحاول فعل ذلك.

"سنعتبرك أنا ووالدتك ميتة منذ الليلة. فليسامحك الله على ما تفعلينه". أرادت لو تقول له الأمر نفسه ولكنها ما كانت لتجرؤ.

قبّلت والدتها مرة أخيرة، ثم حملت الحقيبتين، ونزلت ببطء على السلالم وهما ينظران إليها. لم يُسمع أي صوت ما عدا نحيب والدتها، في الوقت الذي كانت فيه تحمل حقيبتيها وتقفل الباب وراءها.

مشت حاملة الحقيبتين الثقيلتين إلى أن رأت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يقلها إلى محطة السكة الحديدية. واكتفت بالجلوس في المقعد الخلفي والبكاء. لم يقل لها الرجل شيئاً وهي تدفع له أجرته. كان لدى الجميع ما يكفيه من المآسي هذه الأيام فلم يرغب بطرح أي سؤال عليها. إذ إن بعض الأحزان لا يفترض مشاطرتها مع أحد.

مكثت ثلاث ساعات منتظرة قطار لوزان. وهي مدة أكثر من كافية لتبدل رأيها. ولكنها أدركت أنه لا يسعها فعل ذلك. أدركت بكل جوارحها أن مستقبلها إلى جانب أنطوان. فقد تخلى عن مثل ما تخلت عنه من أجلها.

ليس هناك أي مجال لتعلم ما يخبئه المستقبل لهما، ولكنها أدركت أنه قدرها منذ التقيا. لم تره منذ أيلول، ولكنه بات جزءاً منها الآن. بات أنطوان كل حياتها، تماماً مثلما ينتمي كل من والديها إلى بعضهما البعض. ومثلما تنتمي بريجيت أيضاً إلى الرجل الذي تزوجته. كل منهم لديه قدره الذي اتبعه. ومع بعض الحَظ ستتمكن من رؤيتهم مجدداً في يوم من الأيام. أما الآن فهذا هو طريقها. لم يساورها شك أن والدها لن يبقى متمسكاً بموقفه غير المبرر هذا إلى الأبد. فعاجلاً أم آجلاً سيضطر إلى الاستسلام.

التزمت بيتا الهدوء لدى صعودها على متن القطار عصر ذاك اليوم. كانت الدموع تتدحرج على وجنتيها معظم الطريق إلى لوزان إلى أن غفت أخيراً، فأيقظتها المرأة المسنة الموجودة معها في المقصورة. كانت تعرف أن بيتا ستنزل في لوزان. فشكرتها بيتا بأدب، ونزلت من القطار، ونظرت في أرجاء المحطة. شعرت وكأنها يتيمة. كانت قد أرسلت إلى أنطوان برقية من المحطة في كولونيا. ثم رأته عن بُعد مسرعاً صوبها إلى المنصة. كانت يده مربوطة بضمادة ومدلاة بعصابة من عنقه. وعندما وصل إليها أمسك بها بذراع واحدة، وضمها إليه بقوة شديدة إلى درجة أنه بالكاد أمكنها التنفس. "لم أكن واثقاً أنك ستأتين، خشيت ألا تفعلي... فقد استكثرت طلب ذلك منك". كانت الدموع تنهمر من عينيهما وهو يخبرها بمدى حبه لها، فرفعت رأسها ونظرت إليه بأسى. لقد بات عائلتها الآن، وزوجها، وحاضرها، ومستقبلها، ووالد الأطفال الذين سينجبانهم إلى هذا العالم. كان كل شيء بالنسبة إليها تماماً كما كانت هي كل شيء بالنسبة إليه. لم تكترث لمدى المصاعب التي سيضطران إلى تحملها طالما أنهما سوياً. بالرغم من مدى الألم الذي شعرت به جراء تركها لعائلتها، إلا أنها شعرت أنها أقدمت على العمل الصائب.

وقفا لوقت طويل سوياً على المنصة يعيشان فرحة اللقاء ويتمسكان ببعضهما البعض. ثم حمل إحدى حقيبتيها بيده السليمة، وحملت هي الحقيبة الأخرى، وتوجها إلى الخارج إلى حيث ينتظرهما نسيبه وزوجته. كان

الفرح يشع من عيني أنطوان عند مغادرة المحطة، وكانت بيتا تبتسم له. وضع نسيبه الحقيبتين في صندوق السيارة وجذبها أنطوان صوبه. لم يتجرأ على الاعتقاد أنها ستأتي. ولكنها فعلت. لقد تخلت عن كل شيء من أجله. جلسا في المقعد الخلفي من السيارة ولف ذراعه حولها وقبّلها من جديد. لم يجد كلاماً يعبر لها فيه كم تعني له. كانت تجلس بكل هدوء بالقرب منه، في الوقت الذي قطعا فيه ببطء لوزان وتوجها إلى الريف. لم يكن باستطاعتها السماح لنفسها بالنظر إلى الوراء الآن، وإنما إلى الأمام فحسب. وقد نفذ والدها ما هدد به وأدرج اسمها في سجل وفيات العائلة ذاك الصباح، وأقاموا مراسيم جنازتها في الليلة السابقة. وباتت ميتة بنظرهم.

الفصل الرابع

بدت المزرعة التي يملكها نسيب أنطوان وزوجته صغيرة وبسيطة. أما الأرض التي تحيط بها فجميلة، والمنزل عمليّ ويمتاز بالدفء. يضم المنزل غرفتي نوم بمحاذاة بعضهما البعض، ترعرع في أحدهما أبناؤهم الثلاثة، الذين توجهوا إلى المدن منذ أمد طويل، ولم يبقَ أحد منهم ليدير شؤون المزرعة. يضم المنزل أيضاً مطبخاً واسعاً ومريحاً، وغرفة جلوس لأيام الأحاد، لم يستخدمها أحد قط. يعتبر هذا المنزل مختلفاً جداً عن المنزل الذي عاشت فيه بيتا في كولونيا.

كان أنطوان قد أخبر بيتا أن ما يربطه بنسيبه قرابة بعيدة من ناحية والدته. ولكن الزوجين مسروران جداً بمساعدة هذين الشابين، ويشعران بالامتنان لحصولهما على بعض المساعدة منهما في المزرعة. ويوجد في المزرعة صبيان صغيران يساعدان الزوجين في الحراثة، والحصاد، والبقرات، ويعيشان في كوخ صغير لأجل هذه الغاية. هنا في الجبال الواقعة فوق لوزان، يصعب على المرء تخيل وجود أي نوع من المشاكل في أي مكان في العالم. كانت المزرعة بعيدة كل البعد عن الحرب الدائرة.

يتمتع نسيبا أنطوان، ماريا ووالتر زوبر، بالدفء والسلاسة والطيبة. كانا مثقفين، ولا يمتلكان الكثير من المال، فاختارا حياة تناسبهما. وتعيش عائلة كل منهما في جنيف ولوزان، بالرغم من أن أولادهما هاجروا إلى إيطاليا وفرنسا. كانا تقريباً في سن والديّ بيتا، إلا أنه حينما تكلمت معهما، لاحظت أنهما أكبر من ذلك. إذ خدمتهما حياتهما المجدّة، والمكافحة، والصحية جداً. والملاذ الذي قدماه إلى أنطوان عندما أخبرهما بمشكلته،

كان أنسب ما يُقدّم للشابين في ساعة حاجتهما. كان أنطوان على استعداد لبذل ما بوسعه من أجلهما، مقابل مكان السكن الذي وفّراه لهما، ولكن إصابة ذراعه حدّت من قدرته على المساعدة.

ذُهلت بيتا عندما وجدت مدى الضرر الذي لحق بذراعه وهي تساعده على تضميد الجرح وتدليك ذراعه عصر ذاك اليوم. فقد أتلفت الشظايا كل من عضلات يده اليسرى وأعصابها. وما يزال يبدو الجرح مؤلماً. لقد قالوا له إنه سيتمكن من استخدام ذراعه من جديد في نهاية المطاف، ولكن من يدري إلى أي درجة سيتمكن من استخدامها. ومن الواضح أنها لن تعود إلى ما كانت عليه في السابق. ولكن ذلك لم يغير شيئاً من شعور بيتا حياله، ولحسن حظه لم يكن عصراوياً.

كان أنطوان قد عرض على والتر مساعدته في الخيل، نظراً إلى أنه يتمتع بمهارة شديدة في هذا المجال، وبوجود ذراع قوية واحدة سيفعل أي شيء آخر يستطيع فعله. وستقوم بيتا إلى جانب الصبيين الصغيرين اللذين يعملان هناك بالباقي.

جلس الأربعة يتناولون الغداء المؤلف من الحساء والنقانق في المطبخ الدافىء، فعرضت بيتا أن تقوم بالطبخ وأي شيء آخر يريان أن باستطاعتها القيام به. قالت لها ماريا إنها ستعلمها كيفية حلب البقرات، فنظرت بيتا إليها بعينين واسعتين. إذ لم يسبق لها أن عاشت في أي مزرعة من قبل، وأدركت أن أمامها الكثير لتتعلمه. إنها لم تتخل عن عائلتها والمنزل الذي ولدت فيه فحسب، بل تخلت أيضاً عن المدينة والحياة التي لم تعرف وتحب سواها. لقد تخلت عن كل شيء من أجله، كما فعل هو الآخر من أجلها. كان الأمر بمثابة بداية جديدة بالنسبة إليهما، ومن دون آل زوبر لن يكون لديهما أي مكان يذهبان إليه ولن يجدا أي طريقة للعيش. وعند الانتهاء من الطعام، شكرتهما بيتا جزيلاً، ثم قامت بمساعدة ماريا في غسل الصحون. إنها الوجبة الأولى التي تتناولها خارج إطار عائلتها. لقد تغيرت حياتها بأكملها بطرف عين.

سألتهما ماريا وهي تبدي اهتماماً وعناية أمومية: "متى ستتزوجان؟" كان ينتابها القلق على بيتا منذ راسلهما أنطوان وطلب منهما المأوى له ولبيتا. عندها رحبت بهما هي ووالتر على الفور ووافقا على طلب أنطوان. إذ إن وجود أنطوان وبيتا معهما سيعينهما، نظراً إلى أن أولادهما ليسوا إلى جانبهما.

أجابت بيتا بهدوء: "لستُ أدري". إذ لم يتسنَّ لها ولأنطوان الوقت للتكلم في هذا الموضوع. فالوضع جديد جداً عليهما، وأمامهما الكثير ليفكرا به. كانت لا تزال تحت تأثير الصدمة جراء الأيام المأساوية الأخيرة التي عاشتها في كولونيا.

في وقت متأخر تلك الليلة، تباحثت وأنطوان في مشاريعهما. كان قد رتب لنفسه الكنبة في غرفة الجلوس لينام عليها، وأعطى بيتا غرفة النوم الصغيرة، وقد وافقته ماريا على هذا الأمر. أكد أنطوان لنسيبيه أنه وبيتا سيتزوجان قريباً. لم ترغب ماريا أن يعيش الشابان في الخطيئة تحت سقف بيتها، ووافقها والتر على ذلك. لم يكن ثمة شك في هذه المسألة. كما وأراد كل من بيتا وأنطوان الزواج أيضاً. كان أنطوان قد بحث في موضوع الزواج مذ وصل، واكتشف أنهما سيحتاجان في سويسرا إلى الحصول على إذن للزواج، كونهما من جنسيتين أجنبيتين. ومن أجل الحصول على الوثائق المرجوة، استعار شاحنة والتر، واصطحب بيتا إلى البلدة المجاورة في اليوم التالي. احتاجا إلى جوازي سفرهما، ووثيقة تسمح لهما بالزواج في مكتب المسجّل، ومواطنين سويسريين ليشهدا على زواجهما. لم يفدهما أبداً واقع أن جده لوالدته سويسري الأصل. فقد كانت والدته من الجنسية الفرنسية، وحصلت عليها من خلال والدتها، تماماً كجنسيته. قال الموظف الذي أخذ المعلومات منهما أنهما سيحصلان على الأوراق اللازمة بعد أسبوعين.

سأل الموظف الحكومي من منطلق عمله: "هل ستتزوجان مدنياً أم دينياً؟" فنظر أنطوان إلى بيتا غير مدرك ما عساه يقول. إذ لم يفكر أي

منهما في مسألة من سيقوم بتزويجهما، وافترض أنطوان أنه يسعهما إتمام مراسم الزواج بشكل مدني مقتضب. ففي ظل الظروف الراهنة، وعدم وجود عائلتيهما إلى جانبهما ما عدا آل زوبر، كانت مراسيم زواجهما مجرد خطوة رسمية تقتضي الحصول على الأوراق المناسبة لإعطاء شرعية لزواجهما حتى يستطيعان العيش سوياً باحترام وسلام. لن يكون هناك أي مظاهر احتفال، ولا حفل استقبال، ولا حفلة صاخبة تلي مراسم الزواج. جل ما رغبا به أن يصبحا زوجاً وزوجة، ولم يخطر في بال أي منهما كيف وأين عساهما يفعلان ذلك. بعدما طرح الموظف في مكتب التسجيل هذا السؤال، نظر أنطوان بتردد إلى زوجته المستقبلية. فخرجا ووقفا تحت أشعة الشمس الصيفية، وضمها إليه بذراعه اليمنى، وقبّلها. بدت بيتا هادئة على نحو مفاجئ وهي ترفع رأسها نحوه وتبتسم في وجهه.

قالت بلطف: "سنصبح زوجين في غضون أسبوعين". لم يكن هذا الزفاف هو الذي توقعته لنفسها خلال طفولتها، ولكن بشتى الطرق الأخرى، كان تحقيقاً لحلم راودها. كانا قد التقيا قبل عشرة أشهر، ووقعا في الحب من النظرة الأولى. والآن بات جل ما تريده هو تمضية بقية حياتها إلى جانبه. لم يعرفا بعد أين عساهما يعيشان بعد انتهاء الحرب، أو كيف سيعيشان حتى، أو إذا ما كانت عائلتاهما سترحبان بهما مجدداً. أملت بيتا ذلك من كل قلبها، ولكن جل ما تعرفه وتريده الآن هو البقاء إلى جانبه.

سألها أنطوان بلطف: "من تودين أن يزوجنا؟" كان المسجل قد طرح سؤالاً معقولاً. ولم يعرف أنطوان ما إذا أرادت أن تتزوج دينياً أو مدنياً. يمكن أن يتم تزويجهما في مكتب المسجّل في حال اختارا ذلك. ولكن أدرك أنطوان بعد قليل من التفكير في هذا الأمر، أنه يفضّل لو يزوجهما رجل دين.

قالت بيتا بكل تعقّل: "في الحقيقة أنا لم أفكر في هذا الأمر". لقد بدا الأسبوعان دهراً بالنسبة إليهما فكيف بهما ينتظران سنوات. لم يكن أي

منهما مستعداً للانتظار سنوات، وخصوصاً الآن بعد أن باتت بيتا هنا، وباتا يعيشان عند آل زوبر. كان أنطوان قد قضى معظم الليلة الماضية مستيقظاً، وقد جافاه النوم لإدراكه أن بيتا موجودة على السرير الذي سيتشاركانه قريباً في الغرفة المجاورة. بعد كل الذي مرا به من أجل أن يكونا سوياً، كان يتوق إلى الوقت الذي تصبح فيه ملكاً له.

سألها أنطوان بصراحة: "ما رأيك لو زوّجنا رجل دين؟" لم ينوِ أبداً إجبارها على الزواج بهذه الطريقة، بالرغم من أنه بدا واضحاً أنه يؤثر هذه الطريقة على غيرها.

"لستُ أدري فأنا لم أفكر في هذا الأمر مطلقاً. لا أحبذ فكرة الزواج بواسطة المسجّل فحسب". بدا هذا المنطق في التفكير جديداً على أنطوان. إذ كانت متحررة جداً في طريقة تفكيرها، على عكس عائلتها.

تحدثا في هذا الأمر في طريق عودتهما إلى المزرعة، وتكلما عن احتمال تحويلها إلى ملته. تفاجأ أنطوان لمدى انفتاحها العقلي، وقالت إنها مستعدة للقيام بهذا الأمر إن كان ذلك يعني الكثير له. كانت مؤمنة بمعتقداتها ولكنها تحب أنطوان أيضاً. وإن كان اعتناق ملته يعني أن بوسعهما الزواج في وقت أبكر فكانت مستعدة لذلك. وبعدما ناقشا الموضوع بكل جدية، توقف أنطوان قرب دار عبادة صغيرة. كان يوجد خلفها بيت صغير لرجل الدين. خرج أنطوان من السيارة، وصعد على السلالم الحجرية القديمة، ودق الجرس. أفادت اللافتة أن دار العبادة هذه تعود إلى القرن العاشر، وقد بدت أحجارها قديمة جداً ومتآكلة. خرج رجل دين مسن يرتدي غفارته، وابتسم في وجه أنطوان. تبادلا بضع كلمات، في الوقت الذي انتظرت فيه بيتا في السيارة، ثم أومأ أنطوان لها كي تنضم إليهما. خرجت من السيارة واقتربت بحذر، إذ لم يسبق لها التكلم مع رجل دين من قبل. ولم ترَ أي رجل دين على مسافة قريبة، وإنما اعتادت على رؤيتهم يمرون بمحاذاتها في الطريق فحسب، ولكنه بدا لطيفاً من خلال وجهه وعينيه. قال لدى وقوفهم تحت أشعة شمس الصباح ووسط هواء

الجبل العليل: "أخبرني خطيبك أنكما تودان الزواج". كان يمتد أمام ناظريهم حقل من الزهور الصفراء البرية، ومقبرة صغيرة قديمة تقع خلف دار العبادة، حيث لا يزال يتم دفن الموتى. ويوجد مصلّى في آخر دار العبادة، وبئر يعود إلى القرن الرابع. أجابته بيتا: "نعم، إننا نود الزواج فعلاً". محاولة عدم التفكير في ما قد يقوله والديها في حال تسنى لهما رؤيتها تتكلم إلى رجل الدين هذا. شعرت من ناحية كأن صاعقة على وشك أن تضربها، ومن ناحية أخرى شعرت على نحو مفاجئ بالأمان والطمأنينة.

"فهمتُ أنك لستِ من ملتنا. لذا ستحتاجين إلى بعض الإرشاد وأفترض أنك تودين التحول إلى ملتنا". غصت بيتا، إذ وجدت بعض الغرابة لدى سماعه ينطق بالكلمة. حيث إنه لم يخطر في بالها أبداً تغيير ملتها. ولكن في الوقت نفسه لم يخطر في بالها أيضاً أنها ستتزوج بأنطوان أو بمن هو مثله. كما وقد فتحت قراءاتها الدينية السابقة آفاق تفكيرها ناحية الأديان الأخرى. فافترضت أن مع مرور الوقت، وكُرمى لأنطوان سيتبع قلبها الملة الجديدة. كانت مستعدة للتغيير كرمى لحبها له. "كان بمقدورنا إدخالك إلى صفوف التعليم مع أطفال المنطقة، ولكن المجموعة الأخيرة قد أتمت فصول الدراسة عما قريب، والصفوف لن تبدأ من جديد إلا في نهاية الصيف. وأظنكما تودان الزواج في غضون أسبوعين". وخلال تفوهه بهذا الكلام، نظر رجل الدين إلى ذراع أنطوان المصابة وإلى البراءة في وجه بيتا. كان أنطوان قد شرح له أنه فرنسي وأن بيتا ألمانية، وأنه أصيب في الحرب، وأن عائلتيهما ليستا إلى جانبهما، ما عدا نسيبين يعيشان في كنفهما. وأوضح له أن بيتا وصلت البارحة من ألمانيا، ويريدان تسوية وضعهما، حيث إنهما لا يودان العيش في الخطيئة. كان الأمر عائداً إلى رجل الدين ليساعدهما على تحقيق طلبهما، فوافق. أراد أن يفعل كل ما في وسعه. إذ وجد طيبة في هذين الشخصين، ومن الواضح أن نواياهما حسنة، وإلا لما توقفا عنده لرؤيته. "لمَ لا تدخلان لبعض الوقت لنتكلم في الموضوع".

دعاهما للدخول، فتبعه أنطوان وبيتا حتى وصلوا إلى غرفة صغيرة معتمة. جلس رجل الدين وراء مكتب صغير عتيق، وسحب أنطوان كرسيين له ولبيتا. بدت الغرفة بطريقة ما مثيرة للكآبة، مع ذلك شعر كل من بيتا وأنطوان بالراحة لأن رجل الدين المسنّ ظل يبتسم لهما طيلة الوقت.

"هل يسعك المجيء لمقابلتي عصر كل يوم لساعة من الوقت يا بيتا؟"

فهزت رأسها بحذر رداً على سؤاله. كانت لا تزال غير واثقة مما كان متوقعاً منها فعله في المزرعة، أو ما إذا كان أنطوان يمتلك الوقت ليقلها إلى دار العبادة. وإن عجز عن ذلك، فهذا يعني أن عليها السير مسافة طويلة، ولكنها كانت مستعدة لفعل ذلك أيضاً.

قالت وهي تشعر بقليل من الخوف: "نعم أستطيع". لم تكن واثقة مما يريده منها.

في حال أتيتِ، أعتقد أننا سنغطي كل ما يفترض بنا تعليمه لك كي تتمكني من تغيير ملتك. أفضّل القيام بذلك على مدى وقت طويل، أي أشهر عدة، حتى تفهمي ما تتعلمينه ونثق أنك بتِ جاهزة. ولكن في هذه الحالة، أعتقد أنه بوسعنا التحرك بسرعة أكبر. بوسعك أن تدرسي بمفردك، وبوسعي تعليمك ما تحتاجين إلى معرفته. هذه خطوة مهمة في حياتك، حتى إنها تفوق الزواج أهمية. إن ما تقدمين عليه غاية في الروعة.

همست قائلة: "أجل". عندما التفت إليها أنطوان، بدت له عيناها واسعتين جداً وسط وجهها الأبيض الناصع. لم يسبق لها أن بدت بهذا القدر من الجمال الذي تبدو عليه في هذه الغرفة المضاءة بالشموع. "ماذا لو لم أشعر أنني جاهزة؟ إن لم أكن جاهزة...". بالكاد أمكنها لفظ الكلمة.

أجابها بلطف "عندها سيتوجب عليك بالطبع الانتظار إلى أن تصبحي جاهزة. فالزواج يمكن له أن ينتظر. إذ لا يسعك الزواج من هذا الرجل أبداً ما لم تصبحي من ملته". حتى إنه لم يأتِ أبداً على ذكر خيار تغيير أنطوان لملتها، أو خيار إتمام الزواج مدنياً. في نظر رجل الدين لا يوجد سوى زواج

شرعي واحد، وهو الزواج الذي يتممه رجل الدين في دار العبادة. وعلمت بيتا من خلال الكلام القليل الذي قاله أنطوان ذاك الصباح، أنه يعتمد الرأي نفسه أيضاً. كانت هذه خطوة أخرى كبيرة جداً ستُقدم عليها من أجله، تضحية أخرى يتحتم عليها القيام بها. وكما أجمعا ذاك الصباح، لم يكن مناسباً له أن يصبح من ملِتها. فالدراسات التي يجدر به القيام بها ستتطلب سنوات. ولا يوجد أي رجل دين في الأرجاء ليدرّسه، حتى لو فكر أنطوان في القيام بذلك. لذا لم تبدُ الفكرة معقولة لأسباب عملية وما سواها. كما واستكثرت طلب ذلك منه. فشعرت بيتا أنه ليس أمامها أي خيار سوى القيام بما يطلبه رجل الدين إن رغبت بالزواج به، وجعل علاقتهما مباركة وميمونة. ولدى إصغائها لكلام رجل الدين، شعرت أن هذا ما تريد القيام به.

تبادلا الحديث مع رجل الدين لنصف ساعة، ووعدت بيتا بالعودة عصر اليوم التالي. قال إنه سيتّم تجهيزها للأمرين في غضون أسبوعين: الزواج وتغيير الملة. رافقهما رجل الدين إلى الخارج، ولوّح لهما بيده مودعاً لدى انطلاقهما بالسيارة. كان أنطوان يقود بيده اليمنى، وبدا مرتاحاً في القيادة وهو يتكئ بأصابع يده اليسرى المصابة على عجلة القيادة.

سألها أنطوان باهتمام: "إذاً ما رأيك؟"

شعر وكأنه طلب منها الكثير، وفي حال عارضت التغيير كان مستعداً أن يرضى بزواج مدني. لم يرد لها أن تقوم بأي شيء يخرق معتقداتها الخاصة. لم يكن لديه فكرة عن مدى تدينها أو مدى التزامها...

قالت بأدب: "أظنه رجلاً لطيفاً، وستكون الدراسة معه مثيرة للاهتمام". فارتاح أنطوان لرؤيتها غير منزعجة. كانت هادئة على نحو يثير الغرابة بخصوص ما كانت على وشك القيام به، تماماً كما كانت عليه في كل خطوة قامت بها طيلة هذا المشوار.

"كيف تشعرين حيال الموضوع؟ لستِ مضطرة إلى القيام بهذا الأمر إن لم ترغبي به يا بيتا. يسعنا الزواج مدنياً. فقد تخليتِ عن الكثير من أجلي حتى الآن". كان يكنّ لها أشد الاحترام.

قالت بكل إنصاف: "وأنت أيضاً". ثم نظرت إلى خارج شباك الشاحنة وقالت بعد التفكير لبعض الوقت: "أظن أنني أفضل الزواج الديني، خصوصاً إن كان ذلك يعني الكثير لك". ثم استدارت ناحيته وارتسمت على وجهها ابتسامة جعلت عينيها تشعان نوراً.

قال: "هذا كرم بالغ من قبلك". متمنياً لو يستطيع أن يبعد يده عن عجلة القيادة ليضمها إلى صدره، ولكنه عجز عن فعل ذلك كلياً. قال لها بلطف: "أحبك". ثم بعد بضع دقائق فكّر في أمر آخر. "ماذا عن أولادك؟"

فكرت بيتا في الأمر قبل أن تجيبه، ثم رمقته بنظرة جادة. كانت قد أخذت كل ما تباحثا فيه ذاك الصباح على محمل الجد. إذ كانت القرارات التي ستأخذها غاية في الأهمية، ومن شأنها أن تغير مجرى حياتها.

"أعتقد أنني في حال أصبحتُ من ملتك، عندها يجب أن يكون أولادنا من نفس الملة. ألا تعتقد ذلك؟" لقد بدا أمراً عملياً بالنسبة إليها. إذ لم تكن مثل والديها. كانت ترتاد دار العبادة لترضيهما، ولأن ذلك كان واحداً من التقاليد التي يمارسانها. كانت مقتنعة أن بزواجها من أنطوان سترتبط بملته أكثر مع مرور الوقت، وأملت أن يحدث ذلك.

هز أنطوان رأسه ممتناً لها. كان هذا السبب الذي دعا والداها إلى الاعتراض بشكل عنيف على زواجهما. ففكرة أن يحظيا بأحفاد من ملة أخرى كانت تقض مضجعهما. ولكن بدت لبيتا الآن فكرة معقولة. "سيكون الأمر مربكاً جداً إن قمنا بأمور مختلفة، وآمنا بأفكار مختلفة، بالرغم من أنه نتيجة لقراءاتي لستُ واثقة أن ما يعتقد به كل منا فيه كثير من الاختلاف". لم يعارضها أنطوان الرأي، وقد شعرا أن جواً من الوحدة والسكينة يسود بينهما، إلى أن وصلا إلى المزرعة وخرجا من السيارة. عندئذ ألقى بذراعه حولها، ودخلا إلى المنزل لتناول الغداء مع آل زوبر.

أخبرا والتر وماريا عن لقائهما برجل الدين، وذهابهما إلى مكتب المسجل، وعن الدروس الدينية التي ستأخذها بيتا في غضون الأسبوعين المقبلين. اعتذرت بيتا عن اضطرارها لتركهم عصر كل يوم، ولكن وجدت

ماريا أن هذه الأنباء سارة جداً. إذ عندما أخبرهما أنطوان أن بيتا من غير ملته، تساءلت عما عساهما يفعلان بهذا الصدد. واعتقدت أن قيام بيتا بالتحول إلى ملة أنطوان من أجله ينم عن حب عميق له، وقد عبرت عن هذا الكلام لبيتا عندما غادر الرجلان وبقيتا وحدهما لتنظيف المطبخ.

قالت ماريا بتعاطف: "لا بد وأنك تشعرين بغرابة شديدة جراء كل ما يحدث معك". كانت ماريا امرأة تتمتع بحنان أمومي دافق، وتفتقر إلى أي غايات دنيوية. كانت قد أتت إلى المزرعة بعمر التاسعة عشر عندما تزوجت بوالتر الذي اشترى المزرعة قبل ذاك الوقت بسنتين، وعمل فيها بكد. خلال وجودها هنا أنجبت أولادها، وقامت بعملها، وأحبت زوجها، وارتادت دار العبادة. بالرغم من أنها كانت تقرأ كثيراً وتُعتبر ذكية، إلا أنها كانت تحيا حياة بسيطة، تبعد كل البعد عن أجواء المنزل الكبير والفاخر الذي تربت فيه بيتا، أو الملابس التي ترتديها والدتها وبريجيت أو المجوهرات التي تتحليان بها. في الواقع، لا يمكن على الإطلاق تخيل وجودهما في مثل هذا المكان. ولم تمتلك إلا أن تبتسم حينما تفكر بمدى اختلاف حياتها الزوجية عن حياة شقيقتها. لم تكن تنوي هي وأنطوان البقاء في سويسرا إلى الأبد. ففي النهاية أرادا العودة إلى فرنسا أو ألمانيا استناداً إلى واقع أي من عائلتيهما ستتغير موقفها، وأين ستكون الفرص الأفضل. إن لم يتسنَّ لأنطوان العودة لإدارة ممتلكاته في دوردوني، لا يعرف ما عساه يفعل. ولكن بعد الحرب، ومع كل التغيرات المحتومة التي ستنجم عنها، سيكون هناك آخرون في ظرفهما نفسه، يبدأون حياة جديدة في أماكن جديدة. إنها بداية جديدة بالنسبة إليهما، وتشعر بيتا بالامتنان الشديد لتواجدها هنا.

أجابت بيتا بهدوء رداً على سؤال ماريا: "لا أشعر بالغرابة، وإنما الوضع مختلف فحسب. لستُ معتادة على الابتعاد عن عائلتي إلى هذه الدرجة". كانت مشتاقة إلى والدتها جداً. ولم يسبق لها أبداً أن انفصلت عن شقيقتها، ولكن الآن مع زواج بريجيت وسكنها في برلين، لكان كل شيء

قد تغير على كل حال. أكثر ما آلمها هو الظروف المؤلمة التي تركت فيها عائلتها. بالنسبة إلى بيتا، كانت لا تزال تشعر بألم شديد جراء انفصالها عن عائلتها. وقد لمست ماريا في بيتا هذا الألم الذي قد يلازمها لسنوات عدة. أملت أن تعود عائلتا بيتا وأنطوان إلى رشدهما في النهاية وتسامحانهما على الخيارات التي اتخذاها في حياتهما. إذ إنهما شابان رائعان، وأدركت ماريا أنه سيصعب عليهما الوضع إن لم تتقبلهما عائلتاهما، وتتقبلا زواجهما في السنوات المقبلة. وحتى حصول ذلك، كانت ماريا ووالتر في غاية السرور للعبهما دور الوالدين البديلين لهما. فوجود هذان الشابان عند آل زوبر يُعتبر بمثابة نعمة عليهما أيضاً.

سألتها ماريا باهتمام: "هل ترغبان أنت وأنطوان بإنجاب الأطفال قريباً؟" فاحمرت وجنتا بيتا خجلاً ولم تجد جواباً. إذ لم تكن تدري إن كان للمرء الكثير من الخيارات في هذه المسألة. لطالما ظنت أن الأطفال يأتون إلى هذه الدنيا إن قُدِّر لهم ذلك. ولم تمتلك أدنى فكرة ما إن كان هناك ما يمكن فعله لمنع إنجابهم أو تغيير مجرى الأحداث. كما ولم تكن تعرف ماريا بالقدر الكافي لتسألها.

أجابت بيتا بهدوء وهي تبدو محرَجة لدى وضعها لآخر صحن نظيف في خزانة الصحون: "أظن ذلك، كما يشاء الله". تساءلت وهي تقول هذا الكلام ما إن كانت بريجيت ستنجب أطفالاً هي الأخرى عما قريب. لقد عجزت نوعاً ما عن تخيل بريجيت مع أطفال، حيث كانت لا تزال هي نفسها طفلة حتى بالرغم من بلوغها الثامنة عشرة من عمرها. فبعمر الواحد والعشرين، بالكاد شعرت بيتا أنها جاهزة لتحمل مسؤوليات الأمومة والزواج. وقبل ثلاث سنوات ما كانت أبداً لتخطر مثل هذه الأمور في بالها. ولكن بالرغم من بدايتهما المؤلمة، شعرت أنها جاهزة للمهمة. كان وقتٌ مثيراً للحماسة بالنسبة إليهما.

قالت ماريا بسعادة وهي تسكب لكل واحد كوباً من الشاي: "من الرائع أن نحظى بالأطفال هنا في المزرعة".

إذ بالكاد كانت ترى أحفادها، فهم يعيشون بعيداً جداً عنها، ويستحيل تقريباً عليها وعلى والتر مغادرة المزرعة. لذا شعرت بالسعادة لدى تفكيرها في بيتا وأنطوان، وفي وجود طفل يوماً ما في الأرجاء، في حال بقيا في ضيافتهما حتى ذاك الوقت. لمعت عينا ماريا فرحاً بهذه الفكرة. لم تقوَ بيتا حتى على التفكير في هذا الأمر كحقيقة واقعة، إذ جل ما تريده الآن هو أخذ صفوف التعليم الديني في دار العبادة الصغيرة المجاورة، والزواج بأنطوان بعد أسبوعين. وعجزت عن التفكير أو توقع أي أمر يلي ذلك. جل ما كانت واثقة منه أنها تكنّ حباً شديداً له. ولم تندم على أي شيء فعلته أو تخلت عنه من أجله. لقد احترم كلٌ من ماريا ووالتر كثيراً إخلاصها له. كانت شابة مثيرة للاهتمام، وبدا جلياً أنها صاحبة إرادة ومُحبة جداً. ومع مرور كل يوم باتت ماريا تتقرب إليها أكثر. لطالما كانا يحبان أنطوان، بالرغم من أنهما لم يرياه كثيراً في السنوات الأخيرة، ولكن أخذا قرار الموافقة بسهولة عندما اتصل بهما وطلب المكوث عندهما. ولكن ماريا شعرت بالأسف على أمر واحد وهو عدم قدرتهما على المكوث عندهما إلى الأبد بسبب جنسيتيهما. فعاجلاً أم آجلاً، ستتوقع منهما الحكومة السويسرية المغادرة بعد انتهاء الحرب. بوسعهما طلب اللجوء في سويسرا، ولكن عندما تفتح الطريق إلى بلديهما، ويعم السلام من جديد سيتوجب عليهما العودة إلى حيث أتيا. ولكن نظراً إلى كل ما يحدث في العالم، وبعد مرور سنتين على اندلاع الحرب، من يدري متى سيحين موعد الرجوع. حتى ذاك الوقت كانا في أمان وسلام بوجودهما في تلك الجبال البعيدة.

وجدت بيتا الصفوف التي كانت تأخذها مع رجل الدين أندريه مذهلة. وقد ذكرتها بطريقة ما بما كانت تقرأوه بنفسها. لقد علمها كل ما يجب أن يعلمها إياه. وطوال الوقت كانت بيتا تطرح عليه أسئلة تخبره أنها تفكر جيداً في ما تفعله. لم يبدُ أنها تشعر بأي ضيق أو غرابة في أي من المبادئ أو الأفكار التي يلقنها إياها. كانت شابة تتحلى بالذكاء، وتكنّ احتراماً شديداً للدين والفلسفة، وتتحلى بقلب محبّ. لقد أحبها رجل الدين كثيراً خلال

الأسبوعين اللذين أمضياهما سوياً يغطيان الكثير من الأمور في الدراسة المكثفة. كانت كل يوم تأتي إليه حاملة شيئاً من المزرعة، وتنقل له أيضاً تحيات آل زوبر. حتى إنها دفعته إلى الضحك عندما أخبرته كيف تعلمت حلب البقرات. وكانت تضحك أكثر في كل صباح، عندما تتخيل بريجيت تحاول أن تقوم بمثل هذه الأعمال. لكانت فقدت وعيها بكل تأكيد. كان الأمر الوحيد الذي لا يزال يُدخل الألم إلى قلب بيتا هو عندما تتذكر والدتها. وبالرغم من موقف والدها المعارض جداً لزواجها من أنطوان، إلا أنها اشتاقت إليه أيضاً. ولطالما شعرت بالقلق على سلامة شقيقيها. إذ إن كونها بعيدة عن منزلها الآن، وغضب والدها الشديد منها لمغادرتها المنزل لا يعنيان أنها لم تعد تحبهم. حتى إنها لم تكن تشعر بالغضب منهم، لقد اشتاقت إليهم فحسب. وقد كلمت الأب أندريه حول هذا الأمر، فتأثر جداً بمدى تعاطفها وتسامحها. بدا أنها لا تحمل عليهم لكونهم السبب في دفعها إلى الرحيل. إن أكبر مجاملة تلقتها منه كانت عندما أخبرها عصر يوم من الأيام أنها لو لم تولد في ملة مختلفة، وتتحضر الآن للزواج، لكانت مثّلت ناذرة عفة ممتازة. وعندما أخبرت أنطوان بهذا الأمر تلك الليلة، لم يتأثر به بقدرها.

"يا الله، آمل ألا يحاول رجل الدين دفعك إلى نذران العفة. ففي بالي أمور مختلفة لك". بدا فجأة مهووساً بها بشراسة.

"وأنا أيضاً. ولكن كان لطيفاً منه قول هذا الكلام". لقد شعرت بيتا بالإطراء، إذ كان ذلك عبارة عن مديح من رجل الدين المسن اللطيف، وقد وافقتها ماريا الرأي.

قال أنطوان وهو يبدي عدم موافقته معهما في الرأي والانزعاج لا يزال بادياً عليه: "لا يهم مدى لطفه، أنا لا أريد أي ناذرات عفة في عائلتي. لطالما فكرت أن الحياة التي يعشنها حياة تعيسة. إذ يتحتم على الناس أن يتزوجوا وينجبوا الأطفال".

قالت بيتا بإنصاف: "ربما ليس الجميع. ليس الجميع مناسباً للزواج وإنجاب الأطفال".

قال أنطوان وهو ينحني صوبها على طاولة العشاء ليقبلها: "حسناً، يسعدني أنك من عداد المناسبين". مما دفع بماريا إلى الابتسام. كان يعمل بكد في المزرعة إلى جانب والتر، وقد لاحظت بيتا عندما ضمدت جرحه ليلاً أن ذراعه باتت أفضل حالاً. كان الجرح يُشفى بالرغم من أن ذراعه ما تزال متصلبة ولا يسعه استخدامها بالقدر الذي كان يأمله. ولكنه كان يتدبر أمره بشكل جيد جداً، حتى بذراع واحدة. وبالنسبة إلى بيتا كان لا يزال بقدر الوسامة التي كان عليها من قبل. ابتسمت له بخجل عندما قبّلها، وقد شعرت بقليل من الإحراج عندما تكلم حول مسألة إنجاب الأطفال، وذكّرها بالاكتشافات الجديدة التي كانت في طريقها إليها.

وفي صبيحة اليوم الذي ستكرس فيه بيتا في الملة الجديدة، توقف كل من ماريا وأنطوان وبيتا في دار البلدية، حيث قام موظف متجهم الملامح بتزويج بيتا وأنطوان مدنياً بمراسم مقتضبة، وقد كانت هذه الخطوة من المتوجبات القانونية السابقة لزواجهما الديني في اليوم التالي. وإثر مغادرتهم وتوجههم إلى دار العبادة شعرت بيتا بالفرح لعلمها أنها باتت بنظر القانون زوجة أنطوان، تماماً كما ستصبح أمام الله في اليوم التالي. رافق أنطوان وماريا بيتا إلى دار العبادة من أجل تكريسها في الملة الجديدة. لم يتمكن والتر من المجيء لكثرة مشاغله في المزرعة. كان الاحتفال بسيطاً ومقتضباً حيث أعلنت إيمانها بالمعتقدات الجديدة، وولاءها لها. مثّل أنطوان وماريا كعرابين لها، ووعدا بلعن الشيطان نيابة عنها، ومساعدتها على الالتزام بدينها وتطبيق أحكامه في المستقبل.

لقد تفاجأت جداً عندما وجدت فجأة أنها تحب ما أصبحت عليه. كانت طريقة أخرى للتقرب من أنطوان والانسجام معه. شعرت عندما خرجت من دار العبادة أنها مختلفة، وتحمل حملاً أخف، وأنها باتت إنسانة جديدة. بدت تشع سعادة وظلت تبتسم لأنطوان. بين مراسم الزواج المدني والتكريس كان يوماً غير عادي البتة. مازحها رجل الدين أندريه بلطف قائلاً: "ما زلت آسفاً على عدم رغبتك بأن تصبحي ناذرة عفة. أعتقد لو

أنك قمت بمزيد من الدراسة، وأخذت مزيداً من الوقت لتكتشفي نداءك الباطني، لكنت ناذرة عفة ممتازة". ارتعب أنطوان من هذه الفكرة وقال: "إذاً يسعدني أنه لم يتسنَّ لكما سوى أسبوعين من الوقت". فقد ارتعب من فكرة خسارته لعروسه من أجل دخولها إلى مقر ناذرات العفة، بعدما كافح بكل ما أوتي من قوة للفوز بها. ولكنه أدرك أن رجل الدين يتكلم بنية حسنة.

وعند مغادرتهم دار العبادة وعدا بالعودة في اليوم التالي من أجل الزفاف. إذ باتت الأوراق جاهزة. لقد أعطاهما زواجهما المدني القدرة على الزواج في دار العبادة أيضاً. بعد تناول عشاء احتفالي تلك الليلة، دخلت بيتا إلى غرفتها باكراً. كانت الليلة الأخيرة التي ستنام فيها وحدها في السرير التي سيتشاطره أنطوان معها بعد الزفاف. وكان لا يزال أمامها ما تفعله تلك الليلة، وهو مشروع سري. إذ لم تجلب معها من ألمانيا ما تستطيع ارتداءه يوم زفافها. فكل الثياب التي جلبتها معها كانت عملية وتناسب العمل في المزرعة. كانت ماريا قد أعطتها غطاءين مطرزين للطاولة، أخذتهما من جدتها، وقد تمزقا في بضعة أماكن بفعل مرور السنين. قالت بيتا أن ذلك ليس بالأمر المهم. وعندما لم تكن مشغولة بالدراسة من أجل تكريسها في الملة الجديدة، أو تقوم بحلب البقرات، أو تساعد ماريا في تحضير وجبات الطعام، كانت تنهمك في الخياطة. وقارب ثوب الزفاف الذي خاطته من غطاءي الطاولة على الانتهاء. إذ قامت بقص القماش، وثنيه، وزركشته على الصدر والكتفين والذراعين، وبقي القليل من القماش المطرز فصنعت به قبعة صغيرة مع وشاح. وبما أن جسدها كان صغير الحجم، تسنى لها خياطة ذيل صغير للثوب. كانت قد خاطت ثنيات صغيرة على الصدر ووجهتها نزولاً. بدا الثوب لائقاً عليها جداً نظراً لضيق خصرها، والتنورة جرسية الشكل ومزينة بما تبقى من القماش المطرز الذي كان تالفاً. كانت قد قصت الأماكن البالية والممزقة. فبدا الثوب تحفة فنية، وحتى ماريا لم تره بشكله النهائي ولكن كانت تتحرق

شوقاً لرؤيته. توقعت أن يكون بسيطاً ويتسم ببعض الغرابة في التصميم. إذ لا يسع المرء فعل الكثير من الأمور بغطاءي طاولة قديمين، أو هكذا ظنت. لم تكن لديها أدنى فكرة عن مدى موهبة بيتا وإتقانها البالغ لفن الخياطة.

كان أنطوان قد وافق على التوجه إلى دار العبادة قبل ساعة من موعد الزفاف، حتى لا يرى كيف ستبدو بيتا إثر انتهائها من تجهيز نفسها. لقد أرادت أن تفاجئه عندما تسير في ممشى دار العبادة لتلتقي به عند المذبح. لم يملك أدنى فكرة عما كانت تقوم به عندما دخلت باكراً إلى غرفتها ليلاً، وحسب أنها منهكة فحسب بسبب الأعمال التي تقوم بها في المزرعة. حتى ماريا لم تدرك أنها عكفت عن النوم حتى بزوغ الفجر لأكثر من ليلة، وفي اليوم التالي كانت تؤدي جميع الأعمال المطلوبة منها دون أن تكون قد أخذت قسطاً كافياً من النوم، وذلك حتى تتمكن من إنهاء الثوب قبل يوم زفافها. كان ثوب زفافها أجمل ثوب خاطته في حياتها، وجدير بأن يكون في عداد مجموعات الأزياء الباريسية، ولو أنه صنع من الحرير أو الساتان بدل قماش الكتّان والقماش المطرز يدوياً والذي اضطرت إلى استخدامه لكان ثوباً مميزاً إلى أقصى الحدود وجديراً بأن يلبس في أهم حفلات الزفاف. لقد كان زفافها هذا بالنسبة إليها على نفس القدر من الأهمية. ومع أن هذا الثوب مصنوع من الكتان الأبيض إلا أنه كان ثوباً مميزاً، يناسب جداً جو دار العبادة البسيط الموجود في الجبال أكثر من أي ثوب فخم آخر. عندما رأت ماريا الثوب شهقت من هول الصدمة.

"آه يا الله يا ابنتي... أنّى لك هذا الثوب؟ هل أخذك أنطوان إلى لوزان؟"

"بالطبع لا". ضحكت بيتا بحماسة على رد الفعل الذي بدر من عرّابتها عندما رأت الثوب. حدقت المرأة فيها وفاضت عيناها بالدموع. "لقد صنعته من غطاءي الطاولة اللذين أخذتهما منك. وقد واصلت العمل على هذا الثوب كل ليلة لمدة أسبوعين".

"لا أصدق. ما كنت لأتمكن من خياطة مثل هذا الثوب ولو بعد سنتين حتى!" في الواقع، لم يسبق لها أن رأت ثوباً يقارن حتى بهذا الثوب الذي خاطته بيتا. بدت بيتا فيه أشبه بأميرة خيالية. لم ترَ ماريا في حياتها عروساً بهذا القدر من الجمال. "أين تعلمت الخياطة بهذه المهارة؟"

"الخياطة ممتعة. اعتدت على خياطة الملابس لأمي وأختي، ولطالما آثرت خياطة أثوابي الخاصة بنفسي على أن أشتريها من المتاجر". وبهذه الطريقة كانت تحصل دوماً على ما تريده بدل الحصول على تصميمات شخص آخر.

"ولكن ليس ثوباً كهذا!" فتلت بيتا بيدٍ واحدةٍ وهي تبدي إعجابها بالوشاح وذيل الثوب. كان أجمل ثوب تراه ماريا في حياتها. "انتظري حتى يراك أنطوان... سيغمى عليه حين يراك".

قالت بيتا: "آمل ألا يفعل". ولكنها كانت تطير فرحاً. حتى والتر ذُهل حينما رآها، وساعد ماريا في ترتيب الثوب وذيله بحذر في مقعد السيارة الخلفي. صعد هو وماريا في المقعدين الأماميين. وشعرت بيتا بقليل من الذنب لجعلها أنطوان يتوجه مشياً إلى دار العبادة. ولكنها لم ترد له أن يرى الثوب قبل وصولهم. كانت قد اختبأت ذاك الصباح في غرفتها إلى أن غادر كي لا يراها من أجل جلب الحظ. ما زال يصعب عليها التصديق أن هذا اليوم هو يوم زفافها. كانت قد بكت عند ارتدائها الثوب، إذ إنها اشتاقت إلى والدتها كثيراً. لم يخطر لها أبداً أنها ستتزوج في أحد الأيام دون وجود والدتها لتراها، أو دون وجود والدها ليسلّمها إلى عريسها.

كان والتر وماريا قد قدما لهما خاتميهما أيضاً. كانا خاتمين بسيطين وناسبا قياس إصبعيهما. لقد أعطى والتر أنطوان خاتم زواج والده الذي كان قد خبأه في صندوق، وناسب جداً إصبع يده اليسرى المصابة. وضعه والتر في جيبه إلى جانب خاتم والدة جدة ماريا الذي كان عبارة عن خاتم صغير مزين ببعض الأحجار الكريمة. كان صغير الحجم جداً إلى حد أن قياسه لم يناسب أي امرأة في العائلة. وقد ناسب قياس إصبع بيتا وكأنه

صُنع من أجلها، وحُفر داخل الخاتم كلمات "قلبي ملكٌ لك". بدا الخاتم جميلاً ومميزاً حتى مع مرور زمن طويل عليه.

وقد تكرم والتر وماريا عليهما بالمبيت تلك الليلة لدى أصدقائهما في منزل مجاور، حتى يخلو المنزل للعروسين. كانت ماريا قد تركت لهما عشاء احتفالياً صغيراً مؤلفاً من أطعمة شهية. كان هذا جل ما بمقدورها فعله من أجلهما، وقد قامت به بكل حب وحنان. أرادا أن يكون كل شيء رائعاً بالنسبة إليهما قدر الإمكان، لأنهما ما كانا ليحظيا بمثل هذا الزواج لو أنهما بقيا مع عائلتيهما في عالميهما. مع أنهما خسرا الكثير إلا أنهما أدركا أنهما كسبا الكثير أيضاً، ولديهما بعضهما البعض. بالنسبة لكل من أنطوان وبيتا كان هذا كافياً، مع أنه يصعب عليهما عدم التفكير فيمن خلفّاهما وراءهما، وخصوصاً في مثل هذا اليوم.

لدى وصول بيتا وآل زوبر إلى دار العبادة كان السكان المحليين يغادرونها لتوهم. كان أنطوان بانتظارهم في بيت رجل الدين كما طلبت منه بيتا. وعند خروج الناس من دار العبادة، ظلوا يحدقون في ثوب بيتا الخاطف للأنفاس، ويتساءلون عنه وعن العروس الجميلة. بدت أشبه بعروس من قصص خرافية بشعرها الأسود المتدلي تحت قبعتها المزركشة، وبشرتها البيضاء، وعينيها الزرقاوين الواسعتين. لم يسبق لهم أن رأوا عروساً بمثل جمالها طيلة سنوات حياتهم. حتى الأب أندريه أُصيب بالذهول واضطر إلى الاعتراف أنها تبدو أجمل كعروس مما قد تبدو عليه كناذرة عفة. قال لها إنها أجمل عروس رأتها عينيه. ظل الاندهاش بادياً على وجهه بضع دقائق عندما طلب من أنطوان الدخول إلى دار العبادة، وقال له إن بانتظاره مفاجأة مذهلة. لم يتصور أنطوان ما عسى هذه المفاجأة تكون، إلى أن بدأ عازف الأورغ بعزف الموسيقى التي انتقاها هو وبيتا، ورآها تدخل ببطء من الباب ممسكة بذراع والتر. مشت برشاقة أميرة شابة، وبالكاد وطأت رجلاها الأرض. كانت تنتعل حذاء السهرات الوحيد الذي جلبته معها، وهو مصنوع من الساتان القشدي اللون

وعليه إيزيمان من حجر الراين. ولكن لم يتوقع أنطوان مثل هذا الثوب على الإطلاق. كانت قد تساءلت أمامه ما عساها ترتدي، والآن بعد أن رآها تساءل ما إن كانت قد جلبت معها ثوب الزفاف هذا من كولونيا. بدا وكأنه صُنع في باريس قبل الحرب. ولكن بمجرد أن استوعب مدى جمال الثوب بات تركيزه كله منصباً على بيتا. أطال النظر في عينيها، فتدحرجت الدموع على وجهيهما. كان هناك ما يكفيها من القماش المطرز لتضعه على رأسها وتغطي وجهها به كوشاح. وعندما رفعته ماريا وجدت وجه بيتا قد غمرته دموع الفرح والحنان. لم يسبق لماريا ولا لغيرها في دار العبادة رؤية شابة بهذا القدر من الجمال قط.

عاودت بيتا البكاء حينما تبادلا العهود، وارتجفت يداها بقوة عندما أقدم أنطوان على وضع الخاتم في إصبعها، ثم قامت هي بدورها بوضع الخاتم في إصبعه بحذر حتى لا تقدم على أذيته. عندما أعلنهما رجل الدين زوجاً وزوجة، قرّبها أنطوان منه وقبّلها، فشعرت بسعادة لم تشهد لها مثيلاً من قبل. بالكاد أمكن لأنطوان إفلاتها حتى يتمكنا من مغادرة دار العبادة إلى الخارج حيث تسطع شمس الصيف. كان بعض الناس من المزارع المجاورة قد مكثوا انتظاراً لهما خارج دار العبادة، حتى يتسنى لهم رؤية العروس الجميلة من جديد. ما كان أحد ممن رأوها ذلك اليوم ليقوى على نسيان شكلها المذهل وخصوصاً أنطوان.

انضم آل زوبر ورجل الدين إليهما على الغداء بعد مراسم الزفاف عصر ذلك اليوم، ثم أوصل آل زوبر رجل الدين إلى دار العبادة خلال توجههما للمكوث لدى أصدقائهما. وقف أنطوان وبيتا على مدخل منزل آل زوبر يودعونهما، ثم التفتا إلى بعضهما البعض بعد أن باتا أخيراً وحدهما. فقد كان ذلك نادر الحدوث نظراً لسكنهما مع ماريا ووالتر في هذا المنزل الصغير، ولكن الآن بات بمقدورهما على الأقل مشاطرة الغرفة نفسها كل ليلة. واليوم فحسب لديهما المنزل بأكمله، وقد كانت هدية ممتازة من آل زوبر لهما. كانت ليلتهما التي سيقضيانها على انفراد في منزل المزرعة

الصغير الواقع على سفح جبال الألب هي جل ما يسعهما الحصول عليه من شهر العسل، ولكنها كانت كل ما يتمنيانه. جل ما رغبا به في الحياة هو البقاء سوياً. وأدرك كل منهما أنهما لن ينسيا سحر هذا اليوم أبداً. وقف أنطوان ينظر إليها دون انقطاع تحت أشعة شمس العصر. كانت لا تزال ترتدي ثوب الزفاف، وتمنى لو يسعها ارتداؤه إلى الأبد. كانت قد بذلت فيه مجهوداً كبيراً من أجل أن تعرضه للعيان لمجرد بضع ساعات من الوقت، تماماً كحال جميع العرائس. ولكن قلة من العرائس بمقدورهن صنع مثل هذا الثوب بأنفسهن. ثم تبعها أنطوان إلى داخل المنزل وهو لا يزال ينظر بإعجاب إلى الثوب الرائع الجمال على جسدها الرشيق.

جلسا وتحدثا بهدوء لفترة من الوقت في غرفة الجلوس، ثم توجه أنطوان ليسكب كوبين من الشراب وجلسا ليشرباه سوياً. يصعب جداً التصديق كيف تغيرت حياتهما خلال الأسبوعين الماضيين. قبل شهر من الزمن، ما كانت بيتا لتتخيل أنها ستعيش في مزرعة في سويسرا وتتزوج بأنطوان. كان الأمر بمثابة حلم قد تحقق بالنسبة إليهما، بالرغم من أن بيتا عانت الأمرّين للوصول إلى ما وصلت إليه. ولكن بدا وكأنّ الأحزان التي مرت بها قد بدأت تتلاشى منذ اللحظة. وجل ما تبقى وما سيتبقى لهما هي الحياة التي سيتقاسمانها سوياً.

عند بداية غروب الشمس، عرضت عليه تحضير العشاء الذي تركته ماريا لهما. كانا قد جلسا يتبادلان الأحاديث طيلة العصر، ممسكين بيدي بعضهما البعض. لم يكن أي منهما في عجلة من أمره لدخول غرفة النوم، كما ولم يشأ أنطوان أن يرعبها. فقد أدرك أنها خطوة كبيرة بالنسبة إليها، وأراد أن يسهّل عليها الأمر قدر الإمكان. ليس هناك أي داعٍ للعجلة. ولكن لم يكن أي منهما جائعاً. وعند غروب الشمس، كانا لا يزالان جالسين في غرفة الجلوس، يتحادثان، ويتبادلان القبل. وفجأة تغلب على كل منهما الشغف ولم يعد بمقدورهما الامتناع فترة أطول. فقد انتظرا هذه اللحظة أحد عشر شهراً. إذ إنّ شهر تموز قد حلّ وكانا قد التقيا في شهر آب

الماضي. شعرا وكأن دهراً يفصلهما عن لحظة لقائهما عند البحيرة لدى اصطدامه بها. والآن باتا متزوجين. كان هذا كل ما حلما به وأراداه منذ اللحظة الأولى.

بالرغم من إصابة ذراعه، التي باتت أقوى، تمكن من رفعها بذراعيه وهي مرتدية ثوب زفافها، وحملها بلطف إلى غرفة نومهما التي تقع إلى جانب غرفة والتر وماريا. وضعها بحذر شديد على السرير، وبدأ يخلع عنها الثوب ببطء. لم يكن واثقاً ما إن كانت ستمنعه من رؤية جسدها نظراً لخجلها، ولكن بدا أنها لم تُظهر أي مخاوف أو رهبة مما كان يقدم عليه. وبعد بضع لحظات كان الثوب ملقى بعناية على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة، وبدأ ببطء بفك الرداء الداخلي المصنوع من الساتان والشريط الزيني الذي خاطته منذ أشهر وجلبته معها. وعندما نظر إلى جسدها خطفت أنفاسه. بدت أشبه بدمية رائعة الجمال، وعندها بدأ بتقبيلها بلطف. وعند قيامه بذلك بدأت تنزع عنه ملابسه بيدين مرتجفتين. لم تكن تمتلك أدنى فكرة عما كان يفعل أو ما كان يتوقع منها فعله. كانت تمتلك بعض الأفكار الغامضة عن العملية الجنسية جراء الأمور التي كانت بريجيت تخبرها بها، ولكنها كانت أقل دراية وإلماماً بهذه الأمور من شقيقتها الصغرى التي لطالما كانت أكثر اهتماماً بالعلاقة التي تربط بين الجنسين. وعوض ذلك كانت بيتا تتعامل مع أنطوان ببراءة تامة، مدفوعة بالحب الذي تكنّه له.

ثم في منتصف الليل، شعرا بجوع كبير جداً، فتقاسما العشاء الذي تركته لهما ماريا. قال أنطوان إنه لم يسبق له في حياته أن شعر بهذا القدر من الجوع، فقهقهت بيتا فرحاً لدى ارتدائها الروب الذي أعطتها إياه ماريا كهدية. وعند جلوسهما في مطبخ آل زوبر قام أنطوان بتقبيلها وظل يتفحص مدى جمالها طيلة الوقت. إذ لم يكن يصدق أنه مُني بهذا القدر من الحظ الطيب، كحال بيتا. لم يكن هناك ما يخيّب ظنهما في ليلة زفافهما. وعندما كانت بيتا تأكل قطعة دجاج، نظرت إلى أنطوان راغبة بطرح سؤال عليه.

"هل تعتقد أننا قد نرزق بطفل بعد هذه الليلة؟ أفترض أن هذه هي الطريقة التي يتم الحمل فيها، إلا في حال يوجد أي شيء آخر لم ترني إياه بعد". شعرت فجأة أنها باتت راشدة جداً بعد كل الألغاز التي اكتشفتها، فابتسم في وجهها رداً على سؤالها.

"ربما. هل هذا ما تريدينه يا بيتا؟ أليس الوقت مبكراً على هذا الأمر؟"

فسألته بحشرية: "وماذا عسانا نفعل؟"

"إن رغبت بالانتظار هناك ما يسعنا فعله بعد هذه الليلة لمنع الحمل من الحدوث بسرعة". كان يفضل لها أن تحمل، ولكنه لم يشأ أن يفعل أي شيء يزعجها. إن لم تشأ أن تحمل على الفور، كان مستعداً للانتظار حتى تشاء. فقد أراد فوق كل شيء إرضاءها وإسعادها حتى آخر يوم من حياتهما.

قالت بلطف وهي تنحني لتقبله: "لا أريد الانتظار. جل ما أريده الآن هو إنجاب طفل منك".

"إذاً سنرى ما بوسعنا فعله حتى نحقق ذلك". كان قد سبق لهما وبذلا مجهوداً رائعاً في هذا الصدد. نظفا الطاولة، وغسلا الصحون، ووضعاها في مكانها. وسكبا لنفسيهما آخر كوبين من الشراب. وعندما فرغا، عادا إلى غرفة النوم. كانت ليلة الزفاف الأمثل بالنسبة إليهما. وعند شروق الشمس على جبال الألب، كانت بيتا تتثاءب حينها كطفلة صغيرة، ثم غفت أخيراً بين يديه، وهي تكنّ له حباً يفوق ما كانت تحلم به حتى.

الفصل الخامس

ظل يوم زفاف بيتا وأنطوان ذكرى ساحرة، ليس في نظرهما فحسب بل وفي نظر كل من رآهما. حيث ظل أهالي القرية لأشهر يتبادلون الأحاديث حول ثوب زفافها. وقد عمدت ماريا إلى مساعدة بيتا في وضعه في صندوق مليء بالأقمشة لحفظه. وقامت بيتا بتجفيف الورود التي حملتها كباقة وقت الزفاف. وبعد عدة أيام من التفكير قررت أن تكتب رسالة إلى والدتها وشقيقتها. أدركت أن بريجيت ستكون حينها في برلين، وأرادت أن تنقل إليها أخبار زفافها الرائع وإخبارها أنها لا تزال تحبها. أرادت إخبار والدتها أنها بخير، وإبداء أسفها الشديد لبشاعة اليوم الذي غادرت فيه المنزل، كما وأرادت أن تعلمها كم فكرت فيها وافتقدت وجودها إلى جانبها يوم زفافها.

بعثت بالرسالتين، وبعد أسبوعين رجعتا إليها غير مفتوحتين. لم يُكتب على الرسالة التي أرسلتها إلى بريجيت أي شيء شخصي، وإنما تم إرجاعها ببساطة، وقد وُضع عليها ختم يقول: "المرسل إليه غير معروف". وعرفت بيتا بذلك أن بريجيت لم تكن مستعدة لمعصية والدها، حتى مع وجودها في برلين. وقد تم أيضاً إرجاع رسالتها الموجهة إلى والدتها، بعد أن كتب عليها والدها بخطه المميز طالباً إرجاعها إلى المرسِل. لم يرغبوا بأي نوع من التواصل معها. أخذها الأمر يومين حتى تمكنت من الكف عن البكاء والاعتراف لأنطوان بما حدث.

قال لها بهدوء: "ما زال الوقت مبكراً. امنحيهم بعض الوقت". ثم أضاف بثقة: "بوسعك مراسلتهم من جديد بعد بضعة أشهر، وعندها تكون

الأجواء قد هدأت". كان هو الآخر قد امتنع عن مراسلة والديه، لأنه لا يزال غاضباً منهما بسبب الموقف الذي اتخذاه. ولم يكن لديه أي رغبة بالتواصل مع شقيقه أيضاً. ولكنه كان أكبر سناً من بيتا وأكثر غضباً منها.

قالت بيتا بتعاسة: "أنت لا تعرف والدي. لن يسامحني أبداً. قال إنه سيعتبرني هو وماما ميتة". فأثار كلامها صدمة أنطوان. "أريد فحسب إخبار ماما وبريجيت عن الزفاف وعن مدى حبي لهما". ما كانت لتجرؤ على مراسلة والدها، ولكن حتى مراسلة المرأتين في عائلتها لم توصلها إلى أي مكان. كانتا تكنان احتراماً شديداً له، وتخشيان جداً مخالفة أوامره. وقد أدركت بيتا أنه لن يسامحها أبداً، لذا أملت أن يسامحها الآخرون.

بذل أنطوان أقصى جهده لمواساتها. وظلا يقضيان كل ليلة في سعادة غامرة كعروسين. وقد بذلا جهدهما لعدم إزعاج آل زوبر، ولكن كانت الغرفتان متقاربتين جداً إلى حد أن ماريا سمعت بيتا تتقيأ باكراً ذات صباح بعد ستة أسابيع من الزفاف. سألتها ماريا عن الباب وهي تبدي قلقها: "هل أنت بخير؟" كان الرجلان قد غادرا المنزل عند الفجر وبقيت المرأتان وحدهما. وقد كانت بيتا على وشك الخروج لحلب البقرات، فشعرت فجأة بغثيان شديد. كان وجهها مكفهراً عندما دخلت إلى المطبخ بعد عشر دقائق.

قالت بيتا وهي تجلس على واحد من كراسي المطبخ، ويبدو عليها الضيق الشديد: "آسفة. لا بد وأنني أكلت شيئاً أضر بي. لقد قطف أنطوان الكثير من ثمر العليق لأجلي البارحة. وقد شعرت أيضاً بالغثيان ليلة البارحة".

سألتها ماريا بلطف: "هل أنت واثقة أن ثمر العليق هو السبب؟" لم تُفاجأ ماريا لرؤية بيتا على هذا القدر من الضيق. بل في الواقع أدخل هذا الأمر الأمل في قلبها.

"أعتقد ذلك". وعندها سألت بيتا بضعة أسئلة تتعلق بهذا الأمر، وضحكت عند اكتشافها لمدى براءة أجوبتها.

"إن كانت ذاكرتي تخدمني يا عزيزتي، فأعتقد أنك حامل".

"حقاً؟" بدت بيتا مندهشة، الأمر الذي دفع بماريا إلى الابتسام.

"نعم حقاً. لمَ لا تنتظري حتى تتأكدي ثم تخبري زوجك". إذ لم يكن هناك جدوى من دفعه إلى القلق دونما سبب أو رفع آماله كثيراً. فقد أدركت ماريا أن الرجال يريدون أجوبة حاسمة بهذا الصدد. لذا من الأفضل إخبارهم عند التأكد من الأمر.

"ومتى سأتأكد؟ متى عساي أكون واثقة جداً حتى أستطيع إخباره؟"

بعد أسبوع أو أسبوعين، إن لم تتحسن أحوالك ولم يتغير شيء، ستعرفين قريباً". كانت بيتا تبتسم حينما توجهت لحلب البقرات. وعصر ذاك اليوم، شعرت بإنهاك شديد، فرجعت إلى المنزل بعد أن أنهت مهامها، ونامت لساعتين قبل العشاء. إثر عودة أنطوان إلى المنزل، سأل ماريا بنظرة قلق: "هل بيتا على ما يرام؟" ففي العادة كانت عروسه حيوية جداً، أما الآن يبدو أن كل ما تفعله هو النوم. ولكنه تساءل ما إن كان هو السبب في إرهاقها.

قالت ماريا: "إنها بخير. لقد قضت نهارها بأكمله في الخارج تحت أشعة الشمس، إذ طلبتُ منها قطف الثمار". كانت ماريا تقوم بالتغطية على شعورها بالغثيان والنعاس في الآونة الأخيرة. ورغم ذلك كانت تجدها تكد في العمل، وتمثل يد عون كبيرة لها.

لقد تأكدت بيتا بنفسها من حملها بعد أسبوعين عندما لم يحدث شيء يفيد العكس. وحتى في هذه المرحلة المبكرة من الحمل ما عاد بوسعها إقفال زر خصرها. وقد لازمها الشعور بالغثيان طيلة الوقت. كانت تتنزه مع أنطوان عصر يوم أحد، عائدين إلى المنزل من دار العبادة، فرفعت رأسها وابتسمت له بغموض، فرد عليها بابتسامة متساءلاً عما يجول في خاطرها. لقد وجد الحياة بهذا القدر من القرب منها لغزاً محبباً ومتواصلاً بالنسبة إليه.

قال وهو يبتسم في وجهها بفخر: "تبدين كمن يخفي سراً". كان فرحاً بواقع زواجه بها ويفكر في مستقبلهما سوياً.

قالت بلطف وهي تدس يدها في ذراعه: "سأطلعك على هذا السر". كانا قد قررا التوجه إلى دار العبادة سيراً على الأقدام بدل أن يستقلا الشاحنة. إذ كان الطقس في أواخر شهر آب لا يزال جميلاً. وعلى حدّ تقديرها وماريا كانت حاملاً بشهرها الثاني تقريباً. كانت واثقة أنها حملت في ليلة زفافهما ولم يساور أنطوان أي شك. قالت وهي تنظر إليه والفرح بادٍ من عينيها: "سنرزق بطفل". فحدق أنطوان بها وتوقفا عن المشي. ثم سألها باندهاش: "هل أنت واثقة؟ كيف حصل ذلك؟" فضحكت عليه.

"حسناً، عندما نذهب إلى المنزل سأشرح لك الأمر، أو ربما يجدر بي أن أريك مجدداً كيف قمنا بالأمر تذكيراً لك". كانت تمازحه، فضحك معها وهو يشعر بمدى حماقته.

"هذا ليس ما قصدته، بالرغم من أنني سأسعد جداً بهذا التذكير في أي وقت سيدة دو فاليراند". بات يحب مناداتها بهذا الاسم، وهي كذلك أحبته. إذ بدا هذا الاسم يناسبها. "أعني متى، وكيف عرفت، وهل أنت واثقة، ومتى سيولد؟" ثم بدا فجأة قلقاً. "هل يجدر بك المشي؟"

سألته بلطف: "هل تود أن تحملني إلى المنزل؟" ثم ضحكت عليه. "أنا بخير بالرغم من أنني شعرت ببعض الغثيان في الآونة الأخيرة، ولكن تقول ماريا أن هذا أمر طبيعي. أذكر أنني سمعت عن بعض النساء اللواتي كنتُ أعرفهن، أنهن شعرن بالتعب الشديد لعدة أشهر، إلى حدّ أنهن عجزن عن مبارحة غرف نومهن". ولكن في هذا الجو الصحي الذي يعيشان فيه وهذه الحياة الهادئة التي ينعمان بها، كانت بيتا واثقة أن هذا الغثيان سيزول سريعاً. وكانت فعلاً قد شعرت ببعض التحسن. أما الأسابيع الأولى فكانت فظيعة جداً. ولكن الآن تبدو عليها الحماسة الشديدة لدى التفكير في ما يحدث لها، وبالتالي ما عادت تمانع الضيق الذي تشعر به.

"أعتقد أن الحمل حصل ليلة زفافنا، مما يعني أننا سنرزق بطفلنا الرائع في بداية شهر نيسان". وقد وجدتْ أن توقيت مولده سيكون ممتازاً، إذ إنه سيتسنى لها إخراج طفلها من المنزل في الصيف، بدل لفّه بالأغطية

لتدفئته وإبقائه داخل المنزل في فصل الشتاء. بالنسبة إليها كان وقت الولادة مناسباً جداً. وعندما سمع أنطوان الخبر شعر بحماسة بالغة وجعلها تبطئ في المشي حرصاً عليها. ولو أنها سمحت له لكان حملها إلى المنزل على كتفيه. ثم لاحظت عليه بعض القلق. إذ لم يكن واثقاً إن كان باستطاعتهما مواصلة حياتهما الحميمة كالسابق، فهو لم يشأ التسبب لها بأي أذى. فأكدت لـه أن كـل شيء يسير على ما يرام، وبوسعهما مواصلة حياتهما بشكل طبيعي.

فـي غـضون الأشهر القليلة المقبلة، أبقى أنطوان عينيه عليها. كان يعـود إلى المنزل كلما سنحت الفرصة ليطمئن عليها. وقد قام بالكثير من الأعمال نيابة عنها، بالرغم من أنها أصرت أنه ما من داعٍ لذلك.

"أنطـوان لستَ مضطراً إلى فعل ذلك، فأنا بخير. إذ يُستحسن لي أن أبقى مشغولة وفي حالة حركة دائمة".

"من قال ذلك؟" ثم أخيراً اصطحبها إلى طبيب في لوزان كي يطمئن إلى حُسن سير الأمور. فأكد لهما الطبيب أن كل شيء يسير على ما يرام. والشيء الوحيد الذي كانت تتحسر لأجله يكمن في عجزها عن مشاطرة هـذه الأخبار مع والدتها. حاولت أن تبعث رسالة أخرى لها، فأعيدت إليها هـذه المرة بشكل أسرع. لقد تم نفيها تماماً عن عائلتها. وبات أنطوان وآل زوبـر العائلـة الوحـيدة لديها، إضافة إلى طفلهما الذي سيرى النور بعد بضعة أشهر.

بعد مرور ستة أشهر تقريباً، بدا بطن بيتا كبير الحجم جداً. في العادة كانت بيتا نحيفة جداً، أما الآن فإنها تبدو حاملاً في شهر متقدم على ما هي علـيه بالفعل. مع نهاية شهر كانون الثاني بدت وكأنها ستلد الطفل في أي لحظـة، وبالكـاد كـان يسمح لها أنطوان بمغادرة المنزل. كان يخشى أن تنزلق رجلها، وتقع على الثلج، وبالتالي تجهض حملها. وقد كان يحب أن يـستلقي ليلاً بالقرب منها ليتحسس الطفل الذي يركل في بطنها. كان يعتقد أن بيـتا حامل بصبي، وقد أملت بيتا ذلك، ولكن أصر أنطوان أنه لا فرق

لديـه على الإطلاق. وساوره هذا الاعتقاد بأن الجنين ذكر لمجرد أن بطن بيـتا كبيرة جداً. كانت بيتا تتمتع بالصحة والمعنويات العالية، ولكن بالكاد بات بوسعها التحرك الآن. كانت قد قامت بخياطة بعض الثياب التي تناسب حجـم جـسدها الـذي يتزايد وزنه، وقد دُهشت ماريا بمدى براعتها في الخـياطة. صـنعت بعض القمصان، والتنانير، والأثواب من خرق قديمة وجـدتها في الأرجاء، حتى إنها خاطت معطفاً أنيقاً جداً من دثار للحصان لـونه أحمر ومربع النقش، كان والتر قد أعطاها إياه. بدت جميلة، وشابة، وتتمتع بالصحة. وعند ذهابها إلى دار العبادة أيام الآحاد، كان يُسعد أندريه برؤيتها.

انـتاب أنطوان القلق بشأن من سيقوم بتوليد بيتا. وقد فكّر في أخذها إلى جنيف أو لوزان لتلد في مستشفى هناك، ولكن في الواقع لم يكن بوسعه تحمل تكاليف هذا الأمر. كان هناك طبيب على بُعد ثلاثين ميلاً، ولكن ليس هناك وسيلة للاتصال به هاتفياً. لذا عندما يحين موعد الولادة لن يتمكنا من استدعائه. وقد تأخذ القيادة ذهاباً وإياباً من هناك وقتاً أطول مما قد تأخذه الـولادة نفـسها. فأصـرت بيتا أنها لا تشعر بالقلق حيال هذا الأمر. وقد أنجبت ماريا أولادها في منزلها، كما وأنها سبق وتوجهت إلى فرنسا لتكون إلـى جانب ابنتها لحظة إنجابها لطفلها. إضافة إلى أنها ساعدت العديد من صديقاتها في الولادة، فباتت قابلة ذات خبرة حتى من دون تدريب رسمي. لطمأنـت المرأتان إلى أن بوسعهما تدبر أمر الولادة. أو على الأقل هذا ما قالته بيتا. إذ لم تشأ أن تثير قلق أنطوان، ولكنها اعترفت لماريا عدة مرات أنهـا تشعر بالخوف. فهي لم تكن تعرف فعلياً أي شيء عن الولادة، ومع ازدياد حجم بطنها كان شعورها بالقلق يزداد.

قالـت ماريـا بثقة: "لن تتم الولادة إلى أن تصبحي جاهزة. الأطفال يدركـون متـى عليهم القدوم إلى هذا العالم. إنهم لا يأتون عندما تكونين متعـبة أو مريـضة أو منـزعجة. إنهم ينتظرون إلى أن تصبحي جاهزة للقـائهم والترحيب بهم". بدا لبيتا أن ماريا تبالغ في التفاؤل، ولكنها كانت

مستعدة إلى منحها فائدة الشك وتصديقها نظراً لمعاملتها العطوفة والهادئة معها.

في أواخر أيام شهر آذار، فوجئت بيتا لشعورها بتجدد حيويتها. حتى إنها توجهت لحلب البقرات، وعندما عرف أنطوان بهذا الأمر ليلاً، قام بتأنيبها خوفاً عليها.

"كيف عساك تتصرفين بهذه الحماقة؟ ماذا لو قامت إحدى البقرات بركلك وأنت الطفل؟ أريدك أن تبقي داخل المنزل، وتتروي بتصرفاتك". لقد امتعض جداً لعجزه عن تأمين وسائل الراحة والأماكن الآمنة لها. لم يكن بيده ما يفعله لتسهيل الأمر عليها. وبالرغم من أن بيتا لم تبدِ أبداً أي معارضة ناحية العمل في المزرعة، إلا أن الواقع يشير إلى أن بيتا ليست أبداً بفتاة مزارع. فقد نشأت في جو من الرفاهية، ولطالما كانت فتاة مدنية مرفهة. ووفقاً لمعلوماته، كان الطبيب يأتي لمعاينتها حتى في حالة إصابتها بزكام بسيط. والآن يتوقع منها أن تلد طفلها في كوخ على سفح جبال الألب، وحتى من دون مساعدة طبيب أو ممرضة.

كتب إلى صديق له في جنيف رسالة طالباً منه أن يرسل له كتاباً حول موضوع الولادة. وبعد أن نامت بيتا ليلاً، عمد إلى قراءته بكل تمعن، آملاً أن يتعلم منه شيئاً من شأنه أن يساعدها في الولادة. ومع مرور الأيام القليلة من الحمل كان يزداد قلقاً. وأكثر ما كان يثير ذعره هو صغر حجم جسدها. ماذا لو كان حجم الطفل ضخماً، وبالتالي عجزت بيتا عن ولادته؟ كان الكتاب يحوي فصلاً يتكلم عن الولادة القيصرية التي لا يقوم بها سوى الطبيب. وحتى مع وجود الطبيب قد تكون حياة كل من الأم والطفل في خطر. وقد ورد في هذا الكتاب أن معظم الولادات من هذا النوع تنتهي بكارثة. ولم يقوَ أنطوان على تصور أي شيء أسوأ من خسارته لبيتا. كما ولم يشأ أن يخسر الطفل أيضاً. لقد استحال عليه التصديق أن طفلاً بهذا الحجم الكبير سيفلح في الخروج من هذا الجسد الصغير. إذ بدا على بيتا أنها تزداد نحافة، في الوقت الذي يزداد فيه الطفل نمواً كل ساعة. ليلة

الحادي والثلاثين من آذار، كان أنطوان ينام نوماً متقطعاً، عندما سمع بيتا تنهض وتتوجه إلى الحمام. كان حجم بطنها قد ازداد جداً إلى حدّ أنها باتت ترتدي ثياب النوم الخاصة بماريا والتي كانت واسعة بما فيه الكفاية. ثم ما لبثت أن عادت إلى السرير وهي تتثاءب بعد بضع دقائق.

همس قائلاً وقد بدا عليه القلق: "هل أنتِ بخير؟" لم يشأ أن يوقظ آل زوبر.

"أنا بخير". ابتسمت في وجهه وبدا عليها النعاس الشديد، ثم عاودت النوم على جنبها في السرير، وأدارت له ظهرها. إذ لم تعد تستطيع النوم على ظهرها. كان الطفل ثقيلاً جداً مما كان يجعلها تشعر وكأنها تختنق. وضع يده بلطف على بطنها الكبيرة ليتحسس ركلات الطفل كما اعتاد أن يفعل دوماً. لم يستطع أنطوان النوم مجدداً، وهذه المرة عجزت بيتا أيضاً عن النوم. استدارت بشكل غريب من جنب إلى آخر موجهة وجهها إليه أخيراً.

همس قائلاً من جديد: "أحبك".

فقالت بسعادة: "أنا أيضاً أحبك". وقد بدت جميلة، وسعيدة، وشعرها الأسود الطويل منتشر وراءها على الوسادة. ثم أدارت ظهرها إليه من جديد معترفة أنه يؤلمها، وطلبت منه أن يدلكه لها، وقد أسعده القيام بذلك كالعادة. كانت بطنها الجزء الوحيد من جسدها الذي ازداد حجماً. ولدى تدليكه لظهرها، سمعها تئنّ على غير عادتها.

سألها بلطف: "هل آلمتك؟"

"لا... أنا بخير... لم يكن بالأمر المهم". لم تشأ إخباره أنها كانت تشعر بآلام منذ الليلة الفائتة. إذ لم تبدُ لها هذه الآلام بالأمر الهام، وحسبت أنها مجرد سوء هضم، ولكن الآن بات ظهرها يؤلمها أيضاً. كانت بيتا قد غطت في النوم من جديد، عندما نهض أنطوان بعد الفجر بساعة. فقد كان ينتظره هو ووالتر الكثير من الأعمال ليقوما بها ذاك اليوم، لذا أرادا البدء باكراً. كانت بيتا لا تزال نائمة عندما غادر أنطوان المنزل مع والتر، وكانت ماريا تتحرك بهدوء في أرجاء المطبخ.

لم تخرج بيتا من غرفة النوم إلا بعد ساعتين، وقد شعرت عندها بالذعر، فهرعت إلى المطبخ تبحث عن ماريا. همست قائلة: "أعتقد أن شيئاً ما يحدث".

ابتسمت ماريا في وجهها بنظرة سعادة وقالت: "لقد حان الوقت. لقد أتممت الشهر التاسع اليوم. يبدو أنك سترزقين بطفل اليوم".

اعترفت لها بيتا قائلة: "أشعر بألم فظيع". كان ظهرها يؤلمها بشدة، وشعرت بغثيان قوي، بالإضافة إلى ضغط هائلٍ في بطنها نحو الأسفل. كانت تعاني من نفس الآلام الفظيعة في الظهر وأسفل البطن نفسها والتي شعرت بها في الليلة الفائتة، ولم يعد الألم يبدو كسوء هضم على الإطلاق.

"ما الذي سيحدث؟" بدت بيتا مذعورة وأشبه بطفلة، فألقت ماريا بذراعها حولها بلطف وأخذتها إلى غرفتها.

"سترزقين بطفل جميل يا بيتا. هذا كل ما سيحدث. أريد منك أن تستلقي وتفكري بالأمر. سأعود بعد دقيقة". كانت قد وضعت جانباً مناشف وفوطاً قديمة من أجل الولادة، بالإضافة إلى حوض لغسل المولود ساعة يولد، فذهبت لإحضارها بمجرد أن وضعت بيتا في سريرها وهي تبدو قلقة ومترقبة.

"لا تتركيني".

"سأذهب فقط إلى حجرة المؤن. سأعود في غضون دقيقة".

"أين أنطوان؟" كانت بيتا قد بدأت تصاب بالذعر عندما أصيبت بأول انقباضة جدية. فقد فاجأتها تماماً، إذ لم يسبق أن أخبرها أحد من قبل أن الوضع سيكون كما هو عليه. لقد شعرت وكأن سكين جزار يسري من أسفل فخذها حتى بطنها. وشعرت بأن معدتها قاسية كالصخرة، ولم تقوَ على التقاط أنفاسها، فعانقتها ماريا.

"لا بأس، لا بأس. سأعود عما قريب". هرعت ماريا إلى المطبخ وجلبت وعاء، وبدأت بتسخين الماء، ثم أتت بالمناشف والفوط التي كانت قد وضعتها جانباً، ثم عادت إلى بيتا. كانت مستلقية على سريرها وهي

تبدو مرتبكة. وبمجرد دخول ماريا من الباب، أصيبت بيتا بانقباضة ثانية، فصرخت مرعوبة، وألقت بنفسها على ماريا. أمسكت ماريا بيديها، وطلبت منها ألا تدفع، فالوقت ما يزال مبكراً على ذلك. إذ لا يزال أمامها الكثير من الوقت قبل أن يخرج الطفل إلى هذه الدنيا. وفي حال دفعت في وقت مبكر جداً، فستجهد نفسها بسرعة. عندها سمحت بيتا لماريا أن تنظر لتتفقد الطفل ولكنها لم تره. كانت الآلام التي شعرت بها في الليلة الفائتة، قد بدأت تيسّر الولادة، ولكن لا يزال هناك وقت. اعتقدت ماريا أن بيتا لن تلد قبل ساعات، وأملت أن تكون ولادتها ميسّرة. فأحياناً عندما تحدث الولادة بشكل سريع، تكون أسوأ حالاً، ولكن عندها تكون على الأقل قد انتهت. ولكن بما أن هذه أول ولادة لها والطفل كبير الحجم، شكت ماريا في أن تكون الولادة بطيئة.

ومع حدوث الانقباضة التالية، تدفقت ماء الرأس على المناشف التي وضعتها ماريا تحتها وحولها. فأخذت ماريا هذه المناشف إلى المطبخ ووضعت المزيد منها تحتها. وقد أدركت ماريا أنه بمجرد أن تنكسر ماء الرأس، تصبح الانقباضات أقوى. وفي غضون ساعة كانت بيتا تعاني أشد الآلام، إذ بدأت الانقباضات تتسارع جداً، مما أعطاها مجرد ثوانٍ لتلتقط أنفاسها بين الانقباضة والأخرى. وعندما أتى أنطوان إلى المنزل من أجل تناول الغداء وقبل أن يفتح الباب حتى، سمع صراخها، فهرع إليها.

سأل ماريا بنظرة رعب: "هل هي بخير؟"

أجابت ماريا بهدوء: "إنها بخير". اعتقدت ماريا أنه لا يجدر بأنطوان التواجد داخل الغرفة، ولكنه بمجرد وصوله إلى المنزل دخل مباشرة إلى الغرفة، وألقى بذراعه على الفور حول بيتا.

"عزيزتي المسكينة... ماذا عساي أفعل لأساعدك؟" وبمجرد رؤيتها له بدأت مباشرة بالبكاء. كانت مرعوبة، في الوقت الذي رفضت ماريا كل الرفض أن تبدي قلقها. كانت ماريا واثقة أن الطفل كبير الحجم جداً، ولكن من شأن قوة الانقباضات التي تصيب بيتا أن تساعدها على الولادة. كانت

بيتا تعاني آلام الولادة نفسها التي تشهدها معظم النساء في مرحلة المخاض، وفي كل مرة تتفقد فيها ماريا لترى الطفل لا تجد له أي أثر.

"أنطوان لا أستطيع، لا أستطيع، يا الله الألم فظيع جداً". كانت تناضل لتلتقط أنفاسها بين كل انقباضة وأخرى، فتألم أنطوان جداً لمنظرها.

قالت له ماريا بهدوء: "اذهب وتناول الغداء أنت ووالتر". لكنه لم يتزحزح من مكانه.

قال بحزم: "لن أغادر الغرفة". فقد اعتبر نفسه السبب في ما يحصل لبيتا، وقرر عدم تركها وحدها لمواجهة كل هذه الآلام، الأمر الذي أثار استغراب ماريا. ولكن بدا أن تواجده بالقرب منها يهدئ من روعها. بذلت بيتا أقصى جهدها كي لا تصرخ عند حدوث الانقباضات التالية، ورأى أنطوان بطنها تشد. وعندما تحسسها، وجدها قاسية جداً كالصخرة. عندها تركتهما ماريا دقيقة من الوقت، لترى والتر في المطبخ، وطلب منها أنطوان إخباره أنه سيبقى مع بيتا إلى أن تتم الولادة بسلامة. عادت ماريا حاملة معها قطعة قماش باردة، ولكنها لم تفد شيئاً، واستمرت الانقباضات تضربها بقوة.

ظل الأمر على هذا المنوال لساعات، وبيتا تصرخ بشكل متواصل. كانت الشمس قد قاربت على المغيب عندما صرخت ماريا صرخة النصر. فقد رأت أخيراً رأس الطفل. باتت تراه الآن عند كل انقباضة. ومع كل انقباضة تظهر أكثر وأكثر فروة الرأس والشعر. قام كل من أنطوان وماريا بتشجيعها، ولكن ما عادت بيتا تعباً. إذ شعرت وكأنها تحتضر. واكتفت بمواصلة الصراخ، وبالكاد كانت تكف عن الصراخ لتلتقط أنفاسها. طلبت منها ماريا أن تدفع بأقصى قوتها، ولكن لم يعد لديها أي طاقة على ذلك. اكفهر وجه بيتا، واستحال أزرق عند قيامها بالدفع، ولكن شيئاً لم يحدث. لم يصدق أنطوان ما تراه عينيه، إذ كان الوضع أفظع من أن يوصف، وأقسم لنفسه ولها أنهما لن ينجبا طفلاً آخر. ما كان أبداً ليضعها في مثل هذا الموقف لو أنه عرف أن هذا ما سيحل بها. كان قد مرّ النهار بطوله وحل

المساء وبيتا غارقة في المخاض. وعند حلول الساعة السابعة، نال اليأس من أنطوان. إذ باتت بيتا ترفض الدفع، وظلت مستلقية في مكانها تبكي وتقول إنها عاجزة عن الدفع.

صرخت ماريا عليها بعد أن اعتادت بيتا منها كل اللطف وقالت: "عليك أن تدفعي". كانت ترى الرأس يطل ثم يغيب عن النظر مع كل انقباضة، وأدركت أنه في حال طال الأمر كثيراً فقد يخسرون الطفل. صرخت بحزم إلى حد أن بيتا أطاعتها وقالت: "ادفعي. هيا ادفعي! من جديد!" طلبت من أنطوان أن يحملها من كتفيها، وطلبت من بيتا أن تثبت قدميها على آخر السرير. كان صراخ بيتا الذي يملأ الغرفة مخيفاً. إذ بدت وكأنها تُذبح. ولكن عندما أمسك بها أنطوان، أطل رأس الطفل أخيراً، ثم صرخت ماريا طالبة منها أن تدفع من جديد، وعندما دفعت هذه المرة سمعوا صراخاً في الغرفة أذهلهم جميعاً. كانت بيتا لا تزال تصرخ، ولكنها نظرت إلى أنطوان باندهاش عندما سمعت صراخ الطفل. طلبت منها ماريا أن تدفع من جديد، وهذه المرة خرج الكتفان ومع دفعتين أخريين خرج الطفل وبات على السرير مغطى بالدماء، ويصرخ بصوت عال. إنها فتاة.

امتلأت الشراشف التي تحيط ببيتا بالدماء، ووجدت ماريا أنها فقدت الكثير من الدماء، ولكن ليس إلى حد يثير خوفها عليها. كانت الطفلة كبيرة الحجم جداً، كما كانوا يتوقعون. وقامت ماريا بخبرة عالية بربط الحبل السُرّي في مكانين، ثم قطعته، في الوقت الذي كان فيه أنطوان وبيتا يراقبانها. نظفت الطفلة بسرعة، ولفتها بشرشف، وأعطتها لأمها، وأنطوان واقف بقربهما والدموع تنهمر من عينيه. إذ لم يسبق له في حياته أن رأى مشهداً رائعاً كمثل مشهد زوجته في تلك اللحظة حاملة طفلتهما. قال لبيتا وهو يبدو في غاية الحزن: "أنا آسف جداً". ثم أضاف لدى قيام بيتا بوضع الطفلة على صدرها لترضعها: "أنا آسف جداً فقد كانت تجربة فظيعة". فرفعت عينيها صوبه، وابتسمت، وبدا عليها الإنهاك الشديد بينما كا ن الفرح العميق يغمرها في الوقت عينه، وقالت: "كان الأمر يستحق كل هذا

بيتا تعاني آلام الولادة نفسها التي تشهدها معظم النساء في مرحلة المخاض، وفي كل مرة تتفقد فيها ماريا لترى الطفل لا تجد له أي أثر.

"أنطوان لا أستطيع، لا أستطيع، يا الله الألم فظيع جداً". كانت تناضل لتلتقط أنفاسها بين كل انقباضة وأخرى، فتألم أنطوان جداً لمنظرها.

قالت له ماريا بهدوء:"اذهب وتناول الغداء أنت والتر". لكنه لم يتزحزح من مكانه.

قال بحزم: "لن أغادر الغرفة". فقد اعتبر نفسه السبب في ما يحصل لبيتا، وقرر عدم تركها وحدها لمواجهة كل هذه الآلام، الأمر الذي أثار استغراب ماريا. ولكن بدا أن تواجده بالقرب منها يهدئ من روعها. بذلت بيتا أقصى جهدها كي لا تصرخ عند حدوث الانقباضات التالية، ورأى أنطوان بطنها تشد. وعندما تحسسها، وجدها قاسية جداً كالصخرة. عندها تركتهما ماريا دقيقة من الوقت، لترى والتر في المطبخ، وطلب منها أنطوان إخباره أنه سيبقى مع بيتا إلى أن تتم الولادة بسلامة. عادت ماريا حاملة معها قطعة قماش باردة، ولكنها لم تفد شيئاً، واستمرت الانقباضات تضربها بقوة.

ظل الأمر على هذا المنوال لساعات، وبيتا تصرخ بشكل متواصل. كانت الشمس قد قاربت على المغيب عندما صرخت ماريا صرخة النصر. فقد رأت أخيراً رأس الطفل. باتت تراه الآن عند كل انقباضة. ومع كل انقباضة تظهر أكثر وأكثر فروة الرأس والشعر. قام كل من أنطوان وماريا بتشجيعها، ولكن ما عادت بيتا تعباً. إذ شعرت وكأنها تحتضر. واكتفت بمواصلة الصراخ، وبالكاد كانت تكف عن الصراخ لتلتقط أنفاسها. طلبت منها ماريا أن تدفع بأقصى قوتها، ولكن لم يعد لديها أي طاقة على ذلك. اكفهر وجه بيتا، واستحال أزرق عند قيامها بالدفع، ولكن شيئاً لم يحدث. لم يصدق أنطوان ما تراه عيناه، إذ كان الوضع أفظع من أن يوصف، وأقسم لنفسه ولها أنهما لن ينجبا طفلاً آخر. ما كان أبداً ليضعها في مثل هذا الموقف لو أنه عرف أن هذا ما سيحل بها. كان قد مرّ النهار بطوله وحل

المساء وبيتا غارقة في المخاض. وعند حلول الساعة السابعة، نال اليأس من أنطوان. إذ باتت بيتا ترفض الدفع، وظلت مستلقية في مكانها تبكي وتقول إنها عاجزة عن الدفع.

صرخت ماريا عليها بعد أن اعتادت بيتا منها كل اللطف وقالت: "عليك أن تدفعي". كانت ترى الرأس يطل ثم يغيب عن النظر مع كل انقباضة، وأدركت أنه في حال طال الأمر كثيراً فقد يخسرون الطفل. صرخت بحزم إلى حدّ أن بيتا أطاعتها وقالت: "ادفعي. هيا ادفعي! من جديد!" طلبت من أنطوان أن يحملها من كتفيها، وطلبت من بيتا أن تثبت قدميها على آخر السرير. كان صراخ بيتا الذي يملأ الغرفة مخيفاً. إذ بدت وكأنها تُذبح. ولكن عندما أمسك بها أنطوان، أطل رأس الطفل أخيراً، ثم صرخت ماريا طالبة منها أن تدفع من جديد، وعندما دفعت هذه المرة سمعوا صراخاً في الغرفة أذهلهم جميعاً. كانت بيتا لا تزال تصرخ، ولكنها نظرت إلى أنطوان باندهاش عندما سمعت صراخ الطفل. طلبت منها ماريا أن تدفع من جديد، وهذه المرة خرج الكتفان، ومع دفعتين أخريين خرج الطفل وبات على السرير مغطى بالدماء، ويصرخ بصوت عال. إنها فتاة.

امتلأت الشراشف التي تحيط ببيتا بالدماء، ووجدت ماريا أنها فقدت الكثير من الدماء، ولكن ليس إلى حدّ يثير خوفها عليها. كانت الطفلة كبيرة الحجم جداً، كما كانوا يتوقعون. وقامت ماريا بخبرة عالية بربط الحبل السرّي في مكانين، ثم قطعته، في الوقت الذي كان فيه أنطوان وبيتا يراقبانها. نظفت الطفلة بسرعة، ولفتها بشرشف، وأعطتها لأمها، وأنطوان واقف بقربهما والدموع تنهمر من عينيه. إذ لم يسبق له في حياته أن رأى مشهداً رائعاً كمثل مشهد زوجته في تلك اللحظة حاملة طفلتهما. قال لبيتا وهو يبدو في غاية الحزن: "أنا آسف جداً". ثم أضاف لدى قيام بيتا بوضع الطفلة على صدرها لترضعها: "أنا آسف جداً فقد كانت تجربة فظيعة". فرفعت عينيها صوبه، وابتسمت، وبدا عليها الإنهاك الشديد بينما كان الفرح العميق يغمرها في الوقت عينه، وقالت: "كان الأمر يستحق كل هذا

العناء". يصعب على المرء التصديق أن هذه هي المرأة نفسها التي كانت تصرخ وتتألم منذ الصباح الباكر. بدت بيتا منهكة القوى، وإنما يخالجها شعور بالسرور والطمأنينة. "إنها جميلة جداً".

قال وهو يتلمس خدها بلطف بالغ: "وأنت كذلك". ثم لمس خد الطفلة. كانت الطفلة تنظر إليهما وكأنها بدت مهتمة بلقائهما. أبقتها بيتا على صدرها، واستلقت إلى الوراء، وأسندت ظهرها على الوسادة، وقد نال التعب منها كل منال. لم يخبرها أحد عما قد تواجهه في الولادة. لذا لم تكن متحضرة بأي طريقة من الطرق لمصاعب الولادة. لم تكن تعرف لماذا تُبقي النساء هذه المصاعب طي الكتمان. إذ كن عادة يتهامسن في ما بينهن حول هذه الأمور، ولكنها باتت الآن تدرك السبب. ربما لو كانت النساء صادقات معها في هذا الخصوص، ما كانت لتمتلك الشجاعة على خوض هذه التجربة. كان أنطوان لا يزال يبدو مهزوزاً من هول المشهد.

استلقيا جنباً إلى جنب في السرير يتضاحكان ويتكلمان مع الطفلة، ثم طلبت ماريا من أنطوان مغادرة الغرفة، والذهاب لتناول الغداء. إذ بدا وكأنه بحاجة إلى الطعام. كان الوقت قد تخطى الساعة التاسعة، وأرادت ماريا تنظيف بيتا، والطفلة، والسرير، والغرفة. بعد ساعة نادته من جديد، فوجد في الغرفة جواً من السكينة لم يسبق له رؤيته من قبل. كانت بيتا مستلقية على شراشف نظيفة، وشعرها مسرّح، ووجهها نظيف، والطفلة نائمة بين ذراعيها. وقد اختفى مشهد الرعب الذي شهده فترة العصر والمساء. فابتسم لماريا ابتسامة امتنان.

قال وهو يعانقها: "أنت مذهلة".

فقالت ماريا بفخر"لا أنت المذهل. كلاكما كنتما مذهلان. أنا فخورة بكما جداً". وكأنها هي التي أنجبت هذه الطفلة، وقد ارتاحت جداً لعدم ولادتها لها: ابنتكما تزن حوالى خمسة كيلوغرامات". لم يسبق لماريا أن رأت امرأة تلد مثل هذه الطفلة الكبيرة الحجم. ومع حجم بيتا المنمنم، كانت ولادة مثيرة للإعجاب أكثر. كانت قد مرت لحظة أو لحظتين شعرت

خلالهما ماريا بالخشية من فقدانهما، ولكنها لم تيأس وتستسلم للذعر قط. كانت الطفلة تزن خمسة كيلوغرامات بالضبط. وقد بدت بين ذراعي والدتها، أكبر حجماً من طفلة حديثة الولادة. لم يسبق لماريا رؤية والدين فخورين إلى هذه الدرجة. سألتهما: "ماذا ستسميانها؟" في الوقت الذي أطل فيه والتر برأسه عبر الباب وابتسم للزوجين الوسيمين الحاملين طفلتهما.

نظر كل من بيتا وأنطوان إلى بعضهما البعض. كانا قد خاضا في موضوع الأسماء لأشهر، ولم يتوصلا إلى قرار بشأن اسم الفتاة. ولكن عندما رأتها بيتا أدركت أنها وجدت الاسم المناسب، بين الأسماء التي اقترحاها سابقاً.

سألت أنطوان: "ما رأيك باسم أماديا؟" وفكّر أنطوان بهذا الاسم لوهلة. كان قد فكّر في البداية في تسمية الفتاة فرنسواز تيمناً باسم والدته، ولكن بعد معارضتها الشديدة لزواجه من بيتا، غيّر رأيه. أدرك كل منهما أن اسم أماديا يعني محبوبة من الله وكانت الطفلة بالتأكيد محبوبة من الله، إضافة إلى كونها محبوبة من قبل والدها ووالدتها.

"لقد أحببت الاسم، إنه يناسبها. يا لها من طفلة جميلة وكبيرة الحجم، لذا لا بد لها أن تمتلك اسماً جميلاً". قال وهو يجرب وقع الاسم: "أماديا دو فاليراند". فابتسمت بيتا. حينئذ تمتمت الطفلة، وأطلقت صوتاً ناعماً ما بين التنهيدة والقرقرة، فضحك كل من حولها. لقد أحبت الاسم هي الأخرى.

فاستنتجت بيتا قائلة وقد عادت إلى طبيعتها من جديد بعد هذا الوقت القصير من الولادة: "إذا هذا هو اسمها". بدا وكأن باستطاعتها النهوض والتجول في أرجاء الغرفة، ولكن أنطوان لم يشأ لها ذلك. قالت بيتا: "أماديا" وهي تبتسم في وجه ابنتها البكر، ثم نظرت إلى زوجها بحماسة بالغة. بدا أنطوان وبيتا والدين فخورين.

عندما احتضن أنطوان بيتا في تلك الليلة، فكّر في أحداث هذا اليوم باندهاش شديد. وعندما غفت بيتا والطفلة النائمة في سلة بالقرب منها، تمتم أنطوان بصمت دعاء الشكر شاكراً الله على هذه النعمة. أماديا. كانت محبوبة من الله بكل تأكيد، ودعا لها أن تظل محبوبة من الله العمر كله.

الفصل السادس

كانت أماديا دو فاليراند قد بلغت سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام عندما انتهت الحرب أخيراً عام 1918. كانت تتميز بشعر أشقر، وعينين زرقاوين، وتبدو أطول قامة من الأطفال في سنّها، وقد فرح بها والداها وآل زوبير كثيراً. لقد أيقنت ماريا أن بمجرد انتهاء الحرب ستقوم العائلة الصغيرة التي عاشت معهما لسنتين بالانتقال، وستأسف كثيراً على هذا الأمر، ولكن لا يسمح لهم البقاء في سويسرا إلى الأبد. بمجرد أن يقف بلداهما على رجليهما، سيمنع عنهم السويسريون حق اللجوء.

بحلول 25 كانون الأول عام 1918، كان قد دار بين بيتا وأنطوان الكثير من النقاشات حول العودة إلى ألمانيا أو فرنسا. كانت عائلته تصر أكثر من أي وقت مضى على عدم استقبال زوجته وابنته في دوردوني. لقد كانوا يفتقرون كلياً إلى التعاطف في هذا الصدد. لم يشكل لهم أي فارق أن بيتا باتت من ملتهم. فظلت أبوابهم موصدة في وجه أنطوان. أما بيتا فلم يكن وضعها أفضل. فالرسالتان اللتان بعثتهما بشكل منفصل إلى كل من والديها، تم إرجاعهما بالسرعة نفسها التي أُرجعت فيها الرسائل القديمة. وحصلت على النتيجة ذاتها عندما راسلت بريجيت. لقد تساءلت ما إذا كانت أنجبت هي الأخرى طفلاً بعد مرور كل هذا الوقت. كانت بيتا منفتحة على فكرة إنجاب طفل آخر، لذا لم يعمدا إلى أي تدابير للحؤول دون حدوث الحمل. وقد تفاجأت لكونها لم تحمل حتى الآن، نظراً إلى أنها حملت بأماديا بسرعة شديدة. ولكن حتى هذه اللحظة، هما سعيدان جداً بأماديا، التي تركض في كل مكان وتتحدث مع الآخرين بلغتها الخاصة.

كان آل زوبير يستمتعان بوجودها، وكأنها واحدة من أحفادهما، وقد أدركا أنهما سيشتاقان إليها كثيراً عند مغادرتها مع والديها.

في النهاية، استلم أنطوان في شهر شباط رسالة حددت الوجهة التي سيذهبون إليها. كان صديق له من أكاديمية سومور، حيث تلقى تدريبه العسكري، قد أرسل له هذه الرسالة يقول فيها إنه اشترى مزرعة في ألمانيا بثمن بخس، وتضم اصطبلات مميزة، بالرغم من كونها متهدمة. يُدعى صديقه جيرار دوبيني، وأراد أن يعيد بناء الاصطبلات. أراد إعادة ترميم هذا المكان من أجله وعائلته، وأراد من أنطوان أن يستلم أمر الاصطبلات والقيام بما يراه مناسباً من أجل إعادة بنائها، وملئها بأفضل أنواع الخيل، وتوظيف مدربين وعاملين، وتولي إدارتهم. كان يدرك أن أنطوان محترف في هذا المجال، ويجيد إدارة مثل هذا المشروع، وقد علم بأمر إصابته في ذراعه، فأكد له أنطوان أن هذه الإصابة لا تعيقه بتاتاً عن العمل، وقد كان قادراً على استخدام ذراعه بشكل مناسب، بالرغم من أنها لم تشفَ تماماً. بالنتيجة بات يجيد استخدام ذراعه اليمنى إلى حد يكفيه للتعويض عن ذراعه اليسرى المصابة.

صادف أن المزرعة التي اشتراها جيرار قريبة من كولونيا. وبالرغم من أن عائلة بيتا لم تبدِ أي إشارة ترحيب بها، إلا أنه يُحتمل في حال سكنوا بالقرب منهم أن يغيروا موقفهم في النهاية. وربما مع الوقت، يتم التشجيع على إعادة إقامة العلاقات الودية. ولكن القرب من مكان إقامة آل ويتغينشتاين لم يؤثر على قرار أنطوان. فالراتب الذي عرضه عليه دوبيني لا يُقاوم، وقد أدرك أيضاً أنه سيستمتع بمثل هذا العمل. ويُفترض أن هناك منزل مميز في ذلك المكان، عرض عليه جيرار الإقامة فيه. كان منزلاً كبيراً يكفيهم هم الثلاثة، إضافة إلى عدة أطفال آخرين. قبل أنطوان العرض في نهاية شهر شباط، ووافق على التوجه إلى هناك في بداية شهر نيسان. وقد منح ذلك أنطوان الوقت للملمة الأمور في المزرعة، وبذل كل ما يقدر عليه من أجل مساعدة والتر. فسماح آل زوبير لهم بالإقامة عندهما

لسنتين متواصلتين أنقذه هو وعائلته بكل ما للكلمة من معنى. فمن دونهما ما كان أنطوان ولا بيتا لينجيا من الحرب، وبالتأكيد ما كانا ليتزوجا في الوقت الذي تزوجا فيه، وقطعاً لما أمكنهما تأمين منزل لأماديا. إذ ظل كل من بيتا وأنطوان معوزين عندما نفتهما عائلتاهما. والآن أنقذتهما الوظيفة التي عُرضت على أنطوان في ألمانيا.

أمضت بيتا ليال عدة قبيل مغادرتهم إلى ألمانيا، تعلّم فيها أنطوان اللغة الألمانية، بالرغم من أن صاحب المزرعة فرنسي. ولكن المدربين والسائسة الذين سيوظفهم، والبناة الذين سيعيدون تأهيل المكان، كلهم ألمان. لذا احتاج إلى تعلم اللغة الألمانية، إذ لم يكن يجيدها بالشكل المناسب. ولكن مع اقتراب موعد مغادرتهم، بات تقريباً يجيد اللغة بطلاقة. وقد اتفقا منذ وقت طويل على أن يتكلم أنطوان باللغة الفرنسية مع أماديا، وتتكلم بيتا معها باللغة الألمانية. فقد أرادا أن تتقن ابنتهما اللغتين في آن معاً. ومع الوقت، نوت بيتا أن تعلمها اللغة الإنكليزية أيضاً. وقد تمنت بيتا لو توظف فتاة إنكليزية لتساعد أماديا على النطق باللغة الإنكليزية بطلاقة، في حال تمكنا من تحمل تكاليف هذا الأمر بمجرد وصولهم إلى ألمانيا. لقد أجمعت هي وأنطوان على أن اللغات تفيد الإنسان دوماً.

لم يكن وضعهم المادي مريح، بالرغم من أن راتب أنطوان كان لا بأس به. والوظيفة التي سيشغلها أنطوان تنحصر في أمر يحبه وسبق له أن قام به. إن الفرصة التي أتيحت لهم نعمة من السماء. وكانت بيتا تفكّر في خياطة الملابس لبعض النساء الأنيقات التي كانت تعرفهن، في حال أبدين اهتماماً بالأمر. وأملت أن تتقرب بهذه الطريقة من والدتها بشكل غير مباشر.

لقد ذكر أنطوان أيضاً أن السيدة دوبيني تملك الكثير من المال. وما من شك أن جيرار كان يستخدم مالها للقيام بالترميمات، نظراً إلى أنه لا يملك الكثير من المال. كان ينتمي إلى عائلة أرستقراطية حلّ بها الفقر قبل الحرب. ولكن عائلة فيرونيك كانت تملك ثروة طائلة. وقد وعد جيرار

أنطوان بأنه سيشتري كل الخيول التي يريدها. كان أنطوان وبيتا يبدأان حياة جديدة.

لم يسبق لآل دوبيني وبيتا أن التقوا من قبل، ولم يكن لديهما أدنى فكرة عما كانت عليه قبل زواجها من أنطوان. ناقش أنطوان وبيتا هذا الأمر، وقررا أنه ما من داعٍ لخوض تفاصيل الماضي مع آل دوبيني، إذ كان ذلك جزءاً من تاريخها أو تاريخهما، وقد قررا أن يبقياه لنفسيهما. فقد شعرا أن هذا الموضوع بما فيه المشاكل التي واجهاها مع عائلتيهما يجب أن يبقى ضمن خصوصياتهما. إذ لا يزال رفض عائلة بيتا لها يشكل مصدر حزن وأسى، لذا لم تشأ أن تتحدث بهذا الأمر.

يوم مغادرة آل دو فيرلاند لآل زوبر، بكى الأفراد الخمسة، حتى أماديا نحبت بتعاسة عندما مدّت ذراعيها لماريا. أقلّهم آل زوبر إلى القطار، ولكن لم يسع بيتا إلا البكاء عندما عانقتهما. فقد ذكّرها ذلك باليوم الذي مر عليها قبل ثلاث سنوات، عندما تركت والديها. وصلوا إلى كولونيا في يوم ذكرى ميلاد أماديا الثاني. وعندما وصلوا إلى المزرعة، شعر أنطوان بالسرور للقائه بصديقه القديم، إلا أنه اعترف لبيتا تلك الليلة أنه وجد المشروع مضنٍ.

كان المكان نفسه في حالة مزرية، وقد عم الخراب فيه. إذ أفلست العائلة النبيلة التي كانت تمتلكه منذ قرون، فظل المكان مهجوراً، ومتصدعاً، وتُرك لينهار إلى درجة كبيرة خلال الحرب وحتى قبل ذلك. أما الاصطبلات فكانت أسوأ حالاً. لذا سيتطلب الأمر أشهراً أو ربما سنوات لتنظيف المكان وإعادة بنائه من جديد. ولكن بعد شهر أو شهرين، اعترف أنه وجد ما يفعله مثيراً للاهتمام. ولم يقوَ على انتظار موعد شراء الخيول. كانت بيتا تحب سماع خططه عندما كانا يتحدثان في هذا الأمر ليلاً.

في النهاية، سار العمل أسرع مما كان متوقعاً له. ومع حلول ذكرى الميلاد كان يشغل المكان جيش من النجارين، والدهانين، ومهندسي

الديكور، والبنائين، والبستانيين، والزجاجين، والحرفيين، وكلهم يكدون في العمل في تلك المزرعة. كان جيرار وفيرونيك مصممين على إنهاء المشروع. وبالنسبة لأنطوان كانت فيرونيك تبني قصراً. وشعر بسرور بالغ لكونهما لم يبخلا بالمال لإصلاح الاصطبلات. تم وضع وسائل التدفئة في الاصطبلات، وباتت نظيفة، وحديثة، وجميلة البناء، وتتسع لأكثر من ستين حصاناً. وعند حلول فصل الربيع كان أنطوان يشتري لهما الخيل بأسعار مذهلة من كل أرجاء أوروبا. كان يقوم بعدة رحلات إلى إنكلترا، واسكوتلاندا، وإيرلندا وقد اصطحب بيتا معه واستمتعت بذلك. وقد قام أيضاً بعدة رحلات إلى فرنسا، واشترى ثلاثة خيول صيد من نورماندي على بعد عشرة أميال من القصر الذي ترعرع فيه، وحيث تسكن عائلته التي تواصل رفضها لرؤيته. ظل صامتاً لدى مروره وبيتا بجانب القصر في طريقهما إلى منزله في بيريغورد، واستطاعت بيتا أن ترى مدى انزعاجه. رأته حينها ينظر إلى البوابة بأسى. كانت عائلتاهما بعيدتين كل البعد عنهما.

كانت بيتا قد مرت بالتجربة نفسها عندما عادت إلى كولونيا. إذ لم تستطع إلا أن تستقل سيارة أجرة، وتتوجه إلى أمام منزلها القديم، وبكت عندما وقفت في الطريق خارج المنزل وهي تعلم أن جميع من أحبتهم يوماً موجودون في داخله ويرفضون رؤيتها. كانت قد عاودت مراسلتهم جميعاً من جديد إثر عودتها إلى كولونيا، ومرة أخرى أرجعت رسائلها إليها دون فتحها. لم يغير والدها موقفه بعد. وقد تعلمت وأنطوان أن يتعايشا مع هذا الوضع، ولكنه لا يزال مؤلماً مثل الندبة التي تؤلم صاحبها في بعض الأحيان، أو مثل طرف لم يعد له وجود في جسد صاحبه. كانت ممتنة لوجود أنطوان وأماديا إلى جانبها، ونوعاً ما خاب ظنها لعدم إنجابها طفلاً ثانٍ. في ذلك الوقت كانت أماديا قد بلغت الثالثة من عمرها، ولم تحمل بيتا بعد، بالرغم من أنها تود ذلك بشدة. باتت حياتهما أكثر انشغالاً، وفيها الكثير من الضغوط، أكثر مما كانت عليه في سويسرا. كانت أحياناً تتساءل

إن كانت هذه هي المشكلة. ولكن مهما كان السبب، بدأت بيتا تعتقد أنها لن تنجب طفلاً ثانياً أبداً. ولكنها كانت سعيدة بأنطوان، وأماديا، ومنزلهم الجديد. لم يكن جيرار مجرد صاحب عمل لطيف مع أنطوان وبيتا، وإنما نشأت صداقة بينهما وبين آل دوبيني.

استغرق الأمر من أنطوان سنتان حتى ملأ الاصطبلات. كان قد اشترى 58 خيلاً أصيلاً لآل دوبيني، من ضمنها عدة خيول عربية. وعندما بلغت أماديا الخامسة من عمرها اشترى لها مهراً. لقد كانت فارسة ماهرة. وغالباً ما كان يذهب وبيتا في جولة طويلة في أرجاء الريف على ظهر خيلين ويصطحبان أماديا معهما. أراد لها أنطوان أن تصبح فارسة متميزة. لقد صبا كل حبهما ورعايتهما عليها. وعندما كانت قد أتقنت اللغات التي أرادتها بيتا لها، فباتت تتكلم الفرنسية، والإنكليزية، والألمانية بطلاقة. وفي السنة التالية، ارتادت المدرسة المحلية مع أولاد آل دوبيني. لم تكن فيرونيك وبيتا تمضيان الكثير من الوقت سوياً، نظراً لكثرة مشاغلهما، ولكنهما كانتا دوماً تتعاملان بود. خاطت بيتا لها وللعديد من صديقاتها فساتين سهرة بأسعار معقولة. لم تجمع هي وأنطوان ثروة ولكن وضعهما كان مرتاحاً، وبفضل المنزل الذي أعطاه إياه آل دوبيني كجزء من وظيفة أنطوان، عاشا في أفضل حال في منزل جميل ومريح. عاشوا حياة جميلة في محيط جميل، وكان أنطوان يحب عمله، الأمر الذي كان غاية في الأهمية بالنسبة إلى بيتا. كان تشعر بالسعادة والسلام إلى جانب زوجها وابنتها.

بين الحين والآخر، تحدث أمور تذكرها بعالمها الذي خسرته، مما يثير الحزن الشديد في نفسها. فلقد شاهدت في أحد الأيام شقيقتها تسير في أحد شوارع كولونيا وتساءلت إن كانت تعيش هناك. كانت برفقة زوجها وطفلين صغيرين أحدهما في نفس سن أماديا ويشبهها جداً. كانت بيتا وحدها، وقد جمدت في مكانها حينما رأتها. كانت يومها قد توجهت إلى المدينة بواسطة القطار كي تشتري بعض القماش، وفي اللحظة التي رأت

فيها شقيقتها، قامت من دون تردد أو تفكير مسبق بمناداتها واقتربت منها. توقفت بريجيت لثانية فحسب، ونظرت في عيني بيتا، ثم أدارت لها ظهرها وهي تتمتم بعض الكلمات لزوجها. ركبت بسرعة في سيارة الليموزين التي كانت تنتظرها، في الوقت الذي ساعد زوجها الولدين على الركوب بجانبها. وبعد لحظة انطلقت السيارة. فشعرت بالمرارة الشديدة إلى درجة أنها لم تذهب إلى متجر القماش بعد هذه الحادثة، وعادت إلى المنزل على متن القطار نفسه والدموع تتدحرج على وجنتيها. تلك الليلة، أخبرت أنطوان بما حصل، فأسف لحالها. لم تغيّر أي من عائلتيهما موقفهما منذ تزوجا، أي منذ سبع سنوات. كانوا عديمي الرحمة. وقد حصلت حادثة أخرى، إذ رأت شقيقيها خارجين من مطعم برفقة امرأتين افترضت أنهما زوجتاهما. نظر ألم إليها مباشرة، وكانت واثقة أنه تعرّف عليها. التقت عيناه بعينيها، ورمقها بنظراته، ثم سار بعيداً عنها، وعلى وجهه تعابير الغضب، بينما استدار هورست، ومشى بعيداً، ثم ركب وعائلته في سيارة أجرة. فدفعها ما حصل إلى البكاء تلك الليلة، ولكن هذه المرة كان الغضب سبب بكائها. بأي حق يفعلون هذا بها؟ كيف يجرؤون؟ ولكنها شعرت بما يفوق الغضب، شعرت بالتعاسة، وانتابها إحساس بالخسارة وهو الإحساس نفسه الذي شعرت به عندما غادرت منزل والدها للزواج بأنطوان. كان جرحاً أدركت تماماً أنه لن يندمل أبداً بشكل كلي. ولكن أسوأ حادثة كانت حينما رأت والدتها قبل سنتين من مصادفتها لبريجيت. كان ذلك بعد سنتين من عودتهم إلى كولونيا، وكانت أماديا معها. وقد اصطحبتها معها للقيام بجولة في أرجاء المدينة، فتوجهت للوقوف أمام منزلها القديم لوهلة، غير قادرة على منع نفسها من ذلك، فسألتها أماديا عما كانتا تفعلان بوقوفهما هناك.

"لا شيء يا عزيزتي. أريد فحسب أن أرى شيئاً".

"هل تعرفين سكان هذا المنزل؟"

كان الطقس بارداً، وأماديا تشعر بالجوع. ولكن نظرت بيتا بحزن إلى شباك الغرفة التي كانت في السابق غرفتها، ثم نظرت إلى شباك غرفة

والدتها، فرأتها واقفة عند الشباك. دون أدنى تفكير، رفعت يدها ولوّحت لها، فتوقفت والدتها ورأتها. عندها لوّحت بيتا بيدها بحماسة، في الوقت الذي كانت ابنتها تراقبها. توقفت والدة بيتا للحظة فقط، ثم أحنت رأسها وكأنها تشعر بالألم، وأسدلت الستائر بهدوء دون الاستجابة لها. على تصرف والدتها أن لا أمل لها. أدركت أنها لن تراها أبداً من جديد. حتى رؤيتها لأماديا واقفة بالقرب منها لم تجعل قلبها يحنّ ولا أعطتها الشجاعة لتتحدى زوجها. باتت بيتا ميتة في نظرهم بحق. خالجها شعور أليم بالوحدة، وشعرت بأن قلبها يعتصر عندما أخذت أماديا لتناول الغداء، ثم عادت إلى المنزل على متن القطار، وقد سألتها ابنتها عما حصل.

"من تلك السيدة التي لوّحت بيدك لها؟" كانت قد رأت نظرة التعاسة على وجه والدتها، ولم تعرف معناها، ولكنها فهمت أن والدتها ليست سعيدة. لقد بدت بيتا تعيسة للغاية.

تمنّت بيتا لو تستطيع الإجابة عن سؤال ابنتها والقول لها إنها كانت والدتها، ولكنها لم تفعل. "إنها صديقة قديمة لا أحسبها عرفتني. فأنا لم أرها منذ وقت طويل".

قالت أماديا بلطف: "لعلها لم ترك يا ماما". فهزّت رأسها بحزن. احتاجت لوقت طويل قبل أن تتمكن من إخبار أنطوان عن هذه الحادثة. فهو الآخر لم يحالفه حظ أوفر مع والديه وشقيقه، بالرغم من أنه وفق القانون يحق له أن يرث لقب والده وأراضيه في يوم من الأيام، إضافة إلى القسم الأكبر من ثروته. ولكن بالرغم من معرفة عائلته بهذا الأمر، فإن ذلك لم يحثهم على رؤيته. بشكل عام، كان ماضيهما قد انتهى، وكل ما تبقّى لهما الآن حاضرهما ومستقبلهما سوياً. فقد اختفى ماضيهما.

عدا عن خسارتهما المؤلمة لعائلتيهما، كانت حياتهما سعيدة. فقد كان أنطوان مع جيرار في وفاق تام، والاصطبلات في حالة ازدهار. وظل أنطوان يشتري له خيولاً جديدة من وقت إلى آخر، وينظم له رحلة صيد، ويدرب خمسة من أفضل الخيول لديهم من أجل المشاركة في السباقات،

ويـزاوج أفـضل الفحول لديهم. وبعد وقت قصير، ذاع صيت اصطبلات جيـرار دوبـيني في كل أرجاء أوروبا، ويعود جزء كبير من الفضل إلى أنطوان الذي كان ملماً أكثر بكثير من جيرار بشؤون الخيل.

كانـت الأمور تسير على ما يرام، إلا أنه عندما زارت بيتا فيرونيك في عصر أحد الأيام لتجرب لها فستان سهرة كانت تقوم بخياطته لها، وبعد أن كانـت المـرأتان تتـبادلان الحـديث بود، وقعت بيتا مغمى عليها في منتـصف جلـسة التجريب، ولم تعرف سبباً لذلك. شعرت فيرونيك بالقلق الـشديد عليها، وجعلتها تستلقي على الأريكة في غرفة الملابس، ثم مشت معها إلى المنزل بعد أن ارتاحت قليلاً. صادف أن وقع نظر أنطوان عليهما عندما مرتا بمحاذاة الاصطبلات. كان وجه بيتا لا يزال شاحباً جداً، ولا تبدو على ما يرام. كان حينها يعطي أماديا درساً في ركوب الخيل، فطلب مـن أحـد الساسة أن ينتبه لها لبعض الوقت. ثم خرج لرؤية زوجته التي كانـت تتوجه إلى المنزل برفقة فيرونيك القلقة عليها. كانت بيتا قد طلبت مـن فيرونيك ألا تأتي على ذكر ما حدث، إذ لم تشأ أن تثير قلق أنطوان. قالـت بيـتا إنهـا تظن أنها على وشك الإصابة بالأنفلونزا أو ربما بنوبة صداع، بالرغم من أنها نادراً ما كانت تصاب بهما.

سألها أنطوان وقد بدا عليه القلق: "هل أنت بخير؟ أنت لا تبدين على ما يرام". نظر إلى فيرونيك، والقلق يتآكله، ولكنها لم تقل شيئاً امتثالاً لطلب بيتا. ولكنها كانت قلقة أيضاً.

"أظن أنني متعبة بعض الشيء". لم تخبره أنها وقعت مغمياً عليها فـي منـزل فيرونيك أثناء جلسة تجريب الفستان. حتى إنها نسيت أن تجلـب الفستان معها إلى المنزل. قالت بيتا لتشتت انتباهه عنها: "كيف تبلي أماديا في درسها؟ يجدر بك إجبارها على ألا تكون بهذا القدر من الاستهتار". إذ كانت في السابعة من عمرها ولا تخشى أبداً التواجد بين الخيول. كانت تحب تحديداً القفز فوق الينابيع والشجيرات مما كان يثير ذعر والدتها.

قال أنطوان بابتسامة أسى: "لستُ واثقاً أن بوسعي إجبارها على فعل أي شيء. يبدو أنها تمتلك أفكاراً خاصة بها في مواضيع عدة". كانت تمتلك تفكيـر والدتها واهتماماتها في مجموعة من المواضيع، ولكنها كانت تتمتع بـصفة الجـرأة الزائدة مما أثار خوفهما عليها. بدا أنه لا يوجد أي شيء تعجز عن فعله أو تخشى القيام به. كان أمراً حسناً من نواح عديدة ومرعباً مـن نـواح أخرى. كانت بيتا دوماً تخشى أن يصيبها أي مكروه. وكونها الابـنة الوحيدة كانت تحظى بكل محبة والديها واهتمامهما. غالباً ما كانت بيتا تظن أنهما يفرطان في الاهتمام بها. ولكن بعد سبع سنوات، بدا واضحاً أن أماديا لن تحظى بأخوة أو أخوات، وقد أسف كل من والديها لهذا الأمر. سألها أنطوان والقلق لا يزال باد عليه، حينما لم تفلح بيتا في تشتيت تفكيره عـنها: "هـل تودين أن أرافقك إلى المنزل؟" كانت بشرة بيتا عادة بيضاء ناصعة، ولكن عندما لا تكون على ما يرام تصبح شاحبة جداً. وقد بدا لون وجهها وكأنـه يستحيل أخضر، في الوقت الذي كان يتكلم فيه معها، وقد لاحظت فيرونيك ذلك أيضاً. بدت بيتا وكأنه سيغمى عليها مرة أخرى.

"أنـا بخيـر. سأستلقي لبضع دقائق وسأكون على ما يرام. عد إلى محبوبتنا". قبلا بعضهما البعض، ومشت بيتا برفقة فيرونيك مسافة قصيرة عائـدة إلـى منزلها، وقد ساعدتها فيرونيك على الاستلقاء في السرير ثم غادرت بعدئذ.

عـندما عـاد أنطوان إلى المنزل ذلك المساء، ارتاح لرؤية أن حالها قد تحـسن. ثـم عاوده القلق من جديد في الصباح التالي، عندما بدا وضعها أكثر سوءاً. كان لون وجهها أخضر لدى قيامها بتجهيز أماديا للذهاب إلى المدرسة. كما وعجزت تقريباً عن النهوض من سريرها قبل ذلك عند مغادرة زوجها إلى الاصطبلات. لذا عاد أنطوان وقت الغداء للاطمئنان عليها.

سألها وهو عابس: "كيف تشعرين؟" كان يكره أن تكون مريضة. وقد كانت زوجته وابنته كل ما يملك في هذه الحياة وكل ما يهمه. كان قد انتشر في البلاد في الشتاء الماضي وباء الإنفلونزا القاتل.

قالت وهي تحاول أن تبدو مبتهجة: "أنا حقاً أفضل حالاً". لم تكن صادقة معه بالكامل وقد أدرك ذلك. كان يعرفها أكثر من ذلك بكثير.

قال بحزم: "أريدك أن تذهبي إلى الطبيب".

"لن يفعل أي شيء. سآخذ قيلولة عصر هذا اليوم قبل عودة أماديا من المدرسة. وسأصبح بخير وقت المساء". أصرت على إعداد الغداء له، ثم وضعته أمامه، وجلست بالقرب منه لتسليته، ولكنه لاحظ أنها لم تأكل شيئاً. لم تطق صبراً للعودة إلى سريرها مباشرة بعد مغادرته إلى الاصطبلات.

بعد مرور أسبوع، كان القلق لا يزال يلازم أنطوان. وبالرغم من إصرارها على كونها بخير، إلا أنه لاحظ أن حالها لم يتحسن، فشعر بالخوف الشديد عليها. "إذا لم تذهبي عند الطبيب، سأصطحبك بنفسي. أرجوك يا بيتا، بحق السماء، اتصلي به. لست أفهم مما أنت خائفة". في الواقع، ما كانت تخشاه هو خيبة الأمل. كانت قد بدأت تشك مما تشكو، وأرادت لو تنتظر بعض الوقت إلى أن تصبح واثقة، وقبل أن تخبر أنطوان. ولكنها أخيراً لانت ووافقت على الذهاب لزيارة الطبيب. أكد الطبيب لها شكوكها، وفي تلك الليلة عندما عاد أنطوان من الاصطبلات وجدها تبتسم، بالرغم من أنها لا زالت مريضة جداً.

سألها أنطوان بقلق بعد أن صعدت أماديا إلى الطابق العلوي لترتدي ملابس النوم: "ماذا قال لك الطبيب؟"

"قال إنني قوية كالحصان... وإنني أحبك". كانت تغمرها السعادة وبالكاد أمكنها السيطرة على حماستها.

ضحك أنطوان على جوابها وقال: "قال إنك تحبينني؟ حسناً هذا لطف منه ولكنني أعرف هذا الأمر. ماذا قال لك عن سبب مرضك؟" كانت بكل تأكيد تتمتع بمعنويات عالية ومرحة جداً. قالت بغموض: "الوقت كفيل بعلاج كل داء".

"هل وجد أنك مصابة بنوع طفيف من الإنفلونزا؟ إن كان كذلك يا عزيزتي حري بك أن تكوني أكثر حذراً". فقد كانا يعرفان عدداً من

الأشخاص الذين توفوا جراء الإنفلونزا في الشتاء الماضي. كان وباءً قاتلاً وليس بالأمر السهل على الإطلاق.

أكدت له قائلة: "لا، على الإطلاق. في الواقع إنها حالة محددة جداً ومعروفة للغاية من الحمل". ثم ابتسمت له ابتسامة عريضة. "سنرزق بطفل". أخيراً بعد كل صلواتها. عند ولادة الطفل سيكون بينه وبين أماديا ثماني سنوات.

"حقاً؟" كان أنطوان مثلها، قد فقد الأمل كلياً في إنجاب طفل ثانٍ. لقد كان الحمل الأول سريعاً، ولكن منذ ذلك الوقت لم يحصل أي حمل ثانٍ. قال وهو يبدو بقدر السعادة التي هي عليها: "يا للروعة يا عزيزتي، يا للروعة".

سألتهما أماديا بعد أن رجعت مرتدية ملابس النوم: "أي روعة هذه؟ ما الذي حصل؟" لطالما أحبت أن تكون جزءاً من الحماسة. كانت طفلة عنيدة، وإنما ذكية جداً، وكثيرة التفكير، وتحب والديها جداً، وقد كان شعوراً متبادلاً بالكامل. لوهلة خشي أنطوان أن تشعر بالغيرة. رفع حاجباً وهو ينظر إلى بيتا فهزت له برأسها موافقة. إذ أعطته لتوها الضوء الأخضر لإخبارها. قال بفخر: "لقد نقلت لي والدتك لتوها أنباء سارة جداً. ستحظين بأخ أو أخت". كان يطير فرحاً وهو يقول هذه الكلمات. حدقت فيه، ثم نظرت إلى والدتها وقالت: "حقاً؟" وفجأة خشي كلاهما أن تشعر بالغيرة. فقد حظيت برعايتهما الكاملة لوقت طويل، لذا قد لا تحبذ فكرة الحصول على أخ أو أخت. بالرغم من أنها كانت غالباً تقول إنها ترغب بأن يكون لديها أخ أو أخت. "متى؟"

أجابتها والدتها قائلة: "بعد أسبوعين من ذكرى ميلادك المقبلة. ستكونين حينها قد بلغت الثامنة من عمرك".

بدت خائبة وقالت: "لمَ ننتظر طيلة هذه المدة؟ ألا يسعنا الحصول عليه في وقت أقرب؟ إسألي الطبيب".

"أخشى أنه لا يسعك استعجال الأمور هكذا". ثم ابتسمت بيتا لها. بدا واضحاً أنها تظن أن بوسع المرء طلب الأطفال من الطبيب. لم تأبه بيتا كم

سيستغرقهم الوقت حتى يبصر الطفل النور كانت فرحة الحمل تغمرها. ستكون في الثلاثين من عمرها عند ولادة الطفل، وقد بلغ أنطوان الثانية والأربعين ذاك الصيف. ولكن الأهم من ذلك أن بيتا ارتاحت لرؤية أماديا تشعر بالحماسة الشديدة بقدرها.

سألت أماديا بحماسة: "هل طلبت صبياً أم فتاة؟"

قالت بيتا بدفء: "لا يسعك أيضاً طلب ذلك. علينا أن نتقبل ما يمدّه الله علينا. بالرغم من أنني آمل أن يكون صبياً من أجل بابا".

"لم عسى بابا يحتاج إلى صبي؟ فالفتيات أفضل بكثير. أريد أختاً".

"حسناً، سننتظر لنرى ماذا سيكون". شاهد أنطوان وبيتا نظرة دافئة فوق رأسيها، ثم ابتسما في وجه ابنتهما. لم يأبه أنطوان سواء أكان صبيا أم فتاة، تمنى فحسب أن يتمتع بصحة تامة.

قالت أماديا بحزم: "ستكون فتاة وستكون طفلتي. سأفعل لها كل شيء. هل لي بذلك؟"

قال أنطوان بلطف: "سيكون لطيفاً جداً منك أن تساعدي ماما".

قالت أماديا وهي تحاول أن تكون عملية جداً بهذا الصدد: "ماذا سنسميها؟"

قالت بيتا وهي تشعر بالتعب وإنما بالحماسة أيضاً: "علينا أن نفكر جدياً بهذا الأمر". كانت قد حلمت بهذا الأمر لمدة طويلة، والآن تحقق حلمها أخيراً بعد أن وصلت وأنطوان إلى حافة اليأس. "علينا أن ننتقي أسماء صبيان وفتيات".

"لا، مجرد أسماء فتيات. وأعتقد أنه من الغباء أن ننتظر طيلة هذه المدة". كانت بيتا حاملاً بشهرها الثالث تقريباً، ومن المفترض أن يولد الطفل في منتصف شهر نيسان. بدا بالفعل وقتاً طويلاً خصوصاً بالنسبة إلى طفلة في السابعة من عمرها.

لم يكن حمل بيتا بمثابة سهولة حملها الأول، ولكن كما أشار الطبيب كانت قد كبرت ثماني سنوات. ظلت تشعر بالتعب معظم فترة حملها، وفي

الشهرين الأخيرين، شعرت عدة مرات أنها ستواجه ولادة مبكرة. طلب الطبيب منها أن تهوّن الأمر عليها، وقد أولاها زوجها عناية ممتازة، كما كان متوقعاً منه وفي وقت فراغه كان يمضي مع أماديا أكبر فترة ممكنة من الوقت لتستريح بذلك والدتها. أمضت بيتا معظم وقتها في الحياكة وساعدتها أماديا في ذلك. حاكتا قبعات، وأغطية صغيرة، وكنزات، وبطانيات. كما وخاطت بيتا أثواباً صغيرة وملابس نوم تناسب الجنسين، بالرغم من أن أماديا واصلت إصرارها على رغبتها بأخت. ذُهلت عندما اكتشفت واقع أن الطفل ينمو في بطن والدتها، وقد كان أمراً لم تفهمه من قبل، لأنه لم يسبق لها أن رأت امرأة حاملاً في دائرة معارفها المقرّبة. كانت قد رأت نساء حوامل من قبل، ولكنها حسبت أنهن سمينات فحسب، والعكس صحيح، حيث باتت تظن أن كل امرأة سمينة تراها في الشارع حامل. وعلى الدوام تنبهها بيتا ألا تسألهن إن كن حوامل.

أمضت بيتا الشهر الأخير من الحمل في المنزل، وتمنت لو تكون ماريا إلى جانبها في هذه الولادة الثانية. هذه المرة سيحضر ولادتها طبيب وقابلة. ارتاح أنطوان لهذا الأمر، ولكن اعترفت بيتا أنها أصيبت بخيبة أمل. إذ أخبرها الطبيب قبل موعد الولادة، أنه ليس بإمكان أنطوان حضور الولادة. فقد ظن أن وجوده سيشتت انتباهها جداً، ولكن هذا لم يكن واقع الحال. فضّلت لو تلد في منزل المزرعة البسيط، وتكون ماريا وأنطوان إلى جانبها.

"اسمعي يا حبيبتي، أنا أفضل أن أطمئن إلى كونك بين أيد آمنة. لا أود لك أن تمري بكل ذلك العذاب الذي مررت به في المرة السابقة". كانت بيتا قد نسيت عذابات المرة الماضية، ولكن أنطوان لم ينسها. كان لا يزال يرتجف خوفاً عندما يتذكر صراخها المرير. لعل الطبيب يعرف بعض الطرق التي تسرّع من عملية الولادة.

لكن كما تبين لاحقاً، أخذت الطبيعة الأم على عاتقها هذا الأمر. كان الطبيب قد حذرها أنها قد تمر بمخاض طويل كالمرة السابقة. فبعد ثماني

سنوات، لا بد وأن جسمها نسي الولادة الأولى. بحكم خبرته، على ما ادعى، يجد أن النساء اللواتي ينقطعن لفترات طويلة بين إنجاب وآخر، يشهدن المخاض البطيء نفسه، أو حتى مخاضاً أطول من المخاض الأول. لم تجد بيتا هذا الكلام مبهجاً. وعندما التقت بيتا بالقابلة لم تجدها محببة جداً. تمنت لو يسعها هي وأنطوان ركوب القطار والعودة إلى ماريا. كان آل زوبر قد بقيا على اتصال بأنطوان وعائلته على مرّ السنوات، بعثت بيتا إلى ماريا رسالة تخبرها فيها عن حملها، فردت عليها ماريا برسالة تخبرها فيها عن مدى سعادتها بهذا الحمل الثاني. عزم أنطوان وبيتا العودة لزيارتهما ولكن ما كان بوسع أنطوان مبارحة الاصطبلات، إذ يوجد على الدوام الكثير من الأعمال.

في عصر أحد الأيام، عادت بيتا إلى المنزل متأخرة بعد أن كانت تقوم بنزهة برفقة أماديا. كانت تشعر بحال أفضل مما كانت عليه منذ أسابيع وتتمتع بطاقة أكبر مما كانت تتمتع به منذ وقت طويل. كانت وأماديا قد حضّرتا بعض الكعك، وبعد ذلك حضّرت بيتا عشاء مميزاً، حسبت أنه سيكون مفاجأة سارة لأنطوان. كانت في طريقها إلى الطابق العلوي لتغير ملابسها من أجل تناول العشاء، عندما شعرت بألم مألوف في أسفل بطنها. كانت قد شعرت بمثل هذه الآلام لأسابيع، وإنما لم تكن موجعة إلى هذا الحدّ، فقررت ألا توليها أي انتباه. بدلت ملابسها من أجل العشاء، وسرّحت شعرها، ووضعت أحمر الشفاه، ثم عادت، ونزلت إلى الطابق السفلي لتحرص على ألا يكون أي من الطعام قد احترق في المطبخ. كانت قد تركت ديك حبش في الفرن لتشويه. وعندما عاد أنطوان إلى المنزل وجدها تتمتع بمعنويات عالية على نحو استثنائي، بالرغم من أنها بدت بحالة غير مستقرة خلال العشاء. ظلت تشعر بالآلام البسيطة نفسها طيلة المساء، ولكنها لم تكن بالآلام الحادة جداً لتستدعي الطبيب، ولم تشأ إثارة قلق أنطوان. تذمرت أماديا خلال العشاء شاكية أن الطفل أخذ وقتاً طويلاً جداً، مما أثار ضحك والديها، فطلبا منها التحلي بمزيد من

الصبر. فاحتضنتها بيتا بحنان، وقد شعرت أن الآلام تزداد حدة، فلاحظ أنطوان التعب عليها.

سألها وهو ينظر إليها: "هل أنت بخير؟" كان يسكب لنفسه كوباً من الشراب، شكرها على العشاء الرائع الذي حضرته. إذ بالكاد جلست طيلة المساء.

"جل ما أفعله هنا هو الجلوس. أعتقد أنني ارتحت كثيراً. فأنا أتمتع بطاقة كبيرة جداً منذ البارحة. أشعر بحال أفضل بكثير".

"جيد. إذاً تمتعي بذلك، ولا ترهقي نفسك. سيحين موعد الولادة في أي لحظة".

"لقد سئمت المسكينة أماديا من الانتظار". لقد تعاطفت والدتها معها، وفجأة شعرت بألم قوي ولكن أبت أن تخبر أنطوان. كان يمضي وقتاً ممتعاً، وهو يسترخي ويحتسي كوب الشراب بعد انهماكه الشديد في العمل في الاصطبلات. فقد اشتروا لتوهم أربعة فحول جديدة.

جلس أنطوان حينها ينظر إليها مستمتعاً بكوب الشراب. بدت له جميلة بالرغم من أن بطنها كبيرة جداً جراء الحمل. ولدى ارتشافه الرشفة الأخيرة، دُهش جداً عندما رأى بيتا تنحني إلى الأمام بشكل مفاجئ. لم تقوَ حتى على التكلم معه، فقد كان الألم شديداً جداً، ثم ما لبث أن فارقها الألم بشكل سريع جداً.

"يا الله ما الذي حصل؟ هل أنت بخير؟ حري بنا الاتصال بالطبيب".

ولكنهما أدركا من المرة الماضية أنهما حتى لو أتيا بالطبيب فإن موعد الولادة سيطول. كانت هذه البداية فحسب. تذكرت بيتا في هذه اللحظة أن هذا الألم ظل يلازمها لساعات في المرة الأولى. كانت عندها قد دخلت في المخاض في أولى ساعات الفجر، ثم أنجبت أماديا أخيراً بعد خمس عشرة ساعة. كان الطبيب قد حذرها أن المخاض قد يطول هذه المرة أكثر من المرة السابقة. أرادت أن تمضي بعض الوقت الهادئ مع أنطوان قبل وصول الطبيب والقابلة واستلامهما أمر ولادتها. أرادت أن تمضي الفترة

الأولى من مخاضها مع زوجها، لأنه لن يُسمح له بالتواجد معها بمجرد وصول القابلة.

"سأستلقي لبعض الوقت. حتى لو حان فعلاً موعد الولادة، فالطفل لن يولد على الأرجح قبل الغد". كانت الساعة العاشرة مساء، فصعدت إلى الطابق العلوي ببطء وتبعها أنطوان. عرض عليها أن يحملها، ولكنها ضحكت لعرضه هذا. ثم كفت عن الضحك في اللحظة التي دخلا فيها إلى غرفة نومهما. فقد أصابتها الانقباضة التالية بشكل عنيف جداً، فشعرت على الفور بضغط قوي في ظهرها وأسفل بطنها. وضعها أنطوان بلطف على السرير، وهي تتأوه ألماً، مستغربة أنها نسيت مقدار الألم الذي أصابها في المرة الماضية. كان كل شيء يعود إلى ذاكرتها الآن. عندما شعرت بالانقباضات الأولى تذكرت كل آلام الإنجاب الأول. قبل هذه الانقباضات كانت قد نسيت كل الآلام التي شعرت بها في المرة الأولى. فصعب عليها الآن تصديق كيف نسيت ذلك، ولكنها نسيته.

استلقت على سريرهما، في الوقت الذي كان أنطوان يراقبها، وأصرت على أن ينتظر لبعض الوقت أو لبضع دقائق على الأقل قبل أن يتصل بالطبيب. قالت وهي تبدو خائفة: "لن يسمحا لك بالبقاء معي".

"لن أكون بعيداً عنك، سأكون في الغرفة المجاورة، أعدك".

تماماً كما فعلت ماريا منذ ثماني سنوات، أعدت بيتا أعداداً كبيرة من الفوط والمناشف القديمة. وساورها القلق من احتمال أن تسمع أماديا من غرفتها المجاورة أصوات صراخ مخيفة أثناء الولادة. مع بعض الحظ، ستكون في المدرسة عند ولادة الطفل، ولن تختبر أصوات الصراخ. أدركت بيتا أن بانتظارها أوقاتاً عصيبة. فقد باتت تذكر التجربة السابقة بشكل جيد الآن. أصيبت بانقباضتين قويتين من جديد، وأحست بضغط قوي جداً، بدا غير مألوف لها. شعرت وكأن شاحنة يتم قيادتها في بطنها، ومع الانقباضة التالية بدت فجأة خائفة، فاتسعت حدقتاها وهي تنظر إلى أنطوان. "يا الله الطفل سيخرج مني...".

قال بهدوء: "أعلم أنه سيخرج". أدرك من خلال جميع العلامات أنها في حالة مخاض، ولكن هذه المرة عرف ماذا يتوقع لذا لم يقلق. "سأتصل بالطبيب، أين رقم هاتفه؟" قالت وهي تتمسك به وتحاول أن تلتقط أنفاسها: "لا، أنت لا تفهم قصدي. لا أستطيع... لا تقم... سيخرج الطفل...". ودونما تحذير، أطلقت أنّة قوية، ثم استحال وجهها أصفر ثم أزرق. كانت تدفع. لم تقوَ على منع نفسها. كان الضغط الذي تشعر به يجبرها على ذلك. "كفي عن الدفع... سترهقين نفسك". فقد تذكر ماريا عندما حذرتها من الدفع في الولادة الأولى. كان ما يزال أمامها ساعات، ولكنه أراد قطعاً استدعاء الطبيب. ولكنها لم تتوان عن التمسك به. كانت تتمسك بيده، وأدرك أن الانقباضات لا تبارحها على الإطلاق.

"أنطوان... ساعدني... انزع عني ملابسي...". كانت قد تمكنت بطريقة ما من نزع معظم ملابسها، وفي الوقت الذي كافح فيه أنطوان لمساعدتها، أدرك ما كان يحدث. ففي تلك اللحظة، لم تكن في خضم المخاض فحسب، بل كانت تلد بكل ما للكلمة من معنى. لم يكن هذا ما توقعه على الإطلاق. فنظر بين رجليها ورأى رأس الطفل قد بدأ يطل. ووفق معلوماته لم يمر سوى خمس دقائق على دخول بيتا في مرحلة المخاض، لكن في الواقع كانت قد دخلت في المخاض منذ بداية عصر ذلك اليوم، ولكنها رفضت أن تعطي بالاً للأمر.

قال بحزم وهو لا يملك أدنى فكرة على الإطلاق عما كان يفعله: "استلقي". جل ما كان يتذكره أو يعرفه هو ما رأى ماريا تفعله خلال الساعات الطويلة التي قضتها بيتا في ولادة أماديا. "لا يسعك فعل هذا بي... يا بيتا... ألا يسعك الانتظار حتى أتصل بالطبيب؟" لم يجرؤ على مبارحتها ليجد رقم الطبيب، ولم يكن ثمة أحد ليساعده. فكّر في الاتصال بفيرونيك، ولكنه توقع أنها تعرف أقل مما يعرفه بشأن الولادة. تحرك خطوة بعيداً عنها ليحاول الوصول إلى دفتر أرقام الهاتف الخاص بها، ولكنها أبت أن تتركه.

"أنا بحاجة إليك... لا تذ... يا الله... أنطوان... أرجوك... آه لا... فليساعدني أحد...".

"لا بأس يا عزيزتي لا بأس... أنا هنا... لن أتركك... هل يجدر بك أن تدفعي الآن؟" لم يملك أي فكرة عما يمكن أن يفعله من أجلها سوى التواجد قربها، وقد كان ذلك جل ما تريده.

صرخت قائلة: "اجلب المناشف". فهرع إلى حمامها، وعاد بمجموعة من المناشف، ووضعها تحتها وحولها. كان يرى أنها في أشد حالات الألم، فعمد إلى إمساكها بكتفيها تماماً كما فعل في المرة الأولى. ولكن هذه المرة لم يكن عليهما بذل المجهود، إذ بدأ الطفل بنفسه. أطلقت بيتا صرخة واحدة، وفي غضون ثانية أطل وجه صغير فاتحاً فمه ومنتحباً. بدا الاثنان مصدومين عند سماعهما صوته، ولم ير أنطوان في حياته أمراً بهذه الروعة. هذا ما روع بيتا خلال الانقباضات التالية التي خرج على إثرها باقي كتفي الطفل ثم جسده. كان الطفل مستلقياً على السرير ويبكي بصوت عال. لقد كانت فتاة أخرى، فحملها ووضعها بلطف على بطنها، ثم أعطاها إلى والدتها. انحنى وقبل كلاً منهما، في الوقت الذي ضحكت فيه بيتا وانهمرت من عينيها دموع الفرح. أخذت العملية كاملة أقل من ساعة. كان أنطوان لا يزال تحت تأثير الصدمة، عندما طلب منها رقم الطبيب واتصل به. فطلب الطبيب منه عدم قطع الحبل السرّي، وقال له إنه سيحضر في غضون خمس دقائق، إذ كان يسكن على بُعد دقائق من المكان، ويعرف عنوان منزلهما. عندها ذهب أنطوان للجلوس إلى جانبها، وقبل بلطف كلاً من الأم والطفلة.

"أحبك يا بيتا، ولكن في حال فعلت هذا بي مرة أخرى سأقتلك. لم يكن لدي أدنى فكرة عما عساي أفعل لأساعدك. لمَ لم تدعيني أتصل بالطبيب؟"

"ظننت أنني لن ألد قبل ساعات وأردت أن أكون برفقتك... أنا آسفة... لم أقصد إخافتك". كانت هي الأخرى خائفة أيضاً. فقد حدث الأمر

بسرعة كبيرة. لم تتوقع أبداً أن تلد في هذا الوقت القصير، وما عدا الانقباضات القوية، كانت الولادة سهلة جداً.

وصل الطبيب بعد دقائق، فقطع الحبل السرّي، وتفقد الأم والطفلة، وقال إن كلاً منهما في أفضل حال.

"أنت لم تحتاجي إلي في هذه الولادة يا عزيزتي. ومن المتوقع أن تكون الولادة التالية أسرع حتى".

قال أنطوان وهو لا يزال يبدو مهزوزاً: "أنا نفسي سأدخل إلى المستشفى في المرة التالية". ثم شكر الطبيب.

اتصل الطبيب بالقابلة وطلب منها المجيء لتنظيف الأم والطفلة ومساعدتهما.

عند منتصف الليل كانت الأم والطفلة نظيفتين في السرير وتبدوان بسلام وفي أفضل حال. بدت هذه الطفلة مختلفة جداً عن أمانديا. كانت أصغر حجماً مما كانت عليه أمانديا لحظة ولادتها، ولهذا السبب كانت الولادة أسرع وأسهل بكثير. كانت صغيرة الحجم، وبدا أنها تمتلك شكل والدتها المنمنم. ومع نمو أمانديا كانت لا تزال تتسم بالطول والنحافة مثل والدها. كانت هذه الطفلة تمتلك نفس لون شعر بيتا الأسود وكان ما يزال من المبكر جداً معرفة لون عينيها. بدت بين يدي والدتها هادئة على نحو ملحوظ ومرتاحة جداً.

في الصباح، عندما دخلت أمانديا إلى الغرفة أطلقت صرخة فرح. فهي لم تسمع أي شيء خلال الليلة الماضية. فشعرت بيتا بالامتنان لكون نومها ثقيلاً.

قالت أمانديا وهي ترقص في أرجاء الغرفة: "إنها هنا، إنها هنا". ثم اقتربت لتلقي نظرة عليها. "ماذا عسانا نسميها؟ هل لي بحملها؟" كان أنطوان وبيتا خاضا في موضوع الاسم إلى أن غفيا، ولكنهما أرادا الانتظار كي يستشيرا أمانديا.

اقترحت بيتا: "ماذا عن اسم دافني؟" فنظرت أمانديا إلى الطفلة بحنية وفكرت في الاسم المقترح للحظة طويلة، ثم هزّت رأسها معطية موافقتها.

"أعجبني الاسم". فبدت بيتا وأنطوان أيضاً مرتاحين. كانت الراحة تبدو على محيا الجميع. "دافني، إنه الاسم الأمثل". صعدت عندها على السرير إلى جانب والدتها ووضعت بيتا الطفلة بلطف بين يدي أختها الكبرى، ثم اغرورقت عيناها بالدموع لدى مشاهدتها لهما. لم تنجب الابن الذي أرادته لأنطوان، ولكن امتلأ قلبها فرحاً عندما نظرت إلى ابنتيها التي تتميز إحداهما بالجمال والشعر الأشقر والأخرى بصغر الحجم والشعر الأسود. لقد كانت صورة طبق الأصل عن والدتها. وعندما رفعت بيتا رأسها، رأت أنطوان يبتسم وهو ينظر إليهن عبر الباب. تبادلا ابتسامة مطولة. لقد كانت هذه اللحظة التي طالما انتظراها بعد ثماني سنوات.

تمتمت لأنطوان قائلة: "أحبك". وقد عرفت في حبه أكثر من أي وقت مضى. هز رأسه وقد ملأت الدموع عينيه.

مهما كان الذي خسراه في الماضي، إلا أنهما يملكان الآن جل ما رغبا به في حياتهما.

الفصل السابع

في الوقت الذي بلغت فيه دافني الثانية من عمرها، كانت أماديا قد بلغت العاشرة. ولم يساورنّ أحد الشك بأنها كانت طفلة أماديا المدللة، تماماً كما أرادت أماديا نفسها، حيث أثرت دوماً على تدليلها، والاعتناء بها، واصطحابها إلى كل مكان. كانت بمثابة لعبة حية لم تكف أماديا أبداً عن اللعب بها. كانت أماديا أماً صغيرة فاعلة جداً. لم يكن لدى بيتا ما تفعله أبداً عندما تكون أماديا في الأرجاء. إذ لم تعمد إلى مبارحة أختها الصغيرة إلا عند مغادرتها إلى المدرسة وعند زيارتها لوالدها في الاصطبلات. وفي سن العاشرة باتت أماديا فارسة ممتازة. كانت قد ربحت في مناسبات قفز عدة وباتت تعلم الكثير حول الخيل الأمر الذي جعل أنطوان يفخر جداً بها، وله الحق بذلك. كان يحب كلاً من ابنتيه حباً جماً، وكذلك فعلت بيتا. كان زوجاً وأباً استثنائياً. لذا أدركت بيتا دونما أدنى شك أنها امرأة محظوظة.

مع حلول شهر حزيران بلغت الفتاتان العاشرة والثانية من عمرهما، وقبل ذلك بشهرين استلم أنطوان تلغرافاً متبوعاً برسالة. بعد مواصلة والد أنطوان اعتكافه عن التكلم معه ثانية أو مسامحته على الجريمة غير المغفورة التي شعر أن أنطوان اقترفها، توفي فجأة. وبالرغم من الغضب الذي كان يشعر به تجاه ولده أنطوان، إلا أنه وبما أن أنطوان الابن الأكبر فقد انتقلت إليه الثروة والأراضي إضافة إلى اللقب. دخل إلى المنزل عصر أحد الأيام حاملاً بيده التلغراف وبدا عليه الذهول.

"هل حصل أي سوء؟" كانا يعرفان بعضهما البعض جيداً، فانتاب بيتا القلق على الفور.

"لقد بتّ كونتيسة". استغرقها الأمر دقيقة من الوقت لتستوعب كلامه، ثم فهمت قصده. كانت تدرك مدى حزنه لبقائه مُغرّباً عن والده، والآن لن يغير هذه الغربة شيءٌ، إذ وجدها أنطوان خسارة لا توصف.

قالت بنعومة: "أنا آسفة". ثم اقتربت منه وعانقته. عانقها لمدة طويلة ثم تنهد وجلس. أفاد التليغراف أن الجنازة تمت قبل أسبوع، ولم يسمحوا له حتى بحضور الجنازة. كان محامي والده قد أرسل التليغراف.

قال وهو يبدو مشتتاً: "أريد أن أرى شقيقي. لقد تمادوا في غضبهم مدة طويلة. علينا أن نصلح هذا الأمر. يجدر بي الذهاب إلى دوردوني لمقابلة المحامي". كان يتوجب عليه اتخاذ بعض القرارات وإدارة الممتلكات. وليس بوسعه البقاء غائباً كونه أصبح المالك. كان قد ورث القصر وكل ما كان معه، ووفق معلوماته كانوا يمتلكون ثروة طائلة، سينتقل قسم صغير منها إلى شقيقه نيكولاس. في الواقع، بعد بضع ثوان من معرفته الخبر قرر أنه سيتقاسم مع شقيقه الثروة مناصفة. كان اللقب من حق أنطوان إضافة إلى الأرض. ولكن على عكس التقاليد، اعتقد أنه يجدر تقاسم المال مناصفة، بات يمتلك مالاً أكثر من الكافي الآن ليتمكن من التصرف معه بكرم.

"سيتوجب عليّ التكلم مع جيرار في الغد. أريد الذهاب إلى فرنسا في غضون الأسابيع القليلة المقبلة. لا أملك أدنى فكرة كم ستكون مدة إقامتي هناك".

لكن كلاهما أدرك أن أيامهما في منزل دوبيني قد وصلت إلى نهايتها. لقد أمضيا أروع ثماني سنوات هنا، ولكن بما أن أنطوان أصبح الكونت دو فاليراند، فلديه مسؤولياته المترتبة عليه. بعد أن تم نفيه لإحدى عشرة سنة آن الأوان للابن المنفي أن يعود إلى المنزل. وبين ليلة وضحاها باتت بيتا كونتيسة. كانت أحداثاً كثيرة يصعب استيعابها دفعة واحدة، وأدرك أنطوان أنه سيتوجب عليه شرح الأمر لأماديا.

تكلم أنطوان مع جيرار أولاً، حيث تبادلا حديثاً مطولاً عند الفطور في صباح اليوم التالي، ووافق أنطوان على البقاء لبضعة أسابيع مقبلة،

وبعد أن تكلم مع المحامين في فرنسا وعد أن يعود إلى ألمانيا لمدة شهر على الأقل ليجد بديلاً له ويدربه. كان لديه العديد من الأسماء المقترحة بدت معقولة لجيرار، ولكنه حزن جداً لخسارته. لقد ربطتهما صداقة متينة لسنوات عديدة، وكان أنطوان يتمتع بالعبقرية في ما يخص إدارة اصطبلاته. فبات جيرار يملك أهم مزرعة خيل في أوروبا، وكان أبطالهم ذائعي الصيت.

بعد يومين، وعلماً بأن عملهما الطويل سوياً على وشك أن ينتهي، اقترح أنطوان على جيرار التوجه لتجربة فحلين جديدين. كان أنطوان قد اشتراهما لجيرار من المزاد منذ وقت قريب. كانا فرسين جميلين جداً. شاهدتهما أماديا وهما يخرجان من الحظيرة وتذمرت من والدها لأنه لم يسمح لها بالذهاب معهما، وبعد ذلك توجهت إلى المنزل للعب مع أختها الصغيرة. عصر ذلك اليوم كانت تلعب معها في غرفة نومها، عندما سمعت جرس الباب وأدخلت أمها شخصاً إلى المنزل. لم تعط للأمر بالاً وظلت تلعب مع دافني، وبعد فترة وجيزة نزلت إلى الطابق السفلي لتجلب كعكة لدافني، رأت جيرار وأحد أهم مدربي والدها يجلسان في غرفة الجلوس ويتكلمان مع والدتها، وقد بدا على وجه بيتا تعابير الارتباك. بدت بيتا مذهولة عندما التفتت ورأت أماديا.

قالت بغضب على غير عادتها: "عودي إلى الطابق العلوي". دُهشت أماديا من نبرة صوت والدتها، فاستدارت وامتثلت لكلامها، ولكن تملكها الخوف عندما جلست في الغرفة مع دافني. أدركت حتى قبل أن يخبروها أن أمراً فظيعاً قد حصل.

بدا لها أنه أخذ والدتها ساعات حتى صعدت إلى الطابق العلوي، وعندما صعدت كانت تبكي. بالكاد أمكنها التكلم، فاحتضنت أماديا بين ذراعيها وأخبرتها أن والدها قد سقط عن ظهر الفحل الجديد.

سألتها أماديا والذعر باد عليها: "هل أصيب بأذى؟" حتى بذراع واحدة كان خيّالاً ماهراً. لم تقوَ بيتا إلا على النحيب وهز رأسها. مضى دهراً قبل أن تتمكن من التكلم. لم تقوَ أي منهما على التصديق.

"بابا مات يا أماديا... بابا...". اختنقت وهي تقول هذه الكلمات، في الوقت الذي انهارت فيه أماديا بالبكاء بين ذراعي والدتها.

أتت فيرونيك بعد فترة من الوقت للجلوس مع الفتاتين وتوجهت بيتا لتراه في الاصطبل. كان قد كسر عنقه ومات على الفور. لقد مات الرجل الذي كانت مستعدة للتخلي عن حياتها من أجله. يا له من مصاب جلل يتخطى قدرتها على الاحتمال.

كانت الجنازة مأساة حقيقية حيث عج دار العبادة بالناس. فلقد أحبه جميع من عمل معه وعرفه. ألقى جيرار كلمة في الجنازة وجلست فيرونيك إلى جانب بيتا واضعة ذراعيها حول كتفيها. ثم تم استقبال وفود المعزين في المزرعة حيث غص المكان بالفرسان المعزين، وبدت بيتا حينها أشبه بالشبح وهي تتجول في أرجاء المكان بملابس الحداد ممسكة بابنتيها.

بعد الجنازة كان أمامها الكثير لتفكر به. إذ فجأة رحل هذا الرجل الذي أحبته حباً جماً وتخلت عن عائلتها من أجله، والذي بدوره بادلها الحب ولم يقدم على خيانتها أو تخييب ظنها قط. لم تملك أدنى فكرة أين عساها تذهب أو ماذا عساها تفعل. [illegible] جيرار [illegible] المساعدة بقدر ما أمكنه، ولم تبارحها فيرونيك قط. كان أمامها الكثير من الشؤون التي يجدر بها مواجهتها، وعرض عليها جيرار مساعدة محاميه في فرنسا. باتت الثروة التي تركها والد أنطوان له قبل أسبوعين ملكاً لها الآن. وكان قد قرر قبل وفاته أن يتقاسمها مناصفة مع شقيقه نيكولاس. ولكن نصف الميراث الذي تركه أنطوان سيكون أكثر من كاف لبيتا والفتاتين ليعشا بواسطته. لن تعيش في رفاهية مطلقة ولكن كان مستقبلها مؤمناً. بوسعها شراء منزل، وإعالة نفسها والفتاتين مدى الحياة. لم تعد مضطرة إلى التقتير في صرف الأموال، وإنما لا يسعها أيضاً تبذير الأموال بشكل عشوائي.

لكن بشكل أساسي ومن وجهة نظر مالية على الأقل لم يكن لديها الكثير لتقلق بشأنه. أسوأ ما حدث أنه رحل، وباتت هي أرملة بعمر الثانية

والثلاثين. أدركت أماديا أنها لن تنسى أبداً اليوم الذي توفي فيه والدها. وقد وجب عليهن أيضاً مغادرة المنزل الذي نشأت فيه بسرعة. باتت حياتهن على وشك التعرض لتغييرات جذرية. وحدها دافني كانت أصغر بكثير من أن تفهم ما يحصل. كانت أماديا وبيتا تفقهان وضعهما بشكل جيد. شعرت بيتا وكأن حياتها قد وصلت إلى نهايتها.

انتقل لقب العائلة إلى نيكولاس، إضافة إلى الأراضي. وبات القصر ملكاً له. وبات الكونت نيكولاس دو فاليراند رجلاً ثرياً، تماماً كما كان أنطوان ليكون بعد مرور كل ذلك الزمن، وذلك لو قُدر له أن يعيش ويستمتع بهذه الثروة. كان قد عاش أقل من أسبوعين بعد وفاة والده. لم تكن بيتا تتوقع أبداً حدوث أي من هذه الأحداث. لم تمانع خسارة ما لم تمتلكه قط، ولم تأبه لهذا الأمر أبداً. جل ما كان يعنيها أنها خسرت أنطوان.

بعد مرور فترة من الوقت، استلم وظيفة أنطوان في الاصطبلات رجل كان يعرفه أنطوان نفسه ويحبه. قام جيرار وفيرونيك بمساعدة بيتا على إيجاد منزل في [illegible]، فانتقلت بيتا والفتاتان للسكن فيه في ذلك الصيف. تلقت رسالة مهذبة من نيكولاس، شقيق زوجها، يقدم فيها تعازيه، ولكنه لم يذكر شيئاً حول رغبته بلقائها أو رؤية ابنتي شقيقه. كانت الرسالة مهذبة، ورسمية، ومقتضبة. وقد كرهته بيتا على جرح مشاعر أنطوان. لقد كانت عائلته قاسية عليهما، كقسوة عائلتها عليهما أيضاً. ظل أنطوان وبيتا منبوذين طيلة فترة زواجهما. لم يكن لديهما من أصدقاء مقربين سوى آل دوبيني، إضافة إلى بعضهما البعض. كان قد فات الأوان على بيتا كي ترغب بلقاء نيكولاس، وهو الآخر لم يقترح عليها هذا الأمر. بدا مرتاحاً بترك الأمور على مجراها، خصوصاً الآن بعد رحيل أنطوان. وتشكل لديها انطباع بأن نيكولاس لا يزال يضع اللوم عليها لإبعاد شقيقه عنهم، بالرغم من أنه تمتع بالأدب والاحترام عندما وصفها بالكونتيسة، حيث ظلت تتمتع بهذا اللقب حتى بعد وفاة أنطوان. وفقاً لها يعتبر اللقب أتفه

تعويض عن الزوج. لم ترد أبداً على رسالة نيكولاس، ولم تفسر لأماديا سبب غضبها منه. إذ لم تر أي جدوى من ذلك.

خلال السنة التالية، كانت بيتا تتجول في أرجاء المنزل الجديد كالشبح، وكانت ممتنة لتسلم أماديا أمر أختها الصغرى بالكامل. كانت تحممها، وتلبسها ثيابها، وتلعب معها، وتمضي كل الوقت معها حينما لا تكون في المدرسة. كانت بمثابة الأم لدافني، حيث عجزت بيتا عن لعب هذا الدور. إذ بدا وكأن أنطوان قد أخذها معه بعد وفاته. لم ترغب أبداً بالعيش من دونه، وقد غرقت في التدين مما أثار خوف أماديا في بعض الأحيان. كانت تمضي معظم وقتها في دار العبادة. عندما كانت أماديا تعود من المدرسة كانت تجد والدتها غائبة عن المنزل معظم الوقت، وقد أوكلت لمديرة المنزل العناية بدافني، وكلما سألتها أماديا عما إذا كانت والدتها في المنزل تكتفي بهز رأسها نافية الأمر. كانت في الحادية عشرة من عمرها فحسب، ولكن بين ليلة وضحاها باتت الفرد الذي يحمل على عاتقه مسؤولية العائلة. كانت أحياناً تمضي ساعات في دار العبادة جالسة إلى جانب والدتها غير مدركة ما عساها تفعل عدا عن التواجد بقربها. كانت دار العبادة المكان الوحيد الذي ترتاده بيتا وتشعر فيه بالسلام، وبدل أن تنزعج أماديا من هذا الوضع اعتادت عليه. وباتت تحب التواجد في دار العبادة معها. لقد كانت صديقة أماديا المقربة تنتمي إلى عائلة مهمة. وعندما بلغت أماديا الثالثة عشرة من عمرها أصبحت شقيقة الفتاة الكبرى ناذرة عفة، وقد وجدت أماديا هذا الأمر غامضاً ومثيراً للاهتمام. تكلمت أماديا كثيراً مع والدتها حول النداء الباطني الذي امتلكته شقيقة صديقتها، وتساءلت أماديا كيف عسى المرء يحظى بمثل هذا النداء الباطني. بدا لها أمراً جميلاً.

ولكن في ذلك الوقت كانت أمها قد بدأت تربكها. إذ إن أمها لم تذهب فقط إلى دار العبادة بشكل يومي وأحياناً أكثر من مرة، إنما كانت في بعض الأحيان تذهب إلى دار العبادة الخاصة بالملة التي كانت عليها قبل أن تتزوج. كان مكاناً كبيراً جداً يضج بالأشخاص المهمين. وقد اصطحبت

معها أماديا في إحدى المرات، فوجدت الأمر مذهلاً وإنما مخيفاً بعض الشيء. لقد جلست والدتها وظلت تحدق بامرأة في ذلك المكان. بدا أن المرأة لم تراها. وفي تلك الليلة وجدت أماديا والدتها جالسة في غرفة الجلوس وعلى حضنها الكثير من الصور القديمة التي تحدق فيها.

سألت أماديا بنعومة: "من هم هؤلاء الأشخاص يا ماما؟" كانت تحب والدتها جداً، وقد شعرت وكأنها خسرت والدتها منذ ثلاث سنوات إلى الآن، بطريقة ما كانت الأم التي عرفتها وأحبتها طيلة حياتها قد اختفت مع والدها، حيث لم يعد يُسمع صوت الضحك في المنزل منذ وفاته إلا عندما تلعب أماديا مع دافني.

قالت بيتا ببساطة: "إنهم والدي وشقيقتي وشقيقاي". حتى ذلك اليوم لم تكن أماديا قد سمعت أي كلمة عنهم. كان والدها قد أخبرها في إحدى المرات أنه كان هو ووالدتها يتيمين عند لقائهما. كانت تحب سماع قصة لقائهما، وكيف وقعا في الحب، ومدى جمال والدتها يوم زفافهما. كانت تدرك أنهما التقيا في سويسرا وعاشا هناك مع نسيبيهما حتى ولادتها، ثم أتوا إلى المنزل الذي تعرفه وترعرعت فيه. كانت لا تزال تذهب إلى الاصطبلات في بعض الأحيان لتمارس رياضة ركوب الخيل، ولكن بات ذلك يحزنها ويجعلها تفتقد والدها. كانت والدتها قد باعت المهر الذي اشتراه لها والدها منذ وقت طويل. وقد قال لها جيرار وفيرونيك إنه مرحب بها دوماً، ولكنها أدركت أن والدتها لا تحب لها الذهاب إلى ذلك المكان. إذ كانت تخشى حصول أي مكروه لها كما حصل لوالدها. فكفّت أماديا عن الذهاب حتى لا تُغضب والدتها بالرغم من أنها افتقدت ذلك كثيراً.

سألتها أماديا وهي ترى والدتها تحدق في الصور الباهتة: "هل ماتوا جميعاً؟" فنظرت إليها بيتا باستغراب.

"لا أنا مت". ولم تضف أي كلمة وقتها. ثم بعد قليل، عادت أماديا إلى دافني التي كانت طفلة سعيدة تبلغ الخامسة من عمرها ومتعلقة جداً بأختها الكبرى. فقد باتت بمثابة أم لها الآن.

بعـد تلك المرة، التي اصطحبت فيها بيتا أماديا معها إلى دار العبادة الخـاص بملـتها السابقة باتت تذهب كل سنة في اليوم نفسه. كانت بيتا قد ربت ابنتيها على ملة والدهما وآمنت إلى أبعد الحدود بما كانت تعلمه لهما. ولكنها واصلت الذهاب إلى دار العبادة الخاص بملتها السابقة مرة كل سنة، وفـي كـل مرة كانت تشاهد عائلتها بأكملها. كانوا دوماً يحضرون حيث يجلـس الـرجال في أماكن منفصلة عن النساء. وكانت كل سنة تصطحب أماديـا معها ولم تخبرها قط عن سبب ذهابها. حيث شعرت أنه أمر معقد جـداً بعد مرور كل ذاك الوقت. فقد أخبرتها هي وأنطوان أن عائلتيهما قد توفيتا. لم تشأ بيتا الاعتراف أنها كذبت عليها.

سـألتها أماديا مستغربة هذه الزيارات: لمَ عساك تودين الذهاب إلى هناك؟

"أظـنه أمـراً مثيراً للأهمية، أليس كذلك؟ لم تضف بيتا أبداً أي تفسير إضـافي، واعترفت أماديا لصديقتها المفضلة عندما بلغت الخامسة عشرة من عمـرها أنها تجد الأمر مخيفاً. ولكن لم يكن ثمة شك لدى أماديا أن والدتها لم تعـد علـى طبيعـتها منذ وفاة والدها. بدا وكأن الصدمة كانت شديدة عليها، وشـعرت أماديا أن والدتها تود اللحاق بوالدها، وقد صدقت في شعورها هذا. كانت بيتا تبلغ الثامنة والثمانين من عمرها فحسب، ولا زالت تتمتع بالصحة، ولكنها باتت الآن تنتظر الموت، وقد أدركت أماديا هذا الأمر جيداً.

عندما بلغت أماديا السادسة عشرة من عمرها، كانت دافني قد بلغت الثامـنة من عمرها حينئذ، وحين أصبحت أماديا دافني تأخذها إلى صف الباليه في الـيوم الذي تذهب فيه والدتها إلى دار العبادة حيث كانت تشاهد أهلها. لقد ارتاحـت جـداً لإيجادها عذراً كي تتخلف عن مرافقة والدتها. لم تعرف السبب، ولكنها لطالما وجدت الأمر يبعث على الحزن. كانت تفضّل مرافقة والـدتها إلى دار العبادة، وقد عمدت أماديا في الآونة الأخيرة إلى الصلاة لتعرف ما إذا كان لديها نداء باطني مثل شقيقة صديقتها. لم تأتِ على ذكر هـذا الموضوع على الإطلاق أمام أي أحد، ولكنها بدأت تعتقد أنها تمتلك

هـذا الـنداء الباطني. جلست بيتا في مكانها في دار العبادة الخاص بملتها السابقة كما اعتادت أن تفعل وغطت وجهها بوشاح. ورأت أهلها تماماً مثل كـل سـنة. وهذه المرة عندما رأت والدتها وجدت أنه يبدو عليها التعب. وبمعجزة ما، وجدت نفسها جالسة على المقعد الواقع وراءها مباشرة. ولو أنهـا تجـرأت لكانت مدت يدها ولمستها. ثم وبمعجزة ما، بعد أن أحست والـدتها بنظـراتها المنصبة عليها، استدارت ونظرت إلى المرأة الجالسة وراءها. جل ما استطاعت رؤيته هو القبعة والوشاح، وأحست بأن هذه المرأة أمر مألوف. وقبل أن تعود وتستدير إلى الأمام، رفعت بيتا الوشاح، فـرأتها والـدتها. تقاطعـت عيناهما، وكأن النظرة طالت دهراً، ثم هزت والـدتها رأسها واستدارت من جديد والابتسامة بادية عليها. كانت تجلس وحـدها بين النساء، ولدى مغادرة المكان تبعت بيتا خطاها، وهذه المرة لم يخالجهـا أي شـعور أن أمها ستنتقدها. إلا أن ما صعق مونيكا وخطف أنفاسها منظر الحزن العميق في عيني ابنتها. غادرت المرأتان المكان جنباً إلـى جـنب، وقـد التفت يداهما ببعضهما البعض عندئذ. أمسكت بيتا بيد والـدتها بلطف وسمحت لها والدتها بذلك. ثم ودون أي كلام ذهبت والدتها للانـضمام إلى والدها. وجدته بيتا لا يزال يبدو طويل القامة ومعتزاً بنفسه بالـرغم من أنه بات أكبر سناً بكثير. أدركت أنه بات يبلغ الثامنة والستين مـن عمـره، ووالـدتها الثالثة والستين. شاهدتهما يغادران ثم استقلت بيتا سيارة أجرة وعادت إلى المنزل إلى ابنتيها.

سألتها أماديا تلك الليلة على العشاء: "كيف سار الأمر؟"

سألت بيتا مستغربة: "أي أمر؟" بالكاد كانت تقدم بيتا على التكلم أثناء العـشاء، والـليلة بالذات بدت مشتتة. إذ كانت لا تزال تفكر بوالدتها. فقد قاطعتا بعضهما البعض منذ سبع عشرة سنة إلى الآن، وقد حدث خلال هذه الـسنوات المتعاقـبة الكثير من الأمور. إذ وُلدت ابنتاها، وتوفي زوجها، وتغيـر كـل شيء في حياتها، وأصبحت كونتيسة، الأمر الذي لم يعن أي شيء لها بالرغم من أنها توقعت أن مثل هذا اللقب قد يثير إعجاب شقيقتها.

"أليس هذا اليوم الذي تذهبين فيه إلى دار العبادة ذلك كل سنة؟ لم تفعلين ذلك يا ماما؟" كانت تدرك أن والدتها امرأة شديدة التفكير ولطالما استثكت شغفاً بالأديان. لعلها الحشرية الدينية هي التي دفعتها إلى التوجه إلى هناك، أو مجرد تعبير عن احترام للآخرين. كانت تعي مدى إخلاص والدتها لملتهم.

"أنا أحب ذلك". لم تخبر ابنتها الكبرى أنها توجهت إلى هناك لرؤية والدتها واليوم قامت بملامسة يدها. لم تتبادلا حبنها ولا حتى كلمة واحدة، ولكن مجرد لمس الأيادي لثوان معدودة أعاد الحياة إليها. إذ منذ وفاة أنطوان أدركت من صميم قلبها أنها بحاجة إلى رؤية والدتها. إنه نوع من الاستمرارية من الماضي إلى المستقبل. كانت مونيكا بمثابة صلة الوصل بالنسبة إليها، تماماً كما هي التي تعتبر صلة الوصل بين والدتها ونفسها.

قالت مانيا: "أحياناً يخطر لي أنني أحب لو أكون ناذرة عفة. تكلمت في إحدى المرات مع رجل دين عن هذا الأمر، ورأى أنه سيكون أمراً جيداً". بدا على بيتا الانزعاج عندما نظرت إلى ابنتها. للمرة الأولى أدركت كم أنها كانت بعيدة عن ابنتيها، وكم شعرت أماديا بالوحدة. عدا عن رفيقاتها في المدرسة لم يكن هناك من يسليها في المنزل سوى طفلة تبلغ نصف سنها. كان الأمر بمثابة إنذار لبيتا يحثها على أن تصحو لتنتبه لابنتها. كان قد مضى على رحيل أنطوان ست سنوات، وشعرت بيتا إثر ذلك وكأنها ماتت معه.

"ما كان والدك ليرضى بأن تصبحي ناذرة عفة". إذ تذكرت ما قاله أنطوان عندما قال رجل الدين الذي زوجهما إنه يجدر بها أن تصبح ناذرة عفة. كان أنطوان قد عارض هذه الفكرة بشدة، ليس لها فحسب ولكنه كان يرى أن في هذا الأمر هدر لحياة المرأة. إذ برأيه يجدر بالمرأة الزواج وإنجاب الأطفال. كانت تحاول ان تنقل وجهة نظر أنطوان وكأنها تنطق بلسانه. في الواقع، كان يتوجب عليها أن تقوم بذلك لأنه ما عاد بوسعه التكلم نيابة عن نفسه.

كلما سمعت بيتا المزيد عن هذا الموضوع ازدادت إدراكاً كم كانت بعيدة عن ابنتها. بدت أماديا وكأنها ستتوجه إلى أقرب مقر لناذرات عفة، فاستوعبت بيتا المسؤولية التي تقع على عاتقها والتي تقضي بأن توليها اهتماماً أكبر وتتحدث إليها وليس فقط حول اصطحاب دافني إلى صف الباليه أو إيصالها إلى المدرسة وإنما عن الأمور التي تهمها. أملت فحسب ألا يكون الأوان قد فات كي تُنشئ معها هذه الصلة من جديد. صُدمت بيتا عندما أدركت كم فقدت من توازنها منذ وفاة أنطوان، فنجم عن ذلك فقدان تواصلها مع ابنتيها. كانت موجودة معهما جسدياً، وإنما عقلها وروحها في مكان آخر.

"لا أريد منك الذهاب إلى محاضرات يلقيها المتطرفون إن كان هذا ما تعنيه من هذا الأمر يا أماديا، ويجدر بك أن تحترزي من التكلم ضد سياسات السلطة في مكان آخر غير منزلنا".

بدت أماديا مصدومة وقالت: "هل توافقين على ما تفعله السلطة يا ماما؟"

"لا، لا أوافق على ما تفعله". شعرت بيتا وكأن ذهنها بدأ يصحو وباتت تجد الحديث مع أماديا ممتعاً. فلقد كانت فتاة ذكية جداً، وتذكرها الأمر بالتساؤلات التي كانت تخطر لها عندما كانت في مثل سنها وشغفها بالفلسفة والنقاشات الفلسفية. كانت تمضي ساعات في النقاش مع شقيقيها وأصدقائهما. لم يكن لدى أماديا من تتحدث إليه حول مثل هذه الأمور سواها. "ولكن أن يكون المرء معارضاً، ففي ذلك خطر دائم".

دار على طاولة العشاء تلك الليلة حديث مثير للأهمية، وقد أطلن الجلوس أكثر من المعتاد. لم يسبق لبيتا من قبل أن لاحظت مدى اهتمام أماديا بالسياسة ومدى وعيها الاجتماعي واستقلاليتها، ولم تلاحظ أنها كانت تكافح لتعرف ما إن كنت تمتلك هذا النداء الباطني، الأمر الذي وجدته بيتا مزعجاً أكثر من ميولها الراديكالية. فلم تقوَ إلا على التساؤل عن مدى تأثرها بتلك المحاضرات، أو ما هو أسوأ من ذلك، فأمور كهذه لها شديد

الأثر على شابة صغيرة السن، ناهيك عن ذكر شقيقة صديقتها الكبرى. جميع هذه الأمور رسمت لوحة حياة لم تردها بيتا لها. ولكن بيتا نفسها لم تقدم في السنوات الأخيرة سوى القليل القليل لتضعه في الجهة المقابلة من الميزان. لم يكن لديها أي حياة اجتماعية أو أصدقاء، ولم تكن تقابل أي أحد سوى آل دوبيني، وكان ذلك نادراً جداً أيضاً. في السنوات الإحدى عشرة التي كان فيها أنطوان حياً، كرست بيتا حياتها بالكامل له ولابنتيها. ومنذ وفاته، باتت منعزلة عن العالم، ولم ترَ سبيلاً لتغيير هذا الواقع الآن، ولم ترغب بذلك على الإطلاق. ولكن على الأقل بوسعها أن تبدي اهتماماً أكبر لما يحدث في العالم. إذ بدت أماديا مطلعة على التطورات أكثر منها بكثير. كانت واثقة بشأن آرائها السياسية، وأملت ألا تصرح عن هذا الأمر في المدرسة بشكل علني. وفي اليوم التالي، قبيل مغادرة أماديا إلى المدرسة ذكرتها بوجوب اتخاذ الحيطة والحذر. فمخالفة السلطة في الرأي كان أمراً خطيراً في أي سن كان.

في الأسبوع المقبل عادت بيتا إلى دار العبادة الخاص بملتها السابقة. لم تشأ أن تنتظر سنة أخرى حتى ترى والدتها من جديد. هذه المرة جلست خلفها مباشرة عن قصد، ولم يكن هناك حاجة لأن ترفع وشاحها عن وجهها. فقد عرفتها والدتها منذ اللحظة التي رأتها فيها. ولدى مغادرتهما دست بيتا ورقة صغيرة في يد والدتها. كانت فيها عنوانها ورقم هاتفها، وبمجرد أن أعطتها إياها، رأت والدتها تطبق أصابعها عليها. ثم اختفت بيتا بين الجموع، وغادرت المكان. لم تنتظر هذه المرة لترى والدها. جل ما تستطيع فعله الآن هو الدعاء كي تتحلى والدتها بالشجاعة وتتصل بها. كانت بيتا تتوق بشدة إلى رؤيتها ومعانقتها والتكلم معها من جديد. وأكثر من أي شيء آخر أرادت منها أن تلتقي بابنتيها.

مر عليها يومان أليمان، ثم بمحض الصدفة أجابت أماديا على الهاتف عندما رن. كن يغادرن لتوهن طاولة الطعام بعد أن فرغن من تناول العشاء، وقد سألت بيتا دافني إن كانت ترغب باللعب. كانت أماديا قد

لاحظت أن وضع والدتها قد تحسن كثيراً هذه الأيام وهي تبذل جهداً أكبر للانخراط معهما أو الخروج من اكتئابها الطويل المدى الذي خلفه موت أنطوان.

قالت لها أماديا: "هناك من يود مكالمتك على الهاتف".

سألتها بيتا: "من؟" فقد نسيت لحظتها الاتصال الذي كانت تنتظره، وافترضت أن فيرونيك هي المتصلة، حيث كانت تواصل الطلب إلى بيتا منذ أشهر أن تصنع لها ثوباً لترتديه في حفلة ما. إذ حسبت أن ذلك سينفعها كنوع من العلاج، ولكن كانت بيتا تتحاشاها. إذ بعد وفاة أنطوان لم تعاود الخياطة إلا في فترات متباعدة، حيث كانت تصنع قطعاً بسيطة للفتاتين. لم يعد لديها أي اهتمام بخياطة أثواب السهرات المهمة، كما ولم تعد بحاجة مادية للخياطة.

قالت أماديا: "لم تعرّف عن نفسها". ثم اصطحبت دافني إلى الطابق العلوي وتوجهت بيتا إلى الهاتف.

أجابت بيتا: "ألو". وحبست أنفاسها عندما سمعت الصوت فهو لم يتغير.

همست خوفاً من أن يسمعها أحد وقالت: "بيتا؟" كان جاكوب قد غادر المنزل، ولكن الجميع يعرف أنه ليس مسموحاً لها أن تخاطب ابنتها. فقد اعتبرت ميتة. "أمي يا الله شكراً لك على الاتصال. لقد بدوتِ غاية في الجمال في دار العبادة. لم تتغيري أبداً". بعد سبع عشرة سنة، أدركت الاثنتان أنه يستحيل على المرء ألا يتغير. ولكن بالنسبة إلى بيتا كانت والدتها لا تزال تبدو على حالها.

"وأنت بدوت حزينة جداً. هل أنت بخير؟ هل أنت مريضة؟"

"لقد مات أنطوان".

"أنا آسفة جداً". بدت صادقة في ما تقوله. إذ بدت لها ابنتها محطمة حينما رأتها. ولهذا السبب أقدمت على الاتصال بها. لم يعد باستطاعتها أن تدير الظهر لها أكثر مهما قال جاكوب. "متى؟"

"منذ ست سنوات. لدي ابنتان جميلتان. أماديا ودافني".

ابتسمت مونيكا وسألتها: "هل تشبهانك؟"

"ابنتي الصغرى تشبهني، أما الكبرى فتشبه والدها. هل تودين رؤيتهما يا ماما؟"

ساد الصمت على الطرف الآخر من الخط، ثم أجابت أخيراً بتنهيدة. بدت متعبة على الهاتف. كانت الأمور عصيبة هذه الأيام. "نعم أود ذلك".

"سيكون ذلك رائعاً". بدت بيتا وكأنها عادت طفلة من جديد. "متى تودين أن تأتي؟

ما رأيك لو تأتين غداً عصراً فنشرب الشاي سوياً؟ ستكون الفتاتان قد عادتا من المدرسة في ذلك الوقت".

"حسناً اتفقنا". كانت الدموع تتدحرج على وجنتي بيتا. هذا ما كانت تصلي من أجله لسنوات. المسامحة. الغفران. لمس والدتها من جديد، ولو لمرة. احتضانها. أن تحظى بلحظة بين ذراعي والدتها، ولو لمرة.

"ماذا ستقولين لهما؟"

"لستُ أدري. سأجد ما أقوله الليلة".

قالت مونيكا بحزن: "ستكرهانني إن أخبرتهما الحقيقة". ولكن بقدر ما رغبت بيتا برؤية والدتها من جديد، رغبت مونيكا برؤية ابنتها أيضاً. وهذه الأيام كانت تحصل أحداث سيئة. كان جاكوب يخشى أن ينالوا نصيبهم أيضاً مما يحدث هذه الأيام، رغم أن آلم وهورست استبعدا جداً هذا الأمر. لم يوافق جاكوب على هذا الرأي. وكانوا جميعاً يكبرون في السن. واحتاجت إلى رؤية ابنتها من جديد. احتاجت جداً إلى ذلك. بكل جوارحها. كانت بيتا بمثابة قلبها الذي انتُزع منها وتحتاج إلى استرجاعه.

"ليس هناك ضرورة أن تعرفا الحقيقة. نستطيع أن نلقي اللوم على بابا". فلقد أدركتا أن والدها ما كان ليغير موقفه أبداً. ليس هناك أدنى أمل بأن تلتقي به أماديا ودافني. ولكن شعرت مونيكا أنه ما عاد بوسعه أن يفرض هذا الجفاء المأساوي عليها هي الأخرى. لم يعد بمقدورها أن تفعل ذلك بيتا أو بنفسها.

"لا تقلقي سأجد حلاً. ستتحمسان للقائك. وماما... لا أطيق صبراً حتى أراك". كانت تغص عندما تلفظت بهذه الكلمة.

"وأنا أيضاً". بدت والدتها متحمسة بقدرها تماماً.

فجلست بيتا الليلة بأكملها تفكر في هذا الأمر، وفي الصباح أخبرتهما عند الإفطار أنه ثمة امرأة تود مقابلتهما وستأتي عصر ذاك اليوم.

سألت أماديا بقليل من الاهتمام: "من تكون؟" كان لديها امتحان في المدرسة في ذاك اليوم، فظلت مستيقظة حتى وقت متأخر من الليل تدرس، لذا كانت تشعر بالتعب. كانت فتاة استثنائية.

ترددت بيتا لوهلة ثم قالت: "جدتكما". فاتسعت حدقتا الفتاتين.

قالت أماديا متشككة غير مدركة أي القصتين تصدق: "جدتهما ماتت".

اعترفت بيتا قائلة: "لقد كذبت. عندما تزوجت بوالدكما، كانت ألمانيا وفرنسا في حالة حرب، وكان سكان الدولتين يكنان العداء لبعضهم البعض ومنهم عائلتينا. التقيت أنا ووالدكما في سويسرا عندما كنا نمضي العطلة مع عائلتينا. وأراد مني والدي أن أتزوج بشخص آخر. لم أكن أعرف هذا الرجل حتى". كانت تواجه صعوبة شديدة في تفسير كل شيء لهما الآن، إذ باتت حياتهن مختلفة جداً، ولكنهما تأثرتا جداً بكلامها. لم يكن إيجاد الكلمات المناسبة أو تفسير ما قد حصل منذ وقت طويل بالأمر السهل. "لم توافق أي من عائلتينا على زواجنا لأن والدكما كان فرنسياً وأنا ألمانية. أدركنا أنه سيتوجب علينا الانتظار إلى ما بعد الحرب، وحتى لو انتظرنا ما كانوا ليوافقوا. كنا مجنونان وصغيران في السن، وأخبرت والدي أنني أود الزواج بوالدكما وسأفعل مهما كان الثمن. قال لي إنني في حال فعلت لن يراني من جديد. كان والدكما قد تعرض لإصابة في الحرب وينتظرني في سويسرا، وقال له نسيباه إنه بوسعنا الزواج والعيش معهما. لذا غادرت، وقد كان قراراً اتخذته بعناد، ولكنني أدركت أنني محقة. كنت أدرك كم كان والدكما رجلاً طيباً ولم أندم أبداً على ما فعلته. ولكن رفض والدي أن يراني من جديد ولم يسمح لأي فرد من أفراد عائلتي برؤيتي. لا أمي ولا

شقيقتي ولا شقيقاي. كان يتم إرجاع جميع رسائلي التي أبعثها إليهم دون أن تُفتح حتى. لم يسمح أبداً لأمي برؤيتي أو التكلم معي من جديد. وقد رأيتها في مكان ما منذ بضعة أيام، عندما رأيت والدتي أعطيتها عنواني ورقم هاتفي. لقد اتصلت الليلة الفائتة ورغبت برؤيتكما. ستأتي اليوم إلى هنا بعد المدرسة". كان اعترافها أسهل مما تخيلته. وكانت ابنتاها تحدقان فيها غير مصدقتين ما تسمعانه.

سألتها أماديا وقد بدا عليها الغضب: "كيف عساه يكون شريراً إلى هذه الدرجة؟ هل فعلت عائلة بابا الشيء نفسه؟"

"نعم. لقد كانوا يكرهون الألمان بقدر ما كانت عائلتي تكره الفرنسيين".

"يا للغباء، ويا للقسوة". أبدت أماديا تعاطفاً شديداً معها. "هل عساك تقدمين يوماً على فعل هذا الأمر بنا؟" عرفت أماديا جوابها حتى قبل أن تطرح السؤال.

"لا، مستحيل. ولكن كان هذا منذ أمد بعيد، وكانت حرباً بشعة".

سألت دافني بعقلانية: "إذاً لم رفض رؤيتك بعد انتهائها؟" كانت فتاة ذكية شأنها شأن شقيقتها.

قالت أماديا حاملة في قلبها ضغينة: "لأنه رجل عنيد". كانت بيتا قد سامحته منذ سنوات، وتقبلت ما قد حصل بالرغم من أنه ظل يحنيها لسنوات.

سألتها أماديا وما تزال مصدومة جراء الكلام الذي سمعته: "وماذا عن شقيقتك وشقيقيك؟ ليسوا بموتى هم الآخرون؟" نفت بيتا الأمر بهز رأسها. "إذاً لماذا يرفضون رؤيتك؟"

قالت بيتا ببساطة: "لا يريدون معصية أوامر والدنا". لم تشأ إخبارهما أن والدها اعتبرها ميتة.

قالت أماديا بعقلانية: "لا بد وأنه رجل فظيع حتى يخاف منه الجميع". لم تكن تتقبل أبداً معاملة الناس بهذه الطريقة. ولكن كان والدها رجلاً لطيفاً جداً. "وعائلة بابا قاسية أيضاً".

أضافت دافني: "لا بد وأن والدتك شجاعة جداً لترغب برؤيتنا الآن".

ثم سألت والدتها مبدية قلقها: "هل سيقوم والدك بضربها عندما تعود إلى المنزل؟" ابتسمت بيتا في وجهها وقالت: "بالطبع لا، ولكنها لن تخبره أنها أتت إلى هنا. وإلا فسيغضب جداً. وقد بات الآن رجلاً مسناً، وهي كذلك". اعترفت بيتا والدموع تتدحرج من عينيها: "أنا مسرورة جداً لكونها ستأتي لرؤيتنا". فتأثرت ابنتاها بالأمر. "لقد اشتقت إليها كثيراً، وخصوصاً منذ وفاة والدكما. أردت إعلامكما بالأمر قبل أن تأتي اليوم". لقد سمح لهما هذا الحديث بالتعرف إلى والدتهما أكثر، ومن زاوية أخرى. فظلتا مذهولتين جراء ما سمعتاه أثناء توجههما إلى المدرسة. كان أمراً غريباً أن يكتشفا أن لهما جدة كانت على قيد الحياة طيلة هذه السنوات ولم تزرهما قط. ليس جدة فحسب بل جد وخالة وخالين.

قالت أماديا بهدوء: "أنا سعيدة بزيارتها لأجل أمي". ثم أضافت وهي مفعمة بالتعاطف مع أمها وتشعر بالحزن لأجلها: "ولكنني أظن أن ما فعلوه بها أمر فظيع. تخيلي أن تفعل بنا الأمر نفسه". يا لها من خسارة فادحة جداً، أن تخسر المرأة جميع من تحبهم من أجل رجل. بالرغم من أن أماديا أدركت أنها لو لم تفعل ذلك لما كانت هي أو أختها لتكونا في الوجود.

قالت دافني والتأثر باد عليها: "كنت لأبكي كثيراً".

"وأنا كذلك". ثم ابتسمت أماديا وهي تأخذ بيدها لتعبرا الشارع. حذرتها أماديا قائلة: "حري بك ألا تقدمي في حياتك على أي عمل غبي مثل مقاطعتي وإلا سآتي وأبرحك ضرباً". فضحكت دافني.

"حسناً، أعدك أنني لن أفعل". سارت الفتاتان يداً بيد بقية الطريق تفكران بوالدتهما وبجدتهما التي توشكان على اللقاء بها.

الفصل الثامن

عندما دق جرس الباب في الساعة الرابعة، جمدت بينا في مكانها لدقيقة من الوقت، ثم رتبت ثوبها وشعرها. كانت ترتدي فستاناً أسود بسيطاً، وعقداً من اللؤلؤ كان أنطوان قد أهداها إياه في ذكرى زواجهما العاشرة. كان وجهها شاحباً جداً، وبدت خائفة ومخطوفة الأنفاس عندما فتحت الباب، ورأت والدتها واقفة هناك مرتدية معطفاً أسود أنيقاً فوق فستان بنفسجي اللون. كانت أنيقة كما دوماً حيث تنتعل حذاء جلدياً أسود وحقيبة تليق به، كما وكانت تلبس كفين أسودين، وتضع في أذنيها قرطين كبيرين من اللؤلؤ. تقاطعت عيناهما، ودون التلفظ بكلمة واحدة احتضنتا بعضهما البعض. شعرت بينا فجأة وكأنها طفلة خسرت والدتها ثم أخيراً وجدتها. رغبت فحسب بملامستها وتحسس وجهها وشعرها. كانت والدتها لا تزال تضع العطر نفسه الذي كانت تضعه منذ كانت بينا طفلة. ثم تذكرت بينا فظاعة اليوم الذي غادرت فيه وكأنه حدث البارحة. وقد انتهى كل شيء الآن. لقد وجدتا بعضهما البعض من جديد. واختفت كل السنوات السابقة في هذه اللحظة. اصطحبت والدتها إلى غرفة الجلوس، وجلستا إلى جانب بعضهما البعض على الكنبة، وبكتا سوياً. وظلت بينا عاجزة عن الكلام لفترة طويلة.

"شكراً لك على مجيئك يا ماما، لقد اشتقت إليك كثيراً". فقد اشتاقت إليها أكثر بكثير مما يمكنها وصفه. وأخذت الذكريات تتوالى سريعاً في ذهنها في هذه اللحظة بالذات. إنها اللحظات التي تمنت لو كانت والدتها فيها إلى جانبها. عندما تزوجت، وعند ولادة أماديا ودافني، وفي المناسبات

والأعياد، وفي كل لحظة مهمة في حياتها الزوجية... وعند وفاة أنطوان، وجميع اللحظات العادية التي تخللت هذه الأوقات. والآن باتت هنا. لم تشعر بأي غضب بسبب السنوات التي خسرتاها، وإنما شعرت بالحزن عليها فحسب. والآن باتت تشعر أخيراً بالراحة.

قالت مونيكا والدموع تتدحرج على وجنتيها دونما انقطاع: "لا تتخيلي مدى الحزن الذي مررتُ به، لقد وعدته ألا أراك وخشيت أن أعصيه. ولكنني كنت أزداد شوقاً إليك كل يوم". لم تقوَ أبداً على التغلب على مشاعر شوقها وحزنها. وفي النهاية، بات الوضع أشبه بالموت.

قالت بينا وهي تنتحب أيضاً: "لقد تم إرجاع جميع رسائلي إلي".

"لم أعرف أبداً بأمر هذه الرسائل. لا بد وأن والدك أرجعها دون أن يريني إياها".

قالت بينا بحزن وهي تتذكر خط يد والدها الموجود على الرسائل التي أرجعت لها: "كنتُ أعلم ذلك. وقد أعيدت أيضاً الرسائل التي بعثتها إلى بريجيت، ورأيتها في الشارع ذات مرة وأبت مخاطبتي، وكذلك الحال مع أخي هورست".

قالت والدتها بحزن: "لقد اعتبرناك ميتة، لم يسمح لنا بالتكلم عنك حتى. وأظن أن بريجيت تخشى إزعاجي، لذا لا تقول شيئاً".

"هل هي سعيدة؟"

نفت والدتها الأمر بهز رأسها. "إنها مطلقة، وتريد الزواج بشخص آخر، ووالدك لا يوافق على ذلك".

لم تخبر بينا والدتها أنها غيرت ملتها عندما تزوجت بأنطوان. فربما يكون وقع هذا الكلام صعباً عليها. كان هذا القدر كافياً. ثم فاجأتها والدتها بما قالته. حيث إنها افترضت وقد صح افتراضها أن بينا غيرت ملتها. إلا إنها ظنت أنها ستفعل ذلك بمجرد أن تتزوج بأنطوان.

"ربما هكذا أفضل في ظل ما يحدث هذه الأيام. فرجال السلطة يقومون بأمور فظيعة. يقول والدك إنهم لن يلحقوا بنا أي مكروه، ولكن من

بـدري. ما دمت قد غيرت ملتك فابقي على هذه الحال يا بيتا. فأنت أكثر أماناً على هذه الحال". كان هذا الكلام قوياً من والدتها. ثم نظرت إلى ابنتها بعينين قلقتين وقالت: "ماذا أخبرت ابنتيك عني؟"

"أخبرتهما أنني أحبك، وأن بابا لم يسمح لي بالزواج من أنطوان لأنه كـان فرنسياً وقـد كـنا في حالة حرب. قلت لهما إن عائلته كانت تكنّ المشـاعر نفسها لـي. فذهلتا ولكنني أظنهما فهمتا الوضع". كان خبراً خطيراً ويصعب استيعابه بسهولة ولكن ظنت بيتا أنهما استوعبتا الأمر.

"هل قابلتك عائلته؟" فهزت بيتا رأسها نافية. "كيف مات؟"

"حادثــة عـند ركوبه الخيل. كان والده قد توفي قبله بأسبوعين". ثم ابتسمت وقالت: "لقد بت كونتيسة". فابتسمت والدتها أيضاً.

مازحتها قائلـة وقد لمعت عيناها: "يا للروعة". وعندئذ وصلت الفتاتان إلى المنزل ودخلتا الغرفة بحذر. نظرتا إلى المرأة التي عرفتا أنها جدتهما وشاهدتا الابتسامة التي أضاءت وجه والدتهما التي عرّفتها على أماديا أولاً، ثم دافني. فنظرت الجدة إليهما والدموع تتدحرج على وجنتيها ومدت لهما ذراعيها. قالت وهي تمسح دموعها بمنديل مطرّز والفتاتان تقتربان منها ببطء: "أرجوكما سامحاني على مدى الغباء الذي كنتُ عليه. لقد سُررت جداً بلقائكما. أنا فخورة جداً بكما، أنتما جميلتان جـداً". وجـدت دافني أنها تبدو لطيفة، وأرادت أماديا أن تطرح عليها أسئلة تتعلق بسبب سماحها لزوجها أن يتصرف بهذه القسوة مع والدتها، ولكـنها لـم تجرؤ على طرحها. ووجدت أنها تبدو إنسانة طيبة. بكت الجدة كثيراً تماماً مثل والدتهما. جلسن جميعاً، وشربن الشاي، وتبادلن الحـديث، ولاحظـت الفـتاتان أنها تذكرهما كثيراً بوالدتهما. حتى إنّ صوتها يشبه صوت والدتهما. أمضين سوياً وقتاً ممتعاً ثم أخيراً وقفت مونيكا، فنظرت دافني إليها باهتمام.

"مـا عـسانا ننعتك؟" كان سؤالاً منطقياً بالنسبة لفتاة في الثامنة من عمرها. وكانت أماديا قد تساءلت عن هذا الأمر أيضاً.

سـألت مونـيكا بتـردد بعد أن نظرت أولاً إليهما ثم إلى بيتا: "هلا تدعيانـني بأومـا؟" لم تكن تستحق منهما أن تدعياها بهذا الاسم الذي كان تعبيراً محبباً للفظة جدتي. "يشرفني أن تدعياني بهذا الاسم". فهزت الفتاتان رأسيهما وعانقتاها قبل مغادرتها، ثم احتضنت بيتا. إذ لم تشبع المرأتان من بعضهما البعض أبداً.

سألتها بيتا بلطف وهي واقفة على المدخل: "هلا زرتنا من جديد؟"

أجابـتها والدتها: "بكل تأكيد، متى شئت". ثم وعدتها قائلة: "سأتصل بـك بعـد بضعة أيام". وأدركت بيتا أنها ستفعل. إذ لطالما وفت بوعودها وشعرت بيتا أنها لا تزال تفي بها.

"شكراً لك يا ماما". ثم احتضنتها مرة أخرى.

همسـت لهـا والدتها قائلــة: "أحبك يا بيتا". ثم قبلتها على وجنتيها وغادرت. كان ذاك العصر مميزاً جداً بالنسبة إليهن جميعاً.

توجهت أماديا للبحث عن والدتها بعد مغادرة جدتها. فوجدتها جالسة وحدها في غرفة الجلوس غارقة في بحر أفكارها.

"ماما؟" رفعت بيتا رأسها ونظرت إليها مبتسمة.

"نعم يا عزيزتي. ما رأيك؟"

"أظن أن غيابها لهذه المدة الطويلة أمر يبعث على الحزن. إذ بدا جلياً أنها تحبك جداً".

"أنـا أيضاً أحبها جداً. أنا مسرورة جداً لكونها عادت حيث تسنى لها التعرف إليكما".

قالـت أماديا ببرودة: "أنا أكره والدك جراء ما فعله بك". فهزت بيتا رأسها. لم تعارضها الرأي ولكنها لم تكن تكرهه. لم تكرهه قط بالرغم من كـون والدها قد تسبب لها بحزن لا يوصف، تماماً مثلما فعل بوالدتها. إن قراره بنفيها أدخل الحزن في قلوبهم جميعاً، وعلى الأرجح في قلبه، بالرغم مـن أنه لا يعترف بحزنه هذا أبداً. ولكنه لطالما كان هو وبيتا مقربين. إلا أن مغادرتهـا للمنـزل مـثلت ضربة شديدة له. كانت فعلتها بنظره خيانة

عظمى. لم تتوقع بيتا أبداً أن يدوم نفيها إلى الأبد، ولكن حتى لو علمت بذلك مسبقاً، كانت لتتمسك برأيها وتتزوج بأنطوان.

قالت بيتا بهدوء: "لا تكرهي أحداً. فهذا أمر مرهق، ولا يعود عليك إلا بالأذى. لقد تعلمتُ هذا الأمر منذ أمد بعيد". فهزت أمانديا رأسها وهي تستمع إلى كلام والدتها، إذ شكّت في صحة ما تقوله. ولكنها لا تزال تعتقد أن والدتها امرأة مميزة لعدم كرهها لوالدها. وقد وثقت أمانديا من كرهها له لو أنها كانت مكان والدتها.

جلست أمانديا على الكنبة حيث تحق وجلست جدتها، وعانقت والدتها بحرارة، تماماً مثلما عانقت بيتا والدتها، وشعرت إثر ذلك بامتنان كبير لتمكنها من احتضانها بعد كل هذه السنوات.

همست أمانديا قائلة: "أحبك يا ماما" تماماً كما فعلت بيتا. كانت سلسلة غير متناهية من الروابط والأصداء التي لا تلبث تتواصل وتتواصل. وفي النهاية، وبالرغم من المسافة والوقت والخلافات الكبيرة كان ما يجمع بين الفتاة ووالدتها، عبارة عن رابطة لا تنكسر. لقد برهنت لها والدتها هذا الأمر عصر ذلك اليوم.

الفصل التاسع

على مدى السنتين التاليتين، واصلت والدة بيتا زيارتهن مرة في الأسبوع. فباتت عادة، اعتادت عليها بيتا وكانت بمثابة هدية قيّمة بالنسبة إلى الأم وابنتها. لقد تسنّى لبيتا ووالدتها التعرف إلى بعضهما البعض بطرق لم تعهداها عندما كانت بيتا صغيرة، إذ باتت الآن امرأة راشدة وأماً لاثنتين. كما وقد عانت كل منهما كثيراً، فازدادتا حكمة مع الأيام. حاولت مونيكا في إحدى المرات التقرب من جاكوب لدفعه إلى تغيير موقفه من ابنتهما - ادعت أنها رأتها في الشارع برفقة فتاتين - فتطاير الشرر من عينيه على الفور عندما نظر إليها.

"لستُ أدري عما تتكلمين يا مونيكا. فقد توفيت ابنتنا عام 1916".

وتم إقفال الموضوع. إن هذا الرجل مصنوع من حجر. لم تجرؤ مونيكا بعدها على فتح الموضوع ثانية، ولكنها تمني القلب بزياراتها لها، وكذلك فرحت بيتا بها. لم تعد بيتا تأمل لقاء الآخرين. فعودة والدتها إلى حياتها كانت كافية. لقد كانت ممتنة لعودتها.

جلبت لها والدتها صوراً فوتوغرافية. كانت بريجيت لا تزال جميلة، وقد عادت للسكن في منزل والديها من جديد إلى جانب ولديها. لقد شعرت والدتها بالقلق عليها، حيث قالت إنها تكثر من الذهاب إلى الحفلات، وتمكث في السرير طيلة النهار، وتكثر من الشراب، ولا تبدي عناية كافية بولديها. إن جل ما تريده زوجاً جديداً، ولكن معظم الرجال الذين كانت تخرج معهم متزوجون. أما هورست وألم فإنهما يبليان حسناً، بالرغم من أن واحدة من أولاد ألم تعاني من المرض، وتشعر مونيكا بالقلق عليها. كانت تعاني من مشكلة في قلبها.

يعمل كل من ألم وهورست في المصرف مع والدهما الذي كان يفكر في التقاعد. إذ بلغ السبعين من عمره. وعندما نظرت بيتا إلى صورة والدها وجدته رجلاً مرموقاً وإنما بات طاعناً في السن. وقد خشيت أنها ساهمت في جعله يبدو بهذا القدر من الكبر عبر تخييب ظنه. إنه يبدو أكبر من سنه الحقيقي على عكس والدتها. رفضت أماديا حتى النظر إلى صورته، أما دافني فقالت إنه يبدو مخيفاً على عكس أوما.

لقد تعلقت مونيكا بابنتي بيتا خلال الفترة التي ظلت تتردد فيها عليهن. واعتادت دوماً على جلب هدايا صغيرة لهن فأفرحهن الأمر. ومع الوقت كانت مونيكا قد أعطت بيتا بضع قطع صغيرة من مجوهراتها، لم تقو على إعطائها قطعاً كبيرة خشية أن يلاحظ جاكوب الأمر. لقد أخبرته أنها أضاعت هذه القطع الصغيرة، فأنبها على إهمالها ولكنه بات ينسى كثيراً أيضاً لذا لم يؤنبها كثيراً. كانا يكبران في السن.

لقد وجدت أماديا جدتها ذكية ومثيرة للاهتمام، ولكنها لم تسامحها أبداً على سماحها لجاكوب بنفي والدتها. إذ وجدت في هذا الفعل قسوة شديدة وبالنتيجة أخذت موقفاً من جدتها. أما دافني فهي صغيرة في السن، وفرحت في حسبها دوماً أي تحفظ. أحبت فكرة أن تحظى بجدة إضافة إلى والدة وأخت. لم تكن تتذكر والدها، لذا فعالمها أنثوي بالكامل. تماماً كبيتا التي لم تنظر أبداً إلى أي رجل منذ وفاة أنطوان، بالرغم من أنها لا تزال تتمتع بالجمال. قالت إن ذكريات السنوات التي قضتها معه، تكفيها لتظل معها طيلة حياتها ولم ترد أي رجل آخر. عام 1935، بعد سنتين من بدء زيارات والدتها لها، كانت بيتا في الأربعين من عمرها، ووالدتها في الخامسة والستين. لقد وجدتا السلوى في بعضهما البعض. إذ بات العالم مكاناً مخيفاً بالرغم من أن تأثيره لم يصل إلى عائلتيهما بعد. ليس بعد.

شعرت مونيكا بالقلق الشديد على بيتا جراء نحافتها الشديدة. لطالما اتسمت بيتا بالنحافة ولكن ليس إلى هذه الدرجة الكبيرة. ومن دون مساحيق التبرج بدا وجهها غاية في الشحوب. وقد آثرت ارتداء الملابس السوداء

دون غيرها بعد وفاة أنطوان. وبين ليلة وضحاها، تحولت إلى امرأة أكبر سناً بكثير مما هي عليه. لقد أقفلت أبوابها في وجه العالم وجل ما تبقى لها في حياتها الآن هما ابنتاها، ووالدتها أخيراً.

كانت الأوضاع السياسية والأمنية تتدهور مما أثار خوف بيتا. وقد ازداد خوفها عندما علمت أن أماديا تريد ارتياد الجامعة. لقد شعرت أماديا برغبة شديدة لدراسة الفلسفة وعلم النفس والأدب، تماماً كما كانت والدتها ترغب قبلها بسنوات إلا أنها واجهت معارضة من والدها حينذاك. واليوم بات الوضع الصعب في البلاد هو الذي يمنع أماديا من ارتياد الجامعة. فقد كانت مخاطرة كبيرة. صممت بيتا على رفضها لموضوع ارتياد أماديا للجامعة. وقالت لها إنه في ظل الظروف الأمنية المتوترة، لا تعتبر الجامعة مكاناً مناسباً، خصوصاً بالنسبة إلى النساء. فالجامعة ستكون مليئة بالمتطرفين والمعارضين للحرب والمؤيدين لها. حتى إنه يُحتمل أن يُلقى القبض عليها في مظاهرة شغب، ولم ترد والدتها أن يحدث لها هذا أبداً.

"هذا سخيف يا ماما، لسنا شيوعيات، أنا أرغب بالدراسة فحسب. لن يُلقى أحد القبض عليّ". لم تكن تصدق أن والدتها تتصرف بهذا القدر من الغباء. وقد بدت لها والدتها وكأنها صدى لوالدها جاكوب.

قالت بيتا بحزم: "بالطبع لا، ولكنني لا أود لك الاختلاط بهذه النوعية من الناس. بوسعك الانتظار بضع سنوات إن كانت هذه حقاً رغبتك، إلى أن تستقر الأمور. ففي الوقت الحالي الوضع غير مستقر البتة في ألمانيا. لا أريدك أن تتعرضي للخطر حتى بشكل غير مباشر". ولم يكن ثمة شك أن دخولها الجامعة سيعرضها لخطر كبير، ولكن لم يخطر لها أي سبب. ظلت أماديا تجادل في موضوع الجامعة لأشهر، وبقيت بيتا مصممة على رفضها مما أراح جدتها. فقد كان يكفيها القلق على أولادها الآخرين ولا تود أن تحمل همّ بيتا وابنتيها أيضاً. إذ بدا جلياً أنه من دون أنطوان ليس لدى بيتا والفتاتين من يحميهن ويعتني بهن. كانت بيتا وابنتاها وحيدات في هذا العالم، من جهة بسبب حزن بيتا على خسارتها لزوجها، ومن جهة

أخـرى بـسبب خسارتها هي وأنطوان لعائلتيهما منذ سنوات خلت، الأمر الـذي دفعهـا إلى الانعزال عن الناس في النهاية. لم يكن لديها ما يربطها بأحد، ما عدا الفتاتين وآل دوبيني اللذين لم تكن تراهما إلا نادراً. لذا كانت حـياتها تتسم بالـوحدة. كان الجدال بينها وبين أماديا بشأن دخولها إلى الجامعـة فـي أشده. وقد وضع ذلك أماديا ووالدتها في ما يشبه المعركة الضارية والمعارضة الشرسة ولكن حافظت بيتا على ثبات موقفها. لم يكن ثمـة مجـال أمام أماديا لعصيان والدتها لأنها كانت تمسك بزمام الأمور. اقتـرحت بيـتا أن تدرس أماديا بنفسها إلى أن تهدأ الأمور في الجامعات. ستنهي تعليمها المدرسي في شهر حزيران أي بعد شهرين من بلوغها الثامنة عشرة من عمرها. أما دافني التي لم تبلغ العاشرة من عمرها بعد فمـا يـزال أمامها الكثير من السنوات حتى تصل إلى الجامعة، وكانت لا تزال تبدو لوالدتها ولأماديا طفلة صغيرة. كانت تكره اللحظات التي تدخل فـيها والـدتها وأماديا في جدالات عنيفة، وقد شكت هذا الأمر لأوما التي كانـت تحـبها جداً. كانت دافني تجدها جميلة، وقد أحبت المجوهرات التـي تتـزين بها والملابس الأنيقة التي ترتديها. كانت مونيكا تسمح دوماً لدافنـي بالتفتـيش فـي حقائب يدها واللعب بمحتوياتها مثل أحمر الشفاه والـبودرة. وتسمح لها بالتزين بحليها واعتمار قبعاتها وقت زيارتها لهن. كانـت مونـيكا غايـة في الأناقة كحالها طيلة حياتها. أما بيتا فلم تعد تأبه للتأنق، وقد مقتت دافني الأثواب السوداء، والكئيبة التي واظبت والدتها على ارتدائها، إذ بدت لها حزينة جداً.

كانت أماديا على وشك بلوغ الثامنة عشرة من عمرها، عندما كفت جدتها عن زيارتهن الأسبوعية على مدى أسبوعين متواصلين. أفلحت في الاتـصال في الأسبوع الأول، وأخبرت بيتا أنها تشعر بوعكة صحية. أما في المرة الثانية، فلم تتمكن من الاتصال. فشعرت بيتا بالقلق الشديد عليها، وتجـرأت أخيـراً على الاتصال بها. أجابتها على الهاتف امرأة لم تتعرف إلـى صـوتها. كانـت إحـدى الخادمات وأخبرتها أن السيدة ويتغينشتاين

مريـضة جـداً وليس باستطاعتها المجيء للرد على مكالمتها. أمضت بيتا الأسبوع التالي وهي في أشد القلق على والدتها وارتاحت جداً في الأسبوع المقـبل عـندما أتـت والدتها لزيارتها. ولكنها بدت متعبة جداً حيث كان وجههـا شاحباً جداً، وتجد صعوبة في المشي، وقد بدا نفسها متقطعاً بشكل مخيف. أسندتها بيتا بيدها واصطحبتها إلى غرفة الجلوس ثم ساعدتها على الجلـوس. فـي بـادئ الأمر، بدت مونيكا غير قادرة على التنفس بشكل صحيح، ثم بدت أفضل حالاً بعد أن شربت كوباً من الشاي.

سألتها بيتا والقلق الشديد يتملكها: "ماما، ما الأمر؟ ماذا قال لك الطبيب؟"

ابتـسمت لهـا وقالت: "ليس بالأمر الخطير". ولكنها لم تقنع بيتا في جوابها هذا. "لقد أصابتني هذه الحالة منذ سنوات ثم زالت بعد فترة. قلبي يعاني من أمر ما. إنه كِبَر السن على ما أعتقد. فجسمي بات منهكاً". ولكن لا يُعتبر المرء طاعناً في السن بعمر الخامسة والستين. وقد وجدت بيتا أن حالـتها تبدو مرعبة. لو كانت الأوضاع مختلفة لكانت كلّمت والدها حول حالتها هذه. قالت مونيكا إنه يشعر أيضاً بالقلق على صحتها. كانت ستعاود الذهاب إلى الطبيب في اليوم التالي لإجراء مزيد من التحاليل. ولكنها قالت إنها لا تشعر بأي قلق. بل كان أمراً مزعجاً فحسب. ولكنها بدت في حالة أسـوأ بكثيـر من مجرد الانزعاج. هذه المرة ولدى مغادرتها، رافقتها بيتا إلـى الطـريق وصـولاً إلى الشارع لتحرص على وصولها بالسلامة، ثم أوقفت لها سيارة أجرة. كانت والدتها دوماً تستقل سيارة أجرة عند زيارتها لهـا، حتـى لا يخبـر سائقهم جاكوب أين كانت. لم تكن تثق بأي أحد في سرها هذا، خشية أن يمنعها زوجها من زيارتهن في حال علم بالأمر، كما وكان ليتصرف معها بقسوة شديدة، إذ كان قد منع زوجته وأولاده من رؤية بيتا مدى العمر وقد توقع منهم إطاعته.

قالـت بيـتا مبدية قلقها قبل صعود والدتها في سيارة الأجرة: "ماما عديني أن تذهبي في الغد إلى الطبيب. لا تقدمي على عمل غبي مثل إلغاء موعدك". كانت تعرف والدتها جيداً.

"بالطبع لا". ابتسمت مونيكا في وجه ابنتها، وقد ارتاحت بيتا عندما وجدتها تتنفس بسهولة أكثر مما كانت عليه لدى وصولها. كانت دافني قد قبّلتها بحرارة قبل مغادرتها، قامت أماديا بمعانقتها. رمقت مونيكا ابنتها بنظرة طويلة قبل أن تركب في سيارة الأجرة التي تنتظرها. "أنا أحبك يا بيتا. فلتأخذي الحيطة والحذر، واعتني بنفسك. يلازمني القلق عليك طيلة الوقت". كانت الدموع تملأ عينيها وهي تقول هذا الكلام. إذ مقتت واقع إبعاد ابنتها عنها لمدة 19 سنة وكأنها مجرمة تُعاقب على جريمة لا تُغتفر. فبنظر مونيكا لم تكن بجريمة كبيرة أن يتحابّ الناس. ولطالما بدت بيتا تعيسة جداً بمجرد وفاة أنطوني حضرت الكثير جداً في حياتها. "لا تقلقي عليّ يا ماما، إنا بخير". عانقتها بيتا من جديد وقالت لها: "اعتني بنفسك وتذكري كم أحبك. شكراً لك على مجيئك". لطالما شعرت بالامتنان لزيارتها لهن وخصوصاً في هذه الأونة لدى مرورها بوعكة صحية.

همست لها مونيكا من جديد قائلة: "أحبك". ودست شيئاً في يدها. لم تعرف بيتا ما هو هذا الشيء في الوقت الذي كانت فيه والدتها تجلس على مقعد السيارة. ثم أغلقت بيتا باب السيارة، ولوّحت لها بيدها لدى انطلاق السيارة. وقفت لمدة طويلة تشاهد السيارة تختفي وسط الزحمة. ثم نظرت إلى ما في يدها، إلى الشيء الذي تركته لها والدتها. كان خاتماً صغيراً مرصعاً بالألماس اعتادت وضعه في إصبعها طيلة حياتها. كان هدية لها من والدتها التي تلقته بدورها من والدتها. كان هذا الخاتم يتنقل بين الأجيال، وعندما كانت بيتا تفكر في يد والدتها دوماً يخطر في بالها هذا الخاتم. تأثرت جداً بهذه الهدية ووضعت الخاتم في إصبعها إلى جانب خاتم الزواج، الأمر الذي دفعها إلى الارتجاف لوهلة من الزمن. لمَ عسى والدتها تعطيها هذا الخاتم الآن؟ لعلّ مرضها أخطر مما لاحظته بيتا أو لعل والدتها تشعر بالقلق فحسب. قالت إنها عانت من هذه المشكلة نفسها من قبل ولكنها لاتزال تعاني منها. فلازم بيتا القلق على والدتها طيلة الليل.

عندما استفاقت في اليوم التالي، قررت بشكل غريزي الاتصال بها لتطمئن على حالها، ولتعرف ما إذا كانت لا تزال تنوي الذهاب عند الطبيب. إذ لم تكن واثقة أنها ستحافظ على وعدها. كانت تعرف مدى كره والدتها للأطباء ومدى استقلاليتها. لطالما شعرت بالارتباك لدى الاتصال بها، ولم تقدم بيتا على فعل ذلك سوى بضع مرات في السنتين الأخيرتين، ولكنها أدركت أن والدها سيكون في المكتب في ذلك الوقت. وبعد 19 سنة، لم يعد هناك خدم في المنزل يتعرفون إلى صوتها. طلبت الرقم بتوتر ولاحظت أن يديها ترتجفان. كانت دوماً تشعر بالانزعاج لدى الاتصال بمنزل والديها، وهذه المرة رد عليها صوت رجل. افترضت بيتا أنه كبير الخدم وسألت عن والدتها موضحة أنها تريدها في مسألة عمل. ساد صمت طويل على الطرف الآخر من الخط ثم سألها: "من المتصل؟" أعطته اسم أماديا كما كانت تفعل من قبل من غير مدركة ما عساها تفعل.

"يؤسفني إخبارك يا سيدتي أن السيدة ويتغينشتاين في المستشفى. لقد انهارت ليلة أمس".

"آه يا الله، يا للفظاعة... هل هي بخير؟ أين أخذوها؟" بدت غاية في الانزعاج، ولم تبدُ وكأنها تتوقع منها عملاً على الإطلاق. أعطاها كبير الخدم عنوان المستشفى وافترض أن سبب انزعاجها يعود إلى أنها تريد إرسال باقة ورود إلى سيدته. قال لها ليحرص على ألا تحاول زيارتها: "لا يسعها استقبال زوار إلا من أفراد عائلتها". فهزت بيتا رأسها.

"بالطبع". بعد لحظة أقفلت الخط، وجلست بقرب الهاتف في الممر، وظلت تحدق في العدم. أدركت أن عليها رؤيتها ولكن لم تعرف كيف. ماذا لو ماتت؟ لا يمكن أبداً لوالدها أن يمنعها من رؤية والدتها في ظل هذا الظرف الخطير. لا يسعه ذلك على الإطلاق. لم تتوقف حتى لتلبس بشكل لائق. اكتفت بوضع معطف أسود عليها فوق ثوبها الأسود الذي كانت ترتديه، وحملت حقيبة يدها، وهرعت نحو الباب. وبعد دقائق، كانت في سيارة الأجرة متوجهة إلى المستشفى لترى والدتها. وعندما كانت في

طريقها إلى هناك ودونما أي تفكير منها لبست الخاتم الذي أعطتها إياه والدتها يوم البارحة. حمدت الله بينها وبين نفسها أنها رأتها راجية الله أن يمنّ عليها بالعافية.

وصلت إلى المستشفى، فأرشدتها ممرضة جالسة على مكتب في مدخل المستشفى إلى الطابق والغرفة التي يجدر بها التوجه إليها. كانت والدتها في أفضل مستشفى في كولونيا، حيث ينتشر في كل مكان ممرضات وأطباء وأناس في كامل أناقتهم. أدركت بينا أنها لا تبدو أنيقة في تلك الثياب التي ارتدتها عشوائياً، ولكنها لم تأبه أبداً. جل ما أرادته هو رؤية والدتها والوقوف إلى جانبها. وبمجرد خروجها من المصعد توجهت إلى الرواق الأول ورأتهم. رأت كل من شقيقيها وشقيقتها ووالدها واقفين في الممر. كانت برفقتهم امرأتان لم تعرفهما، فافترضت أنهما زوجتا شقيقيها. شعرت بنبضات قلبها تتسارع وهي تقترب منهم. كانت قد أصبحت على بُعد قدم منهم، عندما استدارت بريجيت ووقع نظرها عليها، فنظرت إليها بعينين واسعتين. لم تتلفظ بكلمة ولكن لاحظ الآخرون تعابير وجهها، فاستدار كل منهم ببطء ورأوا بينا ومن ضمنهم والدها الذي كان آخر من رآها. نظر إلى بينا مباشرة ولم ينطق بكلمة، ولا أي كلمة على الإطلاق، ولم تحرك شعوره قيد أنملة لرؤيتها.

قالت بصوت أشبه بصوت طفل مرتعب: "أتيت لرؤية ماما". وودّت لو أمكنها التقدم منه ومعانقته وحتى التوسل إليه ليسامحها إن اضطرت إلى ذلك. ولكن بدا جلياً أنه مصنوع من حجر. وقف باقي أفراد عائلتها صامتين ينظرون إليها في حالة صدمة.

"لقد متِّ يا بينا ووالدتك تحتضر". عند تلفظه بهذا الكلام امتلأت عيناه بالدموع لأجل زوجته وليس ابنته. لقد تصرف مع بينا ببرودة تامة.

"أود رؤيتها".

"الأموات لا يزورون المحتضرين. لقد أعلنا وفاتك منذ أمد بعيد".

قالت بصوت مختنق: "أنا آسفة. أنا حقاً آسفة. لا يسعك منعي من رؤيتها".

"يسعني ذلك وسأفعل. فقد تموت جراء الصدمة حينما تراك". لقد أدركت بينا كم تبدو مثيرة للشفقة في ثوبها ومعطفها القديمين وقبعتها غير المرتبة. جل ما فكّرت فيه هو الوصول إلى المستشفى بسرعة ولم تفكّر في شكلها. استطاعت أن ترى في عيون شقيقيها وشقيقتها وحتى المرأتين اللتين كانتا برفقتهم الأسف لحالها. لقد بدت تماماً كما كانت وأصبحت عليه امرأة منبوذة ولا تنتمي إلى ذلك المكان. لم يسألها والدها أنّى لها معرفة أن والدتها أُدخلت المستشفى، لم يشأ أن يعلم. جل ما كان يعرفه أن المرأة التي كانت يوماً ابنته باتت ميتة بنظره، وهذه المرأة الواقفة أمامه غريبة ولم يرد معرفتها.

"لا يسعك فعل ذلك يا بابا، عليّ أن أراها". كانت بينا تبكي ولم يتحرك له ساكن، تماماً كما كان لحظة مغادرتها لهم. لعله بدا أكثر قساوة مما كان عليه حتى.

"وجب عليك التفكير في هذا الوضع من 19 سنة. إن لم تغادري سأطلب من أمن المستشفى إخراجك بالقوة". بدت أشبه بامرأة مجنونة، وشعرت أنها كذلك في الوقت الذي كانت تقف فيه هناك، وأمكنها بكل سهولة تخيل والدها يقوم بطردها مثلما قال. "نحن لا نريدك ولا والدتك تريدك. أنت لا تنتمين إلى هذا المكان".

قالت بينا والدموع على وجنتيها: "إنها والدتي".

"بل كانت والدتك. أنت لا تمثلين لها شيئاً الآن". على الأقل كانت بينا تدرك أن هذا ليس صحيحاً، وعرفت ذلك من خلال الزيارات التي امتدت على مدى السنتين الأخيرتين. كانت غاية في الامتنان لزيارة والدتها لها وتعرفها إلى ابنتيها وتقربها منهما، وقد أحبتاها بدورهما.

"هذا خطأ جسيم منك يا بابا، لن تسامحك ماما أبداً على فعل ذلك". هذه المرة أدركت جيداً أنها لن تسامحه. لقد كان يتصرف بقسوة شديدة.

قال دونما أي شعور بالندم: "كان خطأً منك أن تفعلي ما فعلته. أنا لن أسامحك أبداً".

قالت بلطف: "أنا أحبك". ثم نظرت إلى الآخرين الذين لم يحركوا ساكناً ولم ينطقوا بكلمة. وجدت أن آلم استدار إلى الناحية الأخرى، وبريجيت تبكي بصمت ولكن لم تمد لها أبداً يد المساعدة. ولم يحاول أي منهم إقناع والدهم بالسماح لبيتا برؤية والدتها. فقد كانوا خائفين جداً. قالت بيتا بشراسة: "أنا أحب ماما ولطالما أحببتك وأحببتكم جميعاً، ولم أكف أبداً عن حبكم، وماما تحبني تماماً كما أحبها".

"غادري فوراً". صرخ والدها في وجهها بنفور تام، وقد بدا وكأنه كرهها لقيامها بالدق على أوتار قلبه. كان يستحيل فهم ماهية شعوره. صرخ في وجهها وقال: "اذهبي!" مشيراً بيده إلى الرواق حيث أتت. "أنتِ ميتة في نظرنا، وستظلين على هذه الحال". وقفت تنظر إليه لوهلة طويلة وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها متحدية إياه كما فعلت من قبل. كانت الوحيدة التي بمقدورها فعل ذلك. كانت قد فعلت ذلك في المرة الأولى من أجل أنطوان والآن من أجل والدتها. ولكنها أدركت أنه لن يسمح لهما بالدخول إلى غرفة والدتها. لذا لم يكن أمامها أي خيار سوى المغادرة قبل أن يرموا بها خارجاً. نظرت إليه لمرة أخيرة، ثم استدارت ومشت في الرواق ببطء مطرقة برأسها. التفت لتنظر إليهم مرة أخيرة قبل أن تنعطف، فوجدت أنهم قد غادروا. كانوا قد دخلوا إلى غرفة والدتهم من دونها.

كانت تبكي وهي تدخل في المصعد، وظلت تبكي طيلة طريق عودتها إلى المنزل. ظلت تتصل بالمستشفى كل ساعة حتى فترة العصر لتطمئن على حالة والدتها. وفي الساعة الرابعة، نقلوا إليها الخبر. لقد توفيت والدتها. جلست بيتا تحدق في العدم وهي تضع سماعة الهاتف من يدها. لقد انتهى الأمر. لقد قُطعت آخر رابطة تربطها بعائلتها، والوالدة التي أحبتها قد رحلت. كانت لا تزال تسمع صدى صوت والدتها في اليوم السابق. "أنا أحبك يا بيتا". ثم عانقتها بحرارة. همست بيتا: "أنا أيضاً أحبك يا ماما". وأدركت أنها ستحبها دوماً.

الفصل العاشر

في اليوم التالي، حضرت بيتا جنازة والدتها وراقبت مجرياتها عن بُعد. ارتدت معطفاً من الفرو، وثوباً أسود أنيقاً، واعتمرت قبعة سوداء جميلة كان أنطوان قد أهداها إياها قبل وفاته. فأدركت أن والدتها كانت لتفخر بها للأناقة التي كانت عليها. وقد وضعت في إصبعها الخاتم الذي أعطتها إياه والدتها. ما كانت لتخلعه من إصبعها على الإطلاق.

جلست بيتا بعيدة وهي تستمع إلى الصلوات وتصلي معهم. ثم تبعتهم إلى المقبرة ووقفت بعيداً عنهم. فلم يشعروا حتى بوجودها هناك. كانت أشبه بالشبح وهي تراقبهم، وقد أقدم كل واحد منهم على إهالة التراب على التابوت بعد أن تم إنزاله في القبر. بعد مغادرتهم توجهت ناحية القبر، وجثت على ركبتيها بقربه، ووضعت حجراً صغيراً بقربه كبادرة احترام وفقاً للتقاليد. وتلت صلاة على روحها، ثم مكثت لفترة طويلة، وبعدها عادت إلى منزلها وهي تشعر وكأنها ميتة من الداخل، ميتة بقدر ما قال والدها.

نظرت إليها أماديا نظرة حزن عندما وصلت إلى المنزل، وألقت بذراعيها حولها. "أنا آسفة يا ماما". كانت قد نقلت للفتاتين خبر وفاة جدتهما في الليلة السابقة، فغرقن جميعاً في البكاء. إذ أحبت الفتاتان جدتهما بطريقتهما الخاصة، بالرغم من أنه لطالما خالجتهما مشاعر متناقضة خصوصاً أماديا حول الطريقة التي عامل فيها جدهما والدتهما بعد أن تزوجت بوالدهما. بدا هذا التصرف لهما خاطئاً، وأجمعت معهما بيتا على رأيهما هذا. ولكنها بالرغم من ذلك كانت تحب والدتها، ووالدها حتى، إذ كانا والديها في النهاية.

دخلت بيتا إلى غرفتها باكراً تلك الليلة، واستلقت على سريرها وهي تفكر في كل ما حدث، وفي أيامها الأولى مع أنطوان. صعب عليها التفكير بكل هذه الأحداث واستيعابها إلا حصل الكثير الكثير. كانت حياة على قدر من الأهمية بالرغم من أنها اتسمت بالصعوبة. لقد دفعت ثمناً غالياً من أجل حبها. وقد ذكرتها خسارة والدتها أنها لا تملك أحداً في هذا العالم سوى ابنتيها. لقد أوضح والدها هذا الأمر بشكل جلي. كانتا حياتها كلها. إذ لم يكن لديها حياة خاصة.

بعد شهور، أي عند حلول شهر حزيران مُنيت بيتا بصدمة أخرى وهذه المرة من أماديا. إذ سمعت منها أخباراً صعقتها بقدر ما صعقتها وفاة والدتها. كان الأمر بطريقة معينة يقارب خسارتها لوالدتها ما عدا أن أماديا ستبقى حية على الأقل.

قالت أماديا بهدوء في يومها الأخير من المدرسة: "سأدخل مقر نادرات العفة يا ماما". لم تكن بيتا محضّرة لكلام ابنتها الكبرى على الإطلاق. فنظرت إليها وكأنها تعرضت لطلقة رصاص، في حين كانت عينا أماديا هادئتين وثابتتين. كانت قد انتظرت أشهراً لتعلن عن قرارها هذا، ومع كل يوم تزداد ثقة من الأمر. لم تتسرع باتخاذها هذا القرار.

قالت بيتا وكأنه ليس هناك أي مجال للنقاش: "لن تفعلي". بدت لنفسها وكأنها تشبه والدها ولكنها لن تسمح بحدوث ذلك. حتى أنطوان ما كان ليريد لها هذه الحياة، وقد كان مؤمناً مخلصاً. "لن أسمح لك بفعل ذلك".

"لا يسعك منعي". بدت أماديا راشدة للمرة الأولى. حيث كان صوتها جامداً كالصخر. كانت قد تعذبت كثيراً إلى أن توصلت لاتخاذ هذا القرار فما عاد يساورها أي شك الآن. باتت واثقة تماماً أنها تتمتع بنداء باطني قوي، ولا يمكن لأحد زعزعة إيمانها، ليس حتى والدتها التي تحبها. لم تكن هذه معركة ضارية للذهاب إلى الجامعة. فقد بدت امرأة راشدة تدرك ما تريد فعله، وستفعل ما تريده. خافت بيتا من نبرة أماديا ونظرة عينيها.

قالت لها محاولة تعقيلها وإبعاد هذه الفكرة عن رأسها عبر ذكر اسم والدها: "ما كان والدك ليريد هذه الحياة لك".

"ما أدراك؟! أنت تخليت عن كل شيء من أجل الزواج به لأنك كنت تؤمنين بما تفعلينه. وأنا أؤمن بما أفعله. أنا أمتلك نداءً باطنياً قوياً". في الحقيقة، كانت قد وجدت حل ما تريده وتحتاج إليه. وبعد التكلم مع رجل الدين لأشهر باتت واثقة جداً من هذا الأمر وشعرت أن هذا هو قدرها الذي يناديها.

"أه يا الله". جلست بيتا بتثاقل وحدقت بابنتها. "أنت أصغر من أن تعرفي ذلك. أنت تشعرين بالضجر وتحسبينه أمراً رومانسياً".

قالت أماديا بهدوء: "أنت لا تعرفين شيئاً عني. لا يسعك منعي يا ماما". وكررت ما قالته في البداية. لم تبدُ كطفلة مدللة وإنما كامرأة تتخذ هدفاً مقدساً. "إنه مكان معزول. ستعيشين كسجينة لبقية حياتك، منفية عن الآخرين. أنت شابة جميلة، حري بك أن تحظي بزوج وأطفال".

قالت بوضوح: "أريد أن أصبح نادرة عفة". فهزت أركان بيتا. لحسن الحظ كانت [illegible] لدى صديقتها لذا لم يتسن لها سماعهما.

"أنت تفعلين ذلك تماماً [illegible]. لقد كانت امرأة في الثانية والأربعين من عمرها عندما دخلت مقر نادرات العفة. لقد عاشت حياتها. كانت تدرك جيداً ما تقوم به. أما أنت فلا. أنت أصغر من أن تأخذي مثل هذا القرار".

قالت أماديا بتعقل: "سيكون أمامي الكثير من الوقت لأكتشف الأمر. سيستغرق الأمر ثماني سنوات حتى آخذ على نفسي العهود الأخيرة". كانت تعرف كل تفاصيل هذا الأمر. "ماما إنها الحياة التي أريدها". لم تفارق عيناها عيني والدتها، وكانت تضج بإصرار قوي، مما أثار ذعر بيتا.

نحبت بيتا وصرخت قائلة: "لماذا؟ لماذا؟" والدموع تتدحرج من عينيها. "أنت شابة وجميلة، وأمامك حياة بأكملها، لم عساك تقدمين على ذلك؟"

"أريد أن أخدم الله، وهذه أفضل طريقة أعرفها لخدمته. أعتقد أن هذا ما يجدر بي القيام به. هذا ما أريده. أنت متدينة يا ماما. فأنت تذهبين إلى

دار العبادة. كيف عساك لا تفهمينني؟" بدت أماديا مجروحة لكون والدتها لا تبدو سعيدة حيال هذا الأمر. وقد رأت بيتا في عيني ابنتها شيئاً تذكّرها بوالدتها عندما أخبرتها عن أنطوان. كانت والدتها قد شعرت وكأنها قد تعرضت للخيانة. والآن خالج بيتا هذا الشعور نفسه. دفعها ذلك إلى الشعور وكأنها مثل والدها قاسية وغير مستسلمة، ولم ترغب أن تكون بهذه الصفات. ولكنها لم ترغب أيضاً أن تدخل ابنتها المقر. فبالنسبة إلى بيتا، بدا هذا الأمر غير طبيعي.

قالت بيتا بهدوء: "أنا معجبة بك لإخلاصك هذا ولكنها حياة صعبة. أنا أريد لك حياة أفضل من هذه. أريد لك رجلاً يعتني بك وأطفالاً يحيطون بك". ثم فكّرت في داخلي: "ماذا عساي أنا وأبيك نفعل من دونك؟" شعرت أنها محطمة، عندما فكّرت في هذا الأمر.

"سأصلي لكما. وهذا أفضل بكثير من أي شيء أفعله لكما هنا. سيكون لي نفعٌ أكبر بكثير وأنا أصلي من أجل العالم بدل مجرد مشاهدة الأشياء الفظيعة التي يقدم عليها الناس من أجل تدمير بعضهم البعض، وهذا العنف الشديد الذي يمارسه الناس بحق بعضهم البعض". كانت أماديا تشعر بانزعاج شديد مما يجري في العالم من حولها، وقد كان ما يحدث ضد مبادئها تماماً، إذ كانت تتمتع بإيمان قوي. أحبت بيتا ذلك فيها، ولكنها لم تتقبل منها أبداً هذا الطلب. لم تتقبل خسارة ابنتها لتصبح داثرة عفة محتجزة في المقر كسجينة.

"هلا فكّرت في الأمر يا ماما؟ أرجوك؟ هذا جل ما أريده... لا يسعك منعي، ولكنني أريد الحصول على مباركتك". كان هذا بالضبط ما طلبته من والديها عندما تزوجت بأنطوان. واليوم تطلب منها أماديا مباركتها على السير في طريقها هذه. كان قراراً صعباً جداً ينبغي على بيتا اتخاذه. قالت أماديا بنعومة: "أنا أحبك". ثم ألقت بذراعيها حول والدتها فتنهدت بيتا والدموع تتدفق من عينيها.

"كيف حصل ذلك؟ متى اتخذت هذا القرار؟

"لقد تحدثتُ مع أخت إيلا قبل أن تقدم على هذا الأمر. لطالما ظننت أنني أملك نداء باطنياً، ولكنني لم أكن واثقة. لقد تكلمت مع رجل الدين عن هذا الأمر لأشهر. واليوم بت أدرك أن هذا ما يناسبني يا ماما. لقد بت واثقة". بدت جميلة وهي تقول هذا الكلام، وقد آلم ذلك قلب بيتا أكثر من أي وقت مضى.

"لماذا؟ كيف عساك تكونين واثقة إلى هذه الدرجة؟"

"أنا واثقة صدقيني". نظرت إليها والدتها، ورأت عينين مليئتين بالسلام. ولكن بيتا لم تقوَ على أن تتغلب على نفسها وتبدي سعادة تجاه هذا الأمر، إذ بدا لها مصيبة كبيرة ومأساة لا توصف. أما بالنسبة إلى أماديا فكان نعمة، وجل ما تريده في هذه الحياة إضافة إلى مباركة والدتها.

"متى تودين دخول المقر؟" أملت بيتا أن يتسنى لها المزيد من الوقت، كسنة مثلاً، لتقنعها بالعدول عن ذلك.

"سأدخل إلى المقر في الأسبوع المقبل، إذ ليس هناك من سبب يدعوني للانتظار أكثر. لقد أنهيت تعليمي المدرسي". لقد كانت تنتظر لتنهي تعليمها المدرسي حتى تخبر والدتها، ولكن الأحداث تسارعت بشكل كبير جداً.

سألتها بيتا: "هل تعرف دافني أي شيء عن هذا الأمر؟" فنفت أماديا الأمر بهز رأسها. كانت دافني في العاشرة من عمرها فحسب ولكن كانت الفتاتان مقرّبتين جداً من بعضهما البعض.

"أردت إخبارك أولاً. أملت أن تسعدي من أجلي بعد أن تعتادي على الفكرة". كان الوضع مماثلاً تماماً لما مرت به مع والديها من أجل أنطوان. حتى الكلمات التي كانتا تتبادلانها، كانت هي نفسها ما عدا أنها لم تكن تهدد ابنتها. ظلت تتوسل إليها أن تعيد التفكير بالأمر، وكان هذا ما فعلته والدتها أيضاً. فقد ظن والدا بيتا أن الطريق التي اختارتها شاقة، وهذا بالضبط ما ظنته أن ابنتها تفعله. كان صدى ماضيها يتكرر رجعه من جديد. التاريخ يعيد نفسه. سلسلة التكرار التي لا تنكسر.

استلقت بيتا على سريرها، وظلت صاحية طيلة الليل وهي تستمع إلى أصداء ماضيها وتعيش من جديد أجواء الجدالات القطيعة التي كانت تدور بينها وبين والديها مدركة أنها كانت على حق، وتتذكر اليوم المؤلم، يوم مغادرتها منزل والديها وتوجهها إليه أخيراً في سويسرا ومدى روعة ما أقدمت عليه. كانت هذه النقطة الأساسية. الجدال الصحيح الوحيد. إن على كل إنسان اتباع قدره الخاص مهما كان هذا القدر. بالنسبة إليها كان أنطوان قدرها. وربما بالنسبة إلى أماديا قدرها هو المقر. لم عساهما أطلقا عليها هذا الاسم، وكأنه انتابهما حدس ما؟ وعند الصباح، أدركت بيتا أنها لا تملك الحق لمنع أماديا طالما أن هذا ما تريده لنفسها. إن لم يكن بالقرار الصائب فسيتوجب عليها أن تكتشف هذا الأمر بنفسها. على الأقل أمامها ثماني سنوات لتغيير رأيها. بوسعها أن تغير رأيها بالرغم من أن بيتا أدركت أنها لن تفعل على الأرجح، أما والداها أيضاً لن تترك أنطوان يوماً ما. ولكن بيتا كانت سعيدة جداً معه. كان قدرها. تماماً كما أن هذه الطريق هي قدر أماديا. لم تتوقع بيتا أبداً أن تُرزق بابنة وتصبح نادرة عفة، ولا أنطوان حتى، ولكن انتابها شعور أنه كان سيسمح لها بفعل ذلك أيضاً. بأي حق عساهما يمنعانها؟

بدت حزينة عندما توجهت إلى غرفة أماديا قبل وقت الفطور. استطاعت أماديا أن ترى في وجه والدتها حتى قبل أن تتفوه بكلمة أنها كسبت المعركة وحبست أنفاسها وهي تنتظرها للتكلم.

قالت بيتا وهي تبدو مفطورة القلب ولكن بعينين مليئتين بالحب: "لن أمنعك. أريدك أن تكوني سعيدة. لن أفعل بك ما فعله والديّ بي. إليك مباركتي على ما ستفعلينه لأنني أحبك وأتمنى لك السعادة مهما كان هذا الأمر بالنسبة إليك". كانت أروع هدية تقدمها لابنتها وأكبر تضحية تقدم عليها، وهذا تماماً ما ظنت أن على الأهل تقديمه لأولادهم. كان هذا الجزء الأصعب. لم تكن الأشياء المهمة سهلة أبداً. هذا ما كان يجعل منها مهمة.

"شكراً لك يا ماما... شكراً... شكراً...". شعت عينا أماديا بالنور وهي تحضن والدتها. بدت غاية في السعادة ولم يسبق لهما أن تقاربتا إلى هذا الحدّ من قبل.

ليس هناك مجال للشك بشأن مدى حبهما لبعضهما البعض.

وجدت أماديا صعوبة أكثر في إخبار دافني التي بكت بشكل فظيع. لم تشأ أن تغادرها أماديا، ولا بيتا شاءت. فنحبت دافني بتعاسة وقالت: "لن نراك من جديد. إيللا لا ترى أختها أبداً، إنهم لا يسمحون لها بذلك، ولا تستطيع لمسها أو معانقتها". انفطر قلب بيتا لدى التفكير في هذا الأمر.

"بلى ستفعلين. بوسعك زيارتي مرتين في السنة وأستطيع أن ألمسك عبر نافذة صغيرة. كما أنه بوسعنا أن نعانق بعضنا بقدر ما نشاء الآن وسيكفينا ذلك مدة طويلة". بدت أماديا أشبه بطفلة ولكنها ظلت مقتنعة بما تنوي فعله. أما دافني فلم يكن ثمة مجال لمواساتها خلال الأسبوع التالي.

شعرت أماديا بالحزن لمفارقتهما ولكنها بدت وكأنها تزداد سعادة مع اقتراب موعد دخولها إلى المقر.

طلبت بيتا من أماديا الانتظار بضعة أسابيع أخرى أملاً بتسهيل الأمر على دافني، ولكنها هزت رأسها رافضة. "لن يزيد ذلك من الأمر إلا سوءاً يا ماما. سنعتاد على الأمر". ولكن كان الأمر سيان. كانت أماديا تمثل النور والبهجة في حياة دافني كما كانت تماماً في حياة بيتا التي كانت تمضي معظم الوقت وحيدة ومكتئبة ومنسحبة منذ وفاة زوجها. "سينفعك الأمر أنت أيضاً، إذ بوسعك القيام ببعض النشاطات معها مثل الذهاب إلى السينما أو الحديقة العامة أو المتاحف. فأنت تحتاجين إلى الخروج أكثر". كانت أماديا تقوم بكل هذه النشاطات مع أختها لسنوات. أما بيتا فلم تكن تقوم سوى بالقليل. إذ كانت تشعر باكتئاب شديد وبالتالي ظلت تمضي معظم وقتها حبيسة غرفتها. لم تكن واثقة أنها قادرة على فعل ما يتوجب عليها فعله الآن. ولكن وجب على أحد ما القيام به. فأنطوان رحل، ووالدتها رحلت. والآن سترحل أماديا أيضاً. شعرت بيتا وكأن أماديا

ستصبح ميتة بالنسبة إليهما إن لم تتمكنا من رؤيتها كل يوم أو احتضانها من جديد. كان أمراً محزناً.

سألت بيتا وهي تشعر بالذعر: "هل بوسعك مراسلتنا؟"

"بالطبع. بالرغم من أنني سأكون مشغولة. سأراسلكما بقدر ما يتسنى لي". بدا الأمر وكأنها على وشك المغادرة في رحلة ترفيهية لبقية حياتها، أو إلى المحطة الأولى التي ستوصلها إلى هناك. لم تقدر بيتا على تصور الأمر أو مدى رغبة ابنتها بالقيام به. كانت قد أصبحت متدينة ولكنها مع ذلك لم تتصور ماهية الرغبة بدخول معتزل. بدت لها حياة محدودة جداً في حين بالكاد أمكن لأماديا الانتظار.

يوم مغادرة أماديا المنزل رافقتها بيتا ودافني في السيارة إلى المقر. ارتدت فستاناً أزرق داكناً وبسيطاً واعتمرت قبعة. كان يوماً مشمساً وجميلاً وقد شعرت بيتا بكآبة لا توصف. أما دافني فواصلت البكاء طيلة الطريق إلى المقر وأماديا ممسكة بيدها. عندما خرجن من السيارة، وقفت بيتا تنظر إليها لوقت طويل وكأنها تحاول أن تشبع منها للمرة الأخيرة وأن تنحت ذكراها في قلبها. ففي المرة المقبلة التي ستراها فيها ستبدو مختلفة، وستكون شخصاً آخراً.

"اعلمي دوماً أنني أحبك كثيراً، وأنك تعنين لي كثيراً، وأنني فخورة جداً بك. أنت نعمة من الله عليّ يا أماديا. أتمنى لك السعادة والأمان. وإن وجدت أن هذه الحياة لا تناسبك فلا ضير في أن تغيري رأيك. لن ينظر إليك أحد نظرة دونية لإقدامك على ذلك". وقد أملت بيتا كثيراً لو تغير رأيها.

قالت أماديا بهدوء: "شكراً لك يا ماما". ولكنها أدركت أنها لن تغير رأيها. أدركت من صميم قلبها أن هذا ما تريده ولم يساورها أدنى شك. ثم ضمت والدتها بين ذراعيها واحتضنتها. احتضنتها وكأنها امرأة راشدة تدرك ماذا تفعل ولا ينتابها أي ندم. تماماً كما فعلت بيتا يوم مفارقتها لوالدتها للانضمام إلى أنطوان. همست أماديا لوالدتها وهي تحتضنها:

"اذهبي بأمان الله". فانهمرت الدموع على وجنتي بيتا وهي تهز رأسها. كانت أماديا تبدو راشدة الآن ولم تعد طفلة.

ثم همست بيتا قائلة: "وأنت أيضاً". وقبلت أماديا أختها الصغرى وابتسمت لها. بدا على أماديا الحزن لمفارقتهما ولكن خلف هذا الشعور بالحزن كانت تشعر بالسعادة والسلام.

لم تجلب معها أي حقائب. لم تجلب معها سوى الملابس التي كانت ترتديها والتي سيتم التخلص منها لحظة تخلعها عن جسمها. سيهبونها للفقراء. لا يفترض جلب أي أغراض معها، وستأخذ على نفسها عهد الفقر والعفة والطاعة وقد ناسبها ذلك كله. لم تكن تخشى ما تقدم عليه. لم تشعر في حياتها بهذا القدر من السعادة التي كانت تشعر بها وقد ارتسم الفرح على وجهها. كانت النظرة نفسها التي ارتسمت على وجه بيتا عندما التقت بأنطوان في محطة القطار في لوزان، في بداية حياتهما سوياً. والنظرة نفسها التي ارتسمت على وجهها ليلة ولادة أماديا. كانت هذه البداية بالنسبة إلى أماديا، وليست النهاية كما كانت تخشى والدتها.

احتضنت والدتها وأختها مرة أخيرة، ثم استدارت لتقرع الجرس. كانت قد أصبحت جاهزة. وعلى الفور نظرت شابة من ثقب الباب، ثم فتحت الباب دون إظهار نفسها. وفي غضون لحظة كانت أماديا قد اختفت بعد أن دخلت عبر الباب دون أن تلتفت إلى الوراء. عندما أقفل الباب ظلت بيتا ودافني واقفتين في الشارع وحدهما تنظران إلى بعضهما البعض، ثم تمسكتا ببعضهما البعض. كان هذا كل ما تبقى الآن وكل ما تملكان: بعضهما البعض. أرملة وفتاة صغيرة. كان أمام أماديا حياة بأكملها، وستكون هذه الحياة غاية في البعد عنهما.

الفصل الحادي عشر

عندما دخلت أماديا المقر أخذتها الشابة مباشرة إلى غرفة الملابس، لم تتلفظ بكلمة واحدة مع أماديا، ولكنها رحبت بها بعينيها الدافئتين وابتساماتها المسالمة. فهمت أماديا التي شعرت ببعض الراحة لعدم اضطرارها إلى قول أي شيء لها. شعرت على الفور وكأنها دخلت إلى مكان آمن، وأدركت أنه المكان الأمثل بالنسبة إليها.

نظرت إليها الشابة لتميّز مقاسها حيث إن جسمها نحيفٌ وطويلٌ، وهزت رأسها ثم أعطتها رداء أسود طويلاً يصل إلى حدود كاحليها، ووشاحاً قطنياً أبيض قصيراً يغطي شعرها. لم تعطها ثوب المقر الرسمي، ولكن أدركت أماديا أنه لن يسمح لها بارتدائه إلا بعد مرور ستة أشهر، وذلك في حال شعروا أنها باتت تستحق ارتداءه. قد يأخذ الأمر وقتاً أطول بكثير، مثلما أخبرتها المسؤولة قبل دخولها إلى المقر، كما ويجدر بنذيرات العفة الأكبر سناً أن يصوتوا لها على ذلك. في غضون ذلك سترتدي ثياباً تشير إلى كونها مرشحة للدخول. لن تستلم الثوب الأسود إلى أن تأخذ على نفسها العهود الأخيرة بعد ثماني سنوات.

تركتها الشابة وحدها لدقيقة من الوقت لتغير ملابسها. وقد تركت لها صندلاً متيناً، وهو الحذاء الوحيد الذي ستنتعله منذ تلك اللحظة برجلين حافيتين. كن جميعاً ينتعلن الصنادل، كجزء من المعاناة التي آلينها على أنفسهن.

ارتدت أماديا الملابس التي تُركت لها بكل حماسة. كانت سعادتها تفوق السعادة التي قد تشعر بها في حال كانت ترتدي فستان زفافها. وقد

انتابها الشعور نفسه الذي شعرت به والدتها يوم ارتدت ثوب زفافها الأبيض المصنوع من غطاء الطاولة المخرّم. كانت هذه بداية لحياة جديدة بالنسبة إلى أماديا.

رجعت الشابة بعد دقائق معدودة، ووضعت جميع ملابس أماديا التي جاءت بها في سلة مخصصة للفقراء إضافة إلى حذائها المتين. وقد قالت والدتها إنها ستحتفظ لها بكل مقتنياتها الأخرى في حال غيرت رأيها، وأكثر من ذلك كانت تحتفظ بهذه الأغراض مثلما تحتفظ بها الأم لدى وفاة ولدها تأسياً منها لفقده وعدم قدرة منها على مفارقة هذه المقتنيات. لم تعد هذه الأغراض تعني أي شيء بالنسبة إلى أماديا. فحياتها تكمن هنا.

بمجرد أن أنهت ارتداء الملابس قادتها الشابة إلى مكان إقامة الراهبات مع الأخريات، وبعدئذ بدأ صمت طويل تفحصت خلاله نذيرات العفة ضمائرهن كما اعتدن أن يفعلن كل يوم حيث يتذكرن السيئات التي اقترفنها، والأمور غير اللطيفة التي طرأت على ذهنهن، أو مشاعر الغيرة التي انتابتهن، والتعلق إلـى الملابس أو الناس أو المباهج التي ظنن يوماً أنها ذات أهمية واستمررن إلـى تعلم انتزاعها من حياتهن. كان مكاناً مثالياً لأماديا لتبدأ فيه حياتها، وقد ألبث نفسها لتعلقها بوالدتها وأختها. لم يفسر لها أحد سبب الصمت، ولكنها كانت قد سمعت عنه قبلاً فاستغلت الوقت بشكل مثمر.

في الوقت الذي كانت فيه نذيرات العفة الأخريات يتناولن الغداء، تم اصطحابها إلـى مكتب المسؤولة. لم يفترض بها تناول الطعام ذلك اليوم حتى موعد العشاء، إذ كانت التضحية الأولى التي ستقوم بها. وكذلك فعلت المسؤولة حتى تتمكن من التكلم معها.

سألتها بلطف بعد أن ألقت عليها تحية فردت أماديا عليها التحية بمثلها: "هل كل شيء على ما يرام يا ابنتي؟"

"نعم شكراً لك".

"يسعدنا وجودك هنا بيننا". كان عدد أفراد المقر كبيراً في تلك الأيام، حيث لبت الكثيرات نداءهن الباطني.

"سوف تتشاطرين غرفة مع ثلاث أخوات أخريات. إننا نلتزم الصمت إلا وقت تناول الوجبات والاستراحة، عندها تتمكنين من التكلم حول شؤون الرعية فحسب. لن يكون لديك صديقات شخصيات هنا". فهزت أماديا رأسها موافقة على الكلام.

كانت الأم المسؤولة تتسم بطول القامة، وبعينين قويتين، ووجه لطيف. كان يستحيل التوقع بسنها، ولم يكن من اللائق فعل ذلك. إذ ستكون بمثابة المرشدة والحارسة لهن والتي يتوجب عليهن إطاعتها تماماً مثلما يتوجب عليهن إطاعة الأب الذي أرشدهن إلى هنا. إن دخول المقر أتى بها إلى عائلة جديدة، لم يكن ثمة عائلة أخرى لها الآن. كانت بمثابة ضيفة لدى بيتا ووالدها ودافني لمدة 18 سنة، ولقد وصلت مدة مكوثها معهم إلى نهايتها، وانشقت روابطها معهم، إلا لدى مراسلة بيتا ودافني والصلاة لأجلهما كمبادرة لطف تجاههما. قيل لها إن بوسعها مراسلة عائلتها مرة في الأسبوع وقد وعدت والدتها بفعل ذلك. ولكن يجب أن تأتي الأعمال والمهام المتوجبة عليها في المقام الأول.

تم تكليفها بالقيام بالغسيل، وفي وقت فراغها يتوجب عليها تنظيف المطبخ. ولن تبقى لها أي وقت عليها أن تعمل في الحقيقة الأمر الذي اعتبر فخراً وشرفاً لها. وجب عليها العمل وحدها أكبر قدر ممكن والصلاة باستمرار. لم يكن يفترض بها التكلم إلا خلال الوجبات. كان يومها بل وحياتها مرتكزين على التضحية التي تقوم بها الرعية. كانت مسؤولية كبيرة تقع على عاتقها وشرفاً يتخطى أي شرف حلمت به أماديا في حياتها. لهذا السبب هي موجودة هنا. قيل لها إنها سترى غرفتها في تلك الليلة بعد موعد العشاء. كانت تدرك سابقاً أن من أحد قوانين الرعية الابتعاد عن تناول اللحم، إلا في حال كانت مريضة وأمر الطبيب بأن تتناول اللحم من أجل سلامة صحتها. ولكن حتى في تلك الحالة بوسعها تقديم التضحية كحال أغلبهن.

تزامن انتهاء تناول الغداء والاستراحة مع انتهاء المسؤولة ماتر دوميني من التكلم مع أماديا التي انضمت إلى الأخوات الأخريات في

الصلاة، وحاولت التركيز على الصلاة وليس على كل الكلام الذي قالته لها المسؤولة. كان يحصل الكثير من الأمور حيث صعب عليها استيعابها دفعة واحدة. وجب على الجميع بمن فيهن أماديا القيام بالقراءة بعد الغداء، ثم تم اصطحابها لتنظيف المطبخ قبل موعد تناول العشاء. ظلت راكعة على ركبتيها ويديها معظم فترة العصر وهي تقوم بالصلاة. من ثم ساعدت في التحضيرات من أجل العشاء. كان كل من في المقر منشغلاً على الدوام حيث كن يعملن ويقمن بالصلاة في الوقت نفسه، ولهذا السبب كان التزام الصمت أمراً مهماً جداً. عند حلول المساء، كان التعب قد نال منها كل منال ولكنها شعرت بالسعادة عندما صلين جميعاً بصمت. أخيراً تم إعلان موعد تناول العشاء، كان قد مضى النهار عليها دون تناول الطعام، ولكن حماستها البالغة تلك الليلة منعتها من تناول الكثير من الطعام. تناول الجميع عشاءها الفاصولياء والخضار والبطاطا، ثم تناولن الفاكهة المقطوفة من الحديقة، وقد تبادلن الحديث بكل هدوء خلال تناول العشاء. وجدت في المقر عدداً من الفتيات في مثل سنها حيث ترتدي العديد منهن رداء المرشحات لدخول المقر وأخريات ترتدين أثواب الناذرات. وقد دخلت العديد منهن إلى المقر في سن أصغر من سنها حتى أو ربما تكون أصغر سناً. وقد بدت اللواتي ترتدين الملابس السوداء وكأنهن يمتلكن وجوهاً ملائكية ذات تعابير مسالمة ودافئة وعينين محبتين. لم تشعر أماديا أبداً بهذا القدر من السعادة التي تشعر بها جراء وجودها في هذا المكان. قامت العديدات منهن بتبادل الحديث معها بكل هدوء عند تناول العشاء. وقد رأت العديد من الناذرات الأصغر سناً يقمن بمساعدة المسنات حيث تم جلب البعض منهن على كرسي مدولب وجلسن يحادثن الأخريات وكأنهن جدات تساعدهن فتيات صغيرات السن.

بعد العشاء وانتهاء الاستراحة القصيرة التي طالت نصف ساعة حيث قمن بمقارنة بعض أعمال الصنارة التي يقمن بحياكتها من أجل دار العبادة، عدن إلى الصلاة سوياً لمدة نصف ساعة، ثم صلين بصمت لساعتين، إلى

أن صلين سوياً للمرة الأخيرة قبل خلودهن إلى النوم. وجب عليهن الاستيقاظ في الساعة الخامسة والنصف فجراً ليعاودن الصلاة في الساعة السادسة. حيث يصلين لمدة ساعتين ثم يتناولن الفطور ويعملن إلى أن يحين وقت الفحص اليومي لضمائرهن ثم موعد الغداء. كان يومهن مليئاً بالعمل الكادح والصلوات. لقد أعجب أماديا هذا النمط من الحياة كثيراً. كانت تترك ما تُقدم عليه وهذا ما تريده بالضبط. ستمتلئ أيامها وحياتها إلى الأبد، وسيضاء قلبها بنور الإيمان.

عندما دخلت إلى غرفتها في الساعة العاشرة تلك الليلة، رأت اللواتي ستشاركنها الغرفة. اثنتان منهن تائبات وواحدة مرشحة لدخول المقر مثلها. نظرن إلى بعضهن البعض وهزت كل واحدة منهن رأسها للأخرى ثم ابتسمن وأطفأن النور ليرتدين ملابس النوم التي كانت مصنوعة من الصوف السميك الذي تم غسله حوالي ألف مرة من قبل وما زال يخرمش الجسد. لم يكن ثمة وسيلة تدفئة في غرفتهن وقد سببت لهن ملابس النوم حكاكاً مؤلماً ولكن كان الأمر تضحية لزاماً القيام بها. أدركت أماديا أنها ستعتاد على الأمر مع مرور الوقت. لوهلة من الوقت فكرت في ملابس النوم المصنوعة من القطن والحرير الناعم التي كانت والدتها تصنعها لها دوماً، ثم بسرعة ذكّرت نفسها أن عليها التخلص من هذه الفكرة في اليوم التالي خلال تفحّص الضمير. لم يكن بوسعها أن تفكر في مثل هذه الذكريات هنا في هذا المكان. وكلما خطرت في بالها مثل هذه الأفكار وجب عليها أن تدفع ثمنها وتصحح تفكيرها. لم يكن لديها وقت تضيعه على رثاء مباهج حياتها الماضية.

استلقت على السرير تلك الليلة وهي تفكر بوالدتها ودافني وتصلي لأجلهما. دعت الله أن يعتني بهما ويمن عليهما بالصحة والسعادة على الدوام. وشعرت لبرهة من الوقت فقط بأن عينيها تدمعان وذكرت نفسها أن عليها الصلاة من أجل ذلك أيضاً. كانت هي نفسها مراقبة لضميرها وبوابة أفكارها الخاصة. لم يكن بوسعها السماح لأي أفكار سوى تلك التي

تتعلق... تماماً كما قالت لها الأم المسؤولة ذلك اليوم. تذكرتهما في صلاتها قبل أن تغط في النوم، ثم تلت صلاة عن روح جدتها التي توفيت قبل شهرين.

أما بيتا فقد كانت مستلقية على السرير تلك الليلة ودافني بجانبها، وقد غطت في النوم من شدة البكاء. كانت بيتا تفكر بوالدتها أيضاً وبابنتها التي خسرتها بعد أن وهبت نفسها لله. وقد دعت الله أن يمن عليها بالسلامة والسعادة.

الفصل الثاني عشر

مرت الأيام بسرعة شديدة على أماديا وقد قضتها بالصلاة والعمل. حيث يتم معظم الوقت تكليفها بتنظيف المطبخ والغسيل. كانت تصلها رسائل من والدتها وداقني بشكل منتظم، حيث تحوي هذه الرسائل بعض اللمحات عن الأحداث التي تجري في العالم الواقعي خارجاً. وقد كانت الأحوال تزداد سوءاً مع تفاقم سبباً إضافياً للصلاة. كانت والدتها قد أرسلت إلى الدير بأكمله برتقالاً بمناسبة الأعياد، وكانت هدية كبيرة. وفي شهر كانون الثاني، سُمح لها برؤية والدتها وداقني في زيارة قصيرة بعد ذلك. فنظرت إليهما عبر فتحة صغيرة، وقد بكت والدتها، وظلت داقني تحدق فيها.

قالت داقني بحزن: "أنت لا تشبهين نفسك". كانت تخاف منها عندما وقع نظرها عليها ولكن ليس كثيراً، ولاحظت بيتا على الفور مدى سعادة أماديا، فكاد ينفطر قلبها.

"لم أعد كما كنت عليه في السابق". ثم ابتسمت أماديا في وجهيهما. "أنتما تبدوان رائعتين".

قالت بيتا وهي تحدق فيها وكأنها تحتضنها بعينيها: "وأنت أيضاً". مدت الثلاثة أصابعهن عبر الفتحة لتلامس بعضهن البعض، ولكن بعث الأمر على الإحباط أكثر منه على الفرح. كانت بيتا تتحرق شوقاً لتحتضن ابنتها بين ذراعيها وقد أدركت أنها لن تتمكن من ذلك أبداً من جديد.

سألتها داقني وهي تأمل خيراً بعينين واسعتين: "هل ستعودين إلى المنزل؟" فابتسمت لها أماديا.

"أنا في منزلي يا عزيزتي. كيف حال المدرسة؟"

أجابت داقني بتعاسة: "على ما يرام". لم تعد الحياة كسابق عهدها من دون أماديا. وبات يعم منزلهن صمت قاتل، بالرغم من أن بيتا تبذل مجهوداً كبيراً لتمضية قدر أكبر من الوقت مع داقني، ولكن لا ينفك الحزن يتملك كل منهما طيلة الوقت. بات المنزل من دون أماديا خالياً من الحياة الآن، إذ أصبحت الروح التي ساعدتهما على المضي قدماً وملأت أيامهما نوراً موجودة هنا الآن.

انتهت الزيارة بسرعة شديدة. ولم تتمكنا من معاودة زيارتها حتى آخر السنة. كانت داقني قد بلغت الحادية عشرة والنصف من عمرها عندئذ، وقد اصطحبتها بيتا لحضور الألعاب الرياضية الأولمبية ذلك الصيف، واستمتعت كثيراً. أحبت داقني السباحة بشكل خاص، وأفاضت في الكتابة حول هذا الأمر لأختها.

في الصيف التالي، طلبت أماديا أن تنذر نذورها المؤقتة، فصوّت الجميع على قبول طلبها وسُمح لها بذلك. كان لا يزال أمامها ست سنوات حتى تأخذ على نفسها العهود الأخيرة. ولكن حتى بعد نذورها المؤقتة، شعرت وكأنها كانت نذرت طيلة حياتها، وذلك بعد سنتين فحسب. حيث كان العام 1937. وقد أخذت الفوضى تزداد إلا إن النظام الألماني بات أكثر قساوة مع الناس مما منح سبباً إضافياً للصلاة. كان لديهن في تلك الأيام الكثير من الأمور للصلاة لأجلها.

خلال شهر آذار من السنة التالية أي عام 1938 دخلت القوات الألمانية النمسا وضمتها إلى ألمانيا.

ثم ازدادت الأحوال سوءاً مع قدوم الصيف بعد فترة وجيزة من قيام أماديا بتجديد نذورها المؤقت. عندئذ كانت تعمل بدوام كامل تقريباً في الحديقة، وتقوم بخياطة الملابس من أجل دار العبادة ليلاً وفقاً لما كانت تقوله لوالدتها في رسائلها.

بدا على بيتا القلق عندما توجهت برفقة داقني لزيارة أماديا في فصل الخريف، وقد ذُهلت أماديا عندما رأت كم كبرت أختها. كانت قد بلغت

الثالثة عشرة من عمرها وتزداد جمالاً سنة بعد أخرى. كانت تشبه والدتها فـي جمالهـا، من حيث شكلها الململم على عكس أختها التي تفوقها طولاً بكثير والتي ابتسمت في وجهها عبر الفتحة ابتسامة فخر بها ورسمت قبلة على خدها.

مازحـت أماديـا دافنـي بشأن ميولها إلى الفتيان مما جعل وجنتاها تحمّـران خجلاً. كانت والدتها قد أخبرتها عن هذا الأمر في رسالة سابقة، حيث يوجد فتى في المدرسة معها، تشعر بميل تجاهه، وهو بدوره معجب بهـا، ولكـن كـان يسهل جداً معرفة سبب إعجابه بها، إذ إنها فتاة جميلة المظهـر وتتحلى ببراءة أثرت جداً في قلب أماديا. لقد أفلحت بيتا ودافني بإنبـاء أماديـا خبراً من حديثهما عبر الرسائل التي ترسلانها إليها. كان يصعب جداً التصديق أنه مضى على وجود أماديا في ألمانيا ثلاث سنوات. إذ تشعر بيتا في بعض الأحيان وكأنه مضى زمن طويل على غيابها، وفي أحيان أخرى تشعر وكأنه لم يمضِ على غيابها سوى بضعة أشهر. لا تزال بيتا ودافني تشعران باشتياق قوي لها، ولكن مع ازدياد الأوضاع سوءاً من حـولهن، ارتاحت بيتا بطريقة معينة إلى كونها في مأمن حيث هي. كانت بيتا لا تزال بمنأى عن المشاكل الحاصلة من حولها، ولم تتوقع حدوث أي مشاكل معها. إذ لم تكن سوى أرملة مسكينة لها ابنة صغيرة لا تحتاج إلى أي معـاملات رسـمية، ولم تلفت الانتباه إلى نفسها، وقد نأت عن كل ما يلفت نظر السلطات إليها. ولكنها كانت تشعر بالقلق على أهلها حيث كانت تنقب في الجرائد يومياً لترى إن كان هناك أي خبر عنهم أو عن المصرف ولكن حتى هذه اللحظة لم تلحظ أي خبر.

فـي شهر تشرين الأول من العام 1938، تدهورت الأوضاع الأمنية في ألمانيا إلى حدٍّ لا يوصف.

فـي ظـل الفوضـى العارمة التي تعم الشوارع، لم تجرؤ بيتا على مغادرة المنزل، وعندما هدأت الأمور نوعاً ما استقلت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يمر بمحاذاة مصرف والدها ومنزله. كانت عناصر الشرطة

تطـوّق المـصرف ولاحظـت بيتا أنه لحقت بالمبنى أضرار بالغة. كما وجدت أنه تم تكسير جميع النوافذ في منزل والدها. وبدا كل من المبنيين مهجـورين. لم تمتلك أدنى فكرة أين عسى عائلتها رحلت، ولم تجرؤ على سؤال الجيران، إذ إنها بسؤالها هذا قد تلفت الأنظار إليها مما سيضعها هي ودافني في خطر.

بعـد مرور أسبوع أتت عرضاً على ذكر الأمر في مصرفها، حيث قالت إنها مسرورة جداً لقيامها بسحب ودائعها من مصرف ويتغينشتاين منذ عدة سنوات، لأنها تتصور أن وضعهم مزرٍ الآن.

قال لها موظف المصرف مباشرة: "لقد أُقفل المصرف". لم تقوَ حتى على تصوّر مصير ودائع زبائنهم، وتساءلت ما إذا كان رجال السلطة قد وضعوا أيديهم على معظم هذه الأموال.

قالـت بيتا بلهجة عدم اكتراث: "لا يفاجئني الأمر". ثم سألته محاولة أن تبدو كمجرد سيدة تتجاذب أطراف الحديث مع موظف مصرف في ظل أوضـاع أمنية متردية: "ماذا حدث لهم برأيك؟" إذ كان حديث العالم أجمع يدور حول مدى تدهور الأوضاع.

فـتكلّم الموظـف بصوت خافت وصل إلى حد الهمس، ثم قال لها: "مديري يعرف تلك العائلة، لقد تم ترحيلهم الخميس الماضي".

قالت بيتا وهي تشعر وكأنها على وشك الإغماء، ولكنها صممت على عدم إظهار مشاعرها الحقيقية: "يا للأسف".

"هل أخذوهم جميعاً؟"

"أعـتقد ذلـك. عادة يأخذون الجميع. أو باتوا يفعلون ذلك على أي حال. لم يكن ذلك من عادتهم. ولكنني أعتقد أنهم يعتبرون النساء خطيرات بقدر الرجال". اضطرب كيان بيتا وهي تستمع إليه.

قالـت وهـي تـضع مالها في حقيبتها: "كانت عائلة بارزة جداً في المجـتمع". كانت قد أتت لتصرف شيكاً بهدف استطلاع الأمر فحسب. وقد أفلحت في ذلك. لقد تم ترحيل أهلها جميعاً.

"حسري بك أن تفرحي لسحبك مالك من هذا المصرف، وإلا لكانوا سرقوك". فابتسمت له وشكرته، وهي تتساءل كيف يمكن لها اكتشاف المكان الذي تم ترحيلهم إليه. إذ لم يكن ثمة وسيلة للقيام بذلك دون أن تلفت النظر إليها، فكل من كان يستفسر عن أي شيء يرمي بنفسه في أتون الخطر. ثم في محاولة أخيرة منها، طلبت من سائق سيارة الأجرة أن يمر بها بمحاذاة المنزل خلال عودتها إلى منزلها. بدا لها المنزل كئيباً ومعتماً ولاحظت أنه تم نهبه، إذ كانت بعض قطع الأثاث مطروحة في الشارع، وهي القطع الأثرية التي كانت والدتها مولعة بها. تساءلت ما إن كان أهلها في مكان ما، وإن خطرت لهم فكرة الهرب. في محاولة يائسة منها، توقفت في دار العبادة خلال عودتها إلى منزلها وتكلمت مع رجل الدين. شرحت له أنها كانت تعرف أفراد هذه العائلة منذ سنوات وتخشى أن يكون قد تم ترحيلهم.

"أخشى أن هذا الاحتمال وارد الحدوث جداً". بدا رجل الدين متجهماً. إذ لم يأمن أحد من شرور السلطة في تلك الأونة.

"كنتُ أتساءل... هل تفترض وجود أي طريقة للاستعلام عن مكان تواجدهم؟ قال أحدهم ما إنه تم ترحيلهم. ولكن لا يعقل أن يتم ترحيل الجميع. على الأقل النساء والأطفال".

قال رجل الدين بهدوء: "من يدري. إنها أوقات مرعبة".

قالت بيتا له بنبرة اعتذار: "حسناً لم أشأ التسبب بأي متاعب لك، إلا شعرتُ فحسب بالأسى الشديد عندما سمعت هذا الخبر لتوي في المصرف. في حال علمت أي جديد فلتعطني علماً".

"ما اسم هذه العائلة؟"

"وينغيشتاين. أصحاب المصرف". فهز رأسه، وقد كان جميع سكان كولونيا يعرفون هذا الاسم. في حال تم ترحيلهم سيضج المكان بالخبر. ولكن كان كل شيء وارد الحدوث. "سأحيطك علماً فأنا أعرف رجل دين في تلك المنطقة. لعله سمع أي خبر عنهم، فمثل هذه الأخبار تنتشر بين

الناس كانتشار النار في الهشيم، فالناس ترى بأم العين ما يحصل بالرغم من أنهم يخشون الكلام". لقد بات الرعب ينتاب الجميع الآن في هذه المرحلة. ثم قال لها وهي تهم بالرحيل: "التزمي الحيطة والحذر. لا تحاولي الذهاب إلى ذلك المكان بنفسك". كان يعرف أنها أرملة رقيقة القلب ولها ابنة صغيرة، وقد تحاول الإقدام على عمل غبي. وكان يكن لها احتراماً خاصاً بسبب أماديا. إذ إن والدة نادرة العفة لا يعقل إلا أن تكون امرأة طيبة، وقد أدرك جيداً أنها كذلك.

في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني، أوقف رجل الدين بيتا عندما كانت تهم بمغادرة دار العبادة. كانت دافني مشغولة بالحديث مع صديقة لها، ولم تأت بيتا على ذكر أي من هواجسها لأماديا في الرسائل التي كانت تبعثها إليها.

وقف رجل الدين بجانبها وقال لها بصوت خافت: "لقد كنت محقة. لقد رحّلوا جميعاً".

سألته وهي تبدو مشتتة الذهن: "من؟" تذكرت أنها سألته عن أهلها ولكنه كان يتصرف بغموض شديد إلى حد أنها لم تعد واثقة أنه يحدثها عن الموضوع نفسه أو عن أي موضوع آخر.

"العائلة التي سألت عنها. لقد أخذوهم جميعاً... اقتادوا جميع أفراد العائلة. يبدو أن الرجل صاحب المصرف لديه ابنان وبنت واحدة وابنة أخرى ماتت منذ سنوات. إن صديقي يعرفه جيداً. غالباً ما كان يراه يسير في الحي فيتوقف ويتبادلان الحديث. قال إنه كان رجلاً لطيفاً وأرملاً. لقد اقتادوهم جميعاً. الأرمل والأولاد والأحفاد حتى. هناك احتمال كبير أن يتم منح المنزل إلى ضابط". ثم أضاف: "سأتلو صلاة من أجلهم". كانت تلك الحقبة تضج بمثل تلك القصص. شعرت بيتا وكأنها تحت تأثير الصدمة ولم تتلفظ بكلمة أمام دافني خلال عودتهما إلى المنزل.

سألتها دافني بهدوء: "هل أنت على ما يرام يا ماما؟" إذ كان يبدو على والدتها التوتر الشديد تلك الأيام، ولكن كانت هذه حال الجميع. كان قد

ثم طرد العديد من التلاميذ من مدرستها مما دفع بالجميع إلى البكاء. ثم سألتها: "هل حصل أي سوء؟"

أجابت بيتا بحزن: "لا، أنا على ما يرام". ثم شعرت فجأة بالامتنان لما قاله رجل الدين حول أن جاكوب ويتغينشتاين كان لديه ابنة وقد توفيت منذ سنوات. مع بعض الحظ، سيظل الناس من حولها مفترضين أنها ماتت. حتى هذه اللحظة لم يزعجها أحد على الإطلاق لا هي ولا ابنتها. إذ كانت مجرد أرملة تسكن معها ابنة صغيرة واحدة ولديها ابنة أخرى في المقر. حمداً لله على دخول أنطوان إلى حياتها.

فقالت بيتا بنعومة: "لقد سمعتُ لتوي خبراً محزناً حول عائلة كنت أعرفها، وقد تم ترحيلهم". لقد تم ترحيل جميع أفراد عائلتها، والدها وشقيقها وشقيقتها وأولادهم وزوجة شقيقها. "رحلوا. إنه أمر يفوق القدرة على التصور. وحده الله يعلم بمكانهم وما إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة. فقد كان المرء يسمع قصصاً مريعة. وفجأة شعرت بيتا بالامتنان كون والدتها أُعفيت من هذه المحنة برمتها. على الأقل، توفيت بسلام بالرغم من أن بيتا لم تكن موجودة برفقتها لمواستها في آخر لحظات حياتها. حتى في ظل ما يجري لم تكن أي حقد على والدها. فما حدث له أسوأ بكثير من أي شيء يمكن لها أن تفعله به، ولم يكن أي منهم يستحق كل ما حصل. ولا أي واحد على الإطلاق. وقد انتابها الخوف، ولكن حتى اللحظة ما زالت هي وابنتها بأمان. كانت واثقة تماماً من هذا الأمر.

قالت دافني بهدوء وهي تفكر بالكلام الذي قالته والدتها: "يا للفظاعة". فحذرتها بيتا قائلة: "إياك أن تخبري أحداً بهذا الأمر". قالت لها وهما تسيران إلى منزلهما: "إذ إنه في حال أبديت تعاطفاً مع الأشخاص الذين يتم اقتيادهم قد يلحق بك الأذى". كان المنزل دافئاً ومريحاً وآمناً. وكان ذلك أمراً ضرورياً في ظل الظروف الراهنة. لم تقوَ بيتا على إخراج صورة منزل والدها المتصدع من رأسها، والشبابيك المحطمة، والتحف الأثرية المرمية في الشارع.

نظرت دافني إلى والدتها بعينين بريئتين وقالت لها: "ولكنك تشعرين بالأسف على هؤلاء الناس يا ماما، أليس كذلك؟"

أجابتها بيتا بصراحة: "أجل، ولكن من الخطير البوح بذلك بشكل علني هذه الأيام. انظري ما الذي يحدث حولنا. إن الناس غاضبون ومرتبكون. إنهم لا يدرون ماذا يفعلون. حري بنا التزام الصمت. أريد ألا تنسي ذلك أبداً يا دافني". نظرت والدتها إليها بحزم، فهزت دافني رأسها بحزن.

"أعدك أنني سأفعل". ولكن بدا ما يجري قاسياً جداً وبشعاً وخاطئاً للغاية. لم تتمالك دافني إلا أن تفكر بمدى فظاعة أن يخسر المرء منزله وأن يُقتاد بعيداً أو أن يخسر والديه حتى. دفعها التفكير في هذا الأمر برمته إلى الارتجاف. كانت مسرورة لكونها بأمان هي ووالدتها، حتى لو لم يكن لديها أب بالقرب منها، ولكن ما كان أحد ليقترب منهما ويسبب لهما المتاعب.

التزمتا الصمت تلك الليلة، حيث غرقت كل واحدة منهما في بحر أفكارها. أصيبت دافني بالذهول عندما دخلت غرفة والدتها ووجدتها راكعة تصلي. نظرت إليها لدقيقة من الوقت ثم غادرت الغرفة. تساءلت ما إن كانت والدتها تصلي لأجل العائلة التي حدثتها عنها عصر ذاك اليوم، وشككت في أنها تفعل. كانت محقة. ولكن لم تمتلك دافني أدنى فكرة عما كانت تفعل. كانت تتلو صلاة الأموات عن أرواحهم وفي نفس الوقت تتوسل الله أن يكونوا لا يزالون على قيد الحياة. ولكن إن كانوا قد فارقوا الحياة فلا بد أن يقوم أحد بتلاوة الصلاة لأجل راحة نفوسهم. وبعد أن فرغت من الصلاة جثمت بالقرب من سريرها والدموع تنهمر على وجنتيها. كانت عائلتها قد أقفلت الأبواب في وجهها منذ سنوات، وكذلك أقفلوا قلوبهم واعتبروها ميتة. ولكنها مع ذلك ظلت تكنّ لهم الحب، والآن رحلوا جميعاً. بريجيت وألم وهورست وبابا. الأشخاص الذين ترعرعت معهم ولم تكفّ يوماً عن حبهم. تلت تلك الليلة صلاة الميت عن أرواحهم تماماً كما صلوا عن روحها منذ سنوات طويلة.

الفصل الثالث عشر

في الأسبوع الأول من شهر كانون الأول، اتصلت بيتا بالمسؤولة وطلبت منها الإذن بزيارة ابنتها. قالت لها إن الأمر في غاية الأهمية، فقالت لها المسؤولة بلطف إن عليها الانتظار. ففي تلك الأيام كنّ في غاية الانشغال. في الواقع كانت تنتابهن مخاوف شديدة إضافة إلى بعض المشاكل. فحددت لبيتا موعداً للزيارة في الخامس عشر من كانون الأول، آملة أن تكون الأمور قد استقرت حتى ذلك الحين.

لازم بيتا القلق حتى وصول ذلك الموعد. لم تعرف السبب ولكنها شعرت أنها مضطرة لرؤية أماديا وإخبارها بما يحدث. لم يكن للأحداث أي تبعات عليهما ولكن قد يكون. وجب أن تعلم أماديا، ولديها الحق بذلك. كانت لتخبر دافني أيضاً ولكنها لا تزال صغيرة جداً في السن، وقد تفصح عن الأمر في مدرستها. لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها بعد، ولا تزال أصغر من أن تحمل مثل هذه الأسرار الكبيرة. وخصوصاً أسراراً تكلف المرء حياته وحتى حياتها هي. ولكن على الأقل تعتبر أماديا بمأمن حيث هي، ووالدتها تقدّر نصيحتها. لم تشأ أن تتخذ هذه القرارات منفردة. كانت تفكر بالذهاب إلى سويسرا، ولكن مضى وقت طويل على وفاة نسيبي أنطوان.

وليس لديها أي مكان آخر لتذهب إليه. ستضطر إلى استئجار منزل هناك ومغادرة منزلها. كانت تمقت اتخاذ القرارات بدافع الخوف والذعر. لم يكن لديها سبب يدعوها للخوف ولكنها كانت خائفة. خائفة بشدة.

استطاعت أماديا أن تشعر بخوف والدتها من اللحظة التي دخلت فيها إلى الغرفة. لقد حصل سوء ما. لقد أتت والدتها وحدها. ودافني في

المدرسة. كانت بيتا تكره أن تأتي لزيارة أماديا دون دافني، وبالتالي حرمانها من رؤية أختها ولكنها شعرت أنها لا تملك خياراً آخر. كما وأدركت أنها لم تكن تفكر بوضوح. فقد كانوا جميعاً ألماناً في النهاية. ولم يعرف أحد هويتها الحقيقية. لم يكن أحد يزعجها. ولكن مع ذلك، من له أن يعرف ما قد يحصل. لا بد وأن والدها ظن أنه بمأمن أيضاً. لم تكن واثقة أين عصاها تبدأ.

"هل أنت بخير يا ماما؟ أين دافني؟"

"في المدرسة. أردت أن أقابلك وحدي". كانت تتكلم بسرعة لأنها أدركت أنهما لا تملكان الكثير من الوقت، وكان لديها الكثير من الكلام لتقوله لها. "أماديا لقد تم ترحيل عائلتي".

"أي عائلة؟" سألت أماديا مرتبكة وهي تحدق بوالدتها وقد أمسكتا بأصابع بعضهما البعض عبر الفتحة. كانتا تتكلمان همساً. "أتقصدين عائلة أوما؟" فهزت بيتا رأسها مؤكدة الأمر.

"جميعهم. والدي وأختي وأخواي وأولادهما وزوجتاهما. كانت الدموع تلمع في عينيها وهي تقول هذا الكلام، فمسحتها عندما انهمرت على وجنتيها.

قالت أماديا بلطف وهي مرتبكة: "أنا آسفة جداً، ولكن لماذا؟"

قالت أماديا بهدوء وهي تنظر إلى والدتها وتقبل أصابعها: "شكراً لك على إخباري يا ماما. ولكنّي لا أشعر بالقلق". كانت بيتا تشعر بالقلق إذ لم تعرف ما عساها تفعل وما هو الصواب. كانت الأوضاع سيئة جداً ولكن لم يلحق بهن الأذى حتى تلك اللحظة. جل ما أرادته هو إبلاغ أماديا حتى تلتزم الحيطة والحذر. لقد كانت بمأمن في المقر حيث هي. وفي الوقت الذي كانت فيه المرأتان تنظران إلى بعضهما البعض وتفكران، طرقت نادرة عفة على الباب، وأشارت إلى أماديا أن وقت الزيارة قد انتهى.

"عليّ الانسحاب يا ماما". لن يتسنى لهما رؤية بعضهما البعض إلا بعد أشهر.

"لا تخبري دافني في رسائلك أنني قمت بزيارتك، وإلا سينفطر قلبها لعدم تمكنها من رؤيتك. إذ إنني وددت رؤيتك على انفراد".

قالت وهي تقبل أصابع والدتها: "لقد فهمت". كانت قد بلغت الواحد والعشرين من عمرها، ولكنها بدت أكبر من سنها الحقيقي بكثير. كانت قد كبرت كثيراً في السنوات الثلاث والنصف التي أمضتها داخل المقر، ولاحظت والدتها هذا الأمر جيداً. "أحبك يا ماما. خذي حذرك" ثم حذرتها قائلة: "لا تقدمي على أي عمل غبي". فابتسمت والدتها لها. "أنا أحبك كثيراً".

ثم قالت لها والدتها بابتسامة حزينة: "أنا أيضاً أحبك يا عزيزتي. لا زلت أتمنى لو أنك معنا في المنزل".

أتت لها أماديا قائلة بعد أن شعرت بغصة في قلبها: "أنا سعيدة بوجودي هنا". كانت تشعر بالشوق إليهما في بعض الأحيان ولكنها لا تزال واثقة من ندائها الباطني. بعد أربع سنوات ونصف ستأخذ على نفسها عهودها الأخيرة. ليس ثمة شك في هذا الأمر. لم تشك في هذا الأمر ولا مرة واحدة منذ تواجدها هنا. وعندما همت والدتها بالمغادرة قالت لها: "عيد مجيد يا ماما".

فقالت لها والدتها: "عيد مجيد يا ابنتي". ثم غادرت الحجرة الصغيرة التي كانت تزورها فيها ويفصل بينهما حائط فيه فتحة صغيرة.

عادت أماديا إلى عملها على الفور وخلال الوقت المخصص لها لتفحص ضميرها فكرت في ما قالته لها والدتها. فتوجهت بعد الغداء مباشرة إلى المسؤولة في مكتبها خلال الوقت المخصص للاستراحة. ارتاحت عندما وجدت المسؤولة موجودة على مكتبها وتقوم ببعض الأعمال. رفعت الأم رأسها ووجدت في عيني أماديا بعض التردد.

"ما الأمر؟"

"هلا سمحت لي بالتكلم معك؟"

أشارت إليها بالدخول والجلوس. "هل استمتعت بزيارة والدتك لك اليوم؟" كانت أماديا تشعر بالراحة لدى النظر إلى عيني المسؤولة الكريمتين. وقد شعرت الأم ببعض القلق والانزعاج على وجه أماديا.

"نعم لقد استمتعت بالزيارة شكراً لك. دخلت أماديا الغرفة وأقفلت الباب وراءها. "لدي أمر أريد إطلاعك عليه". انتظرت المسؤولة وشعرت أن الأمر خطير. إذ بدت الشابة منزعجة.

"لقد تم ترحيل عائلة والدتي. أنا لم أعرفهم قط لأنهم تبرأوا من والدتي عندما تزوجت بوالدي ورفضوا رؤيتها من جديد. ولكن قبل سنتين من دخولي إلى المقر تعرفت إلى جدتي أخيراً. ولكن لم يسمح جدي لوالدتي أن ترى أي فرد من أفراد عائلتها. لقد اعتبروها ميتة". رفعت أماديا رأسها ونظرت إلى المسؤولة وأخذت نفساً عميقاً. "إنها تقول إن أحداً لا يملك معلومات عنها. فليس هناك أوراق ثبوتية تنسبها إلى عائلتها ولا جواز سفر لها. لقد عاشت والدتي في سويسرا لمدة ثلاث سنوات قبل عودتها إلى هنا، وقد ولدت هناك. لذا أخشى أنه في حال بقيت هنا قد أعرض حياة الأخريات للخطر".

"لسنا في خطر يا ابنتي، ولا أنت أيضاً. وفق ما قلته لي لا أحد يعرف بظروف والدتك. هل تقوم والدتك بما يلفت أنظار السلطات إليها؟"

نفت أماديا الأمر بهز رأسها وقالت: "لا إنها تحيا حياة هادئة وليس هناك أي سبب يدعو الآخرين لاكتشاف الأمر".

"مع بعض الحظ لن يلتفت أحد إلى وضع والدتك. ذلك في حال التزمت الهدوء وتوارت عن الأنظار. في حال حصول أي أمر من شأنه تغيير هذا الوضع، أنا واثقة أنها ستحيطنا علماً. وفي هذه الحالة بوسعنا إرسالك إلى مكان ما. ليس هناك أي داع لإعلام الأخريات بهذا الأمر وإثارة ارتباكهن. عندما أتيت إلى هنا كنت شابة صغيرة بريئة لا امرأة راشدة معروفة بين الناس. لذا ليس هناك من داع لمغادرتك. هذا في حال أردت البقاء". ارتاحت أماديا لكلام المسؤولة وقالت: "بلى، أريد البقاء، ولكنني خشيت أن تودي مني الرحيل. على كل حال سأرحل في حال أردت مني ذلك". في حال تم ذلك ستكون أكبر تضحية تُقدم عليها أماديا

من أجل مصلحة الأخريات، وستكون طريقتها المتواضعة لنكران ما تريده لنفسها من أجلهن.

"لا، لا أريد منك الرحيل". ثم نظرت إليها بإصرار لم تقدم النصيحة إلى ابنتها، وقالت: "من المهم جداً ألا تناقشي هذا الأمر مع أي كان، لا أحد على الإطلاق. ستبقى هذه المعلومات سراً بيننا". ثم نظرت إليها باهتمام وسألتها: "هل لك علم بما حل بعائلة والدتك؟ هل سمعت شيئاً عنها؟"

"تعتقد والدتي أنه تم ترحيلهم". لم تصدر المسؤولة أي تعليق على الأمر إذ كانت تعلم ما يجري من أحداث أمنية مريعة في تلك الآونة.

"أرجو منك إبلاغها بأسفي الشديد لدى مراسلتك لها. ولكن افعلي ذلك بتحفظ". فهزت أماديا رأسها وهي تبدو ممتنة للطف المسؤولة.

"أيتها الأم، لا أود المغادرة، أريد أن آخذ على نفسي العهود الأخيرة".

"إن أردت [illegible] ذلك، فستأخذينها". ولكن أدركت كل منهما أنه لا يزال أمامها أربع سنوات ونصف حتى يحين لها ذلك. وقد بدا وقتاً طويلاً بالنسبة للفتاة الشابة. كانت مصممة على تحقيق هذا الأمر وعدم السماح لأي عائق بالوقوف في طريقها. فقد تخطت عائقاً كبيراً لتوها منذ نصف ساعة.

"شكراً لك أيتها المسؤولة". وبعد لحظة، غادرت أماديا وظلت الأم جالسة وراء مكتبها غارقة في بحر أفكارها.

شعرت أماديا براحة بالغة خلال بقية النهار، بالرغم من أن القلق على والدتها وأختها لم يفارقها.

الفصل الرابع عشر

نظراً للوضع المتدهور وواقع أن ألمانيا في حالة حرب كان الميلاد كئيباً حتى في المقر.

بلغت أماديا الثالثة والعشرين من عمرها في شهر نيسان من العام 1940. وقد توجهت والدتها وأختها لزيارتها. كانت دافني على وشك بلوغ الخامسة عشرة من عمرها، وقد وجدت أماديا صعوبة في تصديق هذا الأمر، إذ تتمتع دافني بجمال باهر وبدت نسخة عن والدتها عندما كانت في مثل سنها.

لقد عم الرعب في قلوب الجميع عندما انتشر خبر اجتياح القوات الألمانية للدنمارك والنرويج. وبعد شهر أي في أيار استولوا على هولندا الأمر الذي لم يتوقعه أحد. باتت معرفة ما يمكن أن يحدث تالياً أمراً مستحيلاً، إذ بدا أن ألمانيا تستولي على أوروبا بأكملها. وفي شهر حزيران اجتاحت فرنسا، وعندئذ كانت أماديا قد جددت نذرها المؤقت. كان لا يزال أمامها ثلاث سنوات حتى تأخذ على نفسها العهود الأخيرة. الأمر الذي سيربطها أبدياً بهذه الحياة. وقد باتت تشعر بارتباط شديد بالمقر، لم تعد تقوى على تذكر أو تخيل حياة أخرى. إذ ما لبثت في ذلك المكان منذ خمس سنوات.

اجتاحت القوات الألمانية رومانيا في شهر تشرين الأول، بعد عودة دافني إلى المدرسة بوقت قصير. وقد ازدادت الأوضاع تدهوراً إلى حدّ لا يوصف. وبالرغم من مدى سوء الوضع أكدت بيتا لأماديا خلال زيارتها لها في الميلاد أنها لم تواجهها أي مشاكل، حيث لم يحقق معها أحد، ولم

يطلب منها أحد أي وثائق من شأنها أن تعرضها للخطر. لقد بدا أن أحداً لا يكترث لأمرها. إذ إنها مجرد أرملة تعيش وحدها مع ابنتها وتُعنى بشؤونها الخاصة. ارتاحت أماديا جداً لمعرفة أن والدتها وأختها على ما يرام.

فــي الربيع من العام 1941، وبعد ذكرى مولد دافني السادس عشر، وعند بلوغ أماديا الرابعة والعشرين من عمرها توجهت بيتا إلى المصرف. رأت هــناك امــرأة بــدا وجهها مألوفاً لها. حدّقت فيها لفترة طويلة لدى وقوفهما على نافذتين منفصلتين، ولكن ما أمكنها التعرف إلى هويتها. كانت بيــتا في ذلك اليوم تقوم بسحب مبلغاً كبيراً من المال، وقد كان أمراً نادراً نسبياً. ولكــن خطر لها بعد حلم راودها في الفترة الأخيرة أن قيامها بذلك فكــرة ســديدة. كانت قد تحدثت مع جيرار دوبيني حول هذا الأمر ووافقها عليه. أرادت أن تتــرك بعــض المال معه في حال حدث أي مكروه لها، فيسلمه للفتاتــين فــي حالة الطوارئ. لم يكن يرى ضيراً في إبقاء المال كله في المــصرف، ولكن لطالما بدت بيتا له شديدة التوتر منذ وفاة أنطوان. وإن كان هذا الأمر يدفعها إلى الشعور بالراحة فهو على استعداد لمجاراتها في الأمر والموافقة على طلبها.

كــان يــسعده أن يمــد يــد العون لزوجة صديقه القديم. وقد بدا له ولفيــرونيك بشكل جلي أن بيتا لم تتعافَ أبداً من صدمة وفاة أنطوان على مدى كل تلك السنوات. ومع مرور السنوات لم يزدد العبء إلا ثقلاً عليها، وفــي عمر السادسة والأربعين بدت أكبر من عمرها بعشر سنوات. كانت تــنوي التوجه إلى منزله عصر ذلك اليوم لتسلمه المال نقداً. لم يكن بمبلغ كبيــر، ولكنه سيعين الفتاتين على العيش في حال حدوث أي مكروه. حتى إنهــا أخبــرت أماديا عن هذا الأمر في رسالة بعثتها إليها، وقالت لها إن جيرار دوبيني سيحتفظ لهما بمبلغ من المال في حال حدوث أي مكروه لها.

كانــت أماديا تمقت سماع والدتها تتكلم بهذه الطريقة. ولكنها أدركت أن والــدتها لــم تكف عن القلق لسنوات بشأن ما عساه يحل بهما في حال وقعــت فريــسة المرض أو ما هو أسوأ من ذلك، وخصوصاً أن دافني لا

تــزال صغيرة جداً في السن. والآن مع تدهور الوضع من حولهن في كل مكان، ازداد قلقها جداً. وقد علمت أماديا أن والدتها قلقة بشأن الحرب.

أنهــت المــرأة التــي كانت بيتا تنظر إليها معاملاتها المصرفية في الــوقت نفــسه الذي أنهت فيه معاملاتها. واتجهت المرأتان إلى الباب جنباً إلــى جــنب تقــريباً. كــاد يغمى على بيتا عندما نادتها المرأة باسم "سيدة ويتغينــشتاين". وشــعرت أن ركبتيها ما عادتا تحملانها، ولكنها واصلت تقدمها إلى الأمام خارجة من المبنى. جل ما أرادت فعله هو الابتعاد عنها بأسرع وقت ممكن لتوقف سيارة أجرة وترحل من المكان. لم تبد أي إشارة تدل على تعرفها إليها، ورفعت يدها لسيارة أجرة مرت بمحاذاتها مسرعة. ولكــن لحقــت المرأة بها ونظرت مباشرة إليها بابتسامة عريضة. وعندها تذكــرتها بيــتا، فتعرفت إليها بالرغم من مرور سنوات طويلة. كانت فتاة يافعــة تــشيكية تعمــل كخادمة في منزل والديها منذ أربعين سنة. كانت موجودة لدى مغادرة بيتا المنزل. قالت بنبرة انتصار: "كنت واثقة أنك هي. ظننت أنني أرى شبحاً. لقد أخبرنا والداك أنك توفيت في سويسرا".

"أنــا آسفة... ليس لدي أدنى فكرة... أنا...". حاولت بيتا وهي تنظر إليها ألا تــبدي أي إشارة تفيد أنها تعرفت إليها، مدعية حدوث خطأ ما. ولكــن بــدت المرأة واثقة من هوية بيتا وأبت الانصراف عنها. قالت بيتا ببرودة وهي ترتجف خوفاً من أن يكون أحد قد سمع المرأة تناديها باسمها مــا قبل الزواج: "أنا لا أعرف من تقصدين". إذ إن هذا الاسم يمثل خطراً كبيــراً علـــى بيتا. فاعترافها به يضعها في خطر داهم. "ألا تذكرينني؟ أنا ميتا... كنت أعمل في منزل والديك". في الواقع، تذكرت بيتا أن هذه المرأة تزوجت بسائق والدها منذ ثلاثين سنة تقريباً. وقد عادت إليها هذه الذكرى سريعاً بسبب خوفها الشديد، مدركة تماماً ما يمكن أن ينجم عن لقاء الصدفة هذا.

"أنا آسفة...". ابتسمت بيتا باستغراب محاولة أن تبدي لها أدباً وكانت متلهفة للهرب، وعندها أنقذت سيارة أجرة الموقف عندما وقفت أمامها.

قالت مينا بنظرة تصميم: "أنا أعرف من تكونين". فركبت بيتا السيارة، وأشاحت بوجهها عنها. والآن بات جل ما ترجوه أن تكون مينا قد صدقت أنها اقترفت خطأ. مع بعض الحظ لن يسفر عن لقاء الصدفة هذا أي تهديد وستنسى هذه المرأة أمر بيتا. إذ لم يكن لديها سبب يدعوها لملاحقتها. كانت تحاول فحسب إبداء ودها. كانت في ما مضى فتاة طيبة وغارقة في حب السائق، وقد تزوجا قبل فترة قصيرة من مغادرة بيتا للمنزل، وكانت مينا حاملاً في ذاك الوقت. أدركت بيتا أنه لا بد وأن مينا تفاجأت لدى رؤيتها، نظراً إلى أن والدها قال لها إنه سيخبر جميع من في المنزل أنها ماتت. بينما في الواقع كانت حية بكل تأكيد. ربما كان هذا السبب الذي دفع مينا إلى التصميم على التعرف إلى بيتا. ولكن في ظل هذه الأوقات العصيبة لم يكن بمقدور بيتا تقبل خطر التعرف إليها كفرد من أفراد آل ويتغينشتاين حتى ولو اضطرت إلى التصرف بفظاظة مع خادمتهم السابقة.

تفاجأت بيتا عندما وجدت نفسها ترتجف بقوة شديدة في سيارة الأجرة. إذ كان مجرد لقاء صدفة عديم الأهمية، ولكن قيام هذه المرأة بمناداة بيتا باسمها ما قبل الزواج في المصرف كان أمراً شديد الخطورة. إذ إن بيتا باتت تعجز عن الاعتراف بأنها كانت تحمل هذا الاسم في ما مضى نظراً لخطورة الأمر. وأملت أن تنسى مينا الأمر ببساطة. لم يكن بوسع بيتا القيام بأي شيء في هذا الصدد. كانت لحظة مرعبة ولكنها انتهت. كما ولم تعترف لها بيتا بهويتها. وقد حافظت على هدوئها على طول الخط، بالرغم من أنها كانت ترتجف بقوة من الداخل. فأملت ألا تراها من جديد. وفي طريقها إلى مزرعة جيرار وفيرونيك، أبعدت هذه الحادثة عن تفكيرها حيث صممت على ألا تجعل منها مصدر قلق لها.

حالف آل دوبيني الحظ في إبقاء ممتلكاتهم بمنأى عن الأحداث الجارية، بالرغم من فظاعة الحرب. لحسن الحظ، أقنع جيرار قبل سنوات عديدة في الحصول على الجنسية الألمانية هو وزوجته فيرونيك، وكأنه

استشعر بما سيحدث. بالرغم من أن بيتا أدركت من خلال تبادلها لبعض الأحاديث معه أنه يمقت جميع أفعال السلطة. لم يسألها عن سبب رغبتها في إبقاء المال معه. حيث ظن أنه مجرد فعل ناجم عن قلق شديد وليس أكثر. إذ كانت امرأة تعيسة ووحيدة تعيش بمفردها مع ابنة صغيرة. وكان سبب قلقها مبرراً. فمع هذه الحرب الدائرة وحالة الغليان التي تعم أوروبا بأكملها، كان الجميع يشعرون بالخوف بعد أن بدا العالم بأكمله يفتقر إلى الاستقرار. وقد شكك في أن سبب قلقها يعود إلى احتمال إقفال المصارف. لم يجد غير هذا التفسير لتبرير مبلغ المال الذي سلمته إياه عصر ذلك اليوم. لقد سلمته مغلفاً يحتوي على مبلغ يقارب العشرين ألف دولار، وقالت إن هذا المبلغ سيعين العائلة لبعض الوقت في حال حدوث أي مكروه لها إلى أن تفلح في الحصول على باقي المال. فأكد لها أنه سيحتفظ لها بهذا المبلغ وسيضعه في خزنته الخاصة. ثم جلسا وشربا الشاي سوياً لأن فيرونيك كانت خارج المنزل.

عند دخول بيتا إلى المزرعة وجدت أن الاصطبلات لا تزال جميلة، بالرغم من أنه قال لها إنه يملك الآن عدداً أقل من الخيول التي كان يمتلكها أيام أنطوان. إذ لم يجد أحداً يضاهيه مهارة ليدير مزرعة الخيول. كان قد مضى حينذاك على رحيل أنطوان أربع عشرة سنة. ثم استرجعا بعض أحداث الماضي سوياً ثم أتى لها بسيارة أجرة لتعود بها إلى المدينة.

كانت دافني قد وصلت إلى المنزل لدى وصول بيتا، وكانت تغمرها الحماسة الشديدة بسبب تعرفها إلى فتى جديد في المدرسة. كان والده مشاركاً في الجيش في النمسا وقالت إنه وسيم جداً. وقد شعت عيناها فرحاً مما دفع بوالدتها إلى الضحك. تناولت الاثنتان عشاء هادئاً تلك الليلة. وقالت دافني إنها تريد زيارة ألمانيا في وقت عاجل. إذ مضت أشهر على رؤيتهما لها في آخر مرة. كانت ستجدد نذورها المؤقتة للمرة الرابعة من جديد. وقد باتت دافني تتقبل حال أختها كأمر واقع. ولكن كان الأمر أصعب على بيتا التي لا تزال تأمل أن تغير ابنتها رأيها في أحد الأيام. إذ

لا تزال أمامها سنتان لتأخذ على نفسها العهود الأخيرة. كان ذلك في فصل الربيع من العام 1941.

في الأسبوع المقبل توجهت بيتا إلى المصرف لتسحب مبلغاً صغيراً من المال بهدف شراء بعض الحاجيات، حيث أرادت أن تبتاع قماشاً لتصنع منه فساتين صيفية لدافني، وكان أسهل عليها أن تدفع ثمن المشتريات نقداً بدل تحرير شيكات، بالرغم من ندرة محال بيع الأقمشة في تلك الأيام، إذ دفعت الحرب بالعديد من المحال إلى الإقفال منذ فترة طويلة. كانت تفكر بما تحتاج إلى شرائه عندما عاد موظف المصرف إليها حاملاً الشيك الذي سلمته إياه بدل المال النقدي.

قال لها ببرودة: "أنا آسف يا سيدتي، لا يمكن صرف هذا الشيك". بدا جلياً وجود خطأ ما.

"أستميحك عذراً؟ بالطبع يمكن صرفه. لدي مال في حسابي يفوق المبلغ الذي أريد الحصول عليه". ابتسمت في وجهه وطلبت منه أن يتفقد الأمر من جديد.

أعاد إليها الشيك دون أن ينطق أي شيء. لقد أدرك أنه قرأ الملاحظة جيداً من المرة الأولى. إذ لا تشوب هذه الملاحظات أي أخطاء. كان المدير قد كتب هذه الملاحظة بنفسه، ولم ينو الموظف أبداً معصية أمر المدير.

"لقد تم إقفال حسابك".

"هذا سخف. بالطبع لم يُقفل". شعرت بيتا بانزعاج من الخطأ الذي اقترفوه، وأوشكت على استدعاء مدير المصرف عندما لاحظت وجود خطر في عيني الموظف. "من أقفل الحساب؟"

أجابها على الفور: "السلطة". فحدقت فيه فاتحة فمها ثم أغلقته من جديد. أعادت وضع الشيك في حقيبتها، واستدارت وخرجت بأقصى سرعة ممكنة.

فقد كانت تدرك جيداً معنى هذا الأمر. لقد أفشى أحد ما عنها للسلطات. لم يخطر من بالها سوى مينا، خادمة والديها السابقة. إذ إنها

الوحيدة التي تعرفت إليها. أو ربما سمعوها تناديها بالسيدة ويتغينشتاين وتحرّوا الأمر. على أي حال وقعت الواقعة وأقفلوا حسابها، وذلك من دون شك لأنهم أيقنوا أنها ابنة ويتغينشتاين. إذ ليس هناك أي سبب آخر يدعوهم إلى إقفال حسابها. وحدها مينا تعرفها، بالرغم من أن بيتا لم تعترف لها بشيء.

غادرت بيتا المصرف بسرعة، ثم لوّحت لسيارة أجرة في الشارع، وبعد خمس دقائق وصلت إلى المنزل. لم يخطر لها أدنى فكرة ما عساها تفعل، ما إذا وجب عليها الانتظار لترى ما قد يحدث، أو ربما يجدر بها المغادرة هي وابنتها على الفور. وفي حال غادرتا إلى أين عساهما تتوجهان؟ فكرت في آل توبيلي ولكنها لم تشأ أن تعرضهما للخطر، بالرغم من تعبير جيرار عن مدى تعاطفه مع من يتعرضون للظلم. فالأسف لحال المظلومين أمر وتقديم المخبأ لهم أمر آخر كلياً. ولكن ربما يسعها المكوث عندهما لليلة واحدة، وعندها يقدم لها جيرار بعض النصح بشأن ما عساها تفعله. لم تكن تمتلك جواز سفر وأدركت أنها لن تتمكن أبداً من اجتياز الحدود هي ودافني. إضافة إلى أنها لا تمتلك الآن أي مال إطلاقاً ما عدا المبلغ الذي تركته لديه منذ فترة والذي لم تشأ استخدامه. إذ ربما تحتاج إليه الفتاتان في وقت لاحق. حاولت بيتا التغلب على خوفها الشديد، فأخذت حقيبتين وبدأت توضب أمتعتها. وضعت في إحداها مجوهراتها وبعض الملابس، ثم توجهت إلى غرفة دافني وبدأت برمي الأغراض في الحقيبة وعندها وصلت دافني من المدرسة. لحظة وقعت عيناها على وجه والدتها أدركت أن أمراً فظيعاً قد حدث.

سألتها وهي تبدو مرتعبة: "ماما ما الذي تفعلينه؟" لم يسبق لها أبداً أن رأت والدتها على هذه الحالة. كان وجهها يضج بالذعر. لطالما خشيت بيتا أن يأتي عليهما مثل هذا اليوم وإذا به قد أتى.

"سنغادر المنزل. أعطني أي غرض تحتاجين إليه ويتسع في هذه الحقيبة". كانت يداها ترتجفان وهي توضب الأمتعة.

"لماذا؟ ما الذي حصل؟ ماما... أرجوك...". فبدأت دافني بالبكاء دون أن تعـرف السـبب حتى. عندها التفتت والدتها لتنظر إليها وقد ظهر في عينيها الألم المتراكم منذ 25 سنة.

"لقـد رأتني امرأة في المصرف في الأسبوع الماضي كانت تعرفني منـذ كنـت صـغيرة ونادتني باسمي ما قبل الزواج في ردهة المصرف. فعـرفوا بأنـنـي مـن آل وينغينشتاين. وعندما ذهبت اليوم إلى المصرف وجـدتُ أنهـم أقفلـوا حسابي. يجدر بنا المغادرة على الفور. أعتقد أنهم سيقومون باعتقالنا".

"آه ماما... لا يسعهم ذلك...". امتلأت عينا دافني بالرعب والصدمة على الفور.

"سيفعلون. أسرعي. احزمي أمتعتك. أريد المغادرة عصر هذا اليوم". كان صوتها مفعماً باليأس في الوقت الذي كانت تحاول فيه دافني استيعاب الأمر برمته. كان أمراً يفوق قدرتها على استيعابه دفعة واحدة.

"أيـن عـسانا نذهب؟" ثم مسحت الدموع من عينيها محاولة التحلي بالشجاعة.

"لسـتُ أدري. لا زلتُ أفكر بالأمر. لعلنا تمكثُ عند آل نوبيلي لليلة واحـدة فـي حـال سمحا لنا. وبعد ذلك نجد حلاً". هناك احتمال أن نظلّ هاربتين لسنوات ولكن ذلك أفضل من أن يتم الإمساك بهما.

"مـاذا عن المقر حيث أماديا؟ هل بوسعنا الذهاب إلى هناك؟" اتسعت حدقتا دافني وهي تحدق بأمها لدى قيامها بوضع حاجياتها في الحقيبة. بدا لهـا الأمر برمته غير منطقي. كان وضعاً يصعب على فتاة بعمر السادسة عـشر أو على أي أحد آخر استيعابه. إذ كانتا على وشك مغادرة منزلهما، ربمـا إلـى الأبد. وهو المنزل الوحيد الذي عرفته دافني في حياتها. فقد عاشت هنا مع أمها وأختها منذ كانت في الثانية من عمرها.

قالت بيتا بتصميم شديد: "لا أريد تعريض أماديا والباقين للخطر".

"هل عندها علم بالأمر؟"

"نعم".

"لم لم تخبريني؟"

"وجدتُ أنك يافعة جداً في السن. إذ كنت في الثالثة عشرة من عمرك فحسب". وعند تفوهها بهذه الكلمات سمعتا الباب يدق. نظرت الاثنتان إلى بعـضهما الـبعض مرتعبتين، ثم حدقت بيتا بابنتها بقوة غير متوقعة. "أنا أحبك. تذكري ذلك. هذا جل ما يهم. مهما حصل فسنظل إلى جانب بعضنا الـبعض". أرادت أن تطلب منها الاختباء ولكنها لم تكن واثقة من صواب هـذا الأمر. ثم سمعتا الباب يدق بقوة من جديد، فجمدت دافني في مكانها وانهالت بالبكاء. كان هذا أسوأ يوم في حياتها.

حاولت بيتا أن تستجمع قواها وتوجهت ناحية الباب. عندما فتحته وجـدت جنديـين معهما شخص من قوى الشرطة واقفون أمام الباب. وجدت أمام ناظريها ما خشيته بالضبط. أرادت الآن أن تطلب من دافني الاختـباء ولكن فات الأوان. إذ كانت واقفة أمام باب غرفة النوم تنظر إليهم.

قـال الـشرطي بصوت مرعب: "أنت موقوفة". ثم نظر إلى دافني وقـال: "كلاكما موقوفتان، لقد أفاد مصرفك عنك. تعالا معنا على الفور". كانت بيتا ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها. ثم صرخت دافني.

فـصاحت بيتا فـي وجهها: "دافني كفى. سنكون على ما يرام". ثم استدارت ناحية الشرطي وسألته: "هل يسعنا جلب أي شيء معنا؟"

"يمكن لكل منكما أن تجلب معها حقيبة واحدة. سيتم ترحيلكما".

كانت بيتا قد سبق ووضبت الحقيبتين. فذهبت لتجلب حقيبتها وطلبت مـن دافنـي أن تجلب الحقيبة التي وضبتاها للتو من غرفتها. بدت دافني مذعورة جداً، فاحتضنتها والدتها بين يديها وشدتها إليها بقوة.

"علينا أن نقوم بهذا الأمر. كوني قوية. تذكري ما قلته لك. أنا أحبك. ونحن مع بعضنا البعض".

"ماما أنا خائفة جداً".

صرخ الشرطي قائلاً: "فلتحضرا في الحال". ثم أرسل الجنديين لجلبهما، وبعد لحظات كانت داغني وبيتا مقتادتين إلى خارج المنزل، حاملتين حقيبتهما، وتجهلان تماماً مصيرهما ووجهتهما.

الفصل الخامس عشر

بعد يومين توجه رجل الدين الموجود في منطقة بيتا لزيارة المسؤولة في مقر الناذرات. فقد سمع بأمر بيتا وابنتها من خادمتها التي أتت إليه باكية. كانت خارج المنزل لحظة حصول الأمر. فأخبرها الجيران بما رأوه. فوجد أنه يجب إعلام أماديا بالأمر. لم يكن واثقاً من سبب اعتقالهما ولكنه كان متأكداً من حصول الاعتقال. قبل التوجه لمقابلة أماديا، قام بالتأكد بنفسه من الأمر بشكل هادئ. وفقاً لمصادره تم اقتياد بيتا وابنتها الصغيرة إلى قاعدة عسكرية خارج كولونيا. عادة يُبقون الناس هناك لأسابيع أو حتى أشهر. ولكن عصر ذلك اليوم تم ترحيلهما بالفعل.

استمعت المسؤولة بصمت إلى ما قاله، وأكدت عليه أهمية الالتزام بالصمت، ولكنها أدركت أنه في غضون فترة قصيرة سينتشر الخبر. إذ يوجد أشخاص في تلك المنطقة يعرفون أن أماديا هنا منذ ست سنوات. لم يساورها أي شك بأن هذه المسألة خطيرة جداً. وبعد التفكير ملياً إثر مغادرة رجل الدين، فتحت درجاً وأخذت منه رسالة وأجرت اتصالاً. كانت بيتا قد أرسلت لها منذ عدة أشهر رسالة تحوي اسماً ورقماً هاتفياً تحسباً لحدوث أمر مثل هذا. إذ كانت بيتا تحاول توقع حدوث الأسوأ دون أن تشعر بالذعر الشديد أو تستسلم للهستيريا. والآن حصل الأسوأ. كان يصعب التصديق أن الحظ قد حالف بيتا وابنتها لهذه المدة الطويلة، أو مدى سوء الحظ الذي مُنيتا به في النهاية.

بعد إقفال الخط، حنَت المسؤولة رأسها، ثم أرسلت وراء أماديا. كانت أماديا تعمل في الحديقة وبدت عليها السعادة لدى دخولها.

"نعم أيتها المسؤولة؟" لم تكن لتتصور سبب استدعائها لها إلى مكتبها. كانت لا تزال تبدو غير مرتبة بعض الشيء نتيجة عملها في الحديقة.

"اجلسي رجاء". أخذت نفساً ورجت الله أن يمدها بالكلمات المناسبة. فهذه المهمة لم تكن بالمهمة السهلة. "كما تعرفين، إننا جميعاً نمر بأوقات عصيبة. والله يختار لنا أقداراً لا نفهمها. يجدر بنا ببساطة اتباع الطريق التي يختارها لنا دون أدنى مساءلة في الطرق التي يختارها لنا".

نظرت إليها أماديا وقد بدا عليها القلق فجأة. "هل اقترفت أي سوء؟"

فأجابتها: "لا أبداً". ثم مدت يدها على طاولة مكتبها لتمسك بيد أماديا. "لدي بعض الأخبار السيئة جداً لك. أنا أخشى أنه ما عن والدتك. فتم اعتقالها هي وأختك منذ يومين. هذا جل ما أعرفه. لقد كانتا على ما يرام عندما شوهدتا لآخر مرة". ولكنهما أدركتا أنه ليس بالإمكان أن تظل امرأة برفقة فتاة يافعة على ما يرام لمدة طويلة بعد الترحيل. عندما سمعت أماديا الخبر، بالكاد أمكنها التنفس. وظل ثغرها فاغراً ولكن ما أمكنها التفوه بكلمة. "أنا آسفة، آسفة جداً. ولكن يجدر بنا الآن اتخاذ قرار بشأنك. فالذي أخشى أمرهما لا بد وأنه يعرف بأمرك. وإن لم يكن يعرف، فلا بد أن أحداً آخر يعلم. لا أريدك أن تتعرضي للخطر بوجودك هنا". هزت أماديا رأسها بصمت، ثم فكّرت بالأخريات على الفور. ولكن جل ما استطاعت التفكير فيه حالياً هما أمها وأختها وفظاعة ما حصل لهما. وتخيلت مدى الخوف الذي لا بد وأنهما شعرتا به. فدافني تبلغ السادسة عشرة من عمرها فحسب، وقد كانت طفلة أماديا المدللة منذ لحظة ولادتها. انهمرت الدموع على وجنتيها وهي تتمسك بيدي المسؤولة، فنهضت الأم عن طاولة مكتبها وأخذتها في حضنها، فغرقت أماديا في البكاء. لم تتمكن حتى من تصور الأمر، فقد كان فظيعاً جداً. فهمست الأم قائلة: "إنهما بين يدي الله الآن. لا يسعنا إلا الصلاة لأجلهما".

"لن أراهما من جديد. آه أمي... لا أستطيع تحمل الأمر...". لم تقو على الكف عن البكاء بين يدي المسؤولة.

"يقتلع العديد من الأشخاص في الجلاء. ولكن أدركت كل منهما أن معظمهم لا ينجون، وليس هناك أي سبيل لمعرفة ما إذا كانت بيتا ودافني ستكونان من عداد المحظوظين. وقد كانت دافني غاية في الجمال، والله وحده العالم ما يمكن لهم أن يفعلوا بها. كان يصعب جداً التفكير في هذا الأمر. باتت المسؤولة تفكر في أماديا. إذ أصبحت من مسؤوليتها. ليس هناك أي سبيل لإخراج أماديا، وكان هذا تحديداً السبب الذي دفعها إلى إجراء المكالمة مع الشخص الذي أوصت به بيتا. ليس أمامها خيار آخر، وقد وافق أن يأتي في غضون ساعة.

قالت المسؤولة بحزن: "سأطلب منك القيام بأمر صعب للغاية من أجلك ومن أجلنا نحن أيضاً. ليس لدي خيار آخر". كانت أماديا لا تزال تحت تأثير الصدمة جراء الخبر الذي سمعته حول والدتها وأختها مما منعها من فهم كلام الأم، ولكنها هزت رأسها لها والتفتت إليها بعينين حزينتين.

"سأطلب منك مغادرتنا بشكل آني فقط. ففي حال بقيت هنا قد تعرضين المقر بكامله للخطر. وعندما تنتهي هذه المعمعة وتعود الحياة إلى طبيعتها تعودين إلينا، وأنا واثقة أنك ستعودين. فأنا لم أشكك يوماً بمدى إخلاصك لحياتنا هذه. أنا أطلب منك المغادرة لهذا السبب. ستظلين واحدة منا حيثما كنت في العالم الخارجي. ولن يتغير شيء". كانت قد نذرت نذورها المؤقتة أربع مرات حتى الآن. وكان يفترض أن تعيد الكرة بعد شهرين. ولا تزال أمامها سنتان لتأخذ على نفسها عهودها الأخيرة. وها هي قد مُنيت بضربة قوية من القدر. لقد خسرتْ والدتها وأختها، ربما إلى الأبد، والآن يتم إبعادها عن المقر. ولكن حتى في ظل حالتها المزرية، أدركت أنه الصواب. إذ إنها تضحية ستقوم بها من أجلهن. وكما قالت المسؤولة إنه ليس لديها لا هي ولا الأخوات أي خيار آخر. فهزت أماديا رأسها موافقة.

سألتها أماديا بصوت متكسّر: "أين عساي أذهب؟" إذ ما لبثت داخل جدران المقر منذ ست سنوات ولم تبارحه قط. وبالتالي ليس لديها أي مكان لتمكث فيه أو تذهب إليه. "لقد بعثت والدتك إليّ برسالة منذ عدة أشهر

نحوي اسم صديق. فاتصلتُ به منذ بضع دقائق. وقال إنه سيحضر إلى هنا في غضون ساعة".

"بهذه السرعة؟" عرفت أماديا من هو هذا الشخص دون أن تسأل عن هويته. كان صديق والدتها الأوحد. كما وكانت بيتا قد طلبت من أماديا أيضاً أن تتصل بجيرار دوبيني في حال حصل أي سوء. وقد قالت أيضاً إنه يحتفظ لها ببعض المال. ولكن ما أمكنها أن تعرضه هو وزوجته للخطر أيضاً. إذ باتت تمثل خطراً على الجميع. "هل سيتسنى لي توديع الأخريات؟" ترددت المسؤولة ثم هزّت رأسها. ففي حال لم تودعهن سيكون وضعاً قاسياً عليها وعليهن على السواء. ثم رنّت المسؤولة الجرس منبهة الأخوات بأن أمراً مهماً قد طرأ ويتوجب عليهن التجمع في قاعة الطعام.

عندما دخلت المسؤولة وأماديا إلى الغرفة وجدتا الجميع مجتمعات. جميع الوجوه التي ألفتها، جميع ناذرات العفة اللواتي عملت معهن وأحبتهن لمدة طويلة. الناذرات الصغيرات في السن، والمسنات، وحتى المقعدات. كان التفكير في هجرهن يُدمي قلبها. ولكن المسؤولة على حق. ليس لديها خيار آخر. فحيثما ذهبت، إلى أي مقر، أو في حال أبقوها هنا، ستظل تمثل خطراً على الجميع. وقد كانت تحبهن جداً، الأمر الذي منعها من فعل ذلك بهن. إنها مضطرة إلى تركهن، ولكن كما قالت المسؤولة، أدركت أماديا أنها ستعود يوماً ما. إذ هذه هي الحياة التي تريدها. هذا هو بيتها.

لم تقدم المسؤولة أي تفسيرات. بل لم تقل شيئاً. إذ مجرد العلم بالظروف التي دعت أماديا إلى الرحيل من شأنه أن يضعهن تحت الخطر. وفي حال أتت الشرطة بعد حين، فعندها ستجد أن الناذرات لا يعلمن شيئاً. وواقع رحيلها سيبرئهن من أي ذنب. وإن اضطر أحد إلى دفع الثمن، فستكون المسؤولة هي التي ستدفعه ولا أحد سواها. سارت أماديا ببساطة وسطهن، تعانق كل واحدة وتقبلها، وتقول لهن واحدة تلو الأخرى بكل لطف: "باركك الله يا أختاه". هذا جل ما قالته، ولكن الجميع لدى مشاهدتهن ما تقوم به أدركن أنها على وشك الرحيل.

"استغرقها الأمر نصف ساعة حتى فرغت من توديع الأخوات، ولم تعد إلى غرفتها لتأخذ أغراضها. إذ لم تكن تملك أي شيء لتأخذه. لم تجلب معها أي شيء وبالتالي لن تأخذ معها أي شيء عند مغادرتها. والآن وجب عليها العودة إلى عالم لم تعد تفهمه ولم تره منذ أمد طويل. عالم لم تعد تعيش فيه لا أمها ولا أختها، ولا تملك فيه منزلاً ولا ممتلكات ولا أي إنسان. جل ما كان لديها صديق والدها الذي وصل بعد أن انتظرته في مكتب المسؤولة بعينين مثقلتين بالحزن. دخل جيرار دوبيني إلى المكتب واحتضن أماديا بلطف.

همس لها قائلاً: "أنا آسف جداً يا أماديا. لم أقوَ على التصديق أن بيتا ووالدتك قد رحلتا". ونظراً إلى ما سمعه، وجد أنه من غير المحتمل أن تظلا على قيد الحياة، ولكنه لم يقل لها أي شيء من هذا القبيل الآن.

سألته بلطف وهو ينظر إليها: "ماذا عساي أفعل؟" كان قد نسي مدى جمالها الباهر، وقد ازدادت جمالاً الآن. حتى في ظل كآبتها الشديدة، كان وجهها يشع نوراً وتتسم عيناها بعمق شديد. بدت أنها تشع نوراً من الداخل وقد تسنى له رؤية أنها إنسانة مؤمنة جداً. بدا خروجها من المقر مأساة حقيقية وخسارة جسيمة بالنسبة إليها، نظراً إلى أنها ستفقد الأخريات اللواتي عاشت معهن. لم تمتلك أدنى فكرة كيف عساها تتأقلم مع العالم بعد هذه المدة الطويلة التي قضتها في المقر. وقد أثار هذا الأمر قلق المسؤولة على حدٍّ سواء. بدت أماديا في حالة صدمة لا توصف وهي تنظر إليه.

قال بهدوء: "سنبحث هذا الأمر الليلة". كان لديهما الكثير من الأمور ليتباحثا فيها. كان باب المقر قد فتح له، فأدخل السيارة وركنها خلف الجدران. إذ أراد من أماديا أن تستلقي على أرض سيارته، وتغطي نفسها بدثار حتى لا يراها أحد تغادر المقر. لا يمكن لأحد أن يشك بأنه يغادر المقر برفقة واحدة من نزيلاته. وإن جاؤوا يسألون عنها يوماً ما، بوسع المسؤولة أن تقول لهم ببساطة إنها رحلت. إذ لا تدين لهم بأي تفسير آخر، ولن تعمد إلى إعطائهم أي تفسير على أي حال. وعندئذ هي نفسها أن

يكون لديها أدنى فكرة عن المكان الذي رحلت إليه أماديا. بالرغم من أنهن سيتذكرنها دوماً في صلواتهن إلى أن تعود يوماً.

ذكرتها المسؤولة قائلة: "يجدر بك ارتداء ملابسك الآن". وبعد وهلة توجهت أماديا إلى غرفة الملابس. شعرت عندما كانت تخلع رداء المقر وكأنها تسلخ جلدها عن جسمها. إذ باتت كل قطعة منه أشبه بجزء منها. وبعد أن طوت الرداء ووضعته على الطاولة، وقفت وحدها ترمقه بنظراتها. كانت الأخوات قد تركن لها ثوباً، ومعطفاً، وحذاء، وقبعة صغيرة بشعة، وبعض الملابس الداخلية.

عندما ارتدت الملابس وجدت أن أياً منها لا يناسبها قياسه ولكنها لم تبال. إذ لم يعد أي شيء هذا أهمية بالنسبة إليها. فقد رحلت والدتها ووالدها وأمستا بين يدي الله الآن، حيثما كانتا. وها هي تغادر المكان الذي التجأت إليه منذ ست سنوات، المكان الذي عاشت وعملت وكبرت فيه، بدا لها الأمر أشبه بمغادرة رحم الأم. قامت بإقفال أزرار الثوب الذي وجدته قصيراً جداً عليها، وانتعلت الحذاء ووجدته ضيقاً جداً. إذ إنها كانت تنتعل الصندل منذ ست سنوات، ووجدت غرابة في انتعال حذاء من جديد. وقد تفاجأت حينما لاحظت مدى نحافتها بعد أن عادت وارتدت الملابس العادية من جديد. إذ لم تلاحظ هذا الأمر البتة عندما كانت ترتدي رداء المقر. لقد كان شعرها قصيراً كحاله منذ ست سنوات. شعرت وكأنها وحش في تلك الملابس البشعة، بعد أن كانت ترتدي رداء المقر البسيط والجميل. وقد تاقت إلى ارتدائه من جديد، وتساءلت كم سيطول بها الأمر حتى تعود إلى المقر. لا يسعها الآن سوى الدعاء كي تعود قريباً. لم يكن لديها أي رغبة بالعودة إلى العالم، في الواقع كانت لتفعل المستحيل كي لا تعود.

كان جيرار ينتظرها في الباحة، حيث يقف قلقاً بجانب سيارته. إذ أراد أن يعود إلى مزرعته بأسرع وقت ممكن. كان قد سبق وتكلم مع فيرونيك حول هذا الأمر وقد وافقته تماماً. اعتبرا الأمر خدمة لبيتا وأنطوان اللذين كانا صديقين حميمين لهما، بالرغم من أن هذا العمل تخطى

حدود الصداقة بكثير. ولكنه كان يتعلق بما هو أكثر من الصداقة. كان يتعلق بما هو صائب، حيث إن الكثير من الأمور التي تحدث في تلك الأيام لم تكن بالصائبة. في الواقع، لم يكن أي مما يحدث صائباً.

كان واقفاً يتحدث بهدوء مع المسؤولة، وقد عادت الأخريات إلى أعمالهن. لم ير أحد أماديا وهي تصعد في السيارة وتستلقي على الأرض في الخلف، وقد غطاها بدثار للحصان رائحته تشبه رائحة الاصطبلات ولكن هذه الرائحة جلبت لأماديا ذكريات سعيدة. قبل أن يقوم بتغطيتها، نظرت إلى المسؤولة للمرة الأخيرة فتقاطعت عينا المرأتين وتعانقتا.

"باركك الله يا بنيتي. لا تقلقي. ستعودين إلى هنا قريباً. وسنكون بانتظارك".

"باركك الله... أنا أحبك...".

فهمست لها قائلة: "أنا أيضاً أحبك". ثم قام جيرار بتغطيتها بلطف، وشكر المسؤولة التي وقفت تراقبه وهو يرجع بسيارته بتأن خارجاً من الباحة ومتوجهاً إلى مزرعته دون توقف. قاد السيارة بسرعة عادية وكأنه لا يقوم بأي أمر خاص، وبقيت عيناه مسلطتين على المرآة الأمامية. أعطى في المقر سلة كبيرة من الفاكهة والخضار ليبرر سبب قدومه إلى المقر، ولكن لم يتبعه أحد. ما كانوا ليشغلوا أنفسهم بالبحث عن ناذرة شابة. وحتى لو أتت الشرطة لتتحرى عنها، فسينسون أمرها سريعاً. إذ لم تكن تمثل خطراً كبيراً عليهم وقد أدركوا هذا الأمر جيداً. وكذلك الأمر بالنسبة لبيتا ودافني، ولكن بمجرد أن تم الإفشاء عن أمرهما لم يكن أمام الشرطة أي خيار سوى الإقدام على عمل ما بهذا الصدد. في حالة بيتا كان يوجد منزل ومال ليأخذاه. ولكن في حالة أماديا لم يكن لديها سوى الملابس التي ترتديها والسبحة التي أعطتها إياها المسؤولة لدى مغادرتها المقر.

دخل جيرار بسيارته إلى مدخل مزرعته وتوجه إلى الخلف. كان وقت غداء ولم يكن أحد موجوداً في الأرجاء. فالكل إما يتناولون الطعام أو مشغولون بالعمل. فاصطحب أماديا إلى غرفة نومه. كانت فيرونيك

بانتظارهما هناك، فاحتضنت الفتاة بين ذراعيها وبكيتا على كل ما فُقد وكل الأهوال التي حدثت. أقفل جيرار باب الغرفة بهدوء. كان قد أخبر الخادمات إن زوجته تعاني من صداع أليم ولا يجدر بأحد منهن إزعاجها. كان لديهم الكثير ليتكلموا بشأنه. ولكن الآن وجب على أماديا التعافي من الصدمات المتعددة التي منيت بها منذ الصباح. كانت قد خسرت كل شيء، والدتها وأختها والمقر. لقد خسرت طريقة الحياة الوحيدة التي عرفتها منذ ست سنوات وجميع الأشخاص والأماكن التي عرفتها منذ أيام الطفولة. كانت إلى درجة تفطر القلب، وقد انفطر قلبها بالفعل، فاحتضنتها فيرونيك بين ذراعيها مواسية إياها.

الفصل السادس عشر

ظل جيرار وفيرونيك يتحدثان مع أماديا حتى وقت متأخر من الليل. انتظروا تحول الخدم جميعاً إلى غرفهم، وعندها نزلت فيرونيك إلى المطبخ بنفسها وحضرت لأماديا العشاء. بالكاد أمكنها تناوله. وقد مر عليها ست سنوات دون أن تتذوق اللحم، فشعرت بالضياع الكامل وهي تحدق بطبق النقانق والبيض الذي حضرته لها فيرونيك. وأكثر من ذلك شعرت وكأنها عارية بدون رداء المقر. كانت لا تزال ترتدي الملابس التي لا تناسب مقاسها والتي أخذتها من المقر. ولكن كان ذلك أقل ما تواجهه من مشاكل. كان جيرار قد قضى الليل بطوله يفكر بما عساه يفعل بشأنها.

كان هو وفيرونيك متفقين تماماً على وجودها معهما. وقد أدركا أنهما لن يتمكنا من إبقائها عندهما إلى الأبد، ولكن، على الأقل في الوقت الراهن، سيخبآنها لأطول مدة ممكنة. كان لديهما في أحد الأبنية مخزن مقفل، يضم شباكاً صغيراً. وقد وثق جيرار تماماً أن أحداً لن يجدها هناك. بوسعها النزول عندهما ليلاً للحصول على بعض الهواء والفسحة. وباقي الوقت أي خلال النهار بوسعها أن تظل هناك. حتى إن ذلك المكان يحوي حماماً صغيراً.

"ولكن ما عساهم يفعلون بكما في حال وجدوني؟"

قال جيرار ببساطة: "لن يجدوك". عندئذ كانت تلك أفضل خطة يسعهما التفكير فيها، فشعرت أماديا بالامتنان لهما.

استحمت في غرفة فيرونيك تلك الليلة، وبعد ذلك ذُهلت عندما رأت نفسها في المرآة، فهي لم تنظر إلى انعكاس صورتها منذ ست سنوات،

وتفاجأت عندما وجدت نفسها وقد كبرت إلى هذه الدرجة. فقد أصبحت امرأة في غضون ست سنوات. كان شعرها الأشقر قصيراً، حيث اعتادت على قصّه بنفسها كل شهر، دون النظر إليه. فبدا منظره سيئاً ولكن لم يهمها هذا الأمر البتة. كانت تشعر بالضيق الشديد لوجودها في العالم الخارجي، إلا إنها تدرك بكل كيانها أنها تنتمي إلى المقر، ولكن كانت هذه هديتها إليهن، أن تخرج إلى العالم حتى لا تمثل خطراً عليهن. كان ثمناً بخساً توجب عليها دفعه مقابل الحفاظ على سلامتهن، وتضحية كانت مستعدة أن تقوم بها. ناهيك عن ذكر التضحية التي كان آل دوبيني يقومان بها.

بحثت فيرونيك في خزانة ملابسها لتجد لها ما تلبسه، فوجدت تنورة طويلة زرقاء وقميصاً، كانا بقياسها تماماً، كما وارتدت ملابس داخلية، وانتعلت صندلاً في قدميها. شعرت أماديا بالإثم وهي ترتدي هذه الملابس، فقد بدت أجمل بكثير من الملابس السابقة التي كانت ترتديها. ولكنها قالت لنفسها وهي ترتدي الملابس إنها تنفذ العهود التي أخذتها على نفسها. كانت تطيع المسؤولة التي طلبت منها الخروج إلى العالم من جديد، إلى أن تسمح لها العودة إلى المقر دون أن تعرض أخواتها للخطر. ولكنها شعرت بالحزن عند اصطحاب جيرار لها إلى المخزن في أعلى المبنى. كان قد جلب فراشاً من مخزن آخر ووضعه لها على الأرض إضافة إلى وسادة ومجموعة من الأغطية.

قال لها بلطف وهو يقفل الباب ويوصده: "أراك في الغد". ثم استلقت على الفراش. كانا يعاملانها بلطف. استلقت على الفراش ولم يغمض لها جفن، فظلت تصلي لأجل والدتها وأختها طيلة الليل. قضت اليوم التالي في الصلاة أيضاً، كما كانت لتفعل في المقر. أتى إليها جيرار مرة واحدة خلال النهار جالباً لها الطعام والماء. ومع حلول الليل، فتح لها الباب من جديد وأنزلها إلى غرفة النوم حيث استحمت من جديد وحضّرت لها فيرونيك العشاء.

تحولت هذه الأمور بمثابة الشعائر اليومية بالنسبة إليهم جميعاً حتى حلول فصل الصيف. وفي شهر أيلول، ازداد شعرها طولاً حتى وصل إلى حدود كتفيها. فعادت تشبه نفسها كما دخلت المقر وإنما أكبر سناً بقليل. لم تصلها أي أخبار عن والدتها وأختها. وقد أدركت أنه يُسمح لمن يتم ترحيلهم بإرسال بطاقات معايدة إلى أحبائهم وأقاربهم في بعض الأحيان من أجل طمأنتهم على حالهم، ولكن لم تصلها أي بطاقة معايدة قط، لا من بيتا ولا من دافني. كان جيرار قد تفقد هذا الأمر في المقر، ووجد أنه لم يصلهن أي بطاقات من أجل أماديا. ولحسن الحظ لم تسأل السلطات عنها أيضاً. لقد اختفت أماديا بكل بساطة وتم نسيان أمرها.

أما على جبهة القتال، فقد أقدمت القوات الألمانية على اجتياح روسيا في ذلك الصيف، وحصلت العديد من المجازر الجماعية. مضى خمسة أشهر على تخبئة آل دوبيني لأماديا في مزرعتهما وحتى الآن لم يسأل عنها أحد. وظلت الأمور تسير بشكل طبيعي في المزرعة. لذا لم يرَ جيرار وفيرونيك سبباً يدعوهما إلى الكف عن تخبئتها، بالرغم من أن الثلاثة أدركوا أنه لو اكتُشف أمرهم فسيتم قتلهم أو ترحيلهم. ولكن عندما عرضت أماديا عليهما مغادرة المزرعة، أصرا على بقائها عندهما. لم يكن لديهما أولاد وكانت هذه مخاطرة شعرا أنهما على استعداد لتحمل وزرها من أجلها ومن أجل ذكرى والديها.

أدركت أماديا أنه لا بد وأن هناك أناس آخرون مختبئين كحالها في أماكن أخرى، وقالت إنها في حال اضطرت إلى مغادرة المزرعة ستسعى لإيجادهم. فأصرا عليها أن تبقى، فوافقت على البقاء لعدم وجود أي حل آخر. لم يكن لديها أي مكان آخر لتذهب إليه.

ظلت الأمور على ما هي عليه لعدة أشهر مقبلة، وفي إحدى الليالي عندما فتح جيرار لها الباب صُعقت عندما سمعت بأمر حادثة بيرل هاربور. أعلنت الولايات المتحدة الحرب على اليابان، وبعدها بأربعة أيام على ألمانيا، بعد أن أعلنت الحرب عليها. عندئذ كان قد مضى ثمانية أشهر

أخرجت الحصان إلى الخارج وهو ينفث البخار من أنفه. لم يكن ثمة حواجز عسكرية، وكان جيرار قد أخبرها أن الجنود نيام. لم يكن هناك ما تخشاه لدى مغادرتها للمزرعة. جل ما وجب عليها فعله هو قطع الخمسة عشر ميلاً وصولاً إلى المزرعة التي تقصدها قبل شروق الشمس. امتطت الحصان بكل سهولة. وعند جلوسها على السرج تذكرت السنوات التي كانت تمتطي فيها الخيل برفقة والدها. كانت ذكرى طيبة بالنسبة إليها، وغادرت المكان ببطء. عند خروجها من المزرعة سمعت صهيل الخيول، إذ كانوا متنبهين لها ولكن بدا واضحاً أن الجنود لم يسمعوها. أفلحت في الهروب بسهولة، واستمتعت بقطعها للمسافة على ظهر الخيل. كان أول طعم للحرية تتذوقه.

أخرجت الخريطة من جيبها بعد نصف ساعة، وتمكنت من قراءتها بسهولة تحت ضوء القمر، ورأت أول علامة على الطريق. أصبحت على بُعد أميال قليلة فحسب. كانت السماء ملبدة بالغيوم بعض الشيء ولكنها أدركت أنها ما تزال بحاجة لبعض الوقت للوصول إلى هناك قبل شروق الشمس.

كان لا يزال أمامها ميل واحد لتصل إلى المزرعة حينما لاحظت فجأة ضوءاً إلى يسارها. أدركت أنها سيارة مخبأة في أجمة، ثم سمعت صوت إطلاق رصاص. لوهلة لم تكن واثقة ما إذا وجب عليها الرجوع أو التقدم إلى الأمام. ثم دونما أي تفكير ركلت الحصان وانطلقت مسرعة قاطعة الميل الأخير، والسيارة تلحق بها بأقصى سرعة. كانت تصل إلى هناك عندما أدركت ما الذي تقوم به. كانت تقود الشرطة إلى مكان المزرعة مباشرة. استحال عليها أن تسبقهم إلى المزرعة. ثم فجأة توقفت شاحنة قبالتها، وتوقفت السيارة التي كانت تتبعها وراءها. وتم حشرها في الوسط.

صرخ بها رجلان: "توقف". فتوقف الحصان وسط هواء الليل البارد وهو ينفث البخار من أنفه. كانت قد دفعته للتقدم بسرعة شديدة في نصف

الساعة الأخيرة. "من هناك؟" جمدت على صهوة الجواد الذي كان يكثر من تحركه وعكفت عن الإجابة.

سلطا ضوءاً ساطعاً عليها، وصُعقا عندما وجداها امرأة. فقد كانت تمتطي الجواد وتدفعه إلى الإسراع على الطرقات الوعرة كالرجل. اقترب منها أحد الرجلين وقد خطر لها الهرب منهما. ولكنهما كانا ليطلقا النار على الحصان بكل تأكيد أو عليها هي. أدركت حينها أنها لن تفلح أبداً في الوصول إلى المزرعة، وفي الصباح سيصل هذا الخبر إلى جيرار. والأسوأ من ذلك سيكتشفان من خلال فصيلة الحصان أنها تمتطي أحد أحصنته. فقررت سريعاً أنها لن تعمد إلى توريطه مهما حصل.

صرخ الجندي في وجهها قائلاً وهو يمد لها يداً ويسدد إلى وجهها مسدساً باليد الأخرى: "أوراقك، أوراقك".

"ليس لدي أوراق". إذ لم يكن لديها في المقر أوراق ليعطوها إياها. ولم يكن لديها أي أوراق منذ دخلت المقر. لقد كانت بمنأى عن العالم لمدة ست سنوات.

"من أنت؟" فكرت في اختراع اسم ولكن لم يكن ثمة جدوى من فعل ذلك أيضاً. بوسعها البوح لهما باسمها الحقيقي.

قالت لهم بوضوح: "أماديا دو فاليراند".

سألاها دون إبعاد المسدس عن وجهها تحسباً لهروبها: "حصان من تمتطين". كان الحصان قوياً ومتوتراً ونشيطاً، واستطاعا بكل سهولة رؤية أنها فارسة ماهرة. حتى بعد كل تلك السنوات، لم تجد صعوبة في التحكم بأفضل أحصنة جيرار. كان والدها قد أفلح في تعليمها.

قالت وهي تبدي صلابة: "لقد أخذته". في حين كان جسدها بأكمله يرتجف. إذ لم يخطر لها أبداً ما يمكن لهما أن يفعلا بها. "كان والدي يعمل في الاصطبلات. لقد سرقته". لقد أيقنت أن عليها حماية جيرار وفيرونيك بأي ثمن. لم يكن بمقدورها دفعهما إلى التفكير بأن آل دوبيني مداها بالحصان.

"إلى أين تذهبين؟"

"لزيارة بعض الأصدقاء". بدا جلياً أنهما لم يصدقا كلامها ولم يكن ثمة سبب يدعوهما إلى تصديقها. رجت الله فحسب ألا يجدا الخريطة التي بحوزتها والتي تقودهما إلى المزرعة. كانت قصاصة صغيرة من الورق، ولم تقدم على أي محاولة لإخراجها من جيبها.

"انزلي عن ظهر الجواد". فنزلت بسهولة عن صهوة الجواد وحملت اللجام إلى أن أخذه منها أحد الجنديين وأبعد الجواد في الوقت الذي وجه فيه الجندي الآخر المسدس إلى وجهها. جمدت في مكانها متسائلة ما إذا كان سيطلق النار عليها. وفاجأت لمدى صلابتها وعدم شعورها بالخوف. إذ شعرت أنه ليس لديها ما تخسره، ستخسر حياتها فحسب، والتي تعتبر ملكاً لله. وإن شاء استعادتها فسيفعل.

دفعاها بعنف ورمياها في صندوق السيارة وقبيل انطلاق السيارة رأت أحد الجنديين يمتطي ظهر جواد جيرار ويعود به باتجاه الاصطبلات.

سألها الشرطي الذي يقود السيارة: "كم حصاناً سرقت؟" وقد ظهر شرطي آخر يجلس بجانبه في السيارة.

فكان جوابها: "هذا الحصان فحسب". لم تبدُ سارقة أحصنة، ولكن بدا بشكل ملحوظ أنها تتمتع بمهارات عالية في الفروسية وبجمال باهر.

أخذاها إلى منزل مجاور وتركاها وحدها في غرفة صغيرة. عندها مزقت الخريطة إلى قطع صغيرة جداً ونثرتها في الزوايا تحت السجادة.

بعد ساعتين عادا إليها. كانا قد طلبا منها أن تهجئ اسمها وعندما عادا كانا قد تكلما مع السلطات في كولونيا. تم التحقق في سجلاتها والأهم من ذلك في سجلات والدتها. وقد باتت سجلات والدتها بينة الآن منذ حادثة المصرف.

صرخ أحدهما في وجهها قائلاً: "لقد تم اعتقال والدتك وأختك في شهر نيسان". فهزت أماديا رأسها. كانت تتحلى برزانة وجمال المرأة التي تدرك أنها محمية. وقفت هناك تنظر إليهما بعينيها وهي تقول لنفسها إنها

ترتدي ثوب المقر. كانت تتحلى بسمة غير دنيوية، وقد شعرا بها وهي تنظر إليهما بهدوء.

أعاداها مجدداً إلى كولونيا عصر ذاك اليوم واصطحباها مباشرة إلى المستودع الكبير الذي يحتجز فيه من يُراد ترحيله. لم ترَ في حياتها أو تتصور مثل ذاك المكان. إذ يضم المئات من الأشخاص، مكدسين بعضهم على بعض كالحيوانات. والناس يبكون ويتحدثون ويدفعون ببعضهم البعض إلى الحائط وتجاه بعضهم البعض. كان البعض منهم يشعر بالغثيان ولكن ليس هناك أي مجال ليبارحوا مكانهم، لذا ظلوا واقفين في مكانهم. دفعوها بخشونة في وسطهم، وهي لا تزال تنتعل حذاء الفروسية القديم الخاص بفيرونيك وترتدي الملابس التي ارتدتها ذاك الصباح. تساءلت ما إذا كان هذا الوضع مشابهاً للوضع الذي كانت فيه والدتها وأختها حين تم أخذهما إلى القاعدة العسكرية، ثم تم تحميلهما على متن القطار. وقفت أماديا في مكانها تتلو صلواتها وتتساءل إلى أين عساهم يأخذونها. إذ لم يخبروها شيئاً. وبمجرد أن باتت في المستودع إلى جانب الآخرين باتت مجرد جسد آخر. مجرد شخص يُراد ترحيله.

أبقوها في المستودع ليومين آخرين، وسط البرد القارس والروائح الكريهة جداً التي تنبعث نتيجة القيء، والبول، والعرق، والبراز. لم يسعها سوى الوقوف في مكانها والدعاء. ثم أخيراً قاموا بتحميلهم على متن قطار، دون إخبارهم بوجهة سيرهم. إذ لم يعد للأمر أهمية. كانوا مجرد أجساد. وقد تم رميها إلى جانب جميع الأشخاص الذين تم اعتقالهم بهدف ترحيلهم. كان الناس يطرحون الأسئلة بخوف شديد في الوقت الذي كان يتم فيه تحميلهم على متن القطار ولكن لم تتلفظ أماديا بكلمة. بل كانت تدعو. حاولت مساعدة امرأة تحمل طفلاً صغيراً، ورجلاً مريضاً بدا وكأنه يحتضر. أدركت وهي موجودة وسطهم أنها وُضعت في هذا المكان لسبب ما. مهما كان مقدراً لها، فقد أُرسلت إلى هذا المكان لتشاطرهم هذا الوضع وربما لتساعد أي إنسان أمكنها مساعدته، حتى لو بالدعاء فحسب.

تذكرت الكلام الذي قالته لها المسؤولة في يومها الأول في المقر، وأخيراً عندما غادر القطار المحطة بعد مرور يومين، كان قد أضناها الجوع والتعب ولكن أمكنها سماع صدى صوت والدتها يقول لها إنها تحبها وصدى صوت المسؤولة يردد لها الأمر نفسه.

مات الرجل الموجود بقربها في اليوم الثالث، وفارق الطفل الموجود بين يدي المرأة الحياة بعده بفترة وجيزة. كان على متن القطار أطفال، ونساء، ومسنون، ورجال، وأموات بين الأحياء. وبين الحين والآخر كان القطار يتوقف ويفتحون الأبواب ويحشرون مزيداً من الناس في داخله. لم تدر أماديا إلى أين يتوجه القطار بهم. ولم تأبه حتى لهذا الأمر، وفي الوقت الذي كان القطار يقطع طريقه وسط ألمانيا متوجهاً إلى الشرق. لم يعرف أحد أين يتوجه القطار ولم يعد يهمهم الأمر. لقد سُلبت منهم كل المشاعر الإنسانية. ومهما كانوا عليه من قبل لم يعد له أي وجود. باتوا الآن على متن القطار المتوجه إلى الجحيم.

الفصل السابع عشر

توقف القطار على بُعد 36 ميلاً شمال براغ، في تشيكوسلوفاكيا بعد خمسة أيام من مغادرته لكولونيا، وذلك في الثالث من كانون الثاني عام 1942. لاحظت أماديا أن اللافتات التي كانت مزروعة على طول الطريق مكتوبة باللغة التشيكية، وكان هذا الدليل الوحيد الذي جعلها تعرف مكان وجودها. لقد كانت رحلة مضنية جداً. ظل بضعة أشخاص يتمسكون بحقائبهم وهم يقفون في صف طويل امتثالاً لأوامر الجنود. وعندما يبطئون في المشي يضربهم الجنود بقسوة بواسطة أسلحتهم. استطاعت أن ترى الآن بفضل الصف الممتد عدة أميال وراءها أن القطار كان يحمل على متنه الآلاف من البشر.

كانت أماديا واقفة بالقرب من امرأتين وشاب. نظروا إلى بعضهم البعض ولم ينطقوا بكلمة. ظلت أماديا طيلة الوقت تتلو الصلاة في نفسها وهي تسير، وقد شغل بالها أمر واحد، وهو ما إذا خاضت والدتها وأختها التجربة ذاتها. كانت تتلو الصلوات بصمت، تماماً كما كانت تفعل على مدى أيام، داعية الله ألا يعرض فرونيك وجيرار لأي خطر بسببها. لم يكن ثمة دليل يشير إلى أنهما خبآها عندهما. لذا أملت أن تسير أمورهما على خير ما يرام. بدوا لها بعيدين كل البعد، وقد كانا فعلاً بعيدين. قال جندي شاب لرجل كان واقفاً خلفها مباشرة: "أعطني هذه". وخلع عنه ساعة يد ذهبية لم يتنبهوا لوجودها في يده في كولونيا. تبادلت هي والرجل الواقف بقربها نظرة، ثم أشاحت بنظرها بعيداً عنه.

قال أحد الحراس لامرأة مسنة بالكاد أمكنها السير بعد عشر دقائق من انطلاقهم: "أنت محظوظة". ثم قال ساخراً: "ستذهبين إلى مدينة

نموذجية. بالكاد تستحقينها". وحينما تعثرت، شاهدت أماديا الرجال إلى جانبي هذه المرأة يساعدونها على النهوض ويساندونها، فقامت بشكرهم. وعمدت أماديا إلى الصلاة من أجل هذه المرأة طيلة ميل أو ميلين من السير. كانت تصلي لأجلهم جميعاً ومن ضمنهم نفسها. وبعد ساعة تقريباً رأوا المكان، وقد كان عبارة عن قلعة قديمة بناها النمساويون منذ مئتي سنة. تم اقتياد الناس لعبور البوابة الرئيسية، وطُلب منهم الاصطفاف لتصنيفهم، في حين كانوا يشاهدون أناساً يتجولون في أرجاء الشوارع الضيقة المرصوفة. كان المكان أشبه بمقر للعزل منه بالسجن، حيث بدا الناس يتجولون في المكان بحرية. كان هناك أعداد لا تُحصى من الناس يقفون ضمن صفوف حاملين أكواب الصفيح ويأكلون العدس. على بُعد نصف ميل، يوجد قلعة أخرى أصغر حجماً تُستخدم كسجن للذين يسببون المتاعب في ذاك المكان. استغرق تصنيف أماديا سبع ساعات.

بعدها أُرسلت إلى مكان تم بناؤه في الأصل ليتسع لخمسين جندياً، ويسكنه الآن 500 شخص. وبالتالي بات يفتقر إلى الخصوصية والفسحة للتحرك، وإلى الطعام ووسائل التدفئة، إضافة إلى الملابس الدافئة. كان السجانون أنفسهم قد بنوا أسرّة يتألف كل منها من ثلاثة طوابق، ووضعوها بشكل متقارب من بعضها البعض لضيق المكان، فبات بإمكان الناس مد أيديهم والوصول إلى بعضهم البعض. التزمت أماديا الصمت حينما دلّها أحد ما على سريرها. نظراً إلى أنها كانت شابة وقوية البنية، تم فرزها لتنام على السرير الأعلى. أما الأضعف والأكبر سناً، فقد تمّ فرزهم ليناموا على الأسرّة المنخفضة. كانت تنتعل في قدميها قبقاباً خشبياً أُعطي لها خلال تصنيفها، بعد أن أخذوا حذاءها العالي الساق وأعطوها أوراق الهوية الخاصة بمكان إقامتها هذا.

في وقت لاحق تلك الليلة وبعد أن خلد الجميع إلى فراشهم ساد المكان صوت موسيقى تُعزف على آلة الهرمونيكا. كان العازف يعزف

ألحاناً فيينية إضافة إلى بعض الأغاني الألمانية القديمة. فتنحسر الدموع في عيون الناس لدى استماعهم إلى الموسيقى...

استلقت أماديا في سريرها تصلي وتستمع إلى عزف الهرمونيكا. ومثلما كانت تستيقظ في مقر الناذرات في الساعة الخامسة فجراً، هنا أيضاً يوقظونهم في هذه الساعة المبكرة. عادت أماديا إلى مركز التصنيف حيث كانت في اليوم السابق من أجل أن يكلفوها بعمل ما.

عندما وصلت أماديا أخيراً إلى الشرطي الذي كان يكلف الناس بمهمات العمل، بدا عليه وكأنه أمضى نهاراً متعباً جداً. توقف لوهلة ونظر إلى أماديا، ثم هز رأسه، ومد يده ليحصل على مجموعة من الأوراق. وقد اصطف بالقرب منه العديد من عناصر الشرطة وراء مكاتبهم، يضعون الطوابع والأختام الرسمية على كل شيء. كانت قد حصلت على أوراق الهوية الخاصة بالمكان في اليوم السابق، فأعطته إياها محاولة أن تبدو أكثر هدوءاً مما كانت عليه.

سألها باشمئزاز موضحاً أنه لا يأبه البتة لأمرها: "ما الذي تجيدين فعله؟"

"بوسعي العمل في الحديقة، والطبخ، والخياطة. وأستطيع مزاولة التمريض بعض الشيء، بالرغم من أنني لست مدرّبة على ذلك".

مازحها قائلاً وهو يرمقها بنظراته من جديد: "قد تشكلين زوجة صالحة لرجل ما". كانت أجمل شكلاً من معظم السجينات اللواتي رآهن، وقد بدت تتمتع بالصحة والقوة، بالرغم من أنها كانت نحيفة وتتمتع بطول فارع.

قالت أماديا بهدوء: "أنا ناذرة عفة"

"ليس هناك وقت لهذا الهراء هنا". استطاعت أن تشعر بتوتره وهو يدون شيئاً ما على أوراقها. "لا بأس". عاد ونظر إليها عابساً. "بوسعك العمل في الحديقة. إن سرقت أيّاً من المزروعات ستُرمين بالرصاص. كوني في الحديقة غداً في الساعة الرابعة فجراً. ستعملين حتى السابعة مساءً". كان عملاً يمتد لخمس عشرة ساعة ولكنها لم تأبه.

عندما استيقظت في الساعة الثالثة والنصف فجراً، توجهت إلى حيث قيل لها إن الحديقة موجودة. وعندما وصلت، وجدت المكان يحوي حوالي المئة محتجز يفيدون الحراس بوصولهم. مدّهم الحراس بالرفوش حيث كان يفترض بهم زراعة البطاطا. ولدى مغادرتهم الحديقة ذاك المساء تم تفتيشهم.

كانت أماديا تعمل بجهد في الحديقة، حيث تفعل ما بوسعها ولكن كان يصعب الحصول على نتائج بالنظر إلى ما كان متوافراً لديهم للعمل به. وفي الربيع، زرعت الجزر واللفت. تاقت إلى زراعة البندورة والخس وغيرها من الخضار، كما كانت تفعل في المقر، ولكن لم يكن هناك حاجة لمثل هذه الأنواع من الخضار.

عندما بلغت أماديا الخامسة والعشرين من عمرها في شهر نيسان، كان الطقس قد تحسن، وتم نقلها إلى ثكنة جديدة أقرب إلى الحديقة. وفي شهر أيار، أتى حارس شاب للعمل في الحديقة، فلفتت أماديا نظره. كان ألمانياً من ميونيخ، وقد اعترف لها عصر يوم من الأيام عندما توقف للتحدث معها أنه يكره وجوده في ذاك المكان. فقد وجد أن المكان قذر وكئيب. كان يأمل أن يتم نقله إلى برلين، ولم ينفك يطلب نقله منذ وصل إلى هنا. سألها وهو يشعل سيجارة: "لم تبدُ عليك دوماً السعادة وأنت تعملين؟" في الوقت الذي نظرت إليه بعض النساء نظرة حسد، ولكنه لم يعرض عليهن أي سيجارة بالرغم من أنه عرض على أماديا أن تأخذ نفخة فلم ترضَ. كان الضابط المسؤول عنه قد غادر باكراً ذاك العصر من أجل حضور اجتماع، وحينها كان يلين الجنود الشبان بعض الشيء إثر مغادرته. كان الجندي الذي يحمل سيجارة ينتظر منذ أسابيع كي تتسنى له الفرصة للتكلم مع أماديا. سألته بفرح: "حقاً؟" وهي تواصل عملها. كانوا يزرعون مزيداً من الجزر ذاك اليوم، فالجزر الذي زرعته حتى الآن سار على أحسن حال.

"نعم، أنت دوماً تبدين كمن يملك سراً". سألها بكل صراحة: "هل لديك حبيب؟" حيث باتت تجمع بين بعض الشبان والشابات علاقات حب.

أجابته أماديا: "لا". ثم استدارت بعيداً عنه. لم تشأ أن تشجعه على الكلام أكثر، وتذكرت تحذير النساء الأخريات لها. كان شاباً طويلاً ووسيماً ويتمتع بملامح حادة وعينين زرقاوين وشعر أسود. يشبه إلى حدٍّ ما لون شعر والدتها. ويفوق أماديا طولاً بكثير، وقد وجدها جميلة إذ تتمتع بلون شعر ذهبي وعينين زرقاوين واسعتين. وقد صح توقعه في أنها لو نظفت نفسها ستبدو امرأة مميزة جداً. حتى هنا كان يسهل رؤية جمالها بالرغم من الملابس القذرة التي كانوا يرتدونها والشعر المتسخ.

سألها مستفسراً وهو يشعل سيجارة أخرى: "هل كان لديك صديق حميم في ديارك؟"

أجابته أماديا وهي تنأى بنفسها ذهنياً: "لا، لم يكن لدي صديق حميم". لم يعجبها المنحى الذي وصل إليه الحديث، ولم تشأ أن تشجعه في هذا الاتجاه.

"لم لا؟"

وقفت حينها لتنظر إليه وحدقت في عينيه مباشرة دون أي وجل، ثم قالت بكل بساطة: "أنا ناذرة عفة". وكأنها وجهت له بهاتين الكلمتين تحذيراً أنها ليست بامرأة عادية، لتتفادى لفت نظره.

بدا مندهشاً وقال: "لا، لست بناذرة عفة!" لم يسبق له أن رأى ناذرة عفة بقدر جمالها. لطالما وجدهن غير جميلات حين النظر إليهن.

قالت بفخر: "بلى أنا ناذرة عفة". فهز رأسه.

"يا للأسف، هل ندمت في حياتك على هذا الأمر؟ أعني قبل مجيئك إلى هنا".

"لا. إنها حياة رائعة. وسأعود إلى مقر الناذرات يوماً ما".

قال بحزم: "حري بك إيجاد زوج لك وإنجاب الأطفال". كلمها وكأنها أخته الصغرى ويقوم بتأنيبها على كونها تتصرف بغباء. وهذه المرة أضحكها كلامه.

كان الحارس يدعى ويليهلم.

قال بجدية: "أتمنى لو كان باستطاعتي إعطاءك أشياء أخرى مثل سترة دافئة وحذاء متين... وسرير دافئ".

قالت وهي تقصد ما تقوله: "أنا على ما يرام على ما أنا عليه".

كانت قد بدأت تعتاد على التعب، تماماً كما اعتادت على الحياة المتعبة في مقر نادلات العفة. فهذه ليست سوى تضحيات بسيطة تقوم بها. بهذه الطريقة يسهل عليها أكثر تقبّلها. أما الأمر الوحيد الذي كرهته ولم تتمكن من الاعتياد عليه هو رؤية الناس يموتون. وقد كانت تحدث الكثير من حالات الوفيات ولأسباب مختلفة، حالات مرض وعنف أيضاً.

قال بحزن: "لا يجدر بك التواجد هنا". وقد وافقته الرأي، ولكن هذه حال الجميع هنا. لم يكن بوسع أي منهما القيام بأي شيء حيال الأمر. لا هو ولا هي. "هل لديك أقارب في مكان ما؟" فهزت رأسها نافية.

قالت وكان للأمر أهمية الآن، إلا أنه لم يكن له أي أهمية: "توفي والدي وأنا في العاشرة من عمري. كان فرنسياً. ولم أقابل أقاربه قط". ولكنها قالت هذا الكلام رداً على سؤاله. ثم خفض صوته وتكلم بهمس شديد حيث بالكاد أمكنها سماعه.

"يوجد مقاومون تشيكيون على التلال. لا تنفك تسمع عنهم طيلة الوقت. بوسعهم مساعدتك على الهرب". حدّقت أماديا فيه متسائلة إن كان ينصب لها فخاً. هل كان يحاول حثها على الهرب حتى يتم إطلاق النار عليها وهي تلوذ بالفرار؟ هل كان اختباراً؟ هل كان مجنوناً؟ كيف يخطرنّ له أنها قد تقدم على الهرب؟

ردّت عليه همساً وهي متأثرة بكلامه ولكن متشككة به: "هذا مستحيل".

"ليس بالمستحيل. فغالباً ما لا يكون هناك حراسة على البوابة الخلفية في وقت متأخر من الليل. إنهم يبقونها مقفلة، وفي حال وجدت المفاتيح بوسعك الفرار بكل سهولة". فقالت له بجدية: "وأتعرض لإطلاق نار".

"ليس بالضرورة. بوسعي ملاقاتك هناك. فأنا أكره هذا المكان". فحدقت به غير مدركة بما عساها تجيبه وغير مدركة أيضاً ما عساها تفعل

في حال هربت. أين عساها تذهب؟ لم تكن تعرف أحداً في تشيكوسلوفاكيا، كما ولا يسعها العودة إلى ألمانيا. كانت أوروبا بأكملها محتلة من قبل القوات الألمانية. كان أمراً لا رجاء منه وقد أدركت ذلك جيداً. ولكنها فكرة مثيرة للاهتمام. "بوسعي الذهاب معك".

"إلى أين؟" من الممكن أن يتعرض كلاهما لإطلاق النار نتيجة ما يقولانه، في حال سمعهما أحد ما عرضاً.

قال: "عليّ التفكير في الأمر". ثم ظهر الضابط المسؤول وناداه. خشيت أماديا أن يتعرض للمتاعب نتيجة تكلمه معها. ولكن أطلعه الضابط على بعض الأوراق وضحك بصوت عالٍ جداً فضحك معه ويلهيلم. بدا واضحاً أن كل شيء على ما يرام. ولكن لم يسعها إخراج كلامه من رأسها. وكانت قد سمعت قصصاً عن هروب الرجال ولكن ليس النساء. إذ حصل أن مجموعة من الرجال خرجوا منذ فترة متنكرين على هيئة طاقم عمل متوجهين إلى مكان ما، ولم يكن الحراس منتبهين للأمر، وافترضوا أن معهم تصريحاً للعمل في الخارج. قالوا إنهم ذاهبون إلى القلعة القريبة للعمل في السجن، ثم عمدوا إلى الهروب، وهربوا بكل بساطة. فتم إلقاء القبض على أغلبهم وقتلهم. ولكن أفلح البعض بالهرب نحو التلال كما قال ويلهيلم. كانت فكرة ممتازة. وبالطبع ضمت في طياتها الهرب معه، الأمر الذي يعتبر مشكلة كبيرة بحد ذاتها. لم تكن لديها أي نية بأن تصبح عشيقته أو زوجته حتى لو ساعدها على الهرب.

استلقت تلك الليلة في فراشها ولم تقوَ على التفكير سوى بالهرب، ولكن بمجرد أن تصل إلى ما وراء البوابة ماذا عساها تفعل؟ ليس ثمة أمل أن تفلح هذه الخطة. كان قد ذكر المقاومين التشيكيين في أعلى التلال ولكن كيف يفترض بهم الوصول إليهم؟ هل عساهم يتسلقون التلال ثم يلوّحون بعلم أبيض؟ لم يبدُ أمراً ممكناً على الإطلاق. ولكن مجرد فكرة الهرب شغلت بالها لأيام. ومع كل يوم يزداد ويلهيلم لطافة ويمضي مزيداً من الوقت معها. إذ يحاول أن يبني علاقة رومانسية بريئة معها، ولم يكن لا

المكان ولا الزمان المناسبين ولا كانت أماديا المرأة المناسبة أيضاً، ولكنها لم تعد تقول له هذا الأمر. ربما يسعهما الهرب سوياً كصديقين. كانت فكرة مستثارة، مع ذلك كانت تدرك أنه ليس هناك من مكان في العالم يمكن أن يكون آمناً لهما. سيعتبران فارين، وهروبهما سوياً سيضعهما تحت خطر مزدوج.

كانت تنتشر شائعات مفادها أن شيئاً ما سيحدث في نهاية أيار. في البداية لم يعرف السجناء ما عسى هذا الأمر يكون، ولكن كان الحراس يتهامسون في ما بينهم. لقد تم إنزال اثنين من الوطنيين التشيكيين الذين يخدمون مع القوات الإنكليزية بالمظلات في الريف بالقرب من براغ. وحاولوا في السابع والعشرين من أيار اغتيال هايدريخ، وبالنتيجة فتحت أبواب جهنم في براغ.

عصر التاسع من حزيران أتى ويليلم إليها في الحديقة، مشى بمحاذاتها ببطء دون أن ينظر إليها وتلفظ بكلمة واحدة. "الليلة". استدارت ناحيته ونظرت إليه. لا يعقل أنه يعني ما يقوله. لعله يعقد صفقة معها، ولكن في الوقت الذي كانت تنهي فيه عملها توقف بالقرب منها وكأنه يتفقد عملها وشرح لها ما سيقومان به همساً وسريعاً. "سيقتحمون بلدة ليديس الليلة. إنها تبعد 20 ميلاً عن هنا وهم بحاجة إلى رجالنا. سيعتقلون جميع النساء ويقتلون جميع الرجال ويحرقون البلدة ليلقنوا الآخرين درساً. سيذهب ثلثا رجالنا إلى هناك، وسيغادرون في الساعة الثامنة. أو في التاسعة كحدٍّ أقصى وسيستقلون معظم الشاحنات والسيارات. والقني عند البوابة الخلفية في منتصف الليل. سأجد المفاتيح".

"إن لمحني أحد وأنا أهرب سيطلق عليّ النار فوراً".

"لن يكون هناك أحد ليطلق النار عليك. ابقي قريبة من الثكنات ولن يراك أحد. وفي حال أوقفوك أخبريهم أنك ذاهبة عند المرضى". نظر إليها حينئذ وعلى وجهه هيئة الواثق من كلامه، ثم هزّ رأسه وكأنه يبدي موافقته على عملها ثم غادر. أدركت أن ما قاله ضرب من الجنون. كانت خطة

جنونية ولكن لم يكن ثمة شك أنه في حال أتيحت لها الفرصة للهرب يوماً ما فستكون هذه الليلة. وعندها ما عساهما يفعلان؟ ولكنها أدركت أنه مهما حصل عليها أن تحاول.

كانت تفكر في مكان بلدة ليديس في طريق عودتها إلى غرفتها. سيقدمون على قتل الرجال وترحيل النساء والأطفال وإحراق البلدة بأكملها. كانت فكرة مروعة، ولكن من المروع أيضاً البقاء هنا حتى انتهاء الحرب أو الانتقال بموجب الترحيل إلى مكان آخر. كان قد مضى على وجودها هنا خمسة أشهر وقد حالفها الحظ. لم تكن مصابة بالمرض بقدر معظم المساجين. لقد نفدت من خروم الإبر. والآن عليهما أن ينقذا بجلدهما ويخرجا من البوابة. في حال تم إلقاء القبض عليهما قد تقتل وهو أيضاً قد يتعرض للقتل. كان أمامها الكثير لتخسره، ولكن ربما قد تخسر أكثر ببقائها هنا.

سمعت أصوات الشاحنات والسيارات تلك الليلة. لاحظ الآخرون هذا الصوت أيضاً. وحتى عدد الحراس الذين كانوا يتجولون حول الثكنات كان قليلاً بالكاد كان يوجد أحد في المكان. عم السكون المكان، حيث كان المساجين يتصاغرون للكلام، ويقومون بما يُطلب منهم، ويشغلون الأعمال التي تتوجب عليهم، ويعزفون الموسيقى، ويمتثلون لأوامر الحراس. كانت ليلة ساكنة. وفي منتصف الليل نهضت أماديا من فراشها وأخبرت الحارس أنها متوجهة إلى الحمام وأنها تريد تفقد صديق لها في الطابق العلوي في العلية حيث يتم وضع المرضى. فابتسم وأكمل طريقه. إذ إنها لم تسبب له أي متاعب قط وأدرك أنها لن تسبب له أي متاعب الآن. كان يعرف أنها نادرة عفة وتعمد دوماً إلى رعاية أحد ما، إما مسنون أو أطفال أو مرضى، حيث إن أعدادهم كانت تصل إلى الآلاف. كان الجميع مرضى إلى حدٍّ ما.

قال الحارس بأدب: "عمت مساء". ثم انتقل إلى الثكنات الأخرى. ستكون ليلة هادئة مع رحيل الآخرين. لم تكن هناك أي إشارة على حدوث أي فوضى هنا. وقد أدى تحسن الطقس إلى وضع الجميع في مزاج جيد،

السجناء والحراس على حدٍّ سواء. فقد مرّ عليهم فصل شتاء قاسٍ في حين أن الصيف لطيف ودافئ. كان أحد ما يعزف على آلة الهرمونيكا لدى مغادرة أماديا. توقفت في الحمام ثم قامت بمغادرة الثكنة بسهولة. لم يكن ثمة أحد في المكان وكانت المسافة التي تفصلها عن البوابة الخلفية قصيرة. كان أمراً رائعاً، إذ لم يكن هناك أحد في الأرجاء على الإطلاق. كانت الساحة الرئيسة مرتعاً للأشباح تلك الليلة. ثم وجدته بانتظارها. كان المفتاح في يده وأظهره لها بابتسامة. بحركة واحدة وضع المفتاح الضخم في القفل، وهو المفتاح نفسه الذي ما يزال يُستخدم منذ مئتي سنة. أطلقت البوابة صريراً وهي تفتح، فتحها إلى حدّ يكفي لخروجهما منها، ثم أعاد إقفالها من جديد، حيث مدّ يده إلى الداخل لإقفالها ثم رمى المفتاح بعيداً. وفي حال وجدوه سيعتقدون أنه وقع من حارس بشكل عرضي، وسيطمئنون إلى أن أحداً لم يجده ويفتح البوابة. ثم ركضا بسرعة الريح. لم تعرف أماديا من قبل أن بوسعها الركض بهذه السرعة. كانت تنتظر في كل لحظة، وفي كل ثانية سماع صوت إطلاق رصاص، أن تشعر بطعنة سكين في ظهرها أو قلبها أو ذراعها أو رجلها. إلا أنها لم تشعر بشيء. لم تسمع سوى أنفاس ويلهيلم وأنفاسها. إلى أن وصلا إلى الشجيرات. كان هناك غابة في الجوار، فلجأ إليها كطفلين ضائعين يتلهفان لأخذ أنفاسهما. لقد قاما بالأمر! باتا بأمان! باتت حرة!

همست تحت ضوء القمر: "يا الله! آه يا الله! ويلهيلم لقد أفلحنا!" استحال عليهما التصديق. نظرت إليه فابتسم لها. لم يسبق لها أن رأت هذا القدر من الحب في عيني رجل.

همس لها قائلاً: "أحبك يا عزيزتي". وجذبها بين ذراعيه. فتساءلت فجأة ما إذا أتى بها إلى هذا المكان لمجرد اغتصابها. ولكن لا يعقل ذلك. فقد عرض نفسه للخطر بقدرها هي. بالرغم من أن بوسعه الادعاء أنها سعت إلى الهرب وعمد هو إلى اللحاق بها ليعيدها بعد قيامه باغتصابها. باتت لا تثق بأي إنسان في تلك الآونة ونظرت إليه مشككة به. قبلها بعنف

على شفتيها فدفعته بعيداً عنها. "ويلهيلم... أرجوك... لا...". كانت لا تزال مقطوعة الأنفاس كحاله هو.

قال وهو يبدي انزعاجاً: "لا تتصرفي بغباء. أنا لم أخاطر بحياتي من أجلك لكي تلعبي دور نائرة العفة. سأتزوج بك عندما نعود إلى ألمانيا. أو قبل ذلك". لم يكن هذا بالوقت المناسب للمجادلة بأوهامه أو عهودها. "أنا أحبك".

قالت له بصراحة وهو يداعبها: "وأنا أحبك لمساعدتك لي ولكن ليس بالطريقة التي تقصدها". ثم أمسك بها. أراد أن يمارس الحب معها في ذلك المكان. "ويلهيلم أرجوك كفى". وقفت لتهرب منه ووقف هو معها وأحكم الإمساك بها: كان يحاول دفعها بقوة إلى الأرض، فدفعته عنها بكل ما أوتيت من قوة فتعثر بجذر شجرة وسقط إلى الوراء صارخاً بأعلى صوته والصدمة بادية على وجهه. ارتطم رأسه بالأرض بقوة وتعرض لأذى كبير على الفور.

انتشر الدم في كل مكان فركعت أماديا بالقرب منه في حالة صدمة وفزع. لم تقصد أذيته وإنما دفعه إلى الوراء فحسب. كانت تخشى أن يقدم على اغتصابها من فرط حماسته وفرحه، والآن ها هو قد بات ميتاً وعيناه مفتوحتان. لم يكن فيه أي نبض. مات ويلهيلم فأحنت أماديا رأسها أسفة على ما جنته يداها. لقد قتلت رجلاً. الرجل الذي ساعدها على الهرب. كانت المسؤولة عن وفاته. نظرت إليه، أغمضت عينيه، وترحمت على روحه. ثم أخذت مسدسه بحذر وأمسكت به. كان يحتفظ بقارورة مياه صغيرة فأخذتها أيضاً. كما ووجدت معه القليل من المال، وبعض الحلوى ورصاصات فلم تمتلك أدنى فكرة عما عساها تفعل بها. افترضت أن المسدس محشو ولكنها لم تمتلك فكرة كيف عساها تستخدمه، ثم وقفت.

قالت بنعومة: "شكراً لك". ثم مشت إلى داخل الغابة دون أن تدري وجهة سيرها أو ما عساها تجد في طريقها. جل ما أمكنها فعله هو مواصلة السير والبقاء داخل الغابة والدعاء لكي يجدها المقاومون. أدركت

أنهم سيكونون مشغولين تلك الليلة. كانت ليديس تحترق في الوقت الذي كانت أماديا فيه تمشي بعيداً بعد أن تركت الجندي الميت تحت الشجرة. لم تكن لتعرف أبداً علام كان ينوي، ما إذا نوى أذيتها أم لا، ما إذا أحبها أم لا، ما إذا كان إنساناً طيباً أم لا. جل ما أدركته أنها أقدمت على قتل رجل، وأنها باتت حرة طليقة حتى اللحظة على الأقل.

الفصل الثامن عشر

ظلت أماديا وحيدة في الغابة على مدى اليومين التاليين. كانت تسير نهاراً وتنام بضع ساعات ليلاً. وقد كان الهواء منعشاً وبارداً، بالرغم من أنها في مرحلة ما ظنت أنها تشتم رائحة دخان في الهواء. إنه دخان ليديس. ولكن كانت الغابة منعشة، حتى خلال النهار، ذلك لأنها مظللة تماماً. لم تملك أدنى فكرة إلى أين تسير وما إذا كانت ستجد أحداً قبل أن تموت من الجوع، والتعب، والعطش. فقد نفدت المياه في قارورة ويلهيلم.

في اليوم التالي وجدت نبعاً. لم تعرف ما إذا كانت مياهه صالحة للشرب أم لا ولكنها شربت على أي حال. لم يعقل أن تكون مياه النبع أسوأ حالاً من المياه التي كانت تشربها في الفترة السابقة، تلك الراكدة في البراميل والمليئة بالأمراض. على الأقل طعم هذه المياه أطيب وأنظف. لقد لف البرد أرجاء الغابة برمتها. لم تكن تسمع سوى زقزقة العصافير التي تعشش في أعالي الأشجار فوقها بالإضافة إلى صوت أنفاسها ووقع حركتها. في إحدى المرات رأت أرنباً وسنجاباً. بدت لها الغابة ساحرة، ولكن سحرها يكمن في أنها باتت حرة. كانت قد قتلت رجلاً لتصل إلى هنا. وقد أدركت أنها لن تسامح نفسها أبداً على ما اقترفته. كان الأمر حادثة ولكن مع ذلك فالمسؤولية تقع عليها. تمنت لو أمكنها إخبار المسؤولة، وتمنت لو أنها عادت إلى المقر مع أخواتها. لقد عمدت إلى دفن أوراقها تحت كومة من الوحل. فباتت دون أوراق هوية الآن. باتت إنسانة لا هوية لها، ضائعة وتهيم على وجهها في الغابة. ولم يكن على ذراعها أي رقم. في حال تم الإمساك بها، بوسعها إخبارهم ما تشاء ولكنهم

سيعرفون. إذ باتت تشبه الجميع: نحيفة، وسخة، وتعاني من سوء التغذية. والحذاء الذي كانت تنتعله خالٍ تقريباً من النعل. أخيراً في نهاية اليوم التالي استلقت على الأرض، وفكرت في أكل أوراق الأشجار، ولكن خشيت أن تكون سامة. كانت قد وجدت بعض التوت البري فأكلت منه، فتسبب لها بانقباضات مؤلمة في معدتها. باتت تشعر بالوهن، والتعب، والمرض. وعندما بدأ النور يخفت في الغابة، استلقت راغبة بالنوم على الأرض الطرية. وفي حال وجدتها القوات الألمانية، لعلهم يقدمون على إطلاق النار عليها حيث هي. إذ إنه مكان جيد للموت. كان قد مر عليها يومان دون أن ترى أحداً. لم تدرِ إن كانوا يبحثون عنها وما إذا كانوا يعبأون لأمرها. إذ إنها ليست سوى سجينة بائسة. وهذا المكان بكل تأكيد لا مقاومين فيه على الإطلاق.

كانت وحدها في الغابة، وقبل أن تغفو تذكرت الصلاة. صلت لراحة روح ويلهيلم وفكّرت في والدته وشقيقته ومدى الحزن الذي ستكونان عليه. فكّرت في والدتها وفي دافني وتساءلت عن مكانهما وما إذا كانتا لا تزالان على قيد الحياة. لعلهما هربتا أيضاً. ابتسمت عندما خطرت لها هذه الفكرة، ثم غطت في النوم.

في صباح اليوم التالي عندما كان النور يتسلل بين الأشجار، اقترب منها المقاومون على رؤوس أصابعهم، وأرسلوا إشارات إلى بعضهم البعض. أمسك بها واحد منهم وقام الآخر بتغطية فمها حتى لا تصرخ. استيقظت والذعر بادٍ في عينيها. وجدت حولها ستة رجال يحملون أسلحة، ومسدس ويلهيلم ملقى على الأرض بجانبها. لم تقوَ على الوصول إليه، كما أنها لا تعرف كيفية استخدامه على كل حال. أشار إليها أحدهم بعدم الصراخ، فهزت له رأسها. لم يكن أمامها سبيل لمعرفة هوية هؤلاء الرجال. نظروا إليها لوهلة، ثم قام واحد منهم بتفتيش جيوبها، في الوقت الذي ظل الخمسة الباقون يصوبون أسلحتهم إليها. لم يجد شيئاً. لم يجدوا شيئاً سوى قطعة الحلوى الأخيرة التي تبقت معها. كانت حلوى ألمانية،

فنظروا إليها بارتياب. تكلم الرجال مع بعضهم البعض بصوت خافت باللغة التشيكية. كانت قد تعلمت بضع كلمات تشيكية من المساجين التشيك. لم تكن واثقة ما إذا كانوا من عداد الأخيار أم لا، وما إذا كانوا المقاومين الذين رغبت بالوصول إليهم. وحتى لو كانوا مقاومين، لم تدرِ ما إذا كانوا سيقدمون على اغتصابها، وما عساها تتوقع منهم. دفعوها بقسوة للوقوف، وأشاروا لها باتباعهم. كانوا قد أحاطوا بها من كل جانب. ثم أخذ أحدهم المسدس الذي كان بحوزتها. تعثرت عدة مرات إذ كانوا يسيرون بسرعة. كانت متعبة وضعيفة، وعندما كانت تقع يدعوها تعاود الوقوف بمفردها خشية أن تكون مكيدة.

مشوا عدة ساعات، ونادراً ما كان يكلم أحدهم الآخر خلال المشي. ثم رأت خيمة في الغابة. كانت تضم حوالى عشرين رجلاً، فتركوها تحت حراسة رجلين، ثم جذبوها بقسوة ناحية مجموعة من الأشجار حيث تجلس مجموعة من الرجال المسلحين وتتبادل الحديث. نظروا إليها لدى دخولها، وعندئذ ساد صمت طويل، وأخيراً نطق أحدهم. في البداية، تكلم معها بالتشيكية فهزت له رأسها. ثم تكلم معها بالألمانية.

سألها بلغة ألمانية جيدة وإنما ذات لكنة ثقيلة وهو يتفحصها بنظراته: "من أين أتيت؟" فلقد كانت نحيفة، ووسخة، والجروح والخدوش تغطي جسدها بأكمله وتنتعل حذاء ممزقاً وبالياً. وكان باطنا قدميها ينزفان. ثم نظرت إليه مباشرة في عينيه.

صارحتهم بالحقيقة فإن كانوا مقاومين وجب عليها إخبارهم بالحقيقة. وإلا لما أقدموا على مساعدتها وربما لن يفعلوا على أي حال.

"هل كنت سجينة هناك؟ هل هربت؟"

فهزّت رأسها إيجاباً.

قال مشككاً: "هل لديك رقماً؟" بدت أشبه بعميلة ألمانية بطولها الفارع وشعرها الأشقر وبشرتها الفاتحة. وبالرغم من كونها متعبة ووسخة، كانت تبدو جميلة وخائفة. ولكنها كانت تتحلى بالشجاعة أيضاً وقد استطاع ملاحظة ذلك ونال الأمر إعجابه.

قالت بابتسامة صغيرة: "لم يزودوني برقم. لقد نسوا". فلم يرد عليها بالابتسام. إذ كان الموقف خطيراً. فهناك أمور كثيرة على المحك، بالنسبة إليهم جميعاً وليس بالنسبة لها فحسب.

"كم مضى على وجودك هناك؟"

"منذ شهر كانون الثاني". فهز رأسه.

"هل تتكلمين الفرنسية". فهزت رأسها معلنة أنها تجيدها.

"إلى أي مدى؟"

"بطلاقة".

"هل يشوب لفظك أي لكنة؟ هل تتكلمين الفرنسية والألمانية بالطلاقة نفسها؟" شعرت بالضعف عندما أيقنت أنهم سيقدمون على مساعدتها أو على الأقل سيحاولون ذلك. كانت الأسئلة التي يطرحها مقتضبة ومباشرة. بدا أشبه بمزارع، ولكنه كان أكثر من ذلك. كان قائد مجموعة المقاومين في المنطقة. وهو الشخص المخول أخذ قرار بمساعدتها أم الإحجام عن ذلك.

أجابته: "نعم". لقد لاحظ خلال كلامه معها أنها تبدو ألمانية. وفي هذه الحالة، تعتبر مكسباً لهم. إذ تتمتع بالملامح الألمانية بشكل كامل. ثم نظرت إليه، وتجرأت على طرح سؤال. "ماذا ستفعلون بي؟ إلى أين سأذهب؟"

هز رأسه وقال: "لستُ أدري. لا يسعك العودة إلى ألمانيا على الإطلاق، بوسعنا إرسالك إلى هناك بأوراق مزورة، ولكنهم سيجدونك في النهاية. ولا يسعك أيضاً البقاء هنا. فكل النساء الألمانيات عدن. في بعض الأحيان، تأتي زوجات الجنود لزيارتهم. على أي حال سنرى". ثم قال لواحد من رجاله شيئاً ما، وبعد دقائق جلبوا لها طعاماً. كانت جائعة جداً إلى حدّ أنها باتت تشعر بالغثيان، لذا بالكاد أمكنها تناول الطعام. فهي لم تر طعاماً حقيقياً منذ ستة أشهر. "سيتوجب عليك البقاء هنا لفترة من الوقت. إذ يوجد الكثير من المتاعب في الأرجاء".

سألت بلطف: "ما الذي حدث في ليديس؟"

طارت شرارات الكراهية من عينيه وهو يجيبها: "لقد قتلوا جميع الرجال والفتية. ورحّلوا النساء. لقد اختفت البلدة من الوجود".

قالت بلطف ثم أشاحت بنظرها بعيداً: "أنا آسفة". لقد امتنع عن إخبارها أن شقيقه وعائلته كانوا يعيشون في تلك البلدة. لقد كانت خسارة فادحة.

"لا نستطيع نقلك قبل أسابيع وربما أشهر. ويتطلب الحصول على الأوراق وقتاً".

"شكراً لكم". لم تأبه كم سيبقونها في هذا المكان، إذ إنه أفضل بكثير من المكان الذي كانت فيه. عادة، كانوا لينظروا إلى مخبأ في براغ، ولكن لا يسعهم ذلك الآن.

فبقيت معهم في الغابة وفي خيمته حتى بداية شهر آب. كانت الأمور قد هدأت عندئذ. كانت تمضي معظم أوقاتها بالصلاة أو المشي ضمن مساحة صغيرة بالقرب من الخيمة. كان رجال آخرون يأتون ويرحلون، وقد أتت امرأة واحدة في إحدى المرات. ولكن لم يكلموها قط. وكانت تتلو الصلاة متى كانت وحدها. لف الغابة سكون شديد إلى حدّ أنه يصعب على المرء أحياناً تخيل أن هناك حرباً مستعرة خارج هذا المخيم. في إحدى الليالي وبعد مرور أسابيع على وجودها هناك، أخبروها في وقت متأخر من الليل بعد أن علموا أنها من كولونيا أن ألف طائرة بريطانية قد قصفت كولونيا من أولها إلى آخرها. كان وصف المقاومين لهذه الحادثة رائعاً. وقد كانت ضربة قوية جداً للقوات الألمانية. فأملت ألا يكون قد حدث أي سوء لآل توبيتي، ولكنهما كانا على مسافة بعيدة من المدينة وبالتالي أملت أن يكونا قد نجيا من الدمار الهائل.

بعد شهرين تقريباً من وصول أماديا إليهم، جلس قائد المقاومين المحلي معها وشرح لها ما سيحدث. لم يسمعوا من السلطات المحلية شيئاً حول عملية هروبها الناجحة. فافترضوا أنهم لم يعيروا وجودها أو عدمه أي أهمية. لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا ربطوا أمر هروبها باختفاء

ويلهيلم في الشيا؟ نفسها، أو ما إذا أعطوا للأمر بالاً. أملت ألا يفعلوا. وتساءلت ما إذا وجدوه. لم يرغب المقاومون بالاقتراب إلى تلك الدرجة من المكان الذي توفي فيه للحصول على جثته ودفنه في مكان آخر.

جهّز المقاومون لها الأوراق في براغ، وقد بدت أوراقاً أصلية تماماً. قالوا إن اسمها بات فريدا أوبرهوف، وإنها زوجة من ميونيخ، وتبلغ الخامسة والعشرين من عمرها. وزوجها يخدم في براغ، وقد أتت لزيارته. كان مأموراً لمقاطعة صغيرة. وسيعود معها إلى ميونيخ بعد أن أخذ تسريحاً موقتاً من الخدمة، ومن هناك سيتوجهان مباشرة إلى باريس لتمضية عطلة صغيرة، من ثم تعود هي إلى ميونيخ وهو إلى براغ. بدت أوراق سفرهما لا غبار عليها. وقد جلبت لها شابة بعض الملابس وحقيبة، وساعدت أماديا على ارتداء الملابس، ثم أخذوا لها صورة من أجل جواز السفر. لقد تم الترتيب لكل شيء.

ستسافر مع شاب ألماني كان يعمل معهم. كان قد سبق له ودخل إلى ألمانيا وخرج منها إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا. وستكون هذه المرة الثانية له التي يسافر فيها إلى فرنسا في مهمة مثل هذه. كانت ستقابله في اليوم التالي في ملجأ في براغ.

لم تعرف كيف تشكر قائد المجموعة لدى مغادرتها الغابة. جل ما أمكنها فعله هو النظر إليه وإخباره بأنها ستصلي من أجله. لقد أنقذوا حياتها وسيعطونها حياة جديدة، وضعوا لها خطة تقضي بأن تنضم إلى خلية مقاومة خارج باريس، ولكن لا يزال أمامها عبور ألمانيا أولاً كزوجة للمأمور. ويوم مغادرتها، كانت ترتدي فستاناً أزرق فاتح اللون وقبعة بيضاء، فبدت بهذه الملابس مناسبة جداً للدور الذي ستلعبه، حتى إنها انتعلت حذاء عالي الكعب، ووضعت قفازين أبيضين في كفيها. التفتت لتنظر إليهم للمرة الأخيرة، ثم ركبت في السيارة مع الرجلين اللذين سيوصلانها إلى المدينة. كانا من تشيكوسلوفاكيا وعملا سابقاً لحساب الألمان ولا تحوم حولهما أي شكوك البتة. لم يوقفهما أو يتفحص أوراقهما

أحد خلال توجههما إلى المدينة، وبعد أقل من ساعة من مغادرتها لمخيم المقاومين وصلت إلى ملجأ في براغ. عند منتصف الليل وصل الرجل الذي سيسافر معها. كان يرتدي بذة الشرطة الألمانية، وبدا طويلاً ووسيماً وأشقر الشعر. كان في الحقيقة تشيكياً ترعرع في ألمانيا، ويتكلم الألمانية بطلاقة، وقد بدا شبيهاً جداً بأفراد الشرطة الألمانية عندما عرّفوه إلى أماديا في وقت متأخر من تلك الليلة.

كانا سيغادران على متن قطار في الساعة التاسعة صباحاً. أدركا أن القطار سيكون مليئاً بالركاب، الأمر الذي سيجعل الجنود الموجودين في المحطة مشتتي الذهن. لذا سيعمدون إلى تفقد الأوراق بشكل عشوائي، ولكن لن يخطر لهم أبداً الشك بشرطي من النازي يسافر مع زوجته الشابة الجميلة. أوصلهما أحد الرجال إلى المحطة ومشيا نحو المنصة وهما يتبادلان الحديث بكل حب، وقد طلب من أماديا بصوت خافت أن تبتسم وتضحك. وجدت غرابة في ارتداء ملابس نسائية مواكبة للموضة من جديد، فلم يسبق لها ذلك منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. وشعرت بالغرابة الشديدة أيضاً لكونها تسافر مع رجل. كانت ترتعد خوفاً من أن يكتشف أحد ما أن أوراقها مزيفة. ولكن لم يطرح عليهما لا العميل ولا الجندي الذي يراقب الناس وهم يصعدون على متن القطار أي سؤال. لم ينظرا إليهما بأي ارتياب، واكتفيا بالتلويح لهما بالصعود على متن القطار.

همست له قائلة: "لقد أفلحنا". فهز رأسه ووضع إصبعه على فمها. لا أحد يدري من عساه يتنصت عليهما. فالنجاح في التخفي يقتضي لعب الدور بشكل متواصل. كانا يتبادلان الحديث مع بعضهما البعض براحة تامة باللغة الألمانية. ناقش معها خطط العطلة والأماكن التي تود زيارتها في باريس. أخبرها عن الفندق الذي سينزلان فيه ودردش معها حول والدتها في ميونيخ. عند انطلاق القطار من المحطة مغادراً أراضي براغ، كانت أماديا تراقب المكان بعينين قلقتين... والآن ها هي تجلس في مقصورة من الدرجة الأولى تعتمر قبعة وتضع في كفيها قفازين بيضاوين،

وتسافر مع أحد المقاومين المتنكرين بزي الشرطة الألمانية. جل ما استطاعت استخلاصه أن الله الذي آمنت به قد كتب لها البقاء على قيد الحياة، لأي سبب من الأسباب، وحتى الآن على الأقل.

لم يتخلل الرحلة إلى ميونيخ أي سوء، واستغرقت حوالى الخمس ساعات. نامت قليلاً خلال الطريق، ثم صحت مذعورة عندما رأت جندياً ألمانياً يمر بالقرب منها. كان الرجل الذي تسافر معه يدعى وولف أو كان هذا الاسم الذي كان يستخدمه على أي حال، فضحك عليها وابتسم للجندي، ومن خلال أسنانه المطبقة على بعضها البعض طلب منها أن تبتسم هي الأخرى. بعد ذلك عاودت النوم، وغفت أخيراً ورأسها ملقى على كتفه. أيقظها عندما وصلا إلى محطة هوبتبانهوف في ميونيخ.

كان أمامهما ساعتين حتى يحين موعد انطلاق القطار التالي. فاقترح عليها تناول الغداء في مطعم في المحطة، وقال إنه من المؤسف أنهما لا يملكان الوقت للذهاب إلى المدينة. ولكنهما أجمعا على تشوقهما للوصول إلى فرنسا. كانت باريس وجهة الألمان هذه الأيام بغرض قضاء العطلات فيها. فمع احتلال الألمان لباريس، بات الجميع يودون زيارتها. وفي المطعم أخبرها وولف عن المتعة التي سيشعران بها. ولكن حتى حين قيامهما بتبادل الحديث لاحظت أنه لا ينفك يراقب المكان بحذر. بدا أن عينيه لا تفارقان أحداً أو شيئاً في الوقت الذي يواصل حديثه معها.

لم ترتح أماديا إلى أن صعدت على متن القطار إلى باريس. جلسا في مقصورة من الدرجة الأولى من جديد، وبالكاد أمكنها تناول الغداء حيث كان يتملكها القلق من حدوث أي سوء، فيلقى القبض عليهما على الفور. قال بصوت خافت وهما يصعدان على متن القطار: "ستعتادين على الأمر". ولكن مع بعض الحظ لن تضطر إلى الاعتياد عليه. لم تمتلك أدنى فكرة عما سيفعلون لتخبئتها خارج باريس، ولكن فكرة السير بين الجنود الألمان مدعية أنها زوجة شرطي من القوات الألمانية أدخلت إلى قلبها الذعر الشديد. شعرت بالخوف نفسه الذي انتابها ليلة هروبها مع ويلهيلم. إذ تطلب

هروبها الشجاعة، ولكن ما هي عليه الآن يتطلب صلابة شديدة جداً. جلست في مقعدها من جديد إلى أن انطلق القطار. فالرحلة إلى باريس ستستغرق الليل بطوله.

فتح الموظف سريرين لهما وبعد مغادرته، طلب منها وولف أن ترتدي رداء النوم فبدت على أماديا الصدمة.

"أنا زوجك"، ثم ضحك". على الأقل، بوسعك خلع قفازيك وقبعتك". فأثار بكلامه الضحك، وحتى هي ضحكت.

أدارت له ظهرها، وارتدت رداء النوم، ثم سحبت فستانها من تحته. وعندما استدارت من جديد ناحيته وجدته يرتدي البيجاما. إنه رجل وسيم للغاية.

قالت وقد بدا عليها الإحراج: "لم يسبق لي أن قمت بمثل هذا الأمر". فرد عليها بابتسامة، وأملت ألا يتمادى في هذه التمثيلية أكثر. ولكن لم يبدُ أنه ينتمي إلى هذا النوع من الرجال.

قال بلطف: "إذاً أفترض أنك لست متزوجة". لقد كان صوت القطار يغطي على حديثهما، لذا لم يعد يتابه القلق. إذ ليس هناك من يستمع إليهما الآن.

ردت عليه أماديا بابتسامة وقالت: "لا لست متزوجة. أنا نذرت العفة". فبدا عليه الذهول لوهلة، وجحظت عيناه.

"حسناً، لم يسبق لي أن قضيتُ ليلة مع ناذرة عفة. أعتقد أن لكل شيء مرة أولى". ساعدها في الاستلقاء على سريرها، وجلس ينظر إليها من على السرير المجاور لسريرها. كانت فتاة جميلة سواء أكانت ناذرة عفة أم لم تكن.

سألته: "هل أنت متزوج؟" وقد باتت تشعر هي الأخرى بحشرية لمعرفة المزيد عنه. فهز رأسه ثم لاحظت بعض الألم في عينيه.

"لقد كنت متزوجاً. قُتلت زوجتي وولداي في هولندا خلال الهجوم. وقد جئت إلى براغ بعد ذلك". كانت قد مضت سنتان على عودته إلى تشيكوسلوفاكيا حيث يبذل قصارى جهده لوضع العصي في دواليب الألمان.

سألها: "ماذا ستفعلين عند وصولك إلى باريس؟" عندما سيصل القطار إلى باريس صباح اليوم التالي.

"ليس لدي أدنى فكرة". إذ لم يسبق لها في حياتها أن ذهبت إلى باريس. وإن سمحت لها الفرصة أرادت أن تزور بلدة والدها دوردوني وربما تلقي نظرة على قصر أهله، ولكنها أدركت أنها لن تمتلك الحرية للتنقل على راحتها. إذ أكد لها المقاومون في براغ أنه سيتم تخبئتها تحت الأرض في فرنسا، حيثما يرتأون أنه مكان آمن لها، والمرجح أنه سيكون مكاناً خارج باريس. أدرك كلاهما أن عليها الانتظار لترى ما عساهم يخبرونها عندما تصل.

وقف يتثاءب ثم قال: "آمل أن نعاود السفر مع بعضنا البعض". وجدته هادئاً جداً، مع العلم بمدى المخاطر التي يتعرضان لها، ولكنه ما لبث يقوم بمهمات مثل هذه منذ سنتين.

"لا أظن أنني سأغادر فرنسا". لم تتصور نفسها أنها قد تخاطر بالعودة إلى ألمانيا من جديد إلى أن تنتهي الحرب. سيكون المكوث في فرنسا صعباً بما فيه الكفاية نظراً إلى وضعها. وكان الذهاب إلى ألمانيا مستحيلاً، إذ تفضل الموت على أن يتم ترحيلها من جديد، والمرة المقبلة من المرجح أن يتم ترحيلها إلى مكان مختلف.

سألها وولف باهتمام: "هل ستعاودين دخول مقر ناذرات العفة بعد انتهاء الحرب؟" فابتسمت له. وقد شع وجهها بالنور وهي تبتسم.

"بالطبع".

"ألم يساورك الشك أبداً بشأن هذا الخيار الذي اتخذته؟"

"ولا مرة واحدة. أدركت أن هذا هو الفعل الصحيح منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه إلى مقر ناذرات العفة".

"والآن؟ بعد كل ما رأيته؟ هل حقاً تعتقدين أنه من الصحيح ابتعادك عن العالم؟ بوسعك أن تخدمي الناس خارج المقر أكثر بكثير مما لو كنت داخله".

قالت بنظرة تعجب: "آه لا، إننا نصلي للكثير من الناس. يوجد لدينا الكثير لنفعله". فابتسم وهو يستمع إليها، إذ لم يكن ينوي مجادلتها. ولكنه لم يقوَ إلا على التساؤل ما إذا كانت ستعود إلى المقر يوماً ما. كانت فتاة جميلة ولديها الكثير أمامها لتكتشفه وتتعلمه. انتابه شعور بالغرابة لعلمه أنه يسافر برفقة ناذرة عفة. إذ بكل تأكيد لم تبدُ له ناذرة عفة. لقد بدت فاتنة ومغرية، بالرغم من أنها بدت غير مدركة لذلك. وقد وجد أن هذا الأمر يمثل جزءاً من سحرها. كانت امرأة جذابة جداً بطريقة مميزة.

استلقى على سريره وظل صاحياً متنبهاً لحدوث أي متاعب على متن القطار. إذ يحتمل أن يتم توقيفهما وإلقاء القبض عليهما في أي لحظة. وأراد أن يكون صاحياً في حال حدث هذا الأمر. نهض من فراشه مرة أو مرتين، ووجد أن أماديا قد غطت سريعاً في نوم عميق.

أيقظها في صباح اليوم التالي، لترتدي ملابسها قبل وصولهما إلى المحطة. ارتدى ملابسه ووقف خارج المقصورة في الوقت الذي غسلت فيه وجهها، ونظفت أسنانها، وبدلت ملابسها. وبعد بضع دقائق، رافقها إلى المرحاض وقام بانتظارها. بدت هادئة جداً عندما عادا إلى المقصورة، ثم وضعت القفازين في كفيها، واعتمرت القبعة من جديد. كانت تضع جواز سفرها وأوراق السفر في حقيبة يدها.

عندما توقف القطار في غار دو ليست ظلت تنظر إلى المكان باندهاش، حيث جحظت عيناها وهي تراقب ذلك الكم الهائل من الناس على رصيف سكة الحديد. وقد همس لها قبل مغادرتهما للمقصورة: "إياك أن يبدو عليك الخوف، تصرفي كسائحة سعيدة متحمسة لوجودك هنا برفقة زوجك لتمضية عطلة رومانسية".

فهمست له من جديد بابتسامة: "لست واثقة كيف عساي أقوم بهذا الأمر".

"ادعي فحسب أنك لست ناذرة عفة".

"لا يسعني فعل ذلك". كانت لا تزال تبتسم فأوحيا لمن حولهم لدى مغادرة القطار أنهما زوجان سعيدان. حمل كل منهما حقيبته، وتأبطت

ذراعـه. لم يوقفهما أحد، ولم يطرح عليهما أحد أي سؤال. كانا عبارة عن زوجـين رائعـين في طريقهما لتمضية عطلة في باريس. وعند وصولهما إلى خارج المحطة، لوّح وولف لسيارة أجرة بالوقوف.

ذهـبا إلى مقهى في الضفة الغربية، حيث قالا إنهما سيلتقيان بصديق لهمـا ثم سيتوجهان بعد ذلك إلى فندق. ظل السائق صامتاً وبدا أنه لا يفهم الألمانية. تكلمت معه أماديا بالفرنسية فقاجأ لمدى إجادتها اللغة الفرنسية. حيث افترض أنهما ألمانيان بعد سماعهما يتحدثان في المقعد الخلفي، ولكن عندما تكلمت معه بدت فرنسية، مع أن شكلها أكد له أنها ألمانية.

أعطـاه وولـف بقشيشاً كبيراً، فشكره بأدب ثم انطلق. لقد أدرك أنه حـري به ألا يكون فظاً مع الألمان وخصوصاً عناصر الشرطة. إذ أطلق شرطي من القوات الألمانية النار على أحد أصدقائه منذ ستة أشهر لمجرد ثرثرته معه.

جلسا فـي المقهـى يـشربان القهـوة وجلب النادل لهما سلة من الكرواسان. بعد عشر دقائق، انضم إليهما صديق وولف الذي بدا فرحاً جداً برؤيته وربّت له على كتفه. كانا صديقين من أيام الدراسة، أو هكذا ادعيا. ولكـن فـي الواقـع، لم يسبق لهما أن التقيا في حياتهما قط، ولكنهما كانا يمثلان ببراعة في الوقت الذي كانت أماديا تنظر إليهما بابتسامة خجولة. عـرّفها وولف إلى صديقه قائلاً إنها زوجته. جلسوا سوياً لبضع دقائق، ثم عرض صديق وولف أن يقلهما إلى الفندق. ركبا في سيارته مع حقيبتيهما. لـم يـبدُ أن أحداً في المقهى يبالي بهما. وبمجرد أن وصلت السيارة إلى أطـراف بـاريس، بـدّل وولف ملابسه، وارتدى الملابس التي جلبها له صـديقه المـزعوم. ووضع بذة الشرطة وجميع مستلزماتها في حقيبة. لقد بدل ملابسه ببراعة وهو في السيارة يتحدث إلى السائق. لم يعيرا أماديا أي انتباه، وبدا أنهما يتكلمان بالشيفرة. قال وولف إنه سيعود الليلة.

توقفا في منزل صغير خارج باريس في منطقة فال دو مارن. لقد بدا أشبه بمنزل عادي، أي ذلك النوع من المنازل الذي يزور فيه المرء جدته

أو خالته الأرملة. كان في المطبخ زوجان ودودان يتناولان الفطور ويقرأن الجريدة.

نظر إليهما السائق الذي كان يدعى بيار وقال: "صباح الخير يا جدتي وجدتي...". ثم مر بجانبهما وتوجه ناحية خزانة. فتح باباً مخفياً وراءها، ثـم نزل على درج معتم إلى القبو، فتبعه وولف وأماديا. مشى معهما إلى غرفة تخزين ووقف هناك لوهلة، دون أن يشعل الضوء، ثم دفع باباً مقفلاً بإحكـام. وقد كانت تجري وراءه نشاطات لا حصر لها. بمجرد أن أقفلوا الـباب وراءهـم، رأوا اثني عشر رجلاً يجلسون حول طاولة، وامرأتين، ورجـلاً آخر جالساً بقرب جهاز تخابر ذي موجات قصيرة. كانت الغرفة مزدحمة، حيث تنتشر الأوراق والصناديق في كل مكان، إضافة إلى كاميرا وعدة حقائب. بدوا وكأنهم ما يزالون في ذلك المكان منذ أيام.

توجه السائق إلى واحد منهم بالقول: "مرحباً". فهز الآخرون رؤوسهم مرحبين به. وسأله أحدهم ما إذا جلب معه الطرد. فهز بيار رأسه إيجاباً، ثـم الـتفت إلى أماديا. كانت هي الطرد الذي ينتظرونه. ابتسمت إحدى المرأتين في وجهها، ومدت لها يدها.

تكلمـت مـع أماديا بالألمانية قائلة: "أهلاً بك في باريس. هل كانت الرحلة آمنة؟" فردت عليها أماديا بالفرنسية بطلاقة مما فاجأهم جميعاً. إذ لم يكـن لـديهم الكثير من التفاصيل حولها بعد، ما عدا أن المقاومين أنقذوها بالغابـة قرب براغ. قالوا إنها بحاجة إلى ملجأ في فرنسا. وإن وجودها قد يفيدهم. لم يشرحوا كيف. ولكن بات ذلك جلياً لهم الآن. حيث بدت ألمانية وتتكلم الفرنسية والألمانية بطلاقة.

جلـس وولف في الزاوية مع رجلين وأطلعهما على مجريات الأمور فـي بـراغ وعن ماهية تحركات الألمان وخططهم هناك. كانوا يتكلمون بصوت خافت، فلم تقوَ أماديا على سماع ما كان يدور بينهم.

كـان الرجل الذي بدا أنه المسؤول ينظر إلى أماديا من رأسها حتى أخمـص قدميها. لم يسبق له أن رأى فتاة تتمتع بهذا القدر من المواصفات

وتتكلم اللغتين الفرنسية والألمانية بكل يسر. "لقد عزمنا على إرسالك إلى مزرعة في الجنوب، إن استطعنا إيصالك إلى هناك بسلامة. إنك تبدين ألمانية بكل تأكيد".

سمعه وولف فساندها بالقول: "كانت ممتازة أثناء السفر على متن القطار". ثم رمق رفيقة سفره نظرة محبة وقال: "إنها نادرة عفة".

قال زعيم الخلية وهو ينظر إليها: "هذا مثير للاهتمام. أليس التمتع بالحكمة هو أحد المتطلبات لكي تصبح الفتاة نادرة عفة؟ إضافة إلى التوازن العصبي الجيد حسبما أذكر.

ضحكت أماديا. "أنى لك معرفة ذلك؟ نعم صحيح إضافة إلى الصحة الجيدة".

"لقد دخلت أختي إلى مقر نادرات العفة في تورأين. وقد رحبوا بها بشدة ولكنها كانت تفتقر إلى الحكمة والأعصاب القوية. فبقيت هناك سنتين ثم خرجت وتزوجت. أنا واثق أنهم سعدوا بمغادرتها. لديها الآن ستة أولاد. ابتسم لها فارتاحت له أماديا بعض الشيء. لم يتعرفا إلى بعضهما البعض، ولكنها سمعت أحداً ما يناديه سيرج. "الذي أخ رجل دين". لقد كان زعيم خلية في مارسيليا ولكن لم يخبر أماديا بذلك. كان قد تدرب مع الأب جاك في آفون حيث كان يخبئ بعض الأطفال الهاربين في مدرسة كان يديرها. كان أخو سيرج يقوم بالأمر نفسه في مرسيليا، مثله مثل رجال الدين الذين يقومون بالأمر نفسه في جميع أرجاء فرنسا، وغالباً بشكل مستقل. كان سيرج يعرف عدداً منهم. ولكنه لم يرغب باستخدام هذه الشابة الألمانية كنادرة عفة. إذ يمكن له استخدامها بطريقة أخرى ويحقق فائدة أكبر بكثير. يمكن لها التنكر كألمانية بكل سهولة، وتحقيق نتائج مذهلة إن تحلت بالشجاعة. هذا ما كان عليه التأكد منه. "سنبقيك هنا لبضعة أسابيع. بوسعك المكوث في الطابق السفلي إلى أن نجهز أوراقك. ثم بعد ذلك بوسعك المكوث مع جدي. أنت نسيبتي من شارتر". أدركت حينها أن بيار وسيرج أخوان. كانت الغرفة المعتمة تبدو أشبه بمصنع، حيث يجري فيها

الكثير من الأعمال. كان أحد ما يشغّل مطبعة في الزاوية. إذ كانوا يطبعون مناشير ليوزعوها من أجل رفع معنويات الفرنسيين وإخبارهم بحقيقة ما يجري في الحرب.

أخذت إحدى المرأتين صورة لأماديا من أجل أوراقها الفرنسية الجديدة. وبعد فترة وجيزة، صعدت المرأة الثانية إلى الطابق العلوي وعادت بالطعام لأماديا ولوولف. بعد ما شهدته بات أي طعام يبدو لها نعمة وفيرة. لقد تفاجأت حينما اكتشفت أنها جائعة لدى مواصلة سيرج إجراء المقابلة معها. وبعد بضع ساعات غادر وولف. حيث كان يهم بالعودة إلى براغ.

فتوقف لتوديعها قبل مغادرته، وقال وهو يبتسم لها: "حظاً سعيداً يا أختاه. لعلنا نلتقي من جديد".

قالت وهي تشعر بالحزن لمغادرته: "شكراً لك. باركك الله وسلّمك".

قال بثقة: "أنا واثق أنه سيفعل". ثم توقف لبضع دقائق، وتكلم مع سيرج من جديد وبعدها غادر برفقة بيار. سيبدل ملابسه ويرتدي من جديد بذة الشرطة الألمانية في طريق عودته إلى المحطة. بدا لأماديا أنه لا يهاب شيئاً، مثل حالهم جميعاً. كانوا خير مثال للشجاعة الفرنسية. بالرغم من أن فرنسا استسلمت للألمان منذ ثلاثة أسابيع، إلا أنه يوجد خلايا مثل هذه في جميع أرجاء فرنسا تناضل لتحرير فرنسا من جديد واستعادة كرامة البلد. ولكن فوق ذلك كله، كانوا ينقذون الأرواح ويفعلون ما بوسعهم لمساعدة الحلفاء، ويتعاونون مع البريطانيين.

تلك الليلة، نامت أماديا على سرير ضيق في القبو. وقد ظل الرجال يتحدثون حتى ساعات الفجر الأولى.

في اليوم التالي جهزت أوراقها. حتى إنها كانت أفضل من الأوراق الألمانية التي قال إنه سيحتفظ لها بها. لم يشأ لها أن تُبقي هذه الأوراق معها في حال خرجت مع الآخرين في مهمة يحددها لها. كانوا قد تحدثوا بشأنها طيلة الليل وتوصلوا إلى قرار. لقد عزم على إرسالها إلى ميلون

التي تبعد 60 ميلاً جنوب شرق باريس، حيث ظن أنها ستكون أكثر أماناً هناك، كانوا بحاجة إليها جداً. كانت القوات البريطانية تنزل لهم إمدادات إلى هناك بواسطة المظلات، إضافة إلى الرجال. كان عملاً خطيراً.

هذه المرة كانت أوراقها تفيد بأنها عزباء من بلدة تدعى ميلون وتدعى أميلي دوما. استخدموا تاريخ ميلادها الحقيقي وقالوا إنها ولدت في ليون. في حال سألها أحد، يجب أن تقول إنها درست في جامعة السوربون قبل اندلاع الحرب. وقد درست الأدب والفن. سألها إن كانت ترغب باستخدام اسم حركي، ودون أي تردد طرحت عليه اسم تيريزا. لقد أدركت أن هذا الاسم سيمدها بالشجاعة. لم تمتلك أدنى فكرة ما عساهم يتوقعون منها، ولكن مهما كانت توقعاتهم ستفعل ما يريدون. إذ إنها تدين لهؤلاء الناس بحياتها من جديد.

استقلت هي والمرأتان السيارة متوجهات إلى ميلون تلك الليلة. كن مجرد ثلاث نساء أتين إلى باريس من أجل تمضية بضعة أيام وسيعدن إلى المزرعة التي يعشن فيها. تم توقيفهن مرة واحدة، حيث دقق الجنود الألمان في أوراقهن، ثم ضحكوا وحدقوا فيهن لدقيقة من الوقت وحاولوا استمالتهن بألواح الشوكولاتة والسجائر، ثم تركوهن في حال سبيلهن. لم يتعرضوا إليهن بالأذى، ولكنهم كانوا يحبون مغازلة النساء الفرنسيات. لقد تكلموا مع النساء الثلاث بلغة فرنسية مكسرة.

وصلت تيريزا والمرأتين إلى بيت المزرعة بعد حلول الظلام ودخلن إليها. تفاجأ المزارع وزوجته عندما وقع نظرهما على أماديا. عرفتهما المرأتان بها، فاصطحبتها زوجة المزارع إلى غرفة صغيرة تقع وراء المطبخ. كان يفترض بها مساعدتهما في المزرعة ومد يد العون في الأعمال المنزلية، حيث زوجة المزارع تعاني من مرض التهاب المفاصل وبالتالي لم تعد تقوى على مساعدة زوجها. كان يتوجب على أماديا فعل كل ما يطلبانه منها، ثم وجب عليها العمل ليلاً مع الخلية المحلية. سيأتي أحد الرجال لرؤيتها في اليوم التالي لهذا الغرض. كان المزارع وزوجته

يشاركان في المقاومة منذ احتلال فرنسا. بدا الاثنان مجرد شخصين مسنين ومسالمين ولكنهما في الواقع لم يكونا كذلك. بل كانا يتحليان بشجاعة هائلة ويعرفان جميع الناشطين في المنطقة. أعطت زوجة المزارع أماديا ملابس جعلتها تبدو كمزارعة. بدت فتاة قوية بالرغم من أنها لا زالت نحيفة جداً، وتتمتع بالعافية وهي في ريعان الشباب. بدت مناسبة جداً لدور المزارعة بذلك الفستان القديم والمئزر.

ومن جديد أمضت الليلة في سرير غير مألوف، ولكنها شعرت بالامتنان لكونها تنام على سرير. في صباح اليوم التالي عادت المرأتان اللتان رافقتاها إلى باريس وتمنتا لتيريزا (أماديا) كل الخير. فتساءلت إن كانت ستراهما من جديد كما باتت تفعل دوماً حينما تودع كل شخص. إذ بات كل شيء في الحياة يبدو قصير المدى وغير متوقع. فالناس يختفون من حياة أحبائهم بلمح البصر. وكل مرة يودع فيها المرء شخصاً يُحتمل أن يكون الوداع الأخير، وغالباً ما كان هذا واقع الحال. كانوا يقومون بعمل خطير وكانت أماديا متلهفة لمساعدتهم. شعرت وكأنها تدين لهم بهذه المساعدة، ورغبت برد الدين هذا لهم.

ذلك الصباح، بدأت بالمساعدة في أعمال المزرعة، وحلبت البقرات القليلة التي تبقت عندهما. حملت الحطب، وعملت في الحديقة، وساعدت في تحضير الغداء، وقامت بالغسيل. كانت تعمل بكد وجهد تماماً كما كانت تفعل في مقر ناذرات العفة، فشعرت المرأة المسنة بالامتنان لهذا الأمر. إذ لم تحصل على مثل هذه المساعدة منذ سنوات. وفي تلك الليلة أتى نسيبهما لزيارتهما بعد العشاء، ويدعى جان - إيف. كان شاباً طويلاً، ونحيفاً، ويتمتع بعينين سوداوين، وشعر أسود ويبدو على وجهه مسحة حزن. إنه يكبر أماديا بثلاث سنوات، وقد بدا وكأنه يحمل هموم العالم على كتفيه. سكب له عمه كأس شراب، وعرض على أماديا كأساً فرفضت، واستعاضت عنه بشرب كوب من الحليب الذي جاءت به من البقرات ذلك الصباح. وقد كان الحليب بارداً وطازجاً، جلست بكل هدوء إلى طاولة

المطبخ حيث كان الرجلان يتبادلان الحديث. بعد ذلك سألها جان - إيف إن كانت ترغب بالذهاب في نزهة، ففهمت أنه يتوقع منها القيام بذلك. إذ إن جان - إيف عضو في الخلية ويفترض بها العمل معه. تمشيا خارجاً في الهواء الدافئ، كشخصين يتطلعان للتعرف إلى بعضهما البعض ثم نظر إليها بطريقة مشككة.

"سمعت أن رحلتك كانت طويلة". فهزت رأسها. كان لا يزال يصعب عليها التصديق إنها وصلت إلى حيث هي. فقد تركت براغ منذ أيام قليلة فحسب، وقبل ذلك بوقت قصير كانت تختبئ في الغابة. كان رأسها لا يزال مشوشاً جراء جميع هذه الأحداث وجراء التوتر الذي شعرت به لدى اجتيازها الحدود مع مقاوم يرتدي بذة شرطي ألماني وحملها لأوراق مزورة. باتت الآن تدعى أميلي دوما. أما

جان - إيف فبريطاني، وكان قبل مجيئه إلى ملون صياداً، في الواقع كانت فعلاً تربطه بمضيفيها علاقة قربى. في تلك المرحلة، وجدت كل شيء مربكاً بالنسبة إليها. إذ هناك الكثير من المعلومات، بحيث بات يصعب عليها تقبلها واستيعابها. هويات مزورة، وظائف حقيقية، عملاء سريون للمقاومة، وجميعهم يحاولون تحرير فرنسا.

قالت ببساطة ممتنة لهم جميعاً على ما فعلوه من أجلها: "أنا محظوظة لوجودي هنا". كانت تأمل أن تتمكن من مساعدتهم رداً للجميل. إذ يعتبر ذلك أفضل من الاختباء في نفق في مكان ما والصلاة كي لا يجدها الألمان. أحبت القيام بهذه الأمور أكثر، وبدت لها منطقية أكثر.

"إننا بحاجة إليك هنا. سنستقبل عملية إنزال في الغد".

سألت بصوت خافت: "من إنكلترا؟" ولكن لم يكن ثمة من يسمعهم في هواء الليل اللطيف، فرد عليها بهز رأسه. "وأين ينزلون؟"

"في الحقول. يقومون أولاً بالاتصال بنا لاسلكياً، فنخرج لموافاتهم، ونستخدم مشاعلنا. وعندما يحطون لا يسعهم البقاء على الأرض سوى أربع دقائق. أو أحياناً ينزلون لنا أشياء بواسطة المظلات. يعتمد الأمر على

ما يحملونه". كان عملاً خطيراً، ولكنهم كانوا في أشد الحماس للقيام به. كان جان - إيف واحداً من قادة خليته. وهناك رجل أعلى منه مرتبة، ولكن جان - إيف واحد من أفضل رجالهم وأكثرهم شجاعة. إذ يتحلى بشجاعة لا توصف. لم تقو أماديا إلا على التساؤل عن مدى الحزن الشديد الذي يبدو على وجهه. إذ بدا مثقلاً بالهموم وهما يسيران بين الأشجار. سألها: "هل تعرفين كيفية استخدام جهاز التخابر ذي الموجات القصيرة؟" فهزت رأسها نافية. "سأعلمك. إنه أمر بسيط للغاية. هل بوسعك استخدام مسدس؟" فهزت رأسها من جديد، فضحك. "ما كنت تفعلين قبل هذا؟ عارضة أزياء أو ممثلة أو مجرد فتاة مدللة؟" وجد أماديا جميلة جداً، فافترض أنها كانت تشغل إحدى هذه الوظائف، وهذه المرة ضحكت عليه.

"كنتُ نادرة عفة. ولكن إن كنت تقصد المديح بكلامك فشكراً جزيلاً لك". لم تكن واثقة إن كان نعتها بالممثلة يُعتبر من باب المديح، بالتأكيد ما كانت أمها لتعتقد ذلك. بدا عليه الذهول عندما سمع جوابها.

"هل غادرت مقر نادرات العفة قبل الحرب؟"

"لا، غادرته بعد أن تم ترحيل أمي وأختي، من أجل سلامة الأخريات".

"وهل ستعودين إلى مقر نادرات العفة بعد انتهاء الحرب؟"

قالت أماديا بثقة: "نعم". هذا ما كان يمكنها من مواصلة العيش.

قال وهو ينظر إليها: "يا له من ذوق".

"على الإطلاق، إنها حياة رائعة".

قال مجادلاً إياها: "كيف عساك تقولين ذلك وأنت مسجونة بين جدران المقر. كما أنك لا تبدين كنادرة عفة".

قالت بهدوء: "بلى أبدو كنادرة عفة. إنها حياة مليئة بالعمل. إننا نعمل بكد طيلة النهار، ونصلي لأجلكم جميعاً".

"هل تصلين الآن؟"

"بالطبع، يوجد الكثير لتصلي من أجله هذه الأيام". ومن ضمن هذه الأشياء وبشكل خاص الرجل الذي تسببت بمقتله عند هروبها. كانت لا تزال تتذكر وجه ويليلم والدماء التي نزفت من رأسه وانتشرت في كل مكان. أدركت أنها ستظل تشعر أنها المسؤولة عن وفاته طيلة حياتها، ولديها حياتها بطولها لتكفر عن ذنبها.

سألها فجأة بعد أن توقف لينظر إليها: "هلا صليت من أجل أخوي؟" بدا أصغر مما كانت تظن، بالرغم من أنه أكبر سناً منها. كانت تشعر في تلك الأيام أنها باتت غاية في الكبر. إذ شهد الناس جميعاً الكثير من الأحداث المؤلمة، والبعض شهد ما هو أكثر من غيره.

"نعم سأفعل"، ثم سألته بعد أن أثر فيها طلبه: "أين هما؟" وقد عزمت على الصلاة من أجلهما تلك الليلة.

"لقد قتلتهما القوات الألمانية منذ أسبوعين في ليون. كانا مع مولان". كانت قد تعرفت على هوية مولان من خلال سيرج. لقد كان بطل المقاومة.

سألت بلطف: "أنا آسفة هل لديك أخوة وأخوات آخرين؟" وأملت أن يرد بالإيجاب ولكنه هز رأسه نافياً.

"لقد توفي والدي. توفي والدي في حادث صيد عندما كنت صغيراً. وتوفيت والدتي في السنة الماضية. أصيبت بالتهاب رئوي وعجزنا عن جلب الدواء لها". إن وفاة شقيقيه علّلت سبب حزنه الدائم. لقد رحلت عائلته بأكملها ولم يبق له سوى خاله وزوجة خاله في ميلون. وهي أيضاً تماثله حالاً إذ فقدت عائلتها هي الأخرى.

"لقد رحلت عائلتي أيضاً. أو ربما تكون قد رحلت. لقد تم ترحيل أمي وشقيقتي في حزيران من السنة الماضية". وقد انقطعت جميع أخبارهما عنها. توفي والدي عندما كنت في العاشرة من عمري. وتم ترحيل جميع أفراد عائلة أمي. كما أن عائلة والدي تبرأت منه عندما تزوج بوالدتي بسبب جنسية والدتي الألمانية. فهو كان فرنسي الجنسية. حدث ذلك خلال

الحرب العالمية الأولى. لقد كان الناس يقدمون على مثل هذه الأفعال الغبية. لم تسامحهما عائلتاهما أبداً".

"هل كانا سعيدين؟" بدا مهتماً بالأمر، فتأثرت أماديا. كانا شابين يحاولان إنشاء علاقة صداقة في أوقات عصيبة بل وعصيبة جداً.

"لقد أحبا بعضهما جداً".

"هل تعتقدين أنه ساورهما الندم على ما فعلاه، أعني تحديهما لعائلتيهما؟"

قالت أماديا والدموع تنهمر من عينيها: "لا، لا أعتقد. ولكن وفاة والدي صعبت جداً على والدتي. إذ لم تعد أبداً كسابق عهدها. كانت شقيقتي في الثانية من عمرها فحسب، فتوليت أنا العناية بها طيلة الوقت". كان قد مضى وقت طويل لم تفكر فيه على ذكر داقني وفجأة بحديثها عنها شعرت بشوق شديد لها ولوالدتها أيضاً.

"أظن أن هناك الكثير من الأشخاص في مثل حالتنا من الذين لم يبق لهم أحد من أفراد عائلتهم".

قال بحزن: "كان شقيقاي توأمان".

"سأصلي لأجلهما الليلة. ولأجلك أنت".

قال بأدب: "شكراً لك". ثم مشيا ببطء عائدين إلى المزرعة. لقد نالت إعجابه. إذ بدت ناضجة جداً، وقد مرت بكثير من المحن هي الأخرى. ظل يجد صعوبة في التصديق أنها نذرت عفة أو فهم السبب الذي دعاها إلى أن تكون نذرت عفة. ولكن بدا أن هذا الأمر يمنحها صفة العمق الشديد والسكون الذي أحبه فيها. لقد وجد أن رفقتها تبعث على الراحة، وشعر بالأمان معها.

"سأمر عليك لاصطحابك غداً مساء. ارتدي ملابس داكنة. إننا نموّه وجوهنا بالأسود عندما نتوجه إلى هناك. سأجلب لك بعضاً من طلاء الأحذية".

قالت بابتسامة: "شكراً لك".

"أسعدني الحديث معك يا أميلي. إنك إنسانة طيبة".

"أنت أيضاً يا جان - إيف". ثم عاد معها إلى بيت المزرعة. ولدى عودته بسيارته إلى المزرعة التي يعيش فيها انتابه إحساس بالسعادة لعلمه أنها تصلي من أجله. ثمة شيء فيها جعله يشعر أن الله سيستجيب لدعائها.

الفصل التاسع عشر

في الليلة التالية، أقلها جان - إيف في الساعة العاشرة. كان يقود شاحنة قديمة وقد عمد إلى إطفاء المصباحين الأماميين خلال سيره. رافقه شخص آخر وهو مزارع، شعره أحمر ويتمتع ببنية ضخمة. عرّفه جان - إيف على أميلي حيث قال إن اسمه جورج. كانت قد قضت النهار بطوله في العمل بكد في المزرعة حيث مثلت خير عون لزوجة خال جان - إيف، فشعرت بالامتنان لمساعدة أماديا لها.

في الوقت الذي غادرت أماديا المنزل برفقة جان - إيف خلد خاله وزوجته إلى النوم. ولم يطرحا أي سؤال إذ كانا يعرفان الروتين. لم تنتابهما الحشرية لمعرفة ما الذي ستقوم به أماديا الليلة. واكتفيا بالقول لها: "عمت مساءً". وصعدا إلى الطابق العلوي.

بعد بضع دقائق، غادرت أماديا في الشاحنة مع جان - إيف. وعندما سمع الزوجان المسنان صوت انطلاق الشاحنة لم يصدرا أي تعليقات على الأمر.

ارتدت أماديا ثياباً داكنة، كما طلب منها جان - إيف. وساروا وسط الحقول دون التلفظ بكلمة. وعندما وصلوا، كانت توجد في المكان شاحنتان ركنتا بين الأشجار. بلغ عدد الرجال الموجودين هناك ثمانية إضافة إلى أماديا. لم يتبادلوا الكلام على الإطلاق. أعطاها جان - إيف علبة صغيرة من طلاء الأحذية، فوضعت بعضاً منها على وجهها. وعندما سمعوا صوتاً صادراً من ناحية السماء، بدأ الرجال بالانتشار، ثم بالركض. بعد دقائق سحبوا مصابيحهم، وأصدروا إشارات للمروحية. وبعد ثوان، شاهدت أماديا

مظلة تنزل ببطء. لم تكن المظلة تحمل أي رجل، وإنما حزمة كبيرة تنزل ببطء إلى الأرض. وعندما أطفأوا المصابيح غادرت المروحية. لقد تمت العملية. عندما حطت المظلة بالقرب من الأشجار، ركضوا جميعاً باتجاهها. فكوا المظلة، وقام أحد الرجال بدفنها في الحقل بأقصى سرعة ممكنة، واستلم الآخرون الحزمة. كانت مليئة بالمؤونة والأسلحة، فقاموا بتحميلها في الشاحنات. بعد عشرين دقيقة، تفرق الجميع وعادت أماديا ورفيقاها إلى المزرعة، بعد أن مسحوا طلاء الأحذية عن وجوههم.

اكتفى جان - إيف بالقول: "هكذا يتم الأمر". كان قد أعطاها خرقة لتمسح وجهها، فعاد ليبدو نظيفاً من جديد. تمت العملية بطريقة سلسة جداً، وقد أشارت إعجاب أماديا، بذلوا جهدهم حتى تبدو سهلة، فسارت على أسهل ما يكون. ولكنها أدركت أن الأمور لا تسير دوماً على هذا المنوال. فأحياناً تقع حوادث. وفي حال أمسك بهم الألمان، سيرمونهم بالرصاص ليلقنوا بهم درساً للبلدة برمتها. لقد حدث هذا الأمر في جميع أنحاء فرنسا، وقد حدث الأمر مع شقيقيه اللذين صلت لأجلهما في الليلة الماضية تماماً كما وعدته.

سألت أماديا بكل هدوء راغبة بأن تعلم المزيد عن عملهم وما يمكن أن يتوقعوا منها فعله: "هل عادة يحطون بطائرتهم أم يكتفون بإنزال الأشياء؟"

"أحياناً ينزلون الرجال بالمظلات. وفي حال حطوا بطائرتهم، فيتوجب عليهم أن يقلعوا بأقل من خمس دقائق. إذ يصبح الوضع عندها أكثر خطورة بكثير". لقد أمكنها بكل سهولة تخيل مدى المخاطر التي قد تحيط بمثل هذا العمل.

"ماذا تفعلون بالرجال؟"

"أحياناً نقوم بتخبئتهم وفي معظم الأحيان يعودون بالطائرة. إنهم مكلفون بمهام لحساب البريطانيين". كان هذا جل ما تفوه به في رحلة العودة. وجورج لم يتفوه بكلمة. كان يكتفي بالنظر إلى أماديا وجان -

إيف. وقد قام بمشاكسته بشأنها عندما غادرا. إذ ربطت بينهما صداقة منذ وقت طويل، ومرا في كثير من المحن سوياً. بالتالي باتا يثقان ببعضهما البعض ثقة عمياء.

سأله جورج بابتسامة ماكرة: "إنها تعجبك، أليس كذلك؟"

فرد عليه جان - إيف مستنكراً: "لا تكن غبياً. إنها ناذرة عفة".

"حقاً؟!" بدا على جورج الصدمة. "إنها لا تبدو كناذرة عفة".

"هذا لأنها لا ترتدي الثوب، وعلى الأرجح ستبدو كناذرة عفة عندما ترتدي هذا الثوب إضافة إلى غطاء الرأس وما إلى هنالك". هز جورج رأسه متأثراً بكلامه.

"وهل ستعود إلى مقر ناذرات العفة؟" رأى أنها في حال فعلت، فسيكون أمراً مؤسفاً جداً. وكان هذا رأي جان - إيف أيضاً.

قال جان - إيف في طريق عودته إلى المزرعة التي يسكنان فيها: "لقد قالت إنها ستفعل".

"ربما بوسعك أن تجعلها تغير رأيها". ضحك جورج وهما يخرجان من الشاحنة، ولكن لم يعلق جان - إيف على كلامه. فلقد كان يتساءل حول الأمر نفسه.

في تلك اللحظة كانت أماديا - موضوع اهتمام الشابين - جاثمة على ركبتيها تشكر الله على نجاح مهمتهم. ولكن مرت عليها لحظة فكرت فيها إن كان من المناسب لها شكر الله على مساعدتهم في استخدام الأسلحة التي ستفتك بالناس. ولكن في تلك المرحلة بدا أنه ما من خيار آخر، وأملت أن يتقبل الله منهم هذا الأمر. ظلت جاثمة على ركبتيها لوقت طويل تلك الليلة تتفحص ضميرها تماماً كما كانت تفعل في مقر ناذرات العفة، ثم خلدت للنوم.

في الساعة السادسة، نهضت من سريرها، وتوجهت لحلب البقرات كما تعلمت أن تفعل. وعندما نهض مستضيفاها وجدا الفطور جاهزاً. لقد تناولوا فطوراً بسيطاً يتألف من الفاكهة وحبوب الذرة وقهوة مزيفة. ولكنها

كانت تعتبر وليمة مقارنة بما تناولته في القسم الأول من السنة. كانت لا تزال تشكر الله كل صباح ومساء على جلدها سالمة معافاة إلى فرنسا. جلست ذلك الصباح غارقة في التفكير في المهمة التي شاركت فيها الليلة الفائتة.

لقد أتمت مهمتين أخريين مماثلتين على مدى الأسابيع المقبلة. وثلاث مهمات في شهر أيلول استقدموا فيها الرجال. في إحدى هذه المهمات الثلاث، حطت الطائرة على الأرض، وفي المهمتين الأخريين أنزلوا الرجال بواسطة المناطيد وتعرض أحدهم للأذى. فقد لوى كاحله وكانت الإصابة شديدة، فخبأوه في المزرعة. وعمدت أماديا إلى العناية به إلى أن تحسنت حالته وبات بإمكانه المغادرة.

كان قد حل شهر تشرين الأول عندما أتى الجنود الألمان لزيارتهم. كانوا يقومون بتفقد المزارع وأوراق ساكنيها فحسب. نظروا إلى أوراق أماديا، وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان. ولكن أعادوا الأوراق إليها دون أي تعليق، وأخذوا بعض الفاكهة في سلل وساروا في حال سبيلهم. بدا جلياً أن زوجة خال جان – إيف قد أعاقتها الإصابة بمرض التهاب المفاصل عن الحركة مما استدعى جلب فتاة لمعاونتها. كما وأن زوجها طاعن في السن أيضاً. لذا لم يبد أن هناك أي أمر خارج المألوف.

أخبرت جان – إيف عن الأمر تلك الليلة حين كانا في طريقهما للقيام بمهمة أخرى. لقد استقدموا حينها المزيد من المؤونة والأسلحة وبعض أجهزة التخابر.

اعترفت له قائلة: "لقد ارتعبت جداً".

فقال لها بصراحة: "وأنا أيضاً أخاف أحياناً. لا يود أحد أن يُرمى بالرصاص".

فاعترفت له قائلة: "أفضل أن أرمى بالرصاص على العودة إلى حيث كنت أو إلى مكان أسوأ منه حالاً".

قال وهو ينظر إليها تحت ضوء القمر: "أنت فتاة شجاعة جداً".

كان يحب العمل معها والحديث إليها. كان أحياناً يأتي إليها ليلاً لمجرد تبادل الحديث. إذ بات يشعر بالوحدة بعد وفاة شقيقه. وقد كان الحديث معها يتسم بالسهولة، بالإضافة إلى كونها تتمتع بقلب طيب. كما أنه أحب مواصفاتها الأخرى أيضاً، ولكنه لم يعبر لها صراحة عن هذا الأمر، إذ لم يشأ أن يبعدها أو يخيفها منه. وكانت هي تكثر من الحديث عن المقر، إذ كان هذا كل ما تعرفه، وقد اشتاقت إليه كثيراً. لقد أحب فيها براءتها وقوتها في الوقت عينه. كانت تمثل مزيجاً غريباً من الأشياء. لم تكن تتململ أبداً من العمل أو المسؤولية كما ولم تكن تخشى التعرض للأخطار. كانت تماثل بشجاعتها أي رجل. كان الباقون قد أثنوا أيضاً على شجاعتها هذه منذ وقت طويل. كانوا يكنون لها الاحترام كخاله هو.

ظلت تعمل معهم في كل مهمة من الخريف حتى الشتاء. وقد علمها كيفية استخدام جهاز التخابر ذي الموجات القصيرة وكيفية حشو المسدس، وعلمها كيفية إطلاق النار في حقل خاله. فوجدها رامية ماهرة الأمر الذي أثار دهشته. كانت تتمتع بانعكاسات جيدة وسرعة بديهة ويدين ثابتتين، وفوق ذلك كله كانت تتمتع بقلب طيب.

في 23 كانون الأول، ساعدته على نقل أربعة فتيان إلى ليون. كان الأب هناك قد وعد باستقبالهم، ثم عجز عن ذلك. إذ خشي تعريض الآخرين للخطر فأخذاهم وحدهما إلى جان مولان، ثم عادا وحدهما. وقد مرض أحد الفتيان فاحتضنته واعتنت به.

قال جان – إيف وهما في طريق العودة إلى ميلون: "أنت امرأة رائعة يا أميلي". أوقفهما جنود في الطريق وتفحصوا أوراقهما، فأمعن جندي منهم النظر فيهما: فقال له جان – إيف: "إنها صديقتي الحميمة". فهز الجندي رأسه.

فابتسم وقال: "يا لك من فتى محظوظ". ثم لوّح لهما بيده سامحاً لهما بالمضي قدماً في طريقهما.

نظر إليها جان – إيف وقال: "أتمنى لو كان هذا الأمر صحيحاً". ولكنها لم تكن تبدي انتباهاً إذ كانت تفكر في الفتى المريض وتأمل أن

يتعافى، حيث ظل هذا الفتى مختبئاً في نفق ثم شقه يدوياً لمدة ثلاثة أشهر، فأصيب بالنتيجة بالتهاب رئوي حاد جداً. كان محظوظاً لبقائه على قيد الحياة.

"ماذا؟"

قلت: "أتمنى لو أنك كنت حقاً صديقتي الحميمة".

بدت مندهشة وقالت: "لا هذا غير صحيح. لا تكن سخيفاً". بدت بكلامها تشبه الأم، فضحك وبدا كالطفل وليس رجلاً يخاطر بحياته على الدوام من أجل فرنسا.

"بلى، والأمر ليس سخفاً. السخف هو أن تحتجزي نفسك بين جدران مقر نادرات العفة لبقية حياتك. هذا هو السخف".

"لا هذا غير صحيح. إنها الحياة التي أريدها".

"لماذا؟ مِمّ تختبئين؟ مِمّ تخشين؟ ما الذي يخيفك من العيش في العالم الخارجي؟" كان تقريباً يصرخ في وجهها إذ كان غارقاً في حبها منذ أشهر، وقد أثارت مجريات الأمور إحباطه. بدا الاثنان كطفلين يتشاجران وهما في طريق العودة إلى المنزل.

"أنا لا أختبئ من شيء. أنا أؤمن بما أفعله. أحب مقر نادرات العفة والحياة فيه". أبدت امتعاضها، وكتّفت ذراعيها وكأنها تشبكهما في ثوب النادرة الذي باتت تفتقده وتشعر وكأنها عارية من دونه.

"لقد راقبتك مع أولئك الأطفال الليلة وخصوصاً الفتى المريض. أنت بحاجة إلى إنجاب الأطفال. لقد خُلقت النساء لهذا الأمر. لا يسعك حرمان نفسك من هذا الأمر".

"بلى أستطيع. أنا أتمتع بأشياء أخرى".

"مثل ماذا؟ ليس لديك سوى التضحية والوحدة والصلوات".

قالت بهدوء: "لم أشعر أبداً بالوحدة في المقر يا جان - إيف". ثم تنهدت. "أحياناً أشعر بوحدة أكبر هنا". كان ذلك صحيحاً إذ كانت تشتاق إلى حياة المقر والأخوات والمسؤولة، وإلى والدتها ودافني. كانت تشتاق إلى كثير من الأمور. ولكنها شعرت بالامتنان لوجودها هنا.

قال بحزن وهو ينظر إليها: "أنا أيضاً أشعر بالحزن". عندها رأى الدموع تنهمر على وجنتيها، فقال لها بعد أن جذبها ناحيته: "يا عزيزتي المسكينة. أنا آسف لم أقصد الصراخ عليك".

"لا بأس". فجأة باتت تبكي وهي بين ذراعيه. لم تقوَ على الكف عن النحيب. إذ كان الوضع صعباً نوعاً ما مع اقتراب 25 كانون، وقد كان هذا التاريخ في السابق صعباً أيضاً. "أشعر بشوق شديد إليهما... لا أستطيع التصديق أنهما رحلتا... كانت أختي غاية في الجمال... وأرادت أمي المسكينة أن تفعل كل ما بوسعها من أجلنا. لم تفكر بنفسها أبداً... أنا دوماً أفكر في ما يمكن أن يكون قد حدث لهما... أدرك أنني لن أتمكن من رؤيتهما من جديد... آه جان - إيف". نحبت بين ذراعيه لوقت طويل. لقد كانت المرة الأولى التي تطلق فيها العنان لنفسها. لم تكن تسمح أبداً لنفسها بالتفكير في ما يمكن أن يكون قد حدث لهما. كانت قد سمعت قصصاً مخيفة، ولم تقوَ على التصديق أنهما رحلتا إلى الأبد، ولكن في صميم قلبها أدركت أنهما رحلتا.

"أعلم... أعلم... أنا أيضاً أفكر في هذه الأمور... أشعر بالشوق إلى شقيقي... جميعنا خسرنا أحباء لنا. لا يوجد أحد لم يخسر محبوباً". ثم دونما أي تفكير قام بتقبيلها فأذعنت له. بعد كل تلك الأشهر من التراجع واحترام العهود التي أخذتها على نفسها، والحياة التي قالت إنها ترغب بها، والمقر الذي أرادت الهرب إليه. لم يشأ لها عيش تلك الحياة، إذ أراد أن يمضي بقية حياته معها، وإنجاب الأطفال منها، والعناية بها. جل ما تبقى لهما الآن هو بعضهما البعض. فكل من أحبتها قد رحل. كانا أشبه بناجيين على متن قارب نجاة عالق في بحر هائج، وفجأة باتا يتمسكان ببعضهما البعض. لم تكن أماديا تعرف ما الذي يحدث لها ولكن غلب عليها موجات من اليأس والشغف شلت قدرتها على التفكير، فلم يعد بوسعهما الكف عن تقبيل واحتضان بعضهما البعض. بدت راغبة بكل ما يحدث بينهما، وكأنها تحولت لحظتها إلى شخص آخر، شخص مختلف عن المرأة التي كانت

عليها طيلة هذه السنوات. لقد اجترحت الحروب الغرائب وغيّرت الناس، تماماً كما فعلت معها. نسيت جميع العهود التي قطعتها وأخواتها في المقر والمقر نفسه. جل ما أرادته واحتاجت إليه في تلك اللحظات هو جان - إيف، وهو كان بحاجة إليها بالقدر نفسه. لقد عانى كلاهما الأمرين، وخسرا الكثير، وتحليا بالشجاعة في العديد من الأحيان لأجل العديد من الناس، ونجيا من أهوال كثيرة بفضل شجاعتهما. لقد انهارت تلك الليلة جميع الجدران التي بنياها وعند احتضانه لها بكى بين خصلات شعرها الطويل الأشقر، وجل ما أرادت فعله هو مواساته. كان بمثابة الطفل الذي لم تنجبه، ولم تتخيل أنها قد تنجبه يوماً، الرجل الوحيد الذي ترغب به وتحبه باتت جل ما تريده الآن أن تصبح ملكاً له. نظرا إلى بعضهما البعض كطفلين ضائعين ثم نظر إليها والرعب يتملكه.

"هل تكرهينني؟" لم يجبرها على الاستسلام له بالقوة؛ فقد رغبت هي بـه بكامل رضاها. لقد رغب كل منهما بالآخر واحتاجا إلى بعضهما البعض جداً. إذ مرا بالكثير من المحن، وسواء اعترفا أم لم يعترفا بالأمر إلا أن العبء الذي يحملانه على ظهريهما ثقيل جداً.

قالت بهدوء: "لا، لا يمكنني أبداً أن أكرهك. أنا أحبك يا جان - إيف". في جزء منها فهمت ما مرا به وسامحت نفسها.

"أنا أيضاً أحبك. آه يا الله كم أحبك. ماذا سنفعل؟" كان يدرك كم أنها متعلقة بحياة المقر، ولكن بدت له هذه الحياة خاطئة ولطالما شعر كذلك. إذ كانت جميلة جداً وطيبة للغاية بحيث من المؤسف أن تختفي في مقر ناذرات العفة لبقية حياتها. ولكنها كانت الحياة التي قالت إنها ترغب بها منذ التقيا.

قالت بتعقل وهي في أحضانه: "هل علينا أخذ قرار بهذا الصدد في هذه اللحظة؟ أنا لست واثقة إن كنتُ قد اقترفت إثماً فظيعاً أو إن كان هذا مقدراً لي. ربما هذا ما كتبه الله لي. دعنا نرى ما سيحدث ونصلي لنجد طريقاً". لم تكن تمتلك أدنى فكرة عن الطريق، ولكنها أدركت أن عليها اكتشاف هذه الطريق الجديدة الآن. بدا لها أمراً صائباً على نحو مستغرب.

"إن حدث لك أي مكروه يا أميلي قد أموت".

"لا، لن تموت". كانت الدموع تتحجر في عينيها ولكنها كانت غاية في السعادة إلى جانبه.

لم تشعر بمثل هذه السعادة في حياتها. كان حبها له مختلفاً عن حبها للمقر ولكن اتسمت هذه الحياة الجديدة بنفحة من الفرح وقد أحبت ذلك فيها. لأول مرة في حياتها شعرت بالشباب والطيش. للمرة الأولى لم تبدُ الحياة جادة جداً، والمآسي الواقعة حولهما لم تبدُ بهذه القساوة الشديدة. كان هذا ما يحتاجان إليه للتخفيف من وطأة وقائع حياتهما، على الأقل في هذه اللحظة.

قبّلها بابتسامة عريضة وهما يخرجان من الشاحنة ويقهقهان كأطفال المدارس: "يا الله كم أحبك". ثم شغّل محرك الشاحنة من جديد. أراد لو يطلب منها الزواج به ولكنه لم يشأ أن يطلب منها الكثير بهذا الوقت المبكر. فلقد أقدمت على خطوة كبيرة الليلة. ولعلها على حق، إن كان مقدراً لهما العيش سوياً فسيتم الأمر. كل شيء سيأتي في وقته. لم يكن عليهما أخذ القرارات بشأن كل شيء في ليلة واحدة. بالنسبة إليه كان أمراً محسوماً أنها ستصبح زوجته وأم أولاده. أمل فحسب أن يشاء الله وأن تكون أميلي مستعدة للتخلي عن أحلامها بالعودة إلى مقر ناذرات العفة. ولكن كان الوقت مبكراً جداً على هذا الأمر. إذ كانت لا تزال مذهولة مما أقدما عليه وكذلك هو.

تحدثا بهدوء في طريق العودة إلى المنزل، وقبلها، واحتضنها قبل خروجها من الشاحنة. "أنا أحبك لا تنسي ذلك. كانت هذه الليلة مجرد البداية ولم تكن بغلطة أو خطيئة". ووعدها قائلاً: "سأعاود الذهاب إلى دار العبادة بانتظام". فابتسمت له. إذ كان قد كف عن الذهاب إلى دار العبادة منذ وفاة شقيقيه.

"ربما لهذا السبب أرسلني الله إليك، كي أدفعك لتعود إلى زيارة دار العبادة". مهما كان السبب، بدت سعيدة جداً بقدره هو بالرغم من الصدمة التي منيا بها جراء ما أقدما عليه. وقد اندهشت لعدم إحساسها بأنها اقترفت

حقنًا وإنما شعرت بالسعادة وبالحب الغامر. أدركت أيضاً أن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن تتوصل إلى حل. كان ذلك من إحدى الصدمات التي تلي الحرب.

تلك الليلة، عندما استلقت في سريرها أخذت تفكر به وبما أثار دهشتها أن تصحرها ثم يعانيها ولم تشعر بالندم على فعلتها. واستغربت أن الأمر بدا مسالماً لهما. تساءلت ما إذا كان ذلك ما كتبه لها الله في النهاية. كانت لا تزال تفكر في ما حصل وهي تستسلم للنوم. وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدت أنه ترك لها زهوراً في طريقه إلى العمل. كان قد أتى إلى منزلها خلسة، وترك لها باقة صغيرة من الزهور الملونة [illegible] ووضع على البطاقة ملاحظة [illegible] جان - إيف. [illegible] البطاقة في [illegible] وارتسمت ابتسامة على شفتيها [illegible] البرقيات التي كانت بانتظارها. لقد شعرت بأنوثتها للمرة الأولى في حياتها. كان إحساساً غير مألوف لها بعد [illegible] الأحاسيس التي حرمت نفسها منها، وتعجبت لأن تحرم نفسها منها طيلة حياتها. لقد [illegible] رأساً على عقب، وكان مستحيلاً عليها معرفة أي طريق هو الصحيح. ذلك الطريق الجميل الذي اختبرته مع جان - إيف أو ذلك الذي [illegible] قبل سنوات عديدة. لم يكن أمامها سوى الأمل بأن تأتي الأجوبة مع الوقت وبمكانة الغد.

الفصل العشرون

واصلت أماندا المشاركة في المهمات إلى جانب جان - إيف طيلة فصل الشتاء. كان البريطانيون يتزودون بالأموال والرجال بانتظام وبواسطة المظلات. وفي إحدى الليالي كانا بانتظار ضابط بريطاني ليهبط بمظلته، وتمكنا من مساعدته على حل المظلة، وإرساله في طريقه في [illegible]. سأل جان - إيف أماندا إن كانت قد سمعت باسمه. كان يدعى اللورد روبرت مونتغمري.

علّق جان - إيف ضاحكاً وهو يبتسم لها: "إنه رجل طيب. التقيت به مرة خلال السنة الماضية". كانت علاقتهما لا تزال قائمة منذ 25 كانون، ولكن [illegible] الأخرى. كان [illegible] لموضوع الزواج بتاتاً، ولكنها لم تكن واثقة من الأمر. [illegible] لا تعلم إن أراد الله لها العودة إلى الدير. ولكن بات هذا الاحتمال أكثر صعوبة الآن حتى بالنسبة إليها. كانت قد أقدمت على قتل رجل، وحتى لو حصل ذلك عن غير قصد، والآن هي غارقة في حب رجل آخر. كان يربطهما حب كبير. وليس هناك أي مجال ليسمح لها بالعودة إلى [illegible] انتهاء الحرب، وقد قطع على نفسه عهداً يتعلق له بالتأكيد لا يعقل أن تكون تلك الحياة مشيئة الله [illegible] تعتبر [illegible] غير طبيعية. كما وكان يوم يدعوها إلى [illegible].

في الربيع، أتى [illegible] من باريس لرؤيتهم. كان ذلك في العام 1943، وأحس بالعلاقة التي باتت تربط أماندا بجان - إيف دون أن يشرح له أحد الأمر. أخبر شقيقه بيار بعد عودته إلى باريس أنه يعتقد أن [illegible]

نذارات العفة سيفتقر إلى نذارة عفة شابة غاية في الجمال بعد الحرب. وقد تأثر جداً بالعمل الذي قامت به أماديا إلى جانب جان - إيف. كانا ينفذان مهاماً ناجحة منذ وصولها. ووفق ما قاله جان - إيف كانت تتحلى بالشجاعة بالرغم من أنها كانت شديدة الحذر من تعريض أي من أعضاء الخلية لأي خطر.

كان سيرج وجان - إيف قد تكلما حول تفجير مستودع ذخائر ألماني في غضون الأسابيع المقبلة. أصرّ جان - إيف على عدم رغبته بمرافقة أماديا له في هذه المهمة. وقد ظن سيرج أن الأمر عائد لها، ولكنه تفهم موقف جان - إيف الذي كان متيماً بحبها. لكنهم في الحقيقة كانوا بحاجة إلى مساعدتها وكانت تتمتع بالمهارة والسرعة حسبما سمع عنها. كان سيرج يثق بها أكثر من أي شخص آخر تقريباً في ميلون، ما عدا جان - إيف.

ظلا يتناقشان في الأمر بشدة عند مغادرة سيرج، وقد وافقت أماديا على رأي سيرج، أرادت أن ترافق جان - إيف في هذه المهمة. كانت الحرب تسير الآن بعكس ما يشتهي الألمان. حيث استسلموا في ستالينغراد في شهر شباط، وكانت أول هزيمة تمنى بها جيش هتلر. وجب عليهم الآن بذل أقصى جهدهم في فرنسا من أجل هزيمتهم هنا أيضاً. ولم يكن ثمة شك أن تفجير مخزن أسلحتهم سيمثل ضربة قوية.

رسموا خطة للمهمة بحذر على مدى الأسابيع التالية وأخيراً أفلحت أماديا في إقناعه. ورغماً عنه وافق جان - إيف على السماح لها بمرافقته. كان القرار النهائي بين يديه كونه قائد الخلية. في الحقيقة، كانوا يفتقرون إلى الرجال. حيث كان اثنان من أفضل رجاله مرضى.

في وقت متأخر من إحدى الليالي توجه جان - إيف، وأماديا، وامرأتان، وجورج، ورجل آخر إلى مخزن الذخائر. استقلوا شاحنتين، وخبأوا مجموعة كبيرة من المتفجرات في الخلف. ركبت أماديا في الشاحنة نفسها مع جان - إيف. خرج رجلان منهم وقتلا الحراس. كانت هذه أخطر

مهمة يقومون بها. وضعوا المتفجرات بحذر حول مخزن الذخائر. ثم وفقاً للخطة، ركض الجميع عائدين إلى الشاحنتين ما عدا جان - إيف وجورج. وقد أدركا أن لديهما مجرد دقائق لإشعال الفتيل ومبارحة المكان. كانت المتفجرات التي يستخدمونها من النوع الخام، ولكنها كانت أفضل ما أمكنهم الحصول عليه. وقبل وصولهم إلى الشاحنتين، سمعت أماديا دوي انفجار هائل، ورأت منظراً أشبه باستعراض ضخم للألعاب النارية يضيء سماء المكان. تبادلت هي والآخرون النظرات، وشغّلوا محرك الشاحنتين ولكن لم يروا أثراً لجان - إيف وجورج.

قال الرجل الذي يستقل الشاحنة معها: "انطلقي انطلقي". ولكن ما كان بوسعهم أن يتركوا جان - إيف وجورج وراءهم. ستصل جميع القوى العسكرية المحلية في غضون دقائق وإن وجدوهما في المكان سيردونهما بالرصاص. كانت المرأتان الأخريان تنتظران جورج في الشاحنة الثانية. وأماديا تستلم قيادة الشاحنة الموجودة فيها.

قالت وهي تضغط على أسنانها: "لن أغادر". ولكن حينما نظرت خلفها رأت كرة هائلة من النار، فانطلقت الشاحنة الثانية على الفور.

توسل الرجل الجالس بقربها قائلاً: "لا يسعنا الانتظار". إذ قد يُلقى القبض عليهما وكانت أماديا تدرك هذا الأمر جيداً.

قالت: "علينا انتظارهما". ثم سمعت دوي انفجار وراءها فاهتزت الشاحنة من شدته. كانت النيران تنتشر في كل مكان، وقد انطلقت أصوات صفارات الإنذار. ودون أي تردد داست على دواسة البنزين، وانطلقت هي الأخرى. سارت الشاحنتان في الحقول وأماديا ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها إلى أن وصلوا إلى الحظيرة حيث كانت الشاحنتان. لقد نجوا بمعجزة، وأدركت أماديا أنهم انتظروا طويلاً. كانت تقريباً قد عرّضت حياة الآخرين جميعاً للخطر بسبب الرجل الذي أحبه قلبها. وقفوا بصمت في الحظيرة وسط الظلام يستمعون إلى دوي الانفجارات ويبكون بصمت. جل ما يسعهم فعله الآن هو التمني أن يكون جان - إيف وجورج قد خرجا من

المكان، ولكن أماديا لم ترَ لذلك سبيلاً. فقد حدث الانفجار أسرع مما توقعوا له بكثير، وعلى الأرجح تعرض الرجلان لجروح خطيرة الآن أو قتلا على الفور.

قالت للآخرين بصوت متهدج: "أنا آسفة. وجب علينا المغادرة في وقت أبكر". هزّ الجميع رؤوسهم، فقد أدركوا أن كلامها صحيح، ولكنهم لم يرغبوا أيضاً بترك الرجلين وراءهم. كادت بانتظارها الطويل أن تكلفهم حياتهم. لقد أفلحوا بمعجزة في المغادرة.

عادت سيراً على الأقدام إلى المزرعة تلك الليلة وهي تستمع إلى دوي الانفجارات وتنظر عالياً إلى السماء المضاءة. استلقت في سريرها، وتضرعت من أجله لساعات. في صباح اليوم التالي، انتشرت الأخبار في كل مكان. انتشر الجيش في جميع أرجاء الريف يبحثون عن الأدلة. ولكن لم يجدوا أي دليل. كان الناس في المزارع يقومون بأعمالهم بكل هدوء، وقد وجد الألمان رجلين ميتين وقد تفحمت جثتيهما، فاختفت جميع معالمهما وحتى أوراقهما تحولت إلى رماد. لم يعرف الألمان ما عساهم يفعلون، فأقدموا على أخذ أربعة فتيان من المزرعة المجاورة حيث أردوهم بالرصاص تحذيراً للباقين. جلست أماديا في غرفتها طيلة ذلك اليوم يلفها الحزن الشديد والصدمة. لم يمت جان - إيف فحسب بل وقُتل أربعة فتيان نتيجة ما أقدموا عليه. كان ثمناً غالياً تحتم عليهم دفعه مقابل الحصول على الحرية ومن أجل تدمير أسلحة الألمان التي سيستخدمونها لقتل العديد من الناس الآخرين. ولكن مات الرجل الذي أحبه قلبها وباتت مسؤولة عن موت ثمانية أشخاص، جورج وجان - إيف وأربعة فتيان مزارعين وحتى الحارسين الألمانيين اللذين قتلوهما. إنها أحداث يثقل على ضميرها تحمل وزرها نظراً لجسامتها، وخصوصاً بالنسبة إلى امرأة رغبت يوماً ما أن تصبح ناذرة عفة. وللمرة الأولى وهي تنعى الرجل الوحيد الذي أحبته في حياتها، وصلت إلى قناعة بأن لحظة انتهاء الحرب ستعود إلى مقر ناذرات العفة. سيستغرق الأمر كل سني حياتها حتى تكفر عن خطاياها.

الفصل الواحد والعشرون

انتظر سيرج ثلاثة أسابيع حتى أتى من باريس إلى ميلون. كان قد سمع الخبر في باريس وشعر بالسرور للنتائج التي حققتها المهمة. إذ تعرض الألمان لأذى كبير جراء الدمار الذي حدث. ولكن خبر مقتل جان - إيف هزّ كيانه. إذ كان أحد أفضل رجالهم، وأراد التكلم مع أماديا بأسرع وقت ممكن.

وجدها غارقة في الحزن، والصمت يلف غرفتها في المزرعة. كان البريطانيون لا يزالون ينزلون الرجال والمؤن بالمظلات، ولكنها لم تشارك في أي مهمة منذ ذاك الحين.

جلس، وتحدث إليها حول الموضوع وقال لها إنهم باتوا يفتقرون جداً للمساعدة في استقدام الرجال والمؤن بأمان. فنظرت إليه بعينين حزينتين، وهزت رأسها رافضة. "لا أستطيع".

"بلى تستطيعين. فبعملك هذا تحيين ذكراه. عليك أن تقومي بذلك من أجله، ومن أجل فرنسا".

"لا يعنيني الأمر. فيداي ملطختان بكثير من الدماء".

"ليست يداك الملطختين بالدماء، بل أيديهم هم. وإن لم تواصلي العمل فسندفع نحنا نحن الثمن".

قالت وهي تبدو شاحبة: "لقد قتلوا أربعة فتيان". كان مقتلهم يعذبها بقدر ما عذبها مقتل جان - إيف.

"وسيقتلون المزيد من الناس إن لم نردعهم. وهذا كل ما بوسعنا فعله. ليس لدينا وسيلة أخرى. البريطانيون يعتمدون علينا. ستتم في القريب

العاجل مهمة أخرى. ليس لدينا الوقت الكافي لتدريب مزيد من الرجال. وأنا بحاجة إليك لأمر آخر الآن على كل حال".

سألته: "ما هو هذا الأمر؟" نظر إليها فوجد وجهها شاحباً. كان يضغط عليها لأنه يدرك أن عليها العودة إلى الميدان. كانت ماهرة جداً بحيث لا يجوز لها أن تستسلم. وقد خشي أن تنهار بالكامل جراء فقدان جان - إيف، حيث كان يتملكها الأسى الشديد.

"أحتاج منك أن تنقلي فتى وأخته إلى دوردوني. لقد جهزنا لهما مخبأ هناك".

سألته دون أن تبدي اهتماماً بالغاً: "كم يبلغان من العمر؟"

"أربع وست سنوات".

"قامت جدتهما بتخبئتهما، ولكنها توفيت في الأسبوع الفائت. علينا إخراجهما من هنا. سيكونان بأمان في دوردوني".

"وكيف عساي أصل إلى هناك؟" كانت تشعر باليأس، والتعب بادٍ عليها.

"لقد جهّزنا لهما أوراقاً ثبوتية، إنهما يشبهانك. كلاهما يمتلك عينين زرقاوين وشعر أشقر. تم ترحيل والدتهما وقُتل والدهما، فلم يتبق لهما أي فرد من العائلة كالعديد من الأشخاص غيرهما".

بدأت بالقول له إنها تعجز عن القيام بهذه المهمة، ثم نظرت إليه، وتذكرت عهودها وفكرت بوالدتها وأختها وجان - إيف. وشعرت فجأة أنها تدين لهم القيام بهذه المهمة ربما تكفيراً عن أرواح الأشخاص الذين ماتوا. شعرت وكأنها عادت ثائرة عفة من جديد. كان جان - إيف قد أخذ المرأة التي كانت عليها معه. أدركت أنها لن تعود تلك المرأة من جديد. ولكنها كثائرة عفة ما كانت لترفض القيام بالمهمة. هزت رأسها ببطء معلنة موافقتها، إذ لم يكن لديها أي خيار آخر. قالت وهي تنظر إلى سيرج: "سأقوم بالمهمة". فشعر بالسرور. لقد أخذ على عاتقه هذه المهمة بالتحديد من أجل الطفلين ومن أجلها هي على حدٍّ سواء. إذ لم يعجبه الشكل الذي باتت عليه منذ مقتل جان - إيف، وما كان جان - إيف ليعجبه حالها

أيضاً. بطريقة ما كان سيرج يقوم بهذا الأمر من أجل جان - إيف ومن أجلها هي أيضاً. كما وأن الطفلين ثمينان وفق ما أخبر أماديا.

"ستجلبهما إلى هنا غداً مساء مع أوراقهما وأوراقك. سيتوجب عليك تخبئة أوراقك الأخرى في بطانة حقيبتك. ستفيد أوراقك أنك والدتهما، وأنت تتوجهين لزيارة العائلة في بيس". تقع هذه المنطقة في قلب دوردوني، مسقط رأس والدها. لم يسبق لها أن زارت هذا المكان قط، ولطالما رغبت بزيارته. تساءلت ما إذا كانت ستلمح قصره في طريقها، بالرغم من أن لديها أموراً أهم تقوم بها. "وسيتوجب عليك استعارة السيارة من المزرعة". أدرك أنها لن تجد مشكلة في ذلك.

أمضت بقية النهار تصلي في غرفتها بعدما أنهت أعمالها في المزرعة. بالكاد كانت تأكل على مدى الأسابيع القليلة الماضية، وقد ظهر النحول عليها. في اليوم التالي، وضعت أوراقها التي تفيد بأن اسمها أميلي دوما في حقيبتها. حيث أدركت أنها ستحصل على الأوراق الأخرى ليلاً.

بعد موعد العشاء وصل الطفلان، وقد أوصلتهما إحدى النساء في خلية باريس. كانا جميلين ومرعوبين. إذ تمت تخبئتهما في قبو لمدة سنتين وقد توفيت جدتهما التي لم يبق لهما سواها في الحياة. كان سيرج محقاً، إذ كانا رائعين ويشبهانها جداً. دفعها إلى التساؤل كيف كان أولادها ليبدوا في حال أنجبت أولاداً من جان - إيف. ولكن لم يعد هناك أي جدوى من التفكير في هذا الأمر الآن. جلست، وتحدثت إلى الطفلين لبرهة من الوقت. قدمت لهما العشاء ووضعتهما على سريرها الخاص ليناما تلك الليلة، ونامت هي على الأرض بقربهما. ظل الفتى الصغير ممسكاً بيد أخته طيلة الليل. وفهم كلاهما ما يتوجب عليهما فعله. إذ وجب عليهما الادعاء أنها والدتهما، حتى لو سألهما الجنود المخيفين. وعدتهما بأنها لن تسمح بحدوث أي سوء لهما ودعت الله أن تتمكن من ذلك.

في صباح اليوم التالي غادروا بعد موعد الفطور مباشرة في سيارة خال جان - إيف. أدركت أن بوسعها قطع المسافة في غضون ست أو

سبع ساعات. وقد جلبت معها الطعام حتى لا تضطر إلى التوقف في أي مكان. مروا على نقطة تفتيش واحدة وطلب منها الجنود أوراقها. نظروا إليها ثم إلى الولدين، وأعادوا لها الأوراق، ولوّحوا لهم بالمرور. كانت المهمة الأسهل التي تسلمتها حتى الآن، ونام الولدان في السيارة مما أعطاها الوقت للتفكير. شعرت بأنها أفضل حالاً مما كانت عليه مدة من الوقت، وشعرت بالسرور لموافقتها على تسلم المهمة. كان الولدان رائعين وقد أسفت لحالهما. كانت تأخذهما للقاء عضو من أعضاء الخلية في دوردوني، والذي بدوره سيأخذهما إلى المخبأ الذي تم تأمينه لهما. قال إنه بوسع أماديا تمضية الليلة هناك قبل عودتها، إذ كانت الرحلة طويلة.

في الساعة الرابعة عصراً، وصلوا إلى الريف الذي بدا نائياً جداً عن الحرب التي تدور رحاها في العالم. لقد بدا يضج بالخضرة والروعة. توجهت أماديا بالسيارة إلى العنوان الذي تم إعطاؤه لها، ووجدته بسهولة. وجدت هناك شاباً بانتظارها يتمتع بعينين زرقاوين وشعر أشقر كحالها هي والولدين. بدا وكأنه مناسب جداً ليكون والداً لهما تماماً كما تبدو هي والدة لهما. شكرها على توصيلهما.

سألهما: "هل تودان مرافقتي أم البقاء هنا؟" بدا على الولدين الخوف لدى التفكير في مفارقتها. كانت الشخص الوحيد الذي يعرفانه في ذلك المكان رغم أنهما لم يعرفاها منذ مدة طويلة من الوقت، ولكنها كانت تعاملهما بلطف. حاولت طمأنتهما ولكنهما بدأا بالبكاء. فنظرت إلى الرجل الذي لا تعرف عنه سوى أن اسمه أرماند.

"سآتي معكم". ركب معهم في السيارة، وأخبرها أين يفترض بها التوجه. وبعد خمس دقائق وصلوا إلى قصر جميل، فطلب منها أن تتوجه إلى الباحة. "هنا؟" بدت متفاجئة. "هذا هو المخبأ؟" كان قصراً عتيقاً وجميلاً يحتوي على العديد من المباني الملحقة والاصطبلات إضافة إلى باحة كبيرة جداً. سألته بعد أن انتابها فجأة الفضول: "قصر من هذا؟"

أجابها: "قصري أنا". فحدقت به، فضحك. "سيصبح قصري في يوم من الأيام. حتى ذلك الوقت تعود ملكيته إلى والدي". ابتسمت مبدية إعجابها وهي تتلفت من حولها ثم نزلوا من السيارة. كان الولدان يحدقان بالقصر بتعجب. فبعد أن أمضيا سنتين في قبو في ضواحي باريس، كان هذا الأمر مدهشاً بالنسبة لهما. أدركت أنهم جهّزوا لهما أوراقاً تفيد بأنهما ينتميان إلى عائلة أرستقراطية. سيزعم أنهما قريبان بعيدان لأصحاب القصر.

أخذتهما مديرة المنزل المسنة لتقدم لهما طعام العشاء، ونزل رجل أنيق أكبر سناً على الدرج. افترضت أماديا أنه والد أرماند. صافح الرجل الأنيق يد أماديا، وسعد جداً برؤيتها في الوقت الذي قدمها أرماند إليه. لم يكن يعرف عنها سوى اسمها الموجود على أوراقها الحديثة، فيليبين دو فيليبيه. وقد قدمها إلى والدها بهذا الاسم، ثم قدم والده لأماديا. قال بأدب: "اسمحي لي بأن أعرفك إلى والدي، الكونت نيكولاس دو فاليراند". فجمدت أماديا في مكانها محدقة به، وعندها لاحظت الشبه، بالرغم من أنه أكبر سناً مما كان عليه والدها آخر مرة رأته فيها. كان والدها يبلغ الرابعة والأربعين من عمره عندما توفي، وكان ليبلغ الستين من عمره لو بقي على قيد الحياة.

بدت عليها الصدمة وهي تنظر إلى أرماند تارة ثم إلى والده، ولكنها لم تنبس ببنت شفه. شعر أرماند بأن ثمة ما أزعجها إلى درجة كبيرة، في الوقت الذي دعاها فيه الكونت إلى الدخول. كانوا قد حضّروا لها وجبة طعام، ووضعوها بطريقة راقية في غرفة الطعام وقد انضم إليها السيدان. تلفتت في أرجاء المكان بكل صمت ولاحظ الكونت صمتها المطبق، ولكنه لم يصدر أي تعليق.

"إنه قصر جميل. بُني في الأصل في القرن السادس عشر، ثم أعيد بناؤه بعد مئتي سنة. أخشى أنه بحاجة ماسة إلى الكثير من الإصلاحات. ولن يتم ذلك حتى تضع الحرب أوزارها. إن السقف يسرب الماء كالمصفاة". ثم ابتسم. كان ينظر إليها وكأنه وجد هو الآخر شيئاً مألوفاً

فيها. كانت تدرك حقيقة الأمر، حيث كانت صورة طبق الأصل عن والدها. وتساءلت ماذا عساه يحصل في حال أخبرته بالحقيقة. أنهوا تناول العشاء، ثم دعاها الكونت للمشي في أرجاء الحديقة. قال لها إن الذي قام بتصميم الحديقة هو نفسه الذي صمم الحدائق في فرساي. شعرت بالغرابة لكونها ستسير في الغرف والأماكن والقاعات نفسها التي كان يعيش فيها والده وهو فتى. ولدى توجهها إلى الخارج اغرورقت عيناها بالدموع لدى تفكيرها بهذا الأمر. فهذه الغرف نفسها كانت تضج بصوته وضحكاته عندما كان طفلاً ثم شاباً. إنها أصداء ماضيها التي تتشاطرها مع هذين السيدين، رغم جهلهما بالأمر.

"هل أنت بخير؟" أحس أرماند أن شيئاً أثر بها إلى درجة كبيرة. كان والده في انتظارهما في الحديقة. هزت له رأسها وهما في طريقهما إلى الخارج وجال بهما في أرجاء المكان.

"لا بد أنك تتحلين بشجاعة كبيرة لتخلي هذين الولدين بمفردك. لو كان لدي ابنة لست واثقاً أنني قد أسمح لها بفعل ذلك. في الواقع أنا واثق أنني لن أسمح لها". ثم نظر إلى أرماند وغض وخفض صوته. "ينتابني القلق على أرماند أيضاً. ولكن من منا يملك خياراً آخر هذه الأيام، صحيح؟" في الواقع كان أمامهم خيار. إذ كان هناك أشخاص آخرون اتخذوا خيارات مغايرة. ولكنها أحبت الخيار الذي اتخذته، وأحبت خيارهما أيضاً.

عندما كانوا يسيرون في الحديقة التي كانت يوماً روعة من الروائع، لم يطرح عليها الكونت أي سؤال يتعلق بها. إذ إنه من الأفضل للجميع ألا يعرفوا الكثير. كان الجميع يلتزم الحيطة والحذر هذه الأيام. إذ من الخطير البوح بالكثير من المعلومات لأي شخص. جلست على أحد مقاعد الرخام القديمة التي أنهكها الزمن، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين حزينتين.

قال لها بلطف: "لستُ أدري السبب، ولكن ينتابني شعور بأنني أعرفك وأننا التقينا في مكان ما". لم يكن ثمة أحد في الجوار سوى أرماند.

"هل التقينا من قبل؟" كان في أواخر العقد الخامس من العمر، وقد عرفت ذلك، وليس طاعناً في السن إلى درجة الخرف. ولكنه بدا مرتبكاً وكأنه سمع أصواتاً من زمن آخر ولم يكن واثقاً مما كان يسمعه أو يراه. سألها من جديد: "هل التقينا من قبل؟" لم يظن أن هذا الاحتمال وارد الحدوث ولكن لعله نسي. وقد بدت وهي جالسة على ذلك المقعد تنظر إليه شبيهة جداً بأرماند.

قالت بصوت رقيق وعيناها لا تبارحان عينيه: "كنتَ تعرف والدي".

"حقاً؟ ما كان اسمه؟"

قالت بكل هدوء: "أنطوان دو فالفراند". إن نيكولاس أخوه وعمها وأرماند ابن عمها. لف الثلاثة صمت مطبق لوهلة طويلة، ثم ومن دون التلفظ بكلمة بدأت الدموع تتدحرج على وجنتيه، وعمد إلى احتضانها بين ذراعيه.

"آه يا عزيزتي... آه يا عزيزتي..." لم يقوَ على التلفظ بأي كلمة أخرى لدقائق طويلة. فقد غلبت عليه الذكريات التي جلبتها معها. "هل كنت تعرفين ذلك عندما أتيت إلى هنا؟" فقد تساءل ما إذا كان هذا هو السبب الذي دعاها إلى تسلّم هذه المهمة. ولكنها لم تكن تعرف.

هزت رأسها نافية. "ليس إلى أن وصلنا إلى هنا وتلفظ أرماند باسمك. لقد أصبت بالصدمة كما يمكن لك أن تتصور". ثم ضحكت وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

"أردتُ أن أقول شيئاً خلال العشاء، ولكنني خشيت أن تطلب مني المغادرة. فقررت تأجيل ذلك لبعض الوقت. لطالما حدثني والدي عن كل هذا، المكان الذي نشأ فيه".

"أنا لم أسامح والدي قط على ما قام به. كرهته على ما أقدم عليه، وكرهت نفسي لعدم امتلاكي الشجاعة الكافية للوقوف في وجهه. وعندما توفي أردت الطلب من والدك الرجوع إلى المنزل ومسامحتنا. ولكنه مات بعد أسبوعين. وماتت زوجتي في السنة التالية. أردت أن أراسل والدك

لأطلعها على موقفي من هذا الأمر ولكنني لم أكن أعرفها، وكنت واثقاً أنها تكرهنا جميعاً". وبدل القيام بذلك عمد إلى كتابة رسالة تعزية رسمية وليس أكثر.

أكدت له أماديا قائلة: "لم تكرهك. فقد تصرفت عائلتها معها بطريقة سيئة. إذ أدرجوا اسمها في سجل وفيات العائلة ولم يسمحوا لها برؤية والدتها عندما توفيت أو حتى حضور الدفن. كانت جدتي قد أتت إلينا قبل سنتين، وتمنى لنا التعرف إليها. ولكنني لم ألتق بالآخرين قط".

سألها وهو يبدي اهتماماً: "أين هم الآن؟" فأخذت أماديا نفساً قبل أن تجيبه. فالباقي كله عبارة عن أخبار سيئة.

"لقد تم ترحيل العائلة بكاملها. يعتقد بعض الأشخاص أنه تم ترحيل جميع أفراد العائلة، ولكنني لست واثقة. وقد تم ترحيل والدتي وأختي قبل سنتين. ولم نسمع منهما أي خبر منذ ذلك الحين". بدا مرعوباً عندما سمع منها ما قالته.

"وأنت أتيت إلى هنا؟" بدا مرتبكاً في الوقت الذي نظر أرماند إليها بإمعان. كانت امرأة مذهلة. لم يكن لدى أرماند أخوات، وتمنى لو يكون له أخت مثلها. كان ولداً وحيداً وليس لديه أي قريب سوى والده. وقد اتخذا قرار الانضمام إلى المقاومة سوياً، ولم يكن لهما في العالم سوى بعضهما البعض وهذا القصر الذي كان بأمس الحاجة إلى الإصلاحات.

"زُكِّتُ لمدة خمسة أشهر. قبل ذلك قام صديقان لي بتخبئتي بعد أن تم ترحيل والدتي. وقد قضيت قبل ذلك ست سنوات في مقر نادرات العفة". عندها بدا على أرماند الذهول: "كنت نادرة عفة؟"

"ولا زلت على ما أفترض". بالرغم من أنها شكّت بهذا الأمر لفترة من الوقت. ولكنها استعادت ثقتها بهذا الأمر منذ وفاة جان - إيف. إذ وجدت نداءها الباطني من جديد. لم تعد واثقة أنها خسرت هذا النداء في يوم من الأيام. كانت قد انحرفت لفترة وجيزة عن المسار في ظل ظروف استثنائية. "سأعود إلى مقر نادرات العفة بعد انتهاء الحرب. اضطررت إلى مغادرة المقر حفاظاً على سلامة الأخريات".

قال عمها وهو يلقي بذراعه على كتفيها: "يا لك من فتاة لامعة. كان والدك ليفخر بك جداً لو أنه بقي حياً. أنا فخور بك بالرغم من أنني بالكاد أعرفك". ثم نظر إليها نظرة حزن. "هلا مكثت عندنا فترة أطول؟" كان لديهما الكثير من الوقت الضائع ليعوضاه. وأراد أن يسمع منها عن السنوات التي لم يعشها مع شقيقه. أراد أن يعرف ألف شيء وشيء.

قالت بتعقل مبدية رجاحة العقل نظراً لكونها نادرة عفة: "لا أظن أنه من الحكمة فعل ذلك". ثم أضافت بأدب: "أود لو أعود لزيارتكما إن سمحتما لي". فلاحظ فيها مدى الأدب الذي شبّت عليه.

"سينفطر قلبي لو لم تفعلي". عاودوا حينها الدخول إلى القصر، وأمضوا بقية الليل في الحديث. سهروا حتى وقت متأخر جداً، إلى أن توجهت أخيراً لتستلقي لبضع ساعات قبل أن تغادر.

توجهت لتوديع الطفلين، فبكيا عندما غادرتهما. وقد بكت هي وأرماند ونيكولاس عند مغادرتها بالسيارة. كانت قد وعدت بالعودة، وتوسل إليها عمها أن تلتزم الحذر وتعتني بنفسها. ظلت تراهما من خلال المرآة الأمامية واقفين في الباحة يلوحان لها إلى أن انعطفت بسيارتها واختفيا من أمام ناظريها. كانت هذه الليلة إحدى أفضل الليالي في حياتها، وتمنت لو كان جان - إيف ووالدها هناك. ولكن في طريق عودتها إلى ميلون شعرت أنهما إلى جانبها، إضافة إلى والدتها وأختها. كانوا جميعاً جزءاً من السلسلة غير القابلة للكسر التي تربط الحاضر بالماضي بالمستقبل.

الفصل الثاني والعشرون

لم تواجه أماديا خلال رحلة عودتها إلى ميلون أي متاعب. أوقفها الجنود مرة واحدة فحسب، وبالرغم من أنهم أبدوا إعجابهم بها وتحدثوا معها لبضع دقائق إلا أنهم تركوها تسير في طريقها بشكل سريع تقريباً. وبالكاد ألقوا نظرة على أوراقها. لوّح لها أحد الجنود بيده سامحاً لها بالمرور بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة صبيانية كبيرة، فانطلقت بسيارتها.

وصلت إلى المزرعة في ميلون في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم. وفي الأسبوع المقبل عادت للانضمام إلى الآخرين لتستقدم المؤن التي يتم إنزالها بالمظلات ولتعاود الروتين الذي ألفته. كان البريطانيون قد أرسلوا لهم جهازيْ تخابر يعملان على الموجات القصيرة، فتمت تخبئتهما في المزارع المجاورة.

في أواخر شهر أيلول توجه سيرج لزيارة المزرعة من جديد. كان يحب رؤية الرجال والنساء الذين يعمل معهم وجهاً لوجه كلما سنحت له الفرصة. كان يود مقابلتهم ليحرص على أنهم لا يضعون الآخرين في الخطر وأنهم لا يزالون على إخلاصهم كما كان يأمل. كان لديه حاسة سادسة بهذا الخصوص، وهذه المرة لديه أمر يود مناقشته مع أماديا. كان قد سمع من الآخرين أنها لا تزال غارقة في الاكتئاب جراء فقدانها لجان - إيف منذ وقت طويل، كما وأنها لا تزال تلقي باللوم على نفسها ليس فقط لمقتل جان - إيف وجورج وإنما لمصرع الفتيان الأربعة. وحتى أسوأ من تلك، كانت تخشى أن يكون مقتل جان - إيف قد جاء عقاباً لها على

خطاياها. لقد تنامت محبة أماديا في قلب سيرج مع مواصلتها القيام بمهام له، كما وأنه يكنّ احتراماً شديداً لرجاحة عقلها، وشجاعتها الكبيرة، وذكائها. أراد أن يحرص على سلامتها، كما ولديه مهمة أراد التحدث إليها بشأنها، وكما دوماً عندما يكون الموضوع دقيقاً يرغب بالتحدث إليها شخصياً. فبعث لها برسالة والتقيا في مزرعة مجاورة.

بمجرد وصولها لاحظ عليها التعب والبؤس، حيث كانت معنوياتها لا تزال في الحضيض. بدت تشعر بالأسى الشديد على الأشخاص الذين شعرت أنها مسؤولة عن مقتلهم، وتحدثت كثيراً عن مدى حماستها للعودة إلى مقر ناشرات العفة بعد انتهاء الحرب. تناولت معه العشاء وأخبرته عن المؤن التي استقدموها، وعن بعض الأشخاص الجدد الذين يعملون معهم، وبعد العشاء توجها للقيام بنزهة.

قال بعد بضع دقائق: "هناك أمر أود التحدث إليك بشأنه. أحتاج إلى شخص في باريس من أجل مهمة خاصة. لستُ أدري إن كان لديك استعداد للقيام بهذه المهمة، ولكنني أجدك مناسبة جداً لها". كانت السلطات الإنكليزية قد طلبت منه إيجاد المرأة التي تتمتع بالمواصفات المطلوبة، ووجد أن هذه المواصفات تنطبق عليها. إنهم بحاجة إلى امرأة تتكلم الألمانية بطلاقة وقادرة على لعب دور امرأة ألمانية أرستقراطية مرفهة وثرية. لم تبدُ أماديا مناسبة للعب الدور فحسب، بل وتُعتبر صاحبة هذه المواصفات بكل ما للكلمة من معنى. وبوسعها تكلم الألمانية والفرنسية على حدٍّ سواء. أراد منها لعب دور زوجة ضابط ألماني عالي الرتبة أو صديقته الحميمة، حيث سيتوجه هذا الضابط لزيارة باريس. سيلعب دور الضابط المذكور عضو في جهاز الاستخبارات البريطانية، وهو نفسه نصف ألماني، ويتكلم الفرنسية بطلاقة أيضاً. وهو بحاجة إلى امرأة تشبهه، وأماديا كانت هذه المرأة. السؤال الكبير هو هل ستقبل بلعب هذا الدور، وكالعادة كان الخيار يعود لها.

شرح لها سيرج المهمة وهما يسيران وسط الظلام، فاستمعت إليه بصمت. عكفت عن الإجابة لمدة طويلة، ولكنه لم يمارس عليها أي ضغط.

"متى تود مني الإجابة؟" أرادت أن تماطل لتصل إلى هذه الإجابة. كانت مسرورة بالعيش في الريف حيث تبذل ما بوسعها لمساعدتهم، وذهابها إلى باريس يمثل خطراً أكبر بكثير عليها، حيث ستعرض نفسها لقوى الشرطة الألمانية بشكل مباشر. لم تمانع أن تتعرض لإطلاق النار من الألمان الموجودين في ميلون خلال مهمة تنفذها في منتصف الليل. أما الأمر الذي لا ترغب بحدوثه وتخشاه أكثر من غيره هو أن يُعاد ترحيلها، إذ إنها مخاطرة شعرت أنها غير جاهزة للقيام بها أو مواجهتها من جديد. أدركت أن الحظ لن يحالفها من جديد للهروب. حتى الآن لم يفلح أي شخص على الإطلاق في الهروب. لقد بدا طلب سيرج منها الذهاب إلى باريس متنكرة كزوجة ضابط نازي مخاطرة كبيرة، بل وخطيرة جداً.

وافقها سيرج القول: "ليس لدينا الكثير من الوقت، وأنت الاحتمال الوحيد الوارد أمامنا. سيأتي العميل الذي سينفذ المهمة في نهاية الأسبوع. كنت سأخبرك عن هذا الأمر هذه الليلة على أي حال. سيأتي مع ثلاثة رجال". كانت تعرف طبيعة هذه الإنزالات وغالباً ما كانت تعمد إلى مساعدتهم مع جان - إيف وآخرين. حطوا في مروحية صغيرة لأقل من خمس دقائق، ثم أقلعت المروحية وتفرق الرجال بسرعة. كانت تلك الطائرات نفسها التي تنزل المؤن وأحياناً الرجال بواسطة المظلات. ولكن تتسم إنزالات الرجال بصعوبة أكبر بكثير، إذ كانوا ينزلون دون أضواء على الإطلاق، ويعتمدون على مقاتلي الحرية الموجودين على الأرض ليقوموا بإرشادهم بمصابيحهم ثم تخبئتهم. حتى الآن وطيلة الفترة التي عملت فيها أماديا معهم، لم تحصل ولا هفوة واحدة ولم يفقدوا أي رجل، بالرغم من أن ذلك أوشك على الحدوث في مهمات عدة.

قالت أماديا وهي غارقة في التفكير متسائلة إن كانت تعرف الرجل أو سمعت باسمه من قبل: "لا بد وأن هذا الرجل على قدر من الأهمية". باتت تعرف العديد من أسماء الأشخاص الذين يعملون معهم من إنكلترا، كانت تسمع أسماءهم الحركية في الراديو عندما كانت تقوم بتشغيله، الأمر

الذي اعتادت على فعله من وقت إلى آخر. وقد باتت ماهرة الآن في استخدام الموجات القصيرة. لقد أحسن جان - إيف تعليمها. وأحبها جداً في الوقت القصير الذي تسنى لهما قضاؤه سوياً.

اعترف سيرج قائلاً: "إنه رجل مهم جداً". قاصداً البريطاني. "بوسعه أن يتمم العملية وحده إن اضطر إلى ذلك، ولكن إن حظي بوجه مثل وجهك سيشيح بذلك الأنظار عنه". ثم نظر إليها بصدق حيفها. "أنت الوحيدة القادرة على فعل ذلك". لم تكن أي من الناشطات اللواتي يعملن معهم تتكلم الألمانية بالطلاقة التي تتكلم هي بها، وبالتالي بوسعها النفاذ من القوات الألمانية. وحتى لو كن يجدن الألمانية، والبعض منهن كن يفعلن، إلا أنهن كن يبدون فرنسيات بشكل جلي، ولكن أماديا تبدو ألمانية تماماً. ليس فقط ألمانية بل وآرية إلى أقصى الدرجات، كحال الضابط الذي ستعمل معه، وهو مثلها تماماً كان نصف ألماني؛ حيث كانت والدته أميرة بروسية، وعُرفت عنها جمالها الخارق في مرحلة شبابها.

"من يكون؟" باتت تشعر بالحشرية لمعرفته الآن، وقد حفزتها المهمة رغماً عنها.

"اسمه الحركي هو أبولو". فأدركت أنه سبق لها وسمعت بهذا الاسم، وظنت أنها ربما قابلته من قبل. كان الاسم عالقاً في ذاكرتها، ولكنها لم تقو على تذكر صورة الرجل. ثم فجأة تذكرته. كان قد حط في ذلك المكان في إحدى المرات، والتقت به مع جان - إيف. روبرت مونتغمري. "إنه لورد بريطاني".

"لقد سبق والتقيتُ به". فهز سيرج رأسه. إذ كان يعرف أنه سبق لها اللقاء به.

"إنه يتذكرك أيضاً. ووجدك مناسبة للعب دور زوجته. فأنت تملكين الشكل المطلوب، وتتحلين بالشخصية المطلوبة أيضاً". كما وكانت تمتلك أعصاباً فولاذية ورجاحة عقل مميزة في خضم الأزمات بالرغم من أنها تجهل هذه الصفة فيها. وقد أقر بذلك جميع من عمل معها. عند عودتهما

إلى المزرعة التزما الصمت المطبق. كان الهواء قد بدأ يبرد، فالشتاء حلّ باكراً هذه السنة. وعند وصولهما إلى بوابة السور، نظرت إليه أماديا وتنهدت، فهي مدينة لهم جميعاً بتنفيذها لهذه المهمة، الأمر الذي ربما يُعتبر السبب الوحيد لبقائها على قيد الحياة مرات عديدة. وجب عليها مساعدة الثورة مهما كان الأمر مخيفاً. قالت بلطف: "سأقوم بالمهمة. متى يصل؟"

"سأبعث لك برسالة". كان قد قال إنه سيصل في نهاية الأسبوع.

نظرت إلى سيرج بعينين متعبتين، وقد أدرك أنه أكثر عليها في الطلب منها القيام بهذه المهمة؛ ربما أكثر عليها جداً. ولكنها كانت مستعدة للقيام بالأمر. قد تدفع أي ثمن مقابل الانتصار والحرية، وحتى ولو لمجرد إنقاذ حياة واحدة.

أجابت: "سأكون بالانتظار". فهز سيرج رأسه. كانت بدورها قد كوّنت انطباعاً عن الكولونيل مونتغمري الذي تذكر اسمها الحركي، تيريزا. كانوا يستخدمونه في الرسائل وعلى الموجات القصيرة. وستنتظر الآن لسماعه.

"شكراً لك. إنه خطر. إنه يدرك تماماً ما يقوم به". فهزت رأسها. كانت قد قررت القيام بالمهمة بسبب الأعمال الإنسانية التي قام بها.

عانقها سيرج، ثم توجه إلى الحظيرة حيث كان ينام، وذهبت هي إلى المنزل وحدها. لم تكن تخشى شيئاً في ريف ميلون. بالرغم مما قاموا به هناك إلا أنها كانت تشعر بالأمان وسط المزارع. وكان الألمان متساهلين جداً هناك إلا في حال نشوء الفتن.

قالت قبل مغادرته: "رافقتك السلامة". فهز رأسه.

بعد يومين سمعت اسمها الحركي على جهاز التخابر الذي يعمل على الموجات القصيرة. لم تسمع سوى كلمتين: "تيريزا، السبت". مما كان يعني الجمعة. كانوا دوماً يقومون بمهماتهم قبل يوم من موعدها المحدد. سيبدأون بمراقبة المكان انتظاراً لوصول الطائرة الصغيرة في منتصف الليل. وكالعادة سيتوجب عليهم العمل بسرعة.

نهار الجمعة، كانت في الحقل برفقة سبعة أشخاص آخرين. كان يوجد مجموعتان، وكل مجموعة تتألف من أربعة أشخاص يعملون سوياً ويحملون المصابيح. ثم سمعوا صوت طائرة الليساندر الصغيرة. فانتشروا، وأناروا مصابيحهم. أتت الطائرة بسرعة، وحطت بصعوبة على بُعد مسافة قصيرة. وقبل توقفها نزل منها أربعة رجال. كانوا يرتدون ملابس زراعية وقبعات صوفية. ثم أقلعت الطائرة بعد أقل من ثلاث دقائق. كان الإنزال ممتازاً. وفي غضون أقل من دقيقتين، اختفى الأشخاص المحليين حيث عادوا إلى مزارعهم. ورافقهم الرجال الثلاثة الذين جلبهم الكولونيل مونتغمري معه. كانوا مكلفين بمهام أخرى، ولن يروه من جديد إلى أن يعودوا إلى إنكلترا. وسيتوجهون إلى الجنوب في وقت لاحق من تلك الليلة. أما هو فسيعمل وحده كما اعتاد أن يفعل، وهذه المرة مع أماديا. سارت معه إلى المزرعة حيث تعيش دون التلفظ بأي كلمة. وأخذته إلى حجرة حصان صغيرة في مؤخر الحظيرة. أشارت له إلى باب سري في الأرض، في حال شعر بقدوم أحدهم. ويوجد تحت الباب السري أغطية وقارورة مياه. وفي اليوم التالي، وجب عليهما التوجه بالسيارة إلى أطراف باريس للقاء سيرج.

لم تقل أماديا أي شيء للرجل الذي يُعرف باسم أبولو، بل اكتفت بالنظر إليه وهزّ رأسها وهو ينظر إليها. وعندما أوشكت على المغادرة همس لها قائلاً: "شكراً لك". لم يقصد شكرها على هذه الليلة وعلى الأغطية الدافئة فحسب، بل وعلى استعدادها للقيام بالمهمة. كان يعرف كل شيء عن ماضيها وعن الخطر الذي كانت تتكبده. الأمر الوحيد الذي كان يجهله هو موضوع جان - إيف، والذي لم يكن له أهمية في خضم ما كانا يقومان به. كان عضواً في جهاز الاستخبارات البريطانية وبرتبة عالية جداً. وقد أدرك أيضاً أنها كانت فيما مضى نادرة عفة، وقد وجد الأمر مثيراً للأهمية. وعلم أنها غادرت الدير من أجل سلامة الآخرين.

هزت رأسها من جديد، وغادرت متوجهة إلى غرفتها الموجودة وراء المطبخ. وفي الصباح، جلبت له الفطور. وجدته يرتدي الملابس نفسها التي

كـان يرتديها في الليلة السابقة. وقد بدا نظيفاً ومرتاحاً وحليق الذقن. حتى في الملابس الرثّة التي كان يرتديها بدا متأنقاً. وهو بقدر طول والدها، وكان فيما مضى أشقر الشعر مثلها. أما الآن فقد امتزج لون شعره بالأبيض. لقد بـدا وكأنه في مطلع العقد الرابع من العمر، أي تقريباً في السن نفسه الذي كان عليه والدها عندما توفي. وقد وجدت بينهما شبهاً ملفتاً بالرغم من أن والدها كان فرنسياً وليس بريطانياً. وقد أيقنت كيف ينفذ هذا الرجل بسهولة مـن بـين أيدي الألمان. إذ إنه يمثّل هيئة الرجل المثالي للعرق الأسمى. ويـستحيل ألا يلفت النظر إليه إلا إذا كان وسط حشد من الألمان. لم يكن يـبدو فرنسياً على الإطلاق. وعندما جلبت له الفطور تكلم معها بالألمانية. كـان يـتكلم اللغـة الألمانية بقدر طلاقتها وبنفس السلاسة التي يتكلم فيها الإنكليـزية، تمامـاً مثلما تتكلم هي الفرنسية والألمانية. كانت أماديا تجيد الإنكليزية ولكن ليس بالبراعة نفسها وهذه المرة أجابته بالألمانية. سألته ما إذا نام جيداً.

أجـاب بأدب ناظراً في عينيها: "نعم، شكراً لكِ". بدا أنه يبحث فيهما عن شيء ولم يكن لديها أدنى فكرة عما هو. أراد أن يعرفها أكثر، ويدرك ماهـية ردود فعلهـا على الأمور، وتوقيتها. إن كانا سيمثلان دور الزوج والـزوجة، وجـب علـيه أن يعرفها جيداً ويفهمها بما هو أكثر من مجرد كلمات.

قالت بهدوء متفادية عينيه الباحثتين: "سنغادر في الساعة الرابعة من عصر هذا اليوم".

فصحح لها: "لا تفعلي ذلك. إذ يُفترض أنكِ تعرفينني وتحبينني وأنكِ لا تخافينني. انظري في عينيّ مباشرة. أنتِ مرتاحة معي. لقد مضى على زواجنـا خمـس سـنوات. وقـد أنجبـنا الأطفال". أراد منها تعلم الدور والإحساس به حتى يصبح جزءاً منها.

سـألته وقـد أصـابت النظر إليه كما طلب منها: "كم طفلاً؟" لم يكن كلامه منافياً للعقل وقد فهمت ما كان يحاول فعله. لم يكن الأمر يتعلق بها

على الإطلاق. كان دوراً وجب عليها لعبه بشكل بارع حتى يظلا على قيد الحياة. في حال زل أي أحد منهما، قد تكلف زلته حياة الآخر أو حياتهما، وقد أدركت ذلك جيداً. كانت هذه المهمة أخطر وأهم من موافاة طائرة في حقل عند منتصف الليل.

"لديـنا ولـدان؛ صـبيان بعمر السنتين والثلاث سنوات. وهذه المرة الأولى التي نتركهما فيها منذ ولادتهما، من أجل التوجه للاحتفال بذكرى زواجـنا. لدي عمل في باريس لذا قررت مرافقتي. إننا نعيش في برلين". سألها بنظرة اهتمام: "هل تعرفينها؟" في حال لم تكن تعرفها وجب عليه أن يعلمهـا كـل شـيء عنها؛ صور فوتوغرافية، خرائط، مطاعم، متاجر، مـتاحف، شـوارع، حدائـق عامة، أناس، دور عرض. وجب عليها أن تحفظها أكثر من المدينة التي ولدت فيها.

"أعـرفها كتابـة. لقد انتقلت خالتي للعيش فيها عند زواجها. لم أكن أعرفها، ولكنني زرت هذه المدينة وأنا طفلة". فهز رأسه. إنها بداية جيدة. كـان يعرف أنها من كولونيا. حتى أنه يعرف شهرة والدتها قبل الزواج، واسم أختها، وتاريخ ترحيلهما. ويعرف المدرسة التي ارتادتها قبل دخولها إلى مقـر بـادرات العفة. كان يعرف الكثير الكثير عنها، وجل ما كانت تعرفه عنه هو اسمه واسمه الحركي.

طـيلة الطـريق إلى باريس واصلا الحديث عن الأمور التي وجب علـيها معـرفتها وكان يقود سيارة مدّه بها أحدهم. وأوراقه لا غبار عليها تمامـاً كمـال لغـته الفرنـسية. وفقاً لأوراقه كان من آرل ويعمل هناك كمـدرس. وهي صديقته الحميمة. والجندي الوحيد الذي أوقفهما لوّح لهما سامحاً بالمرور. بدا عليهما أنهما حبيبان محترمان جداً. ترك السيارة حيث طُلـب مـنه، على بُعد نصف ميل من منزل مبرج، وسارا باقي المسافة وواصـلا الحديث. كان أمامها ثلاثة أيام لتتعلم الدور وتتقمصه من ناحية الـشكل. لـم يكن قلقاً حول هذه الناحية. إذ كانت تتمتع بالجمال. والشيء الوحيـد الـذي لـم تكن تشبهه هو شكل نادرة عفة. وعند وصولهما إلى

منتصف الطريق الذي يؤدي بهما إلى منزل سيرج سألها عن هذا الأمر. "لمَ دخلت مقر نذارت العفة؟ هل جاء نتيجة خيبة أمل في الحب؟" فابتسمت لسؤاله، فالناس يفترضون مثل هذه الأشياء كسبب يدعو لدخول مقر نذارت العفة. كان الأمر أقل مأساوية بكثير مما كانوا يظنون وخصوصاً في السن الذي كانت عليه. إذ باتت الآن تبلغ السادسة والعشرين من عمرها. أما هو فيبلغ الثانية والأربعين.

"لا، على الإطلاق. لقد دخلتُ المقر لأسباب دينية محضة. كان لدي نداء باطني يدعوني للقيام بهذا الأمر". لم يكن لديه أي سبب يدعوه لطرح السؤال، ولكن كانت حشريته تزايد لمعرفة المزيد عنها. إذ كانت شابة مثيرة للاهتمام.

سألته وهما يسيران وهي تتأبط بذراعه مراعاة للدور الذي كانت تلعبه، وكعادة يتوجب عليها أن تألفها معه: "هل أنت متزوج؟" شعرت ببعض الرهبة منه ولكن كما قال لها سابقاً يتوجب عليها أن تشعر براحة أكبر معه، ولكنه لم يكن بالأمر السهل. فبالرغم من الملابس غير الأنيقة التي كان يرتديها إلا أنه كان يتمتع بنفحة تسلطية. كما وأنها تعرف هويته الحقيقية.

أجابها وهما يسيران إلى منزل سيرج: "كنتُ متزوجاً". وقد كانت خطواتهما متماثلة حتى، الأمر الذي أسعده. إذ لم تكن تسير بخطوات قصيرة كحال النساء القصيرات، الأمر الذي كان يجده مزعجاً على الدوام. كان يقوم بجميع الأمور بسرعة وإتقان، ويميل إلى الافتقار إلى الصبر. لم يكن باقي العالم يتحرك دوماً بالسرعة نفسها التي يرغب بها. أما هي فبلى. "لقد قُتلت زوجتي في غارة جوية، إلى جانب ولديّ، في بداية الحرب". شعرت أماديا بألمه وهو يقول هذا الكلام.

فقالت له باحترام: "لك شديد الأسف". كانوا جميعاً قد خسروا أحداً ما، أو عدة أشخاص. تساءلت ما إذا كان هذا السبب الذي يدعوه إلى المخاطرة بحياته الآن. إذ إنه بات مثلها لا يملك أي شيء ليخسره. فبالنسبة

إليه كان يقوم بالأمر من أجل بلده. وبالنسبة إليها كانت تقوم بالأمر من أجل إنقاذ أي عدد ممكن من الأشخاص.

وصلا عندها إلى منزل جدة سيرج، حيث أتت أماديا لدى وصولها إلى براغ برفقة ووالف المقاوم الذي جلبها إلى هنا قبل سنة وشهرين. بدا وكأنه مر دهور طويلة على ذلك. والآن ستقوم بتعريض نفسها للخطر من جديد مع هذا الرجل.

توقفا لإلقاء التحية على جدتيّ سيرج وبعد لحظات نزلا على السلالم خلف الخزانة. وبعد ثوان، وصلا إلى الغرفة المليئة بالضجيج التي دخلت إليها أماديا عند وصولها إلى هناك. بدت الغرفة مألوفة لها. وجدت فيها بعض الأشخاص الذين التقت بهم سابقاً في هذا المكان، ولاحظت وجود الكثير من الوجوه الجديدة. كان عدد من الرجال يقوم بتشغيل جهاز تخابر يعمل بالموجات القصيرة، وامرأة تطبع منشورات، وآخرون يتحدثون حول طاولة. نظر إليهما سيرج بسرور عندما دخلا.

"هل واجهتكما أي مشاكل؟" هزا رأسيهما نافيين الأمر في وقت واحد ثم ضحكا. إذ لم يحصل أن تقاسما لحظات مرح أو حتى حديث مقتضب ما خلا سؤاله لها عن المقر وسؤالها له عن زوجته. أما باقي الحديث الذي تبادلاه فكان يدور حول المعلومات الذي وجب عليهما مشاطرتها من أجل مهمتهما.

بعد قليل جلب لهما أحد ما وجبة طعام تتألف من يخنة لحم أرانب، وقطعة خبز، وكوب من القهوة المرّة لكل منهما. وقد كانت الوجبة مغذية وأدفأتهما، فالطقس شديد البرودة، وبدا جلياً أن أبولو جائع، وحتى أماديا أكلت اليخنة اللذيذة بنَهم.

أخذوا صوراً لكل منهما بعد تناول الطعام، من أجل أوراق وجوازي السفر التي كانوا يتقنون إنجازها إلى درجة كبيرة. بدا أنهم قادرون على إنجاز كل شيء تقريباً. وقد اعتقد سيرج أن جوازات السفر الألمانية والأوراق العسكرية هي تحفة عملهم. تحدث سيرج والكولونيل مونتغمري

بهدوء في إحدى الزوايا لمدة طويلة. وأخذت إحدى النساء قياسات أماديا من أجل الملابس التي ستحتاج إليها. لم تمتلك أماديا فكرة كيف سيجلبون تلك الملابس، ولكن كان لديهم طرق للحصول على الأثواب والبدلات الأنيقة وأثواب السهرة التي لا تزال مخبأة في مكان ما منذ قبل اندلاع الحرب. فالناس أقارب كانوا يتأنقون ويمتلكون صناديق مليئة بالثروات، حتى إن لديهم كمية لا بأس بها من المجوهرات وبعض الفراء.

وصلت كل هذه الأغراض في حقيبة جلدية جميلة بعد يومين إلى جانب جوازي سفرهما وأوراقهما وجميع لوازم بذة الضابط الألماني من أجل أبولو. بدا مميزاً في البذة وقد سبق له أن ارتداها مرات عدة من قبل. بعد أن جربا كل هذه الملابس والأغراض وجداها مناسبة عليهما. باتا الآن يشكلان ثنائياً مميزاً. ارتدت أماديا ثوباً أنيقاً من الصوف الرمادي اللون، وقد بدا وكأنه أحد أثواب والدتها، ووضعت في عنقها عقداً جميلاً من اللؤلؤ. كان الثوب من صنع مانبوخر وكان في حالة ممتازة تماماً مثل معطف الفرو الذي كانت ترتديه والقبعة السوداء الجميلة التي كانت تعتمرها. والمثير للدهشة أن الحذاء الذي وجدوه لها كان ألماني الصنع. كما وصلت حقيبة هرميز سوداء مصنوعة من جلد التمساح، ووضعت في كفيها قفازين أسودين وقد ناسبا ملابسها جداً. فبدت أشبه بزوجة أنيقة لرجل ناجح جداً ألا وهو الضابط الذي يفترض أنه يلعب دوره. إن الضابط الحقيقي الذي استعار اسمه مات منذ سنتين في حادث على متن مركب خلال إجازته، وقد ظل الحادث مبهماً. كانوا بحاجة إلى اسمه وهويته. لم يذهب قط إلى باريس وكانوا متأكدين أن أحداً لا يعرفه هناك. وحتى لو عرفه أحد ما فهناك احتمال قوي بأن ينجح الزوجان بالتمثيلية التي سيقومان بها لمدة يومين.

احتاج الكولونيل مونتغمري إلى جمع المعلومات في اجتماعات باريس وفي المناسبات الاجتماعية. وكانت أماديا بمثابة تضليل لعيون الآخرين عنه وستقوم بجمع المعلومات بنفسها خلال تبادل الحديث مع

النساء الأخريات وخلال رقصها مع الضباط الأعلى رتبة في الحفلات. حجز الكولونيل مونتغمري له ولها غرفة في فندق كريون نظراً إلى أنهما يحتفلان بذكرى زواجهما، وطلب لها شراب الاحتفال والزهور. وسيقدم لها ساعة كارتييه من الذهب المرصع بالألماس كهدية لذكرى زواجهما. لقد فكرا في جميع التفاصيل.

قالت وهي تبدي إعجابها بالساعة: "هذا كرم كبير من قبلك".

سألها وهو يبدو هادئاً جداً وبريطانياً في بذة الضابط الألماني: "هل تستحقين ذلك؟ أظن أنها لا تفيك حقك. بصراحة أظن أنك تستحقين بروشاً ماسياً كبيراً أو عقداً من حجر الصفير بعد صمودك معي لخمس سنوات. كم يسهل إرضاؤك!"

"إننا لا نرى مثل هذه القطع في مقر نادرات العفة". ثم ابتسمت في وجهه وهي لا تزال تشعر وكأنها والدتها في ذاك الثوب الصوفي الرمادي ومعطف الفرو. خلعت المعطف عنها وعلّقته بترتيب. في الحقيقة، لم تحظ والدتها بمعطف الفرو إلا بعد وفاة والد أماديا. إذ قبل أن يحصل على نصيبه من الإرث الذي أتى متأخراً جداً، لم يكن بمقدوره تحمل كلفة شراء الفرو. بعد ذلك سمحت لنفسها بالحصول على معطف واحد من الفرو الجيد ولكن ليس أكثر. إضافة إلى سترتين للفتاتين سترتديانهما عندما تكبران بما يكفي. لم تر أماديا أي فرو منذ سنوات.

مازحها الكولونيل مونتغمري قائلاً: "ربما وجب عليّ أن أجلب لك سبحة كهدية لذكرى زواجنا". وهذه المرة ضحكت بصوت مرتفع.

"أود ذلك كثيراً". ثم فكّرت في الأمر الذي تود جداً القيام به إن تسنى لهما الوقت. سألته وهي تبدو أشبه بالزوجة للمرة الأولى: "هل بوسعنا الذهاب إلى نوتردام؟" فبدا عليه السرور.

"أعتقد أنه بوسعنا الترتيب لهذا الأمر". أراد أن يصطحبها للقيام بالتسوق أيضاً أو على الأقل التظاهر بذلك. سيعطونه الكثير من المال الألماني لكي يحمله في جيبه. لذا سيكونا يومين لصرف الأموال، مما يليق

برجل في موقعه وبزوجته الشابة الجميلة. سألها فجأة: "هل تجيدين الرقص؟" كان قد نسي هذا الأمر بالكامل. وبما أنها دخلت مقر راهبات العفة في عمر مبكر ظن أنه من المحتمل ألا تكون قد تعلمت الرقص.

ابتسمت بخجل: "كنت أجيد الرقص".

"إذاً لن نكثر من الرقص. لطالما قالت لي زوجتي إنني راقص مريع. سأدوس على أصابع رجليك وعلى حذائك الأنيق". حيث إنه بالطبع يتوجب إعادته إلى من أعاروهم إياه.

على مدى الثلاثة أيام المقبلة تشاطروا جميع المعلومات اللازمة. كان سيبرج قد عقد اجتماعات مطولة معه. وجب على مونتغمري التوجه إلى هناك من أجل جمع معلومات عن قنابل جديدة كانوا بصدد تصنيعها، ولكن ليس تفاصيل تقنية حول القنابل نفسها، بالرغم من أنه مرحب دوماً بمثل هذه المعلومات، وإنما خرائط للمصنع، وعدد الرجال الذين يعملون فيه، ومنشآت تخزين القنابل بعد صنعها، والمسؤول عن المشروع. كان المشروع لا يزال في مراحله الأولى، ولكن أدرك البريطانيون أن هذا الأمر سيكون له تأثير كبير على مجريات الحرب. كل ما احتاج مونتغمري إلى فعله على مدى هذين اليومين هو التواصل مع الأشخاص. كانت مهمة بالغة الخطورة. إذ في حال اختلط مع كثير من الأشخاص وتذكره الكثيرون منهم، فمن شأن ذلك أن يعرضه للخطر في مهام مستقبلية أخرى، ولكنه كان الشخص الوحيد الذي أمكنهم إرساله. وما كان يقوم به يعتبر ضرورياً من أجل مجريات الحرب.

تم استدعاء سيارة أجرة، وانطلقا إلى كريون حاملين حقيبتين أنيقتين فيهما جميع احتياجاتهما. والأوراق التي بحوزتهما لا غبار عليها. بدت أماديا جميلة بتسريحة شعرها وتبرجها. كانت قد عقدت شعرها الأشقر الطويل إلى الوراء، فبدت أنيقة جداً بالملابس التي كانت ترتديها. بدا الزوجان غاية في الجمال والروعة وهما يدخلان إلى الفندق. بعد دقائق، دخلا إلى غرفتهما، فحدقت فيها أماديا، ثم أجبرت نفسها على التصفيق

مبدية سعادتها، وقبلت زوجها. وقد اغرورقت عيناها بالدموع عند مغادرة الخادم؛ إذ لم يسبق لها في حياتها أن رأت مثل هذه الغرفة وقد ذكرتها بوالدتها.

قال لها بالألمانية: "إياك والبكاء".

زارا نوتردام، ثم قصدا كارتييه الذي كان يحقق مبيعات جيدة عبر تعامله مع الجنود الألمان وعشيقاتهم، واصطحبها لتناول العشاء في مطعم مكسيم، ثم توجها لحضور حفل في مقر الألمان تلك الليلة. أثارت أماديا ذهول الجميع بارتدائها ثوباً أبيض من الساتان، وتزيينها لعنقها بعقد من الألماس، ووضعها قفازين أبيضين طويلين، وانتعالها صندلاً مزيناً بحجارة الراين في رجليها. بدا أبولو زوجاً فخوراً جداً بها وهي تتنقل على باحة الرقص بين أيدي جميع الضباط الشباب وهو يقوم بتبادل الحديث بكل ود حول خطط الذخائر الجديدة وكم سيكون التحدي كبيراً ليتمموا الأمر في الوقت المحدد. فحصل على جميع المعلومات التي أرادها.

في الليلة الثانية حضرا حفل عشاء صغير في منزل القائد العسكري. وقد أحبت زوجة القائد أماديا كثيراً في فترة وجيزة جداً. وبعد أن ثملت بعض الشيء، أفصحت عن كثير من الأمور، فأخبرت أماديا عما كان زوجها يفعله وكل ما كانت تعرفه، وجعلت أماديا تعدها بأنها ستعود إلى باريس في القريب العاجل. ظلا محط أنظار الجميع في السيرة حتى عادا إلى كريون من أجل قضاء الليلة الثانية واقترحت أماديا العودة إلى منزل سيبرج، ولكن الكولونيل مونتغمري قال إن عليهما لعب الدور حتى النهاية والانتظار حتى صباح اليوم التالي.

وكما فعلا في الليلة الثالثة ناما في السرير نفسه، وارتدت هي رداء النوم الساتان البرتقالي اللون المطرز بشريط زيتي بيج، وارتدى هو بيجاما حريرية بدت قصيرة عليه، ولكن لم يكن هناك أحد في الغرفة ليلاحظ ذلك سوى أماديا. ناما جنباً إلى جنب في السرير يتهامسان حول الأمور التي سمعاها تلك الليلة وهو يطرح عليها الأسئلة. كانت قد جمعت له بعض

المعلومات المهمة، الأمر الذي أفرحه جداً. ناقشا أهمية المعلومات، وكأنهما جالسان في مكتب يرتديان بذلتين رسميتين. لم تعنِ البيجاما ورداء النوم أي شيء لهما. كانا يتصرفان كعميلين لحساب حكومته، لذا فالأمر عبارة عن مجرد عمل ليس إلا. بالكاد ناما تلك الليلة وقد كانت أماديا متحمسة جداً للمغادرة في اليوم التالي. لم يغب عن بالهما أي لحظة الخطر الذي كان يحيط بهما، وبالرغم من مدى رفاهية المكان الذي كانت تنزل أماديا فيه إلا أنها أرادت العودة إلى المزرعة في ميلون.

فاتحها قائلاً ودوماً بالألمانية طالما أنهما موجودان في ألمانيا: "ليس بهذه السرعة. إنها ذكرى زواجنا ونحن نمضيها في باريس. أنت لا ترغبين بالمغادرة. أنت تعشقين المكوث هنا معي بعيداً عن ولدينا. أنت أم رائعة وإنما زوجة أروع". وأكثر من هذا لاحظ أنها عميلة أفضل بكثير. كانت على قدر كبير جداً من الأهمية والفائدة له على مدى اليومين، وأمل أن يعاود العمل معها من جديد. كانت ممتازة في عملها وأفضل مما تصور.

قال وهما يتناولان الفطور في غرفتهما: "لقد كذبت علي بالمناسبة". كانا قد ارتديا ملابسهما كليهما، وحزما حقيبتيهما. وقد عمد إلى إفساد ترتيب غطاء السرير إلى درجة كبيرة عندما نهضا، فنظرت إليه متسائلة عما كان يقوم به. شرح لها بابتسامة: "يفترض أننا أمضينا ليلة غرامية عاصفة". في الواقع، كانا قد ناما بكل هدوء وعلى مسافة بعيدة عن بعضهما البعض حيث بالكاد أفسدا ترتيب السرير، وقد بدا الاثنان أشبه بجثتين ملقاتين على السرير. وعندما فرغ من السرير جعله يبدو وكأنهما استمتعا بليلة لا توصف، فأثار بذلك ضحكها.

بدت مرتبكة وسألته: "ما الذي كذبتُ عليك فيه؟" كانت مرتاحة في التكلم معه بالألمانية بالرغم من أنها أحجمت عن التكلم بهذه اللغة لسنتين، ولكنها باتت تشعر وكأنها عادت إلى الوطن من جديد.

"أنت راقصة ممتازة. رأيتك تتمايلين في أرجاء الغرفة تلاطفين الجميع. فشعرت بالغيرة الشديدة". كان يمازحها فحسب.

بدت مرتعوبة وسألته: "هل حقاً قمت بملاطفتهم؟" لا لم تقصد أبداً القيام بذلك. أرادت فحسب أن تبدو ساحرة وممتعة، وأملت ألا تكون قد أساءت التصرف.

"ليس أكثر مما كان يتوجب عليك وإلا لأجبرتني على افتعال فضيحة بسبب غيرتي الشديدة، الأمر الذي لم أقدم عليه لحسن الحظ. أنا أسامحك، وأسامحك على الكذبة أيضاً". في الواقع، كان قد شاهدها ترقص مرة أو مرتين ولاحظ مدى رشاقتها وخفتها في الرقص، خصوصاً وأنها نادرة ثقة.

خرجا من الفندق، واستدعيا سيارة أجرة ثم توجها إلى المحطة. من هناك استقلا سيارة أجرة أخرى، وتوجها إلى منزل سيرج، وعادا إلى القبو مجدداً في غضون ساعة من مغادرتهما كربون. عندما دخلا، نزعت أماديا قبعتها، وجلست مطلقة تنهيدة كبيرة، حيث أرهقها ضغط اليومين الماضيين. لم يفارقها الرعب ولو لثانية واحدة، بيد أنها أفلحت في إخفاء هذا الأمر، بالرغم من أنها استمتعت معه في بعض الأوقات وخصوصاً في نوتردام.

أخبر الجنرال موتنفوري سيرج أنها كانت أنجح مهمة يقوم بها من هذا النوع، واعتبرها نجاحاً باهراً. قال إن أماديا أتقنت الدور جداً كزوجة ضابط ألماني، وقد جمعت كمية كبيرة من المعلومات بنفسها. فشعر سيرج بالسرور كحال الكولونيل.

سألت أماديا الكولونيل بابتسامة تدل على التعب بعد أن بدلت ملابسها وعادت وارتدت ملابسها القديمة: "متى سنعود؟" شعرت وكأنها سندريلا في منتصف الليل. استمتعت بارتداء الملابس الأنيقة والمكوث في كربون، ولكن ذهنها لم ينصرف عن احتمال إعادة ترحيلها. كانت معتادة على عيش الخطر اليومي في ميلون، ولكن هذه التجربة كانت أشد وطأة وخطراً بكثير.

كان هو بدوره قد بدل بذة الضابط الألماني عندها، وأعادا أوراقهما إلى سيرج. إذ قد يُعاد استخدام الجوازين والأوراق من جديد مع إضفاء

بعض العمل المتقن عليها إضافة إلى صور فوتوغرافية جديدة. أعاد إليهما سيرج أوراقهما القديمة التي تفيد بكونهما أميلي دوما و المدرس من آرل. أدرك كلاهما أنهما يلعبان لعبة خطيرة، ولكنهما لعباها بمهارة عالية.

سأل أماديا بصوت منخفض: "هل أنت جائعة؟" فابتسمت له. لقد باتا يبدوان كزوجين بعد هذين اليومين الماضيين.

"أنا بخير. سآكل عندما أعود. متى تغادر؟"

"بعد ساعتين". أراد أولاً أن يبث بعض المعلومات المشفرة إلى إنكلترا.

غادرا منزل سيرج بكل هدوء، وعادا إلى ميلون في سيارة مستعارة تماماً كما فعلا في المرة الأولى. ولكن هذه المرة كانا مرتاحين جداً لبعضهما البعض. باتا فعلاً يشعران وكأنهما زوجان. حتى إنها نامت إلى جانبه على مدى ليلتين بالرغم من أنهما تصرفا كأخ وأخت. كان لا يزال يتذكرها برداء النوم الساتان البرتقالي وهي تتذكره بالبيجاما القصيرة جداً. إذ كان يتمتع بطول فارع وبالتالي يصعب عليه إيجاد بنطال طويلاً كفاية ليناسب ساقيه الطويلتين.

قال لها وهما في طريق العودة: "لقد قمت بعمل جيد بل وجيد جداً".

قالت له بعد أن انقشع عنها الشعور بالخجل: "شكراً لك أيها الكولونيل".

"بوسعك مناداتي روبرت". كانا قد عادا للتكلم بالفرنسية حتى لا يرتكبان خطأ التكلم بالألمانية في حال تم توقيفهما. قال وهو يبتسم لها: "أتعلمين أنك تتكلمين خلال نومك بالألمانية. هذه إشارة إلى أنك عميلة غاية في المهارة". إذ إنها تتكلم خلال نومها باللغة التي تنفذ فيها العملية. وجدت أماديا بعض الإرباك في التكلم معه من جديد بالفرنسية.

اعترفت له قائلة: "لقد أحببت التكلم معك بالألمانية. من الفظيع قول ذلك في هذه الأيام، ولكن هذا الأمر يذكرني بأيام طفولتي. إذ مضى وقت طويل لم أتكلم فيه بالألمانية". كان ذلك منذ وصولها إلى فرنسا.

قال لها مبدياً إعجابه: "لغتك الفرنسية جيدة، وكذلك الإنكليزية".

"وأنت كذلك". كانت والدة كل منهما ألمانية، لذا لم يكن بالأمر المفاجئ أن تكون الألمانية لغتهما الأم. بالرغم من أنه نشأ في بريطانيا من أب إنكليزي، وهي ولدت في ألمانيا من أب فرنسي.

قال بكل بساطة: "يسعدني أن أعمل معك من جديد".

قالت بالفرنسية: "لست واثقة إن كنت أتمتع بالشجاعة لهذا النوع من العمل.

ليس بالمستوى الذي تعمل فيه. لم يفارقني الخوف من أن تلقي الشرطة الألمانية القبض علي وتقوم بترحيلي".

قال بسخرية: "لكان ذلك أمراً مؤسفاً. يسعدني أن هذا لم يحدث".

قالت وهي تبدو سعيدة: "وأنا كذلك". لقد وجدت تجربة العمل إلى جانبه مثيرة للاهتمام.

"كان أمراً رائعاً. لدي اثنا عشر ولداً في منزلي". قال هذا وكأنه يتكلم حول امتلاكه مذياعاً بسيطاً أو بذلة جميلة. وكأنه ليس هناك أي روعة من أي نوع في تقديم مسكن لاثني عشر طفلاً. كان لديهم جميعاً والدين أو هذا ما كانت الحال عليه لدى مغادرتهم ألمانيا. وأولئك الذين ظل والداهم على قيد الحياة بعد الحرب سيعودون إليهم في يوم من الأيام. وقد أخذ قراراً بتبني الأولاد الذين يتبين أن لا أهل لهم، وأخبر أماديا بهذا الأمر. كان رجلاً استثنائياً. لقد رأت ذلك بأم العين على مدى اليومين الماضيين. وحتى تحت الضغط الشديد الذي تعرض له أيضاً، ظل يتمتع بالأدب، والتفهم، والاحترام، واللطف طيلة الوقت. لم يفارقه أبداً خطر أن يفتضح أمره ويتم اعتقاله، تماماً كحالها هي. وعلى الأرجح لكان تم قتلهما رمياً بالرصاص لو ألقي القبض عليهما.

"لا بد وأنه أمر مثير للاهتمام أن تحظى باثني عشر ولداً في المنزل".

فاعترف بابتسامة: "إنه أمر مسلٍ". وقد خفف ذلك من وطأة حزنه على زوجته وولديه بالرغم من أن الأمر ليس نفسه. ولكنه أضفى دفئاً على

قلبه. "إنهم أولاد رائعون، وأتحدث إليهم بالألمانية أيضاً. لدي ثمانية صبيان وأربع بنات تتراوح أعمارهم بين الخامسة والخامسة عشرة. كانت أصغر فتاة في الشهر السادس من عمرها عندما وُضعت على متن القطار. وقد أتت مع شقيقتها، واثنان من الفتية الكبار توأمان. رغبت بعض العائلات في إنكلترا بتبني فرد أو اثنين من العائلة وليس أكثر، في الوقت الذي كان العدد فيه أكثر. لقد بذلنا قصارى جهدنا لإبقاء العائلات سوياً. اضطررنا في بعض الأحيان إلى إبدال عائلة الطفل بعائلة أخرى، ولكن معظم عمليات التبني أحرزت نجاحاً. أحياناً يشعرون بالحنين الشديد إلى الوطن، يا لهم من مساكين. ولكن بالطبع الطفلة الصغيرة لا تشعر بالحنين إذ إنها لا تتذكر أي عائلة ما عداي أنا وغيري من المحسنين. إنها طفلة بديعة، لون شعرها أحمر فاتح والنمش يغطي وجهها". ابتسم وهو يصفها واستطاعت أماديا أن ترى الحب الذي يكنه لهم من خلال عينيه. توقعت أنه كان أباً صالحاً أيضاً عندما كان ولديه على قيد الحياة.

وصلا إلى ميلون بعد حلول الظلام مباشرة، فحضرت لهما زوجة خال جان - إيف العشاء. لم تسألهما أين كانا أو ما الذي فعلاه، وهما بدورهما لم يأتيا أبداً على ذكر باريس. بدا لها جلياً أنه عميل من مكان آخر وهو على قدر من الأهمية. تناولا العشاء بسرعة، وتكلموا حول المزرعة والطقس، ثم جلس روبرت وأماديا في الحظيرة حتى يحين موعد مغادرته.

قال بلطف: "قد تستغربين الأمر ولكنني قضيت وقتاً ممتعاً معك". سألها وهو لا يزال يشعر بالحشرية لمعرفة المزيد عنها: "هل اشتقت لمقر ناذرات العفة؟" كانت أماديا مزيجاً مميزاً من أشياء مختلفة. ناضجة، بريئة، جميلة، متواضعة، شجاعة، خجولة، ذكية، وخالية تماماً من الزيف والادعاء. أمكنه بطريقة غريبة رؤية أنها تشكل ناذرة عفة جيدة، بالرغم من أنه ما زال يظن أنها خسارة كبيرة. كان لا يزال يذكر كم بدت رائعة الجمال بفستان السهرة الأبيض ورداء النوم البرتقالي. لم يسبق له أبداً أن

تورط مع عشيقات أخريات، إذ لكان ذلك ضرباً من الجنون ولفقد كل شيء. لم يكن تعاونهما لعباً وإنما عملاً. وكانت حياة الناس على المحك.

اعترفت أماديا بجدية بخصوص اشتياقها لمقر ناذرات العفة: "نعم أشعر بالشوق إليه. طيلة الوقت. سأعود إليه بعد انتهاء الحرب". وقد بدت واثقة من كلامها، فصدقها. انتابه شعور أنها ستفعل.

مازحها قائلاً: "فلتحجزي لي رقصة قبل عودتك، إذ بوسعك تعليمي حركة أو اثنتين".

قرابة الساعة الحادية عشرة والنصف مشيا إلى الحقل والتقيا بالآخرين. وصلت الطائرة لتقله في وقتها تماماً أي بعد منتصف الليل بقليل. كان الرجال الذي أتوا إلى فرنسا معه لا يزالون يعملون على مهامهم. كانت الطائرة لا تزال تحط فاستدار ناحيتها وشكرها من جديد. قالت له وضجيج الطائرة يعلو في المكان: "باركك الله. اعتني بنفسك".

قال لها: "وأنت أيضاً". ثم لمس ذراعها، وألقى التحية عليها، وصعد إلى طائرة الليسلندر بعد لحظة من هبوطها. أقلعوا من جديد بعد أقل من ثلاث دقائق، ثم وقفت تنظر إلى الطائرة لوهلة إلى أن اختفت عن الأنظار. ظنت أنها رأته يلوح لها بيده، ثم استدارت، وعادت إلى المزرعة.

الفصل الثالث والعشرون

لم تسمع أماديا من سيرج أي أخبار حتى ما قبل ذكرى الميلاد بأسبوعين، حيث أتى لزيارتها. كانت لا تزال تقوم بالمهمات المحلية نفسها. وقد قامت مرتين بإنقاذ رجلين حطا بالمظلة وتعرضا للأذى، حيث عمدت إلى إنقاذ أحدهما عبر هز شجرة، وقطع حبال مظلته عنها بعد أن علقت في أغصانها، ثم قدمت له عناية تمريضية لعدة أسابيع. لذا لم تعد شجاعتها وحبها لمساعدة الغير بالأمر الخفي في ميلون. كان الرجلان اللذان أنقذتهما بريطانيين، ووعد الرجل الذي قطعت حبال مظلته عن الشجرة بالعودة مجدداً لزيارتها بعد انتهاء الحرب. فقد اعتبرها ملاك رحمة إذ ما من شك أنها أنقذت حياته.

كانت تشعر بالحزن وهي تفكر في جان - إيف - حيث كانا معاً في العام الماضي. ولكنها باتت تشعر أن ميلها الديني أقوى من أي وقت مضى. تساءلت ما إذا كان هذا سبب دخوله في حياتها، تاركةً مسألة حل الأمور للوقت.

عندما أتى سيرج هذه المرة، تردد في البوح لها عن ماهية المهمة. كان قد طلبها لأداء هذه المهمة الكولونيل مونتغمري نفسه. وبالطبع يعود إليها حق الموافقة أو الرفض في نهاية المطاف.

كانت مشاريع مصنع القنابل في ألمانيا تتقدم بسرعة كبيرة، بشكل أسرع مما توقعه البريطانيون، والآن بات يحتاج إلى التفاصيل التقنية التي لم يحصل عليها من باريس. يريد من أماديا لعب دور زوجته من جديد ولكن هذه المرة سينتحل شخصية ضابط آخر. أخطر ما في المهمة هو أنها

ستتم في ألمانيا. سيتوجب عليهما دخول ألمانيا والخروج منها بسلامة، الأمر الذي لن يكون بالسهل على الإطلاق. فقد يتعرض أي منهما للقتل بكل سهولة، وفي حالة أماديا إن لم تُقتل فسيتم ترحيلها بكل تأكيد. هذه المرة لم يشأ سيرج الطلب منها القيام بالمهمة، ولم يشجعها على الذهاب. فمهمته مقتصرة على نقل الرسالة إليها ليس إلا.

"بصراحة أعتقد أنه لا يجدر بك المشاركة في هذه المهمة". وبعد استماعها إلى التفاصيل منه، كان هذا رأيها هي الأخرى. قال لها إن أمامها يومين لتصل إلى قرار.

لم تشأ الذهاب، ولكن النوم جافاها طيلة اليومين التاليين. جل ما أمكنها التفكير فيه هو وجوه الذين رأتهم وعرفتهم عندما كانت مُرحّلة. تساءلت كم منهم لا يزال على قيد الحياة. إن لم يقم أحد بهذه المهمات سيظلون هناك إلى الأبد وسيموت جميع من هم في السجون. تذكرت كلاماً قاله لها سجين مسن توفي قبل شهر من هربها. لقد قال: "إن من ينقذ حياة إنسان واحد كأنما أنقذ الناس جميعاً". كان كلاماً مقتبساً، ولم تنسه أبداً. كيف عساها تدير لهم ظهرها الآن بعد أن تسنت لها فرصة إحداث فارق، حتى لو تعرضت لخطر إعادة ترحيلها من جديد؟ كان ذلك آخر ما تتمناه. ولكن هذه فرصتها لتحارب من أجلهم. ما هو الخيار الآخر الذي بين يديها؟

اتصلت أماديا بسيرج بواسطة جهاز التخابر تلك الليلة. اقتصرت الرسالة على كلمتين. نعم. تيريزا. أدركت أنه سيفهم الرسالة، وسينقل جوابها إلى الكولونيل. ثم حصلت على التعليمات في اليوم التالي. هذه المرة سيسافر الكولونيل بالطائرة إلى شرق المكان المتواجدة فيه وهي ستسافر لتلتقي بالخلية هناك. سيعطونها الأوراق والملابس التي ستحتاج إليها. كانوا في فصل الشتاء، ولن يمضوا عطلة أسبوع احتفالاً بذكرى زواجهما في فندق كريون في باريس. لذا لم تحتج إلى أي شيء خارق وإنما ما هو ضروري فحسب.

غادرت وسط الظلام، ووصلت إلى تونس في الصباح. كان الكولونيل مونتغمري قد حط في الحقل تلك الليلة. هذه المرة تم إنزاله بالمظلة، ويتوقع منهما المكوث في ألمانيا خمسة أيام. عندما رآها ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

"كيف الحال أيتها الأخت؟"

"بخير، شكراً لك يا كولونيل. تسعدني رؤيتك من جديد". اتسم سلامهما بالاحترام والود. كان الأمر أشبه بلقاء صديق قديم.

لقد أثارت انطباعه بموافقتها على القيام بالمهمة، مع علمها بمدى الخطر الذي سيحدق بها. كان قد شعر بالذنب لطلبه منها القيام بهذه المهمة، ولكن في الحقيقة كان بحاجة إليها وكذلك إنكلترا. فشعر بالسرور لموافقتها له.

حصلا على أوراقهما، ومدّها بالتعليمات، وجلسا يتبادلان الحديث حتى طلوع الفجر. هذه المرة كانت المهمة معقّدة؛ إذ إنه بحاجة إلى مساعدتها في الحصول على المعلومات والتقاط صور فوتوغرافية. أعطاها كاميرا صغيرة من أجل هذا الهدف لتخفيها في جيب حقيبتها اليدوية، وعاود ارتداء بذة الضابط الألماني. سيستقلان القطار إلى ألمانيا هذا الصباح. وكما كانا يفعلان من قبل، ظل يتكلم إليها بالألمانية حتى لا يقترفا أي خطأ خلال قيامهما بالمهمة. يجب أن تكون الألمانية اللغة التي سيتحدثان فيها طيلة الوقت تماماً كما فعلا في باريس. ومن جديد شعرت بالسرور خلال تبادلها الحديث معه. ولكن أدرك كل منهما أن هذه المهمة ستكون أكثر دقة من المهمة التي سبقتها.

بدا الاثنان متعبين وشاحبين عندما صعدا على متن القطار كحال الجميع ذلك الشتاء، ولكنهما تبادلا الحديث بروح من المرح عند مغادرة القطار للمحطة، وبعد قليل غفت، وألقت رأسها على كتفه. فقد كانت مرهقة جداً. خلال نومها قام بالقراءة، وعندما استيقظت بدت في حال أفضل. كانا متوجهين إلى منازل تورينجين، وسينزلان في فندق يستقبل الضباط

وزوجاتهم. لم يكن من الممكن مقارنته بفندق كريون، وعندما وصلا حجزا غرفة جميلة، واعتذر موظف الاستقبال لهما لعدم توافر سرير عريض في الغرفة وإنما سريرين ضيقين. كان الفندق يضج بالزوجات اللواتي يزرن أزواجهن قبل العيد. فقال له روبرت إنه ما من مشكلة إذ إنهما ليسا هنا لتمضية شهر العسل، فضحك الثلاثة. وقد وجد خلال توجهيهما إلى الغرفة أن أماديا باتت أكثر راحة. وهذه المرة أعطتها عميلات الخلية اللواتي حضّرن لهما الملابس رداء نوم قطني دافئ. كانت هذه الرحلة أقل رومانسية بكثير وأكثر خطراً بمراحل؛ حيث يتقمص روبرت شخصية ضابط ألماني لا وجود له. كان اسمه وأوراقه مزيفة بالكامل كحال أوراقها هي. واتفقا على أنه لا ضير إطلاقاً من القول إنها من كولونيا، عندها سيكون احتمال اقترافها خطأ أقل وروداً. كما وأنه تم إتلاف العديد من السجلات في قصف العام 1942 أي قبل سنة، مما يمنحها سهولة وانسيابية أكبر في حال تحدثت مع الضباط الآخرين أو زوجاتهم.

في المساء، ذهبا لحضور حفل عشاء رسميين للشرطة السرية الألمانية، وقد ظل روبرت يعمل معظم الوقت. في أحد الممرات توجهت معه للقيام بجولة على المصنع. كان الألمان فخورين جداً بما يقومون به. فتذكرت أماديا كل ما رأته عيناها ودونته في المساء.

كانت الرحلة بأكملها ضاغطة طيلة الوقت، وفي اليوم الرابع قال روبرت بصوت منخفض عندما خلدا إلى النوم إنه أنجز المهمة، وسيغادران في الصباح وقد سار كل شيء بسلامة تامة. لكن ظلت أماديا مستيقظة طيلة الليل وينتابها شعور بالقلق. وظل القلق يلازمها وهي تصعد على متن القطار في اليوم التالي. والتزمت الصمت معظم وقت الرحلة. بدا وكأنه ينتابها حدس غريب بحدوث أمر ما ولم تجرؤ على إطلاع روبرت عليه، إذ لم يكن هناك أي جدوى من إثارة توتره هو الآخر. إذ ما كانا يقومان به يتسم بالجرأة والشجاعة إلى درجة لا توصف وقد أدرك كل منهما هذا الأمر.

طوال الطريق ظلوا يتفحصون أوراقهما، وفي المحطة الأخيرة تفحص جنديان شابان أوراقهما وبدا أن الأمر أخذهما دهراً. كانا على مقربة شديدة من الحدود وكانت واثقة أن أمراً ما سيحدث. ولكن من جديد تمت إعادة جوازي السفر لهما وواصل القطار تحركه.

ابتسم روبرت في وجهها والقطار يسير بهما. وعند الصباح وصلا إلى فرنسا. سيتوجهان إلى باريس ومن هناك سيعودان إلى ميلون. وفقاً لأوراق روبرت كان مقر خدمته العسكرية في مقر الشرطة الألمانية في باريس. سيذهبان إلى سيرج حيث يستطيع روبرت أن يتواصل بواسطة جهاز التخابر مع إنكلترا، ثم إلى ميلون حيث بوسعه المغادرة. وكان يفصلهما عن الميلاد أسبوع واحد.

كانا يسيران بسرعة في المحطة في باريس عندما أمسك ضابط صغير الرتبة بذراع روبرت وناداه باسمه، ولكنه كان اسم الضابط الذي تقمص شخصيته منذ ثلاثة أشهر وليس الضابط الذي يتقمص شخصيته الآن. دبت الرجفة في جسد أماديا عندما فكرت في تداعيات مثل هذا الأمر. ولكن تبادل الرجلان المعايدات وتمنيا الخير لبعضهما البعض، ثم توجه روبرت وأماديا بكل هدوء إلى خارج المحطة وأشارا لسيارة أجرة بالتوقف. وتوجها إلى مقهى صغير، ومن هناك سيمشيان إلى مكان سيرج. جلسا في المقهى، وطلبا القهوة وقد استحال وجه أماديا شاحباً.

قال بصوت منخفض وهو ينظر في عينيها مباشرة متحدثاً إليها بالفرنسية من جديد: "كل شيء على ما يرام". إن نفاذهما من بداية المهمة إلى نهايتها أقل ما يُقال فيه إنه معجزة بحق.

قالت بلطف وبلهجة اعتذار: "أنا بالتأكيد لم أولد للقيام بمثل هذه الأمور". كانت تشعر منذ الصباح وكأنها على وشك التقيؤ، وقد بدا عليه التعب هو الآخر. فقد كانت الرحلة ضاغطة للغاية وإنما ناجحة جداً أيضاً.

"أنت أفضل بكثير مما تظنين بل وممتازة تقريباً". لقد كانت مقنعة جداً في دورها كزوجة ضابط حيث بدا يخشى أن تقدم على لعب مزيد من

هذه الأدوار. ولم يظن أنه يجدر بها ذلك. إذ بوسع المرء المخاطرة بحياته لمرات معدودة فحسب. لطالما قال إنه يملك على الأقل عشر أرواح. ولكنها كانت شابة وقد بدا الأمر نوعاً ما فائضاً في المخاطرة. ففي عمر الثانية والأربعين شعر وكأنه عاش حياته. ومع رحيل زوجته وولديه لن يشتاق إليه أحد في حال رحل ما عدا الأولاد الذين يرعاهم. ما كان يقوم به كان رغبة بالانتقام من الألمان لمقتل زوجته وولديه وأيضاً خدمةً لبلده.

بعد ذلك مشيا إلى منزل جدي سيرج، وأعلنا عن وصولهما، وبدلا الأوراق. استخدم روبرت جهاز التخابر لعدة ساعات مغيراً الموجات كل خمس عشرة دقيقة حتى لا يتمكن الألمان من استخدام معدات التقفي لتحديد مكانه والاستماع إلى مجريات الأمور في فرنسا. قاما بكل ما توجب عليهما القيام به قبيل مغادرتهما وقررت أماديا أن الحدس الذي انتابها بشأن حدوث مكروه لم يكن سوى سخافة. فكل شيء سار على ما يرام.

في النهاية، توجها بالسيارة إلى ميلون ذلك المساء، ورجعا إلى بيت المزرعة. جلست معه في الحظيرة كما فعلا من قبل، ثم رافقته إلى الحقل بعد منتصف الليل. كان البرد قارساً إلى درجة أن الجليد غطى الأرض وظل الثلج يتساقط. أمسكت بذراعه حتى لا تنزلق على الجليد وقد أسندها مرات عدة كي لا تقع. لقد اعتادا على بعضهما البعض، وكأنهما باتا فعلاً زوجين أو على الأقل تربطهما علاقة ما. مكثا بين الأشجار انتظاراً لوصول الطائرة. لقد بات الأمر روتينياً. كان يصعب التصديق أنهما كانا في ألمانيا الليلة السابقة، وظلا هناك لمدة أسبوع تقريباً. لقد نجيا بحياتهما. وهذا أهم ما في الأمر. وصلت الطائرة قبيل الساعة الواحدة فجراً تلك الليلة، بعد أن انتظراها طويلاً في البرد القارس. فباتت تشعر أن يديها مخدرتان وهي تصافح روبرت وتتمنى له رحلة موفقة. هذه المرة الحلى وقبلها على خدها.

"لقد كنت مميزة جداً، كالعادة... أتمنى أن تستمتعي بوقتك".

"سأقلع، فنحن ما زلنا على قيد الحياة كما وأنني لم أرحل". ثم ابتسمت له وأضافت: "استمتع مع الأولاد الذين ترعاهم".

ثم ربّت على كتفها، وشاهدت الآخرين يشيرون للطائرة بالهبوط. لم يحتاجوا إلى مساعدتها في هذا الأمر الليلة. لقد أتت لمجرد توديعه كما تفعل الزوجة الوفية في المطار. وقفت بين الأشجار، وشاهدته يركض وسط الحقل صوب طائرة الليساندر التي تنتظره. وفي غضون ذلك سمعت صوت طلقة رصاص. فانحنى لدقيقة من الوقت، ثم رأته يمسك بكتفه ثم واصل الركض. ثم إطلاق المزيد من الرصاص فرأت رجلين من الذين يحملون المصابيح يقعان أرضاً وقد توجه ضوء المصباحين إلى الأعلى. اختبأت أماديا أكثر بين الأشجار. إذ لم يكن بوسعها فعل أي شيء لهما، ولكنها رأت روبرت يصاب بطلق ناري. في غضون ثوان سحبوه إلى الطائرة، وأقلعت بعد أن أقفلوا باب الطائرة خلال إقلاعها. ركض أعضاء الخلية الآخرين في الحقل، واختفوا بعد أن جروا الرجلين المصابين معهما، ولكنهما كانا قد فارقا الحياة. في غضون عشر دقائق، انتشر الجنود في كل مكان وقد أدركت أنهم سيتوجهون إلى جميع المزارع المجاورة. قد تنشب ثورات أو ربما لا تنشب نظراً إلى أن ألمانيا لم يقتل أو يجرح وإنما روبرت فحسب.

توجه الجنود وراء الرجال الذين هربوا، وركضت أماديا إلى المزرعة بأقصى سرعة ممكنة. هرعت إلى غرفتها، خلعت ملابسها، واستلقت في سريرها مرتدية رداء النوم، ثم حكّت يديها ووجهها بشدة حتى تُخفي نفسها.

المثير للدهشة، أنهم لم يأتوا. لم تقوَ على تصديق مدى الحظ الذي مُنيا به في خروجهما من ألمانيا بعد أن أنجزا المهمة، وبقائها على قيد الحياة في حادثة مغادرته. مما ذكرها بالحدس الذي انتابها منذ آخر ليلة في ألمانيا، الأمر الذي جعلها تحترم جداً حدسها الخاص.

مات مقاتلا الحرية الشابان، وقد كانا صديقين قديمين لجان – إيف. وفي اليوم التالي، تلقى سيرج رسالة من البريطانيين على جهاز التخابر

ذي الموجات القصيرة. لقد حط أبولو وأصيب ببضعة خدوش في كتفه، ولم يلحق به أذى كبير وهو يرسل أحر التحيات لأماديا. سلم سيرج الرسالة بحذافيرها. مما بعث الراحة في نفوس الجميع.

الفصل الرابع والعشرون

في ربيع العام 1944، أدرك سيرج وكل من في المقاومة أن الحلفاء قادمون. وبات السؤال: متى سيأتون وهل سيكون ذلك في القريب العاجل؟ كان الألمان يسعون وراء الجميع، فانحصرت خطة المقاومة في عرقلتهم بشتى السبل الممكنة حتى لا يتمكنوا من إيقاف الحلفاء حين يصلون.

تساءلت أماديا إن كان روبرت مشاركاً في الأمر، وكانت واثقة أنه لا بد وسيشارك. لم تسمع عنه شيئاً لأربعة أشهر منذ آخر مهمة قاما بها في شهر كانون الأول. ولكن لم يكن ثمة سبب يدعو إلى أن تسمع منه أخباراً. كان يخطر في بالها من وقت إلى آخر، إضافة إلى الأولاد الذين يرعاهم وأملت أن يكون هو والأولاد بخير وأمان.

في شهر آذار، تسلمت مهمات تفوق العدد المعتاد. كان الطقس قد تحسن وبات التجول أسهل مما كان عليه في الشتاء. كان قد تم تنصيبها رئيسة لمجموعتها فباتت تحمل على عاتقها أخذ العديد من القرارات التابعة لخليتها.

في محاولة لعرقلة تحركات الألمان أخذت قراراً إلى جانب العديد من الأشخاص غيرها بتفجير قطار. لقد قاموا بأمور مشابهة من قبل، وأعقبها انتهى بنتائج كارثية وانتقاضات حادة. ولكن كانت تصلهم إشارات من باريس بوجوب الحد من تحرك القطارات بأي وسيلة ممكنة. فبدا لهم تفجير القطار والسكك شرقي أورلان خطوة جيدة، بالرغم من مدى خطورتها عليهم جميعاً.

فعلى سبيل الصدفة، تم تعيين موعد التفجير ليلة ذكرى مولد أماديا السابع والعشرين. لم يعرف أحد بأمر ذكرى مولدها وحتى هي لم يكن

يعنيها الأمر كثيراً. ففي تلك المرحلة، بدت المناسبات غير ذات أهمية. وعلى كل حال لطالما أدخلت الحزن في قلبها. كانت تشعر بسعادة أكبر في القيام بأمور مفيدة وخصوصاً إن كان فيها أذى للألمان.

شارك في العملية تلك الليلة 20 شخصاً، 12 رجلاً و8 نساء. كان البعض منهم من السكان المحليين وأتى آخرون من خلايا مجاورة. كان أحد الرجال يعمل لحساب جان مولان وقد غادر ليون السنة الماضية عندما تم اعتقال مولان. وجدته أماديا على أعلى مستوى من التدريب، ولم يفاجئها الأمر. وعندما كانت جاثمة في الوحل تلك الليلة بانتظار مرور الحراس، لم تقوَ إلا على التفكير كم يصعب على المرء تخيل أنها كانت راهبة في أحد الأيام، وحتى هي وجدت صعوبة في تخيل هذا الأمر. كانت تقضي وقتها في تحضير الأسلحة، وجمع المتفجرات، وتخريب الممتلكات، وفعل كل ما بوسعها للتنكيل بالعدو الذي كان يحتل فرنسا وتدميره. كانت لا تزال تنوي العودة إلى مقر راهبات العفة، ولكنها كانت تتساءل في بعض الأحيان ما إذا أمكن للأخوات هناك أو الله مسامحتها على ما أقدمت عليه. ولكنها باتت أكثر تصميماً من أي وقت مضى على القيام بما كانت تقوم به. شعرت أن لا خيار أمامها إلى أن تحط الحرب أوزارها.

ساعدت أماديا بنفسها في وضع المتفجرات قرب سكة الحديد تلك الليلة. لقد قامت بأمور مماثلة من قبل وباتت تعرف الكمية التي يتوجب استخدامها. وعند قيامها بأمور مماثلة كانت دوماً تتذكر جان - إيف. ولكنها كانت تتوخى الحذر، وعندما أشعلوا الفتيل كانت على أهبة الاستعداد للركض، ولكن في تلك اللحظة وجدت حارساً ألمانياً يمر بجانب المكان. وقد أدركت أنه في غضون ثوانٍ سيتحول إلى أشلاء، ولكن في حال لم تبتعد عن المكان فسيؤول بها الأمر إلى ذلك هي الأخرى. وبدل التقدم إلى الأمام إلى حيث يختبئ الآخرون، لم تمتلك أي خيار سوى بالتراجع إلى الوراء الأمر الذي أبعدها أكثر عنهم. كانت قد بدأت لتوها بالركض عند

دويّ الانفجار الأول. فقُتل على إثره الحارس الألماني على الفور، واندفعت أماديا إلى الوراء بقوة هائلة لدرجة أنها طارت في الهواء كدمية صغيرة ووقعت على ظهرها مباشرة على مسافة ليست ببعيدة عن سكة الحديد.

ذُهلت لكونها لا تزال واعية وتدرك ما الذي يحدث، ولكنها كانت عاجزة عن التحرك نتيجة لسقوطها القوي. فقد مُنيت إثر ارتطامها بالأرض بإصابة قوية في عمودها الفقري. رأى أحد الرجال ما حصل، فركض وسط النيران إلى مكان سقوطها. ألقاها بسرعة على كتفه، وركض نحو الآخرين، في الوقت الذي دوى فيه الانفجار الثاني. كان الانفجار الثاني بقدر قوة الانفجار الذي قُتل فيه جان - إيف.

جلّ ما تذكرته فيما بعد أن أحداً ما حملها لفترة طويلة ولم تكن تشعر بأي شيء، وتذكرت أنه تم وضعها على متن شاحنة والانفجارات تدوي على مسافة معينة والنيران تنتشر في كل مكان. بعد ذلك فقدت الوعي واستفاقت بعد يومين في حظيرة غريبة وسط أشخاص لا تعرفهم. كان قد تم أخذها إلى بلدة مجاورة لمواراتها فيها.

خلال الأسبوع التالي، ظلت تفقد الوعي بين الحين والآخر، وقد أتى رجلان من خليتها لرؤيتها، بدا عليهما القلق عليها، وقالا إن الألمان يبحثون عنها في كل مكان. لقد ذهبوا إلى مزرعة خال جان - إيف حيث كانت تعيش ووجدوها مفقودة. قال الزوجان المسنان إنهما لا يملكان أي فكرة عن مكانها، وبمعجزة تم الإعفاء عنهما، ولكن لم يعد بوسعها العودة إلى هناك. كان سيرج قد تواصل معهم عبر جهاز التخابر من باريس وقال بوجوب إخراجها من المكان. وإضافة إلى كون الألمان يبحثون عنها، كانت ثاني أكبر مشكلة لديها أنها تعجز عن تحريك رجليها أو حتى الجلوس، إذ انكسر ظهرها عندما وقعت أرضاً. وقد فقدت الإحساس برجليها كلياً، وليس هناك أي مجال لها لتغادر بمفردها. وحالتها هذه تعني أنها تحولت إلى صاحبة إعاقة دائمة، ولم تعد ذات فائدة البتة لهم.

قال أحد الرجلين اللذين تعرفهما وعملت معهما لسنة ونصف بكل لطف: "يريد سيرج منا إخراجك". لم يرغبا بمصارحتها بالحالة التي كانت عليها، ولكن بدا وضعها مزرياً جداً. فقد ظلت على مدى اليومين الماضيين ضائعة وتهذي. لم ينكسر ظهرها فحسب، بل وأُصيبت بحروق قوية. لم تكن تشعر بأي شيء وهي مستلقية هناك ولا حتى بالألم.

قالت أماديا محاولة التركيز على المشكلة: "إلى أين؟" ولكنها كانت متعبة جداً إلى درجة أنه بالكاد أمكنها البقاء واعية. ظلت تتأرجح بين الوعي وعدمه في الوقت الذي كانت تتحدث فيه إليهما. في إحدى لحظات وعيها القصيرة شرحا لها ما الذي سيحصل. لقد تم الترتيب لكل شيء.

"ستأتي طائرة من أجلك الليلة".

رجتهما قائلة: "لا تعيداني إلى المعتقل... أعدكما أنني سأحسن التصرف. سأنهض على الفور". ولكنهما أدركا أنها تعجز عن ذلك. فقد أتى طبيب لمعاينتها وأفاد أنها ستظل مشلولة طيلة حياتها. وحتى في ظل حالتها هذه، سيقتلها الألمان على الفور في حال وجدوها. ولن يزعجوا أنفسهم حتى بإرسالها إلى المعتقل، إذ باتت عديمة الجدوى لهم الآن، حتى كأسيرة.

ومما زاد الأمور سوءاً، أن إبقاءها في هذا المكان بات يمثل خطراً كبيراً عليهم، إذا وشى بها شخص، وبات الألمان على علم بأنها إما عضو في خلية أو مسؤولة عنها. فأدرك الجميع أن سيرج على حق. ليس أمامها خيار إلا مغادرة المكان. هذا في حال أفلحوا في إخراجها حية، الأمر الذي كان مشكوكاً فيه. ستأتي إحدى طائرات الليساندر لنقلها تلك الليلة. هذا إن أفلحوا في وضعها على متنها، وإن بقيت حية. كانت فاقدة للوعي تلك الليلة عندما حملوها وخرجوا بها من الحظيرة. قامت إحدى النساء بلفها بغطاء، فبدت أشبه بجثة بعد أن قاموا بتغطية وجهها. كانت تئنّ حينما حملوها، ولكنها لم تستعد الوعي.

ركض معها وسط الحقل فتى كان يعرفها منذ مجيئها إلى فرنسا، في الوقت الذي أضاء فيه الآخرون مشاعلهم. بدا الأمر أشبه بجنازة أكثر منه

مهمة إنقاذ. بكى أحد الرجال، وقال إنها ستموت قبل أن يخرجوها من الطائرة. وقد خشي الآخرون أنه محق.

عندما حطت الطائرة الصغيرة كان بابها مفتوحاً. فقاموا برميها على أرض الطائرة بكل ما للكلمة من معنى، وهي لا تزال ملفوفة بالغطاء. كان على متن الطائرة رجلان. جذبها أحدهما إلى الداخل، وأقفل الباب عند إقلاعها. ثم توجه القبطان عائداً إلى إنكلترا، في الوقت الذي قام فيه الرجل الآخر في سحب الغطاء بلطف عن وجهها. كلانا يدركان أنهما أتيا لإخراج مقاومة فرنسية، ولكنهما لم يعرفا شيئاً أكثر من ذلك. لم يعرفا اسمها. كان سيرج قد بث للبريطانيين بواسطة جهاز التخابر المعلومات التي كانوا بحاجة إلى معرفتها. جل ما احتاج الرجلان إلى معرفته هو المكان الذي سيتوجهان إليه وأن هناك شخص سيقلانه. وقد نفذا الأمر.

قال الرجل الجالس بقربها على أرض الطائرة عندما رأى وجهها: "أعتقد أن مهمتنا هذه ستذهب هباء".

إذ بالكاد كانت تتنفس، ولم يكن لديها أي نبض تقريباً. "لا أظنها ستنجو". لم يعلق القبطان بأي كلمة، وواصل قيادة الطائرة متوجهاً إلى إنكلترا.

تفاجآ عندما لاحظا أنها لا تزال على قيد الحياة عند وصولهم إلى إنكلترا. كانت سيارة إسعاف بانتظارهم على الرصيف، فأخذتها إلى مستشفى حيث كان بانتظارها سرير. وعندما رأوها في المستشفى أدركوا أنها بحاجة إلى ما هو أكثر من سرير. كانت مصابة بحروق من الدرجة الثالثة في ظهرها، وعمودها الفقري مكسور. بعدما بذلوا ما بوسعهم من أجل إنقاذها كتب الجرّاح في التقرير أنه من غير الوارد أن تعاود المشي في حياتها.

وضعوها في الغرفة تحت الاسم المدون على الأوراق التي كانت تحملها. أفادت أوراق هويتها الفرنسية أن اسمها أميلي دوما. وبعد فترة وجيزة اتصل موظف من جهاز المخابرات البريطانية وعرّف عنها تحت اسمها الحركي تيريزا.

سألت إحدى الممرضات زميلتها عندما رأت المعلومة على الجدول: "هل تعتقدين أنها عميلة بريطانية؟ كلانا تعلمان أنه تم إنقاذها من فرنسا ولكن لم تعلما السبب أو من قام بانتشالها".

"ممكن. إنها لم تتلفظ بكلمة منذ وصولها إلى هنا. لا أعرف أي لغة تتكلم".

نظرت إحداهما إلى الجدول بإمعان. كان يصعب التوقع في تلك الأيام. إن احتمال أن تكون من عداد الجيش البريطاني غير وارد البتة، وكانت في حالة يرثى لها. "يمكن أن تكون تابعة لنا".

قالت الممرضة الأخرى: "مهمن كانت، فقد مرت بأوقات عسيرة جداً".

لم تستعد أماديا وعيها إلا بعد مرور ثلاثة أيام، وعندما استفاقت ظلت صاحية لدقيقة من الوقت فحسب. نظرت إلى الممرضة التي تعتني بها، وتكلمت معها بالفرنسية بعينين ذابلتين وغير مبصرتين. تكلمت بالفرنسية وليس بالألمانية أو الإنكليزية واقتصر كلامها على بضع كلمات. وبعد تلفظها بهذه الكلمات فقدت الوعي من جديد.

الفصل الخامس والعشرون

في السادس من حزيران حط الحلفاء في النورماندي، فبكت أماديا عندما سمعت الخبر. كانت قد صلّت وناضلت من أجل حصول ذلك أكثر من أي شخص آخر في المستشفى. وفي منتصف حزيران بات بالإمكان إخراج أماديا إلى حديقة المستشفى على كرسي مدولب.

أخبرها الأطباء أنه من غير الوارد أن تتمكن من المشي مجدداً، ولكن الأمل ليس مفقوداً بالكامل. وإنما وفق كلامهم فإن احتمال عجزها عن معاودة المشي كبير جداً. اعتبرت أن رجليها عبارة عن تضحية صغيرة في سبيل المجهود الحربي، وللإبقاء على حياة الأشخاص الذين قاتلت من أجلهم. هناك عدد لا يُحصى من الأشخاص غيرها لم يتمكنوا أبداً من مواصلة الحياة حتى من على كرسي مدولب. عندما كانت جالسة على الكرسي المدولب تحت أشعة الشمس ورجلاها مغطاتان بدثار، أدركت فجأة أنها ستصبح واحدة من ناذرات العفة المسنات الجالسات على كراسي مدولبة واللواتي تعتني بهن الناذرات الشابات. لم تعبأ إن اضطرت للزحف من أجل العودة إلى المقر، فقد نوت العودة إلى المقر بمجرد أن تخرج من المستشفى. كان يوجد مقر للناذرات في نوتنغ هيل في لندن، فنوت زيارة هذا المقر عندما تخرج. ولكن قال الطبيب إنه من المبكر جداً التفكير في خروجها من المستشفى، إذ إن جروحها لا تزال تلتئم، وهي بحاجة إلى علاج من أجل ظهرها ورجليها. كما ولم تشأ أن تتحول إلى عبءٍ ثقيل تحمله الناذرات الأخريات على ظهورهن منذ بداية حياتها.

كانت جالسة في الحديقة مغمضة العينين ووجهها تحت أشعة الشمس عندما سمعت إلى جانبها صوتاً مألوفاً. لم تقوَ على تذكر هذا الصوت وقد سمعته بلغة مغايرة. كان بمثابة صدى لماضٍ سحيق.

"أيتها الأخت، لقد أفلحت بكل تأكيد هذه المرة". فتحت عينيها، ورأت روبرت واقفاً بالقرب منها. كان يرتدي بذة ضابط بريطاني. وقد وجدت بعض الغرابة في شكله وهو لا يرتدي بذة ضابط ألماني. فأدركت أن غرابة صوته تعود إلى كونه يتحدث بالإنكليزية وليس الفرنسية أو الألمانية. ابتسمت وهي تنظر إليه.

"لقد فهمت أنك حاولت بمفردك تدمير كامل نظام سكة الحديد الفرنسي ونصف الجيش الألماني معه. سمعت أنك قمت بإنجاز كبير".

"شكراً لك أيها الكولونيل". شعت عيناها بالنور بمجرد أن ألقت بنظرها عليه. كان الصديق الوحيد الذي قدم لزيارتها منذ وجودها في المستشفى "كيف حال كتفك بالمناسبة؟"

"إنه يؤلمني بعض الشيء في البرد ولكن الوقت كفيل بشفائه". في الواقع كانت إصابته جسيمة، ولكن الأطباء أفلحوا في علاجه، أكثر مما تسنى لهم مع أماديا، أو على الأقل هذا ما سمعه. قال الطبيب الذي تكلم معه قبل زيارته لأماديا إنه ما من أمل لها أن تعاود المشي من جديد، ولكنهم لم يشاؤوا نقل هذا الخبر المؤسف لها. وقال إنه حتى اللحظة على الأقل، تبدو متقبلة لوضعها. وفقاً له يعتبر بقاؤها على قيد الحياة معجزة، ولكن المعجزات كانت خبزها اليومي.

قالت بصدق، وهو يجلس على المقعد المواجه لها: "وصلتني رسالتك عندما عدت إلى هنا. شكراً لك. كنت أشعر بالقلق عليك".

قال بجدية: "ليس بقدر قلقي عليك. يبدو أنك تعرضت لإصابة شديدة".

قالت: "لم أجد أبداً التعامل مع المتفجرات". محاولة أن تبدو مثل امرأة تقول إنها تجهل كيفية تحضير فطيرة التفاح أو هريس البطاطا.

قال بشكل عملي وعيناه تلمعان: "إذاً، ربما يجدر بك التفكير في عدم استخدامها من جديد".

سألته ممازحة إياه: "هل أتيت لتطلب مني العودة إلى ألمانيا مدعية أنني زوجتك؟" بالرغم من مدى الرعب الذي كانت تشعر به خلال عملها معه، إلا أنها لطالما استمتعت بهذا العمل، بقدر ما استمتع هو بالعمل معها.

قالت وهي تشعر ببعض الإحراج: "ربما يسعك الادعاء هذه المرة أنني جدتك، بما أنني بتُّ الآن على كرسي متحرك". فاستنكر تعليقها هذا.

"هذا هراء. ستعاودين الركض من جديد في أسرع وقت. أخبروني أنك ستخرجين في الشهر القادم. كان قد واصل الاطمئنان على أحوالها منذ نقلها إلى المستشفى، ووعد سيرج بأنه سيفعل. وانتظر بعض الوقت إلى أن ظن أنها باتت مستعدة لتقبل الزيارة. فقد أدرك مدى سوء وضعها الصحي قبل زيارته هذه. كان قد مر عليها شهران عصيبان. "فكرت في الذهاب إلى مقر نادلات العفة في نوتنغ هيل عند خروجي. لا أود أن أكون حملاً عليهم، ولكن لا يزال بوسعي فعل الكثير". قالت بخجل بادية لوهلة فقط كنادلة عفة: "عليّ أن أستعيد مهارتي في الخياطة". ولكنه كان يعرفها جيداً.

قال مبتسماً في وجهها وسعيداً برؤيتها: "لا أفترض أنهم سيودون منك تفجير حديقتهم. قد يزعجهم هذا الأمر كثيراً". بالرغم من المحنة التي مرت بها إلا أنها بدت في حالة لا بأس بها وجميلة كحالها دوماً. إذ كان شعرها الطويل الأشقر يتدلى على ظهرها ويلمع تحت أشعة الشمس. "في الواقع، أحمل اقتراحاً لك. أعترف لك أنه ليس حماسياً بقدر رحلة إلى ألمانيا، وإنما يقاربه حماسة بعض الشيء. وفي بعض الأحيان يثير الأعصاب بقدر تلك الرحلة". بدت متفاجئة وهي تستمع إليه. لم تقو على التصور أنه في ظل وضعها الحالي قد يود منها جهاز الاستخبارات البريطاني القيام بمهمة معه. فقد انتهت أيامها كمقاومة. ولكن أملت أن تنتهي الحرب أيضاً بعد فترة وجيزة. فقد حاربت جيداً لمدة طويلة. أطول

مما حارب معظم الناس. "في الواقع أنا بصراحة أحتاج إلى مساعدة مع الأولاد الذين أرعاهم. إنهم يكبرون في السن. لقد مرّت خمس سنوات على وجودهم معي. والأصغر سناً بينهم لم يعودوا صغاراً ويثيرون جميع أنواع المتاعب. بات الأولاد الأكبر سناً في سن البلوغ تقريباً ويسببون جميع أنواع الإزعاج في منزلي. أنا أتواجد هنا في لندن معظم الوقت، وبصراحة أحتاج إلى من يبقي عيناً ساهرة عليهم إلى أن تنتهي هذه الأزمة برمتها. وعندها سأحتاج إلى مساعدة في تقفي أثر أهاليهم في حال كانوا لا يزالون على قيد الحياة. سيكون عملاً مضنياً". ثم أضاف: "كما وأنه ليس سهلاً على رجل أن يقوم بمفرده برعاية 12 ولداً". فأثار ضحكها. "أحسبك توجهين العودة إلى عالم مقر نادلات العفة لبعض الوقت من أجل مساعدة صديق قديم. لقد كنا زوجين لبضعة أيام في وقت من الأوقات، على مدى أسبوع على ما أعتقد. أعني، أنت مدينة لي بهذا الأمر على الأقل. لا يسعك المضي في حال سبيلك وتركي مع 12 ولداً". كانت تضحك وهي تستمع إليه، وشكّت في أنه يتصرف بحكم الشفقة عليها وليس أكثر، ولكن أيضاً بدافع اللطف كما كان دوماً متوقعاً منه. سألته مبدية استغرابها: "أنت لا تتكلم بجدية أليس كذلك". شعرت بأن صداقة قديمة تربط بينهما. بالرغم من أنهما لا يعرفان بعضهما بالشكل الكافي، إلا أنه بعد كل المخاطر التي واجهاها سوياً، نشأت بينهما رابطة قوية. بطريقة ما كانا يقومان بحماية بعضهما البعض خلال المهمتين. وقد قاما بعمل مذهل، وقد شعرت بالفخر بما قاما به.

"في الواقع أنا أتكلم بجدية. أنا أحبهم جداً. ولكن بصراحة يا أماديا إنهم يدفعون مدبرة منزلي إلى الجنون. إنها تبلغ السادسة والسبعين من عمرها، كانت مربيتي في صغري ومربية ولدي. يحتاج هؤلاء الأطفال إلى شخص أصغر سناً لتسليتهم وتعليمهم على النظام". كان يتكلم معها بصدق.

"لا أعرف كم عساي أكون مفيدة في هذه الأيام". نظرت إلى الكرسي المدولب ثم إليه. قد يقعون على تفعي عن جرف عالٍ إن لم يعجبهم كلامي.

قال بشكل جدي أخيراً: "إنهم حقاً أولاد طيبون". فشعرت أنه يعني ما يقوله. كما وظهر لها جلياً قدر حبه الكبير لهم. ولكنه كان محقاً، إذ ليس لديه زوجة. ومربية بعمر السادسة والسبعين لا تناسب أبداً 12 ولداً، دون وجود أهل لهم. كان روبرت يغيب عن المنزل معظم الوقت، إما في مهام أو العمل في لندن، ولا ينزل إلى شرقي سوسيكس إلا في عطل نهاية الأسبوع. في المقابل، كانت أماديا متشوقة للعودة إلى مقر نادرات العفة. لقد طال بقاؤها خارجاً في العالم، وقامت بكل ما كُتب لها القيام به. وقد آن الأوان لها كي تعود، فصارحته بهذا الكلام بكل لطف. فسألها وكله أمل: "ألا تعتقدين أنه بوسعهم تدبر الأمر من دونك لبضعة أشهر؟ إنه جزء من المجهود الحربي في النهاية. هؤلاء الأطفال ضحايا الحرب مثلك تماماً. وسيصعب عليهم الأمر بعد انتهاء الحرب عندما يعرف الكثير منهم ما حصل لأهاليهم. قد يكون الأمر قاسياً جداً". لقد دق على الوتر الحساس في قلبها، فنظرت إليه وهي مترددة. بدا لها أن القدر يتآمر عليها دوماً لإبعادها عن مقر نادرات العفة. أرادت أن تستشير الله لتعرف ما يريده لها. ولكن عندما نظرت إلى عينيْ روبرت وتعابير وجهه أدركت ما عليها فعله. كان مقدّراً لها رعاية هؤلاء الأولاد. ربما هذا هو السبب الذي أرسل الله روبرت لأجله. لم يكن للأمر نهاية. ولكن بعد ثلاث سنوات لها خارج مقر نادرات العفة أدركت أنه بوسعها الانتظار مزيداً من الوقت. بدأت تظن أنها ستبلغ التسعين قبل أن تأخذ على نفسها العهود الأخيرة. ولكنها أدركت أنها في النهاية ستفعل. كانت واثقة تماماً من هذا الأمر.

قالت وهي تنظر إليه مشفقة على الأولاد: "لم أراسل المسؤولة بعد. كنتُ سأراسلها هذا الأسبوع. هل أنت واثق أنك ستستفيد من مساعدتي؟ حيث لا رجاء مني وأنا على هذا الكرسي". كانت في بعض الأحيان تشعر بالأسف على نفسها بالرغم من أنها كانت تبذل جهداً كبيراً كي لا تفعل. ولكن إن كانت هذه مشيئة الله فبوسعها التعايش معها. فلقد نعمت ببركة الله مرات عدة وبعدة طرق.

"يسعدني جداً سماع أنك لم تراسليها بعد. كنت أخشى أن تفعلي قبل أن أزورك. كما أنك بالتأكيد مفيدة جداً بالرغم مما أنت عليه الآن. لا تكوني سخيفة. جل ما عليك فعله هو الصراخ عليهم، كما أنني سأمدك بعصا طويل. بوسعك لكزهم به إن اضطررت إلى ذلك". كان يمازحها فضحكت على كلامه.

سألته: "متى تريدني أن أبدأ؟" وعند طرحها هذا السؤال عليه، بدت منذ اللحظة مفعمة بالحماس والأمل. كانت تتحرق للقائهم. فرعايتهم ستعطي لحياتها هدفاً جديداً، خصوصاً مع غياب روبرت الطويل. وعند تناقشهما في الأمر كانت تشعر أنها عادت لتكون زوجته من جديد كما كانت في باريس وفي الرحلة إلى ألمانيا في شهر كانون الأول. كانت تربطهما علاقة غريبة جداً. بطرق معينة كانا غريبين وبطرق أخرى كانا يشعران وكأنهما من أعز الأصدقاء. شعرت أماديا بالسرور لمساعدته في تدبر أمور الأولاد الذين يرعاهم. يمكن لمقر نادرات العفة أن ينتظر بعض الشيء. ستنتهي الحرب في فترة وجيزة، وبمجرد أن يجدوا أهاليهم ويتركونه... كانت الأفكار تتسارع في ذهنها وهي جالسة على الكرسي المدولب تتبادل معه الحديث، ثم فجأة اعتدلت في جلستها، وأرادت منه أن يدون جميع أسمائهم على ورقة قبل أن يغادرها عصر ذاك اليوم، فوعدها أنه سيفعل.

أدرك أنه يقوم بعمل جيد من أجل رفع معنوياتها. وجلس يبتسم في وجهها وهما يتبادلان الحديث تلو الآخر لساعات، عصر ذاك اليوم حول الأولاد ومشاكله واليومين اللذين أمضياهما في باريس والخمسة أيام التي أمضياها في ألمانيا. بدا أن بينهما الكثير ليتحدثا بشأنه، وبدت أماديا سعيدة ومفعمة بالحيوية. وكانت تضحك عندما جر الكرسي المدولب بنفسه ليعيدها إلى غرفتها. اتفقا على أن تأتي مباشرة إلى منزله في شرقي سوسيكس بمجرد أن يسمح لها الأطباء بالخروج من المستشفى بعد أربعة أسابيع. ولكنه أخبرها أنه سيزورها مرات عدة قبل أن تخرج. أراد أن يطمئن على أنها تبلي حسناً، إضافة إلى أنه يستمتع برفقتها.

قبّلها على وجنتها عند مغادرته، وبعدها تلت دعاء من أجل الأولاد الذين يرعاهم ومن أجله هو.

الفصل السادس والعشرون

لم تجد أماديا سبيلاً إلى الراحة في القطار الذي أقلها من المستشفى إلى شرقي سوسيكس. كانت لا تزال تمتلك بعض الإحساس الضئيل جداً في أسفل عمودها الفقري ورجليها. كان إحساساً بالدغدغة ليس إلا، ولكنه كان كافياً ليسبب لها الألم في حال ظلت على جلستها لوقت طويل. لم تكن تمتلك أي سيطرة على رجليها، وكانت فاقدة للإحساس من خصرها حتى أسفل رجليها عندما أجلسها السائق بلطف على كرسيها المدولب بعد أن خرجت من السيارة. وجدت روبرت بانتظارها عندما وصلت. كان قد أتى في اليوم السابق للتحدث مع الأولاد. أراد منهم أن يعاملوها بلطف، وألا يسببوا لها المتاعب. أخبرهم كم كانت شجاعة، وحتى أنه أخبرهم عن احتجازها لمدة خمسة أشهر قبل سنتين.

سألته فتاة صغيرة يغطي النمش وجهها وقد فقدت أسنانها الأمامية: "هل التقت بماما؟"

أجابها بلطف: "لا أظن ذلك". في ذلك الوقت كان التوأمان يتراشقان بكرات الخبز فطلب منهما الكف عن ذلك. قال لهما وهو عابس ويحاول أن يبدي حزماً: "حري بكما أن تحسنا التصرف عندما تصل". ولكنهما كانا يعرفانه، لذا لم يعيراه أهمية. عندما وصل إلى منزله في سوسيكس عمدوا إلى التجمع حوله كالجراء الصغيرة. ولطالما رغبت ريبكا، الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأحمر، بالجلوس في حجره وجعله يقرأ لها القصص. لم يتكلم معها بالألمانية وإنما بالإنكليزية منذ كان عمرها ستة أشهر أي منذ وصلت. ولكن العديد غيرها من الذين أتوا في سن أكبر ما زالوا يتكلمون

الألمانية. قال لأماديا إنه يجد أن عليه التكلم معهم بالألمانية، على الأقل لبعض الوقت. إذ عندما يعود أهاليهم، وذلك في حال عادوا، قد لا يتمكن بعض الأولاد من التكلم معهم. لذا اعتقد أنه يجدر تذكيرهم دوماً باللغة الألمانية. كان دوماً يحاول القيام بذلك، ولكن لا ينفك يتشتت ذهنه فينتهي به الأمر بالتكلم معهم بالإنكليزية بالرغم من أنه يجيد اللغة الألمانية بقدر ما تجيدها أماديا. ويعود سبب إجادتهما للغة الألمانية إلى كون والدة كل منهما ألمانية. قال للأولاد بنبرة فخر تقريباً: "إنها شابة رائعة وجميلة للغاية. ستحبونها".

سألته فتاة اسمها ماريا تبلغ الثانية عشرة من عمرها وتتمتع بالجمال والطول والنحافة: "هل ستتزوج منها يا بابا روبرت؟".

أجابها باحترام: "لا، لن أتزوج منها. في الواقع كانت قبل اندلاع الحرب نادرة عفة. وتنوي العودة إلى مقر نادرات العفة بعد انتهاء الحرب". لقد أدرك أنه أقدم على تغيير رأيها مؤقتاً فحسب من أجل مساعدتها له في تدبير أمور الأولاد. وهو بالفعل يحتاج إلى مساعدتها، ولكن الآن لا يجد أمراً أروع من العودة إلى المنزل ليجدها هي والأولاد فيه.

حدق فيه صبي في العاشرة من عمره مبدياً قلقه وسأله: "كانت نادرة عفة؟ هل سترتدي واحداً من تلك الأثواب الكبيرة والقبعة المضحكة؟"

"لا، لن تفعل. إنها ليست نادرة عفة في الوقت الحالي ولكنها كانت في وقت سابق، وستعود إلى مقر نادرات العفة مجدداً". لم يحبذ روبرت هذا الأمر، إذ يعتبر عودتها خسارة جسيمة، ولكنه احترم رأيها، وتوقع منهم أن يفعلوا الأمر نفسه.

سألته ريبيكا وقد ارتسم العبوس على وجهها لشعورها بالقلق: "أخبرني من جديد كيف كسرت ظهرها. فلقد نسيت".

قال: "لقد فجرت قطاراً". وكأنه أمر طبيعي يقوم به الناس يومياً كإخراج القمامة من المنزل أو إخراج الكلب في نزهة.

قال الفتى الأكبر سناً بصوت منخفض: "لا بد وأنها شجاعة جداً". كان قد بلغ السادسة عشرة من عمره لتوه، وبدأت مظاهر الرجولة تبدو عليه.

"بالفعل. فقد انخرطت في المقاومة في فرنسا منذ سنتين". فهز كل منهم رأسه. إذ أدركوا جميعاً معنى هذا الكلام.

سأله صبي مجد في الثامنة من عمره يدعى إرنست: "هل ستجلب مسدساً معها؟" كان ينجذب إلى الأسلحة، وقد اصطحبه روبرت في رحلة صيد. كان الجميع ينادونه بابا روبرت.

قال روبرت ضاحكاً على الصورة التي ارتسمت في رأسه: "آمل ألا تفعل". وبعد بضع دقائق وصلت أماديا. خرج روبرت لاستقبالها، وكانت تجول بنظرها في أرجاء المكان باستغراب. لقد بدا المنزل القديم والأراضي المحيطة به شبيهاً إلى حدّ كبير بقصر عائلة والدها في دوردوني.

جرّ كرسيها المدولب إلى غرفة الجلوس بعد إلقائه التحية عليها برسم قبلة على وجنتها والترحيب بها بحرارة. كان الأولاد جميعاً بانتظارها في أجمل ملابسهم وقد جهزت السيدة هاسكومبز طاولة طويلة في المكتبة وضعت عليها أكواب الشاي. لم ترَ أماديا منظراً بهذه الروعة منذ ما قبل الحرب. وحينما نظرت إلى الأولاد بدوا لها في غاية الجمال، ولكن خائفين بعض الشيء. بدا على بعضهم القلق بسبب الكرسي المدولب، فابتسمت لهم.

قالت وهي تبتسم لهم وتشعر بأنها عادت نادرة عفة من جديد: "ليس الآن". أحياناً كانت تلك أفضل طريقة أمامها لتشعر بالراحة. ففي حال ادعت أنها ما تزال ترتدي رداء المقر وغطاء الرأس ينقشع عنها الشعور بالضعف والانكشاف أمام الناس. وقد كان الجميع يحدقون فيها محاولين التعرف إليها. ولكن حتى الآن أعجبهم ما رأوه. كان بابا روبرت محقاً، إنها جميلة، وليست مسنة. في الواقع بدت شابة جداً. حتى بالنسبة إليهم. شعروا بالأسف بشأن الكرسي المدولب ورجليها.

كانت أماديا تبتسم وهي تبادلهم نظراتهم. "لا بد وأنك ريبيكا... وأنت مارثا... فريدريك... إرنست... هيرمان... جوزيف... غريتشن... بيرتا... يوهان... هانز... ماكسيميليان... كلوس...". لقد أفلحت في معرفة اسم كل واحد، وأشارت إلى كل واحد منهم. الخطأ الوحيد الذي اقترفته وأمكن للجميع تفهمه كان عندما اختلط عليها الأمر بين يوهان وجوزيف. ولكن بما أنهما كانا توأمين متشابهين لا ينفك الجميع يلتبس عليه الأمر بخصوصهما، وقد بدت الدهشة على روبرت مثل الأولاد لتعرفها على أسمائهم. اعتذرت بكل أدب من يوهان وجوزيف للخطأ الذي اقترفته.

ثم تطوعت ريبيكا وقالت: "أنا أيضاً لا أستطيع التمييز بينهما أحياناً". ودون أي تحذير قفزت في حجرها. ولكن لم تشعر أماديا بشيء، بالرغم من أن روبرت شعر بالخوف الشديد لوهلة. لم يشأ أن تتسبب لها الطفلة بأذى ولكن لحسن الحظ لم تفعل. وأتت السيدة هاسكومبز لإلقاء التحية عليها، فمدت لها يدها، وصافحتها، ونظرت إليها بلطف.

قالت بحرارة، وبدت وكأنها تعني من قلبها ما تقوله: "يسعدنا وجودك بيننا". في الواقع، بدت وكأنها ارتاحت جداً. كانت تواجه صعوبة مع 12 ولداً، وقد أدركت ذلك جيداً، وكذلك الأولاد الذين استغلوا هذا الأمر إلى أقصى الدرجات. لم تكن أماديا واثقة أن بوسعها التحكم بهم هي الأخرى، ولكنها كانت بالتأكيد ستبذل المحاولة. حيث وجدتهم رائعين ووقعت في حبهم من النظرة الأولى.

قالت ريبيكا بفرح: "أخبرينا عن القطار الذي فجرته". في الوقت الذي كان الجميع يحتسون الشاي ويتناولون الفطائر، فبدا على روبرت القليل من الخوف فابتسمت له أماديا. لقد بدا جلياً أنه أخبرهم عنها. وكانت واثقة أنه أخبرهم أيضاً أنها كانت نادرة عفة، ولكن لا بأس بذلك أيضاً.

قالت أماديا بجدية: "حسناً، لم يكن بالعمل اللطيف ولكنهم ألمان، لذا في الوقت الراهن لا بأس بذلك. ولكن بعد الحرب لن يعود أمراً محبذاً. لا

يسع المرء القيام بمثل هذه الأمور إلا في حالة الحرب". فهز روبرت رأسه موافقاً على كلامها.

فقال ماكسيميليان بشراسة: "إنهم يقصفوننا طيلة الوقت لذا لا بأس إن قمنا بقتلهم". كان في الثالثة عشرة من عمره وكان يدرك أن والديه قد ماتا. لقد أخبره أقاربه بهذا الأمر. كان يبلل سريره في بعض الأحيان وتراوده الكوابيس. لقد أخبرها روبرت بهذا الأمر أيضاً. أراد لها أن تعرف كل شيء عنهم. كان يؤمن بالصراحة التامة، ولم يشأ لها الاصطدام بالواقع. كانوا أحياناً يدفعونه إلى الرغبة بنتف شعره. اثنا عشر ولداً كان عدداً كبيراً على أي شخص مهما كان الأولاد رائعين أو مهذبين.

سألتها مارثا بلطف: "هل تؤلمك رجلاك؟" بدت ألطف واحدة فيهم. وقد كانت غريتشن الأجمل، وبيرتا الأكثر خجلاً. وبدا الصبيان مفعمين بالحيوية ويتحركون طيلة الوقت حتى عند شرب الشاي وتناول الفطائر. كانوا يتحرقون شوقاً للخروج واللعب بالكرة، ولكن كان روبرت أخبرهم أنه يتوجب عليهم الانتظار حتى الانتهاء من شرب الشاي.

أجابتها أماديا بصراحة حول رجليها: "لا، لا تؤلمانني. أحياناً لا أشعر بهما على الإطلاق، وأحياناً أخرى أشعر بهما نوعاً ما". وكانت أحياناً تشعر بألم فظيع في ظهرها ولكنها لم تفصح عن ذلك. وكانت الندب الناتجة عن الحروق بشعة.

أخيراً سألتها بيرتا: "هل تظنين أنك ستعاودين المشي من جديد؟"

قالت أماديا بابتسامة: "لست أدري". بدت صريحة في إجابتها مما أحزن روبرت. لقد أمل أن تعاود المشي كرمى لها. قالت وهي تبدو شديدة الأمل: "سنرى". إذ كانت مؤمنة بالقدر.

ثم اقترحت أن يتوجهوا جميعاً إلى الخارج، ويسيروا في الأرجاء قبل حلول الظلام. فشعر الصبيان بحماسة بالغة وفي أقل من دقيقة كانوا في الخارج. قال روبرت مبدياً إعجابه: "أنت رائعة معهم. كنت واثقاً من ذلك، أنت بالضبط من يحتاجونه. إنهم بحاجة إلى أم. إذ لم يحظ أي منهم بأم منذ

خمس سنوات وقد لا يفعل أبداً. السيدة هاسكومبز أشبه بجدة لهم". بالنسبة إلى البعض منهم بل وأغلبهم كانت أماديا أصغر من أن تكون أماً وإنما أختاً كبيرة ولكنهم كانوا بحاجة إلى ذلك أيضاً. تذكرها الأمر بداغلي عندما كانت صغيرة، كانت تحب أن تكون الأخت الكبيرة لها. كان ذلك جيداً لها أيضاً.

تلك الليلة تحدثوا عند العشاء في أمور شتى، وليس عن الحرب فحسب. أخبروا أماديا عن أصدقائهم، والمدرسة، والأشياء التي يحبون القيام بها. ووجدت ريبيكا الاسم الأمثل لأماديا. أسمتها: ماماديا. فأحب الجميع هذا الاسم وهي كذلك. باتا الآن رسمياً ماماديا وبابا روبرت.

مرت الأيام بسرعة، واعتاد روبرت الذهاب إلى لندن بعد عطل نهاية الأسبوع والعودة كل نهار جمعة عصراً حيث يبقى حتى الإثنين صباحاً. وقد لفتت نظره كثيراً قدرة أماديا على معالجة أمورهم.

كانت تستمتع برفقته حيث يشعران بالراحة لوجودهما سوياً. اختبرت هذا الشعور لأول مرة في باريس عندما كانت معه. تحدثا عن هذا الأمر مرة وعاد بها روبرت بالذكرى إلى رداء النوم البرتقالي. كان يحب مشاكستها. "لو أنك ابتعدت على أكثر في السرير، لكنت تطايرت في الهواء ووقعت أرضاً".

كم وجدت الأمر مضحكاً عندما عبثت بالسرير في اليوم التالي"، ثم ضحكت، ولكن حينئذ وفي ظل الظروف التي كانا فيها، كان من الحكيم فعل ذلك حتى لا يثيرا الشك.

قال بفخر: "وجب عليّ حفظ ماء وجهي".

مرت أيام الصيف بسرعة وللمرة الأولى لم تشعر أماديا بالاشتياق لمقر ناذرات العفة. فقد كانت مشغولة جداً، حيث تقوم بالخياطة، والقراءة، وملاعبتهم، وتأديبهم، وتجفيف دموعهم. كانت تتكلم بالألمانية مع الذين يرغبون بذلك، كما وعلمتها للآخرين، إضافة إلى الفرنسية. أخبرتهم أنه من المفيد تعلمها. فعاش الأولاد تحت حمايتها. وكان روبرت يحب العودة إلى المنزل في عطل نهاية الأسبوع.

قالت مارتا بحزن في يوم أحد عند تناول الفطور مع روبرت بعد أن خرجت أماديا مع الصبيان: "من المؤسف أنها ناذرة عفة". كانت أماديا قد توجهت للصيد معهم في البحيرة الموجودة ضمن ممتلكات روبرت. وقد أسماها الأولاد بحيرة بابا.

قال بصدق: "هذا رأيي أنا أيضاً". ولكنه كان يعرف مدى إصرارها على العودة إلى مقر ناذرات العفة. ونادراً ما كانا يتكلمان حول هذا الموضوع، ولكنها كانت مخلصة لندائها الباطني وقد أدرك ذلك جيداً.

اعترفت مارتا قائلة: "أنا أنسى ذلك أحياناً".

"وأنا أيضاً".

سألته بحزن: "هل تعتقد أنه يمكن لك تغيير رأيها؟" غالباً ما كان الأولاد يطرحون هذه المسألة أمامه. فقد أرادوا منها أن تبقى أطول مدة ممكنة.

"أشك في هذا الأمر. إنه أمر جاد جداً. وقد كانت ناذرة عفة لمدة طويلة من الوقت. لست سنوات. لن يكون أمراً صائباً أن أحاول تغيير رأيها". ارتسم لدى مارتا انطباع أنه كان يوجه هذا الكلام لنفسه أكثر منه إليها.

"أظن أن عليك بذل المحاولة". فابتسم ولكنه لم يجب. إذ أحياناً كان يخطر له هذا الأمر أيضاً. ولكنه لم يجرؤ. إذ يخشى أن تغضب منه وتغادر. فهناك أمور تُعتبر من المحظورات. وكان يحترمها جداً حتى لو لم يعجبه المسار الذي اختارته لحياتها. ولكنه كان يدرك أن لها الحق بفعل ما تريده لنفسها، سواء أعجبه الأمر أم لم يعجبه. لم يعرف كيف يفاتحها بالموضوع حتى. إذ بات يعرف مدى عنادها خصوصاً إن كانت مؤمنة بأمر معين. كانت امرأة تتحلى بصلابة في الرأي وبين الحين والآخر كانت تذكره بزوجته بالرغم من اختلافهما الشديد عن بعضهما البعض. ولكن كانت زوجته تتحلى بشخصية قوية أيضاً.

أحياناً تدفعه رؤية أماديا مع الأولاد، وهذه العائلة الغريبة التي شكلوها إلى الاشتياق لأن يكون لديه زوجة. ولكن ببعض الطرق يُعتبر هذا

الأمـر في المرتبة الثانية في سلم الأولويات. لقد قضوا فصل صيف رائع مـع بعضهم البعض. وقبل عودة الأولاد إلى المدرسة، ذهبوا جميعاً في رحلة عائلية إلى برايتون. عمد روبرت إلى جر أماديا في كرسيها المدولب علـى رصيف الشاطئ، في الوقت الذي كان الأولاد فيه يمرحون ويلعبون ويركبون على الأراجيح. نظرت بتوق إلى الشاطئ إذ لا يمكن له أن يجر كرسيها على الرمل.

قالـت بحزن: "أحياناً أتمنى لو يسعني المشي". بالرغم من أنها كانت تتدبـر أمـرها علـى خير ما يرام على الكرسي المدولب، حيث تستطيع التحرك بسرعة ولا تواجه أي مشكلة في السير وراء الأولاد. فشعر بغصة في قلبه عند تلفظها بهذا الكلام.

"ربمـا يجدر بنا العودة لرؤية الطبيب في أحد الأيام". كان قد مضى ثلاثـة أشـهر علـى آخـر زيارة لها للطبيب الذي قال لها عند مغادرتها المستشفى إنه لم يعد بوسعه فعل أي شيء لها. قد تشعر برجليها من جديد وقـد لا تفعـل. وحتى الآن لم يحصل الأمر. لم يطرأ أي تحسن أو تغير ونـادراً مـا كانـت تتطرق إلى الموضـوع. فكانت هذه المرة الأولى التي يسمعها تشتكي فيها.

"لا أظن أن بوسعه القيام بأي شيء. معظم الوقت لا يخطر هذا الأمر علـى بالـي. فـالأولاد لا يمنحوني وقتاً للتفكير". التفتت لتنظر إليه، وقد ارتسمت في عينيها نظرة حنان لطالما دفعته إلى أن يتمنى لو كانت الأمور مخـتلفة بالنسبة إليها. "شكراً لك على جلبي إلى هنا يا روبرت لكي أعتني بـالأولاد". لم تشعر بهذا القدر من السعادة في حياتها إلا في السنوات التي قـضتها في مقر نادارت العفة. حيث لكل يوم سحره ومتعته الخاصة. لقد أحبت أن تكون ماماديا تقريباً بالقدر نفسه الذي أحبت فيه أن تكون الأخت تيريزا. ولكنها أدركت أن هذا الأمر سيصل إلى نهاية أيضاً. سيذهب العديد من الأولاد إلى ديارهم، وهذا الأمر في صالحهم في النهاية. إذ هم بحاجة إلى أهاليهم. فهي وروبرت ليسا سوى والدين بديلين بالرغم من أنهما كانا

جـيدين. وهي تجد روبرت ممتازاً معهم، ولطالما ذكرها هذا الأمر بمدى اشـتياقه إلـى ولديه. كانت صورهما تملأ أرجاء المنزل. إيان وجايمس، وزوجته فوبليت. لقد كانت اسكوتلندية.

جلـس روبـرت علـى مقعد على الرصيف حيث بوسعهما مراقبة الأولاد ثـم قرّب الكرسي المدولب منه وقال لها بصراحة: "لست أدري ما عـساها تفعل من دونك". بدت مرتاحة وسعيدة في الوقت الذي كان يتطاير فيه شعرها الأشقر الطويل في الهواء. غالباً ما كانت تعمد إلى إسداله على كتفـيها وكأنهـا واحدة من هؤلاء الأولاد. كما وكانت تحب تسريح شعر الفتيات كمـا كانـت والدتها تفعل لها ولدافني عندما كانتا صغيرتين. كم غـريب كـيف أن القـصص تعيد نفسها على الدوام، جيل بعد جيل. قال روبـرت وقـد بدا مشتتاً: "إنني لا أذكر حتى كيف كان الوضع عليه قبل مجيـئك". ثـم خطـف أنفاسها بالكلام الذي قاله. "سأغادر في مهمة نهار الخميس القادم". لم يكن يفترض به إخبارها ولكنه كان يوليها ثقة عمياء.

قالـت: "لا، لـن تفعـل"، وكأنها بتكرارها تمنع حدوث الأمر. ولكنها أدركت من خلال النظرة المرتسمة على وجهه أنه سيذهب بكل الأحوال.

"بلى أنا ذاهب". لم يبدُ متحمساً للأمر هو الآخر. إذ أحب المكوث في المنـزل معهـا ومع الأولاد في عطل نهاية الأسبوع. ولكن لا تزال هناك حرب يتوجب كسبها.

سـألته همساً والرعب يملأ قلبها: "إلى ألمانيا؟" لقد أدرك كل منهما مدى الخطـورة التي تحدق بمثل هذه المهمة. ولم تعد تتصور الحياة من دونه. قال رداً علـى سؤالها: "شيء من هذا القبيل". أدركت أنه لا يسعه إخبارها بالمكان الـذي سـيتوجه إلـيه. إذ إنها معلومات سرية للغاية. وكان يلتزم جداً بأعلى درجات السرية. تساءلت ما إذا كان سيذهب إلى ألمانيا أو سيعود إلى فرنسا أو إلى مكان أسوأ كالتوغل أكثر نحو الشرق. أدركت الآن أنها عاشت أوقاتاً طيبة فـي الوقت الذي أمضته في فرنسا. لقد قُتل العديد من الأشخاص، وظلت هي على قيد الحياة، بالرغم من أنها أوشكت على الموت مرات عدة.

قالت نادبة الكرسي المتحرك: "أتمنى لو يسعني الذهاب معك". ولكن لم يعد هذا الأمر ممكناً على الإطلاق الآن. لم يعد بوسعها تنفيذ المهمات. إذ إنها باتت معاقة ولا تنفعهم.

قال روبرت بأسى: "لا أود لك ذلك". إذ لم يعد يريد منها تعريض نفسها للخطر. لقد قامت بما فيه الكفاية، وحالفها الحظ، حتى لو باتت على كرسي متحرك فهي محظوظة لبقائها على قيد الحياة.

قالت أماديا وهي تبدي اهتماماً شديداً: "سأشعر بالقلق عليك، كم سيطول غيابك؟"

اقتصر جوابه على: "فترة طويلة". لم يستطع أيضاً إخبارها بالمدة، ولكن انتابها إحساس أن غيابه سيطول كثيراً ولا يسعها السؤال. التزمت الصمت بعض الوقت ثم نظرت إليه. كان لديها الكثير لتقوله، ولكن لم تجد طريقة لصياغة الكلام. كان هذا حالهما.

لاحظ الأولاد صمتها عند العودة إلى المنزل تلك الليلة، فسألتها بيرتا إن كانت تشعر بالمرض.

"لا، ولكنني متعبة فحسب يا عزيزتي، بسبب هواء البحر". ولكنها أدركت سبب تكدرها هي وروبرت، يعود السبب إلى المهمة التي سيقوم بها.

استلقت في السرير لمدة طويلة تلك الليلة وهي تفكر به وبالمهمة. وكانت هذه حاله في غرفته. كانت غرفتيهما تقعان على طرفي الرواق في مواجهة بعضهما البعض. في البداية سحرها مدى رفاهية المنزل، إذ حظيت بأفضل غرف الضيوف. كانت قد طلبت منه أن يضعها في إحدى غرف الخدم، ولكنه لم يتقبل أبداً منها هذا الكلام. قال لها إنها تستحق الغرفة الجميلة التي تمكث فيها والتي أصرت على كونها لا تستحقها. كان يستحيل عليها الالتزام بتطبيق عهدها بالتزام الفقر هنا. أما العهود الأخرى فباستطاعتها تدبر أمرها أو تدبرت أمرها حتى الآن.

غادر روبرت عائداً إلى لندن في صباح اليوم التالي كما كان دوماً يفعل، ولم يكن لدى الأولاد أي علم حول هذه الرحلة المزمع قيامه بها، أو

ما هو أسوأ من ذلك، لم يعرفوا باحتمال ألا يعود أبداً إليهم. كانت أماديا تعي ذلك جيداً. كان قد طلب الإذن بالتوجه إلى سوسيكس لتمضية نهار الأربعاء وليله قبل مغادرته في الليلة التالية. وطيلة فترة غيابه كانت أماديا تشعر بالتوتر والقلق، وعلى غير عادتها نهرت أحد الصبيان عندما كسر زجاج نافذة بطابة كريكيت، ثم عمدت لاحقاً إلى الاعتذار منه بسبب مزاجها السيء. تقبل اعتذارها إذ كانت والدته الحقيقية أسوأ بكثير وتصرخ عليه بصوت أعلى بكثير، مما دفعها إلى الضحك. ارتاحت جداً عندما وجدت روبرت قد عاد نهار الأربعاء، وسارعت إلى تقبيله على خده ومعانقته بحرارة. أدركت أنه لا يسعها طرح أي سؤال عليه، جل ما يسعها فعله هو الصلاة لأجله عند غيابه والثقة بأنه سيعود، وجل ما بوسعه فعله هو التأكيد لها أنه سيعود. حاولا عدم التكلم عن الموضوع، وتناولا عشاء رائعاً مع الأولاد في غرفة الطعام الرئيسية التي عادة ما يتناولوا فيها الطعام في المناسبات الخاصة. شعر الأولاد على الفور بأن ثمة أمر يحدث.

قالت أماديا بمرح: "بابا روبرت سيذهب في رحلة". ولكن الأولاد الأكبر سناً لمحوا التكدر في عينيها، وشعروا بوجود سوء ما أو أمر مخيف على أقل تقدير، إذ بدت أماديا قلقة.

سأل هيرمان وهو يبدو سعيداً: "لقتل الألمان؟"

أجابته أماديا: "بالطبع لا".

سألت بيرتا وهي تبدي قلقاً: "متى ستعود؟"

"لست أدري. سيتوجب عليكم أن تعتنوا جيداً بأنفسكم وبماماديا. سأعود قريباً". قام الجميع بمعانقته وتقبيله قبل توجههم إلى أسرتهم. قال إنه سيغادر قبل أن يستيقظوا في الصباح المبكر.

جلس وأماديا، وتحادثا حتى وقت متأخر من الليل حول العديد من الأمور. كانا يشعران بالراحة لدى تواجدهما سوياً. وعند طلوع الفجر تقريباً حملها إلى الطابق العلوي ثم أجلسها في كرسيها المتحرك في

الـرواق. عند غيابه كان الصبية الأكبر سناً يقومون دوماً بمساعدتها. كان الأمر عبارة عن مجهود جماعي.

قـال وهـو يحاول ألا يبدي حزناً ولكنه كان يشعر بالحزن الشديد: "عندما تستيقظين أكون قد غادرت". كان يحق يكره تركها.

ابتسمت في وجهه وقالت: "لا لن تفعل سأنهض لأودعك".

"لست مضطرة إلى فعل ذلك".

"أعرف ولكنني أود ذلك".

كـان يعـرف أن الجـدال معهـا لا يجدي نفعاً. فقبلها على خدها، وتـوجهت بالكرسـي إلـى غـرفتها دون النظر إلى الوراء. وعلى مدى الساعتين التاليتين، استلقى في السرير يتمنى لو كان يمتلك الشجاعة ليدخل إلـى غرفتها ويحتضنها، ولكنه كان يفتقر إلى هذه الشجاعة. إذ يخشى أنه في حال أقدم على هذا الأمر سيجدها قد غادرت المنزل عند عودته. يوجد حدود بينهما، أدرك أنه لا يسعه سوى احترامها.

التـزمت بكلامهـا وانتظرته في الرواق عند خروجه من غرفته بعد الفجر مباشرة. كانت تجلس على كرسيها المتحرك مرتدية رداء النوم وبدت فـيه أشبه بواحدة من الأولاد. بدا بالزي الذي يرتديه جدياً ورسمياً. فقامت بإلقاء التحية العسكرية عليه، مما دفعه إلى الضحك.

سألته بسرعة: "هل ستنزلني إلى الطابق السفلي؟" فتردد.

"لن تتمكني من معاودة الصعود، فالأولاد نيام وما من أحد ليساعدك".

"لدي أموراً أقوم بها على أي حال". لقد أرادت أن تظل برفقته لأطول فتـرة ممكـنة. حملها بلطف إلى الطابق السفلي، وأجلسها على كرسي ثم أنزل الكرسي المتحرك وجلست عليه.

حـضّرت لـه كوباً من القهوة، وسخّنت له فطيرة، ثم أخيراً لم يعد هـناك مـا يقـولانه. أدرك كل منهما أن عليه المغادرة. رافقته إلى الباب وحتـى السلالم الأمامية وسط هواء أيلول. كان الجو بارداً والهواء منعشاً، فقبلها على وجنتيها.

"اعتني بنفسك يا ماماديا".

"سأصلي من أجلك". نظرت في عينيه بعمق.

"شكراً لك". سيحتاج إلى هذه الصلاة. كانوا سينزلونه بواسطة المظلة إلى ألمانيا في مهمة اعتقدوا أنها ستطول لثلاثة أسابيع.

نظرا إلى بعضهما مطولاً، ثم نزل على الدرج ببطء دون النظر إلى الوراء. كان على وشك الركوب في سيارته عندما نادته. فعاد إليها وقد بدا عليها الألم، فمدت يدها وكأنها تحاول إيقافه. "روبرت... أنا أحبك". لم يعد بوسـعها لجم الكلام أو المشاعر التي كانت تكنّها له. بدا وكأنها صبت ماء بـارداً علـيه، فجمـد في مكانه، ثم اقترب منها ووقف بجانبها. "هل أنت جدية؟"

"أظن ذلك... لا... أدرك أنني جدية..." نظرت إليه وكأن العالم قد وصـل إلـى نهايـته. كانـت تدرك معنى هذا الكلام بالنسبة إليها وإليه. فارتسمت ابتسامة على وجهه أضاءت عينيه.

"حسناً، لا تبدي حزناً بسبب هذا الموضوع. أنا أيضاً أحبك. سنناقش الأمر عند عودتي... ولكن لا تغيري رأيك". قبلها على شفتيها، ونظر إليها لـوهلة ثم اضطر إلى المغادرة. بالكاد أمكنه تصديق ما حدث للتو. كحالها هـي. فقد كان هذا الحب يولد منذ فترة طويلة. وقد شعر روبرت بسرور بالغ.

لـوّح لها بيده وهو ينطلق بالسيارة وكان يبتسم. وكانت هي الأخرى تبتـسم وهي تلوّح له بيدها، وأرسلت له قبلة أخيرة في الهواء. ثم انعطف فـي سـيارته، وخرج من البوابة وهي جالسة على كرسيها المتحرك تحت أشعة شمس الصباح تصلي من أجل عودته سالماً.

الفصل السابع والعشرون

شعرت أماديا بأن فترة غياب روبرت طويلة جداً وكأنها لا تنتهي. في البداية لازمها القلق والتوتر. ثم قالت لنفسها إنه سيكون على ما يرام. وبعد أسبوعين... وثلاثة... وأربعة... بدأ الذعر يدب فيها، حتى إنها لم تكن تملك فكرة عن مدة هذه المهمة. ومع حلول نهاية شهر تشرين الأول، أدركت أن سوءاً ما قد حصل. وبعد عجزها عن التحمل فترة أطول، اتصلت بمكتب جهاز الاستخبارات. فأخذوا منها المعلومات وقالوا إنهم سيعاودون الاتصال بها. بعد أسبوع، اتصل بها موظف، وكان عندها قد حل شهر تشرين الثاني. لم يخبروها إلا القليل، ولم يطلعوها عن مكانه، ولكنهم قالوا إنهم لم يسمعوا منه أي خبر منذ فترة طويلة. ودون مصارحتها بشكل مباشر، أوحوا لها أنهم فقدوا الاتصال معه، وأنه فقد خلال المهمة. كاد يُغمى عليها عندما نقلوا إليها هذا الخبر، ولكنها خففت من وطأة الخبر على الأولاد إذ إنهم فقدوا أهلهم ولم تشأ لهم أن يظنوا أنهم فقدوا روبرت أيضاً. ليس حتى يتأكدوا من الأمر. أدت أماديا الصلاة بكل جوارحها بطريقة لم يسبق لها فعلها من قبل. باتت أكثر سعادة الآن لكونها أخبرته بأنها تحبه. على الأقل بات يعرف. وأدركت هي أنه يحبها. ما سيفعلانه حيال هذا الأمر، إن تسنت لهما الفرصة لذلك، يبقى رهناً بالوقت. أخبروها في جهاز الاستخبارات أنهم سيعاودون الاتصال بها في حال سمعوا أي خبر منه، ولكنهم لم يفعلوا.

وحتى لا تفقد عقلها كلياً، خطرت لها فكرة أن تقوم بتسلية الأولاد. قالت لهم إنها تظن أن بابا روبرت سيشعر بسرور بالغ إن

قاموا بمفاجأته بتشكيلهم أوركسترا فيما بينهم. فجلبت لهم جميع المعدات الموسيقية، وعزفت معهم على البيانو حتى يقوَوْا جميعاً على الغناء له. لم يتقنوا جيداً الأداء، ولكنهم استمتعوا بهذه التجربة، وهي كذلك. لقد مدتهم هذه التجربة بمشروع يشغلون وقتهم به. وبعد شهر من التمرين باتوا يجيدون الأداء.

في إحدى الليالي، كانوا يعزفون أغنية بينما ريبيكا جالسة على حجر أماديا. كانت متعبة وتمص إبهامها. وقد كانت مصابة بزكام لذا لم تشأ الغناء. ولدى استماعها هي وأماديا إلى غناء الآخرين، التفتت إلى أماديا وقالت لها: "كفي عن نقر رجليك يا ماما. أنت تزعجينني". حدقت أماديا فيها، وكف الأولاد واحداً تلو الآخر عن العزف. كل الأولاد الموجودون في الصف الأمامي قد سمعوها. وأراد الآخرون أن يعرفوا ما الذي يحدث والسبب الذي دعا بماماديا إلى النظر بهذه الطريقة.

قالت بيرتا بلطف: "افعلي ذلك من جديد يا ماما". في الوقت الذي ظل الجميع يحدقون برجليها وهي تحاول إعادة نقرها. لم يسبق لها أبداً أن استطاعت النقر برجليها أو تحريكهما ولو بعض الشيء، إذ كان الأولاد يشغلون وقتها كله، وبالها مشغول على روبرت، مما دفعها إلى عدم ملاحظة تحسن رجليها.

سألها أحد التوأمين: "هل يسعك الوقوف؟"

قالت وهي تبدو خائفة في الوقت الذي تحلق فيه الجميع حولها: "لست أدري". مد جوزيف يديه لمساعدتها.

"حاولي. فإن كان باستطاعتك تفجير قطار فبالتأكيد يسعك المشي". كانت لديه وجهة نظر. وقفت ببطء شديد، وهي تسند نفسها على ذراعي الكرسي المدولب ثم تقدمت خطوة واحدة تجاهه، وكادت تقع. أمسك يوهان بها. ولكنها قامت بخطوة. اتسعت حدقتاها، وكانوا جميعاً يراقبونها ببهجة بالغة. قامت بخطوة ثانية وثالثة. ثم قامت بالخطوة الرابعة وقالت إن عليها الجلوس. كانت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها، وتشعر بالضعف

والوهن. ولكنها مشت. كانت الدموع تتدحرج على وجنتيها، والجميع يضحك، ويبتسم، ويصفق ابتهاجاً.

صرخت ماريا بفرح غامر: "ماما بوسعها المشي". وبعد ذلك جعلوها تتمرن كل يوم على المشي حيث يعزفون الموسيقى وهي تسير.

بحلول بداية شهر كانون الثاني، بات بوسعها التجول ببطء في أرجاء الغرفة متكئة على أحد الصبيان الأكبر سناً. كانت لا تزال تترنح على رجليها في بعض الأحيان، ولكنها كانت تواصل التحسن. إلا أن الأنباء السيئة أنه لم تصلهم أي أخبار عن روبرت بعد. لم يعلنوه ميتاً ولكن بدا أنهم لا يعرفون شيئاً عنه. وبما أن أماديا لم تكن زوجته، لم يكن يحق لها معرفة أي شيء. كان قد مضى شهران تقريباً على غيابه، وقد أدركت بشكل فطري أن المهمة لم يكن يفترض بها أن تطول كل تلك المدة. ظلت كل ليلة تتساءل إن تعرض لإصابة كالتي تعرضت لها ولا أحد يعرف مكانه. أو إذا ما كان معتقلاً في مكان ما. إن تم كشف أمره مرتدياً زياً ألمانياً ويعمل كعميل للأعداء لكانوا أطلقوا النار عليه على الفور. هناك مليون أمر سيء وارد الحدوث، وقد فكرت في جميع هذه الاحتمالات.

بعد أسبوعين، باتت الفرقة تعزف بطريقة جيدة جداً، وباتت أماديا تمشي ببطء، ولكنها كانت تمشي.

في إحدى الليالي كان الأولاد متجمعين حول أماديا وينشدون الأغاني.

"ما مناسبة الاحتفال؟"

كان يسود الغرفة جو احتفالي، فرفعت أماديا رأسها باتجاه الصوت، ثم شهقت بصوت عالٍ. كان روبرت، فصرخ جميع الأولاد وركضوا إليه، ومشت أماديا ببطء نحوه وهو يحدق فيها.

قال بنظرة تعجب وعدم تصديق: "أنت تمشين!" كانت ذراعه مربوطة، ولكن بدا باقي جسده على ما يرام بالرغم من أنه أصبح نحيفاً جداً. كان قد قطع نصف ألمانيا سيراً على رجليه على مدى الشهرين

الماضيين، وتمكن أخيراً من الوصول إلى المقاومين في الإلزاس. سحبوه بواسطة الطائرة من قرية صغيرة بالقرب من ستراسبورغ. لقد أمضى ثلاثة أشهر مريعة وكذلك هي. اكتفى بالوقوف في مكانه واحتضانها بين ذراعيه. قال لها بصراحة: "لم يخطر لي أبداً أنه بوسعك المشي من جديد".

فقالت: "ولا أنا". كانت خائفة جداً ألا تتمكن من رؤيته من جديد. "لقد شعرت بقلق بالغ عليك". لقد أدرك أنها ستكون قلقة عليه، ولكن لم يكن بيده حيلة. كان الوضع الذي مر به صعباً ومخيفاً حتى بالنسبة إليه. ولكن حققت مهمته النجاح.

"وجب عليّ العودة بعد الذي قلته لي عند مغادرتي". لم ينس كلامها ولا هي نسيته. بات أمامهما الكثير من الكلام والقرارات، وخصوصاً أماديا.

صرخت ريبيكا قائلة له: "بابا لدينا فرقة موسيقية". فذكرها الآخرون بوجوب عدم إفساد المفاجأة. ولكن بعدما كشفت أمر المفاجأة، عزفوا أغنيتين له، فأحب كثيراً عزفهم. وظلوا مستيقظين حتى منتصف الليل تقريباً.

وبعدما خلد الأولاد إلى النوم، جلسا بقرب الموقد يمسكان بيدي بعضهما البعض وقال لها: "يبدو أنك تعبت معهم". شعرت أماديا وكأن عودته عبارة عن حلم قد تحقق.

"لن أخسرك من جديد يا أماديا. لقد قطعت نصف ألمانيا سيراً على رجليّ لأعود إلى المنزل، لأعود إليك". ثم أضاف بجدية: "لا يسعك تركي الآن". ولم تفارق عيناه عينيها أبداً.

"لا، لا يسعني ذلك. بتّ أدرك ذلك الآن. أدركت ذلك قبل مغادرتك، ولهذا السبب أخبرتك أنني أحبك...". بدت حزينة لوهلة وهي ممسكة بيديه. ولكنها باتت تدرك الآن أنها تنتمي إلى هذا المكان إلى جانبه هو والأولاد، الذين سيظلون عنده في النهاية. قالت بحزن: "لطالما ظننت أنني سأعود إلى مقر راهبات العفة". ولكن قد حدث الكثير. لقد شاركت في قتل العديد

من الأشخاص، حتى ولو قامت بذلك من أجل إنقاذ الآخرين. واليوم أرادت أن تبقى هنا معه. ولكن لم يعد يبدو الأمر خاطئاً. بدا صحيحاً جداً والخيار الوحيد المتوافر أمامها. لم يكن بوسعها أبداً تركه، بالرغم من أن مقر سادات العفة وما يعنيه لها سيبقى في قلبها إلى الأبد. كان قراراً صعباً، ولكنها شعرت بالسرور والراحة لما آلت إليه الأمور. خلال فترة غيابه أدركت أكثر من أي وقت مضى كم أنها تحبه.

قال روبرت بلطف: "خشيت كثيراً أن تعودي، ولم أشأ التدخل برغباتك".

"شكراً لك لاحترامك مشيئتي". ثم نظرت إليه بعينين مفعمتين بالحب. كانت فيما مضى واثقة تماماً أنها ستظل دوماً نادرة عفة، والآن باتت ملكاً له بشتى الطرق التي لم تجرؤ يوماً على الحلم بها.

قال وهو يجذبها ناحيته ويحضنها بين ذراعيه: "كنت لأتركك ترحلين لو أنها كانت رغبتك الحقيقية ولو أنك ستجدين سعادتك في هذا الأمر... ولكن كان ذلك منذ أمد بعيد، والآن لا يسعني تحمل الافتراق عنك". على مدى الثلاثة أشهر الماضية كان يخشى جداً ألا يتمكن من العودة إليها، وهي أيضاً كانت تخشى عدم عودته. وأخيراً بعد كل الذي مرا به، أدرك كل منهما أن هذا هو الطريق الصحيح. كان كل منهما قد مر بالكثير من الأهوال للوصول إلى ما وصل إليه؛ حيث خسرا أشخاصاً عزيزين على قلبيهما، وتحديا الموت مرات عدة. فباتا يستحقان كل ما أحرزاه.

حملها تلك الليلة إلى الطابق العلوي بعد أن أطفأ الأنوار. كانت لا تزال تجد صعوبة في صعود السلالم، ولكنها ستتحسن مع الوقت. شعرا بالتردد في الرواق بشأن أي غرفة يدخلان، فقبلها، ثم بابتسامة خجولة تمنت له ليلة هانئة فضحك.

هذا ليست باريس ورداء النوم البرتقالي، إنها حياة الواقع. أدرك كل منهما ما الذي يجدر حدوثه، وأن الوقت لا يزال مبكراً على هذا الأمر،

حيث يجب أن يحصل بالطريقة الصحيحة وبالتوقيت الصحيح. فلا تزال أمامها حياة بأكملها.

الفصل الثامن والعشرون والأخير

تزوج روبرت وأماديا، والأولاد يتحلقون حولهما. كانوا أول أولاد يتشاطرونهم، وقد أدركا أن العديد منهم سيظلون معهما. ومع بعض الحظ، سينجبان أولادهما، ولكن لن ينس روبرت أبداً ولديه اللذين قُتلا. وأخيراً، أخذت أماديا على نفسها عهودها الأخيرة تلك، التي كُتب عليها أخذها، ولكن ليست العهود التي توقعتها. لقد أرتت بهما الحياة بجميع منعطفاتها، وأهوالها، وآلامها، ونعمها إلى بعضهما البعض عبر مسارات العذاب إلى مكان مسالم في النهاية. فوجدا بعضهما البعض وسط أصدقاء أولئك الذين أحبوهم يوماً والذين كانوا يبادلونهم بدورهم هذا الحب.

اقرأ أيضاً لدانيال ستيل

RANSOM

SAFE HARBOUR

MIRACLE

THE HOUSE

THE WEDDING

THE KISS

SISTERS

www.rewity.com
dodyadodo

ISBN 978-9953-87-466-1



جميع كتبنا متوفرة على
الشبكة الإنترنت

نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com